محمد أحمد خلف الله

الفن القصصي في القرآن الكريم

مع شرح وتعليق

خليل عبد الكريم



الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

الفن القصصي
في القرآن الكريم

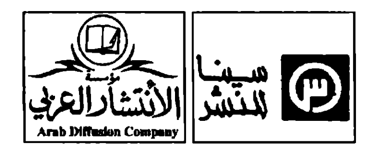
محمد أحمد خلف الله

الفن القصصي في القرآن الكريم

يليه

عرض وتحليل

بقلم خليل عبد الكريم



الفن القصصي في القرآن الكريم

محمد أحمد خلف الله

يليه عرض وتحليل

خليل عبد الكريم

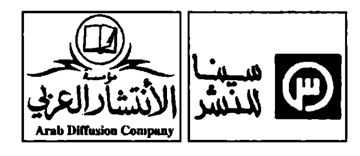
STORIES IN THE HOLLY QURA'N

BY:

Mohamed Ahmad Khalafullah

Comments & Explanations by

Khalil Abdul Karim



LONDON - BEIRUT- CAIRO
Email: arabdiffusion@t-net.com.lb
P.o. Box: 113/5752 - Beirut

ISBN: 1 841170 429

First Published in 1951

Fourth edition 1999

الطبعة الرابعة ١٩٩٩

المحتويات

الباب الثالث

الباب الرابع

الجزء الثاني
الفن القصصي في القرآن الكريم
عرض وتحليل خليل عبد الكريم

الباب الأول

تقديم

كتب الشيخ أمين الخولي يقدّم الطبعة الثالثة من كتاب (الفن القصصي في القرآن الكريم) لمحمد أحمد خلف الله ما يلي:

أستطيع أن اقول ان رسالة الفن القصصي قد أدت تلك الضريبة في سنتي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨ وتقاضتها منها عامية فاسدة الفطرة في ظن من ظن لهم خطأً وخداعاً أنهم أصحاب وعي.

«واليوم صارت الرسالة وفكرتها كسباً غنياً ووجهاً من الإعجاز القرآني عند أصحاب الدين والأدب فإني أقول بالأصالة والنيابة عفا الله عن جميع الآثمين في هذا السبيل والغافلين المخدوعين... رحم الله من مات منهم وأصلح بال من لا يزال على ظهر الأرض وتحية لتلك التجربية المطرودة التي تردّ على العاملين إيمانهم وتحمي ثقتهم وتؤدي للحياة حاجتها من أسباب التطور والتقدم.

وتحية المؤلف رسالة الفن القصصي الذي أُشهد الله أنه كان في صدقه وصدره مثلاً من الشباب اذ ذاك يطمئن به المستقبل».

والضريبة التي أشار اليها شيخ الأمناء هي التي يدفعها رواد الفكر المستنير الذين يطرحون أفكاراً جديدة غير تقليدية تتسم بالإبداع والجدّة والجسارة ومن شأنها أن تحرّك

عجلة الفكر إلى الأمام وما يستتبع ذلك من تنوير في حيايا المجتمع بأن تخاخا المقائد الفاسدة والتقاليد البالية والآراء الجامدة والأنساق الراكدة التي تحوُل دون تقدمه والتي تقيّد حركته وهو يسعى إلى التطور وينزع إلى التغيير إلى الأحسن والأنفع.

إن هذه الأفكار الجديدة تُقابل بعداوة بالغة وكراهية شرسة ومقت بالغ من جهات متعددة ومن فُراء متباينين.

- منهم من يتكسّب من القديم المراد نفيه وتغريبه.

- ومنهم من يحزّ عليه ويجزّ في نفسه أن يترك ما الف ويفارق ما أعتاد ويفاصل ما رُبّي عليه.

- ومنهم من يعتقد خطأً أن إرث الجدود والآباء هو نهاية الشوط وختام المطاف ومنية المتمني ولا شيء بعده.

- ومنهم من يُعْمي الجهل عينه ويعش بحمر ويضب الرؤية أمامة فلا يُدرك ما في التجديد من نفع أكيد وما في الإبداع من فائدة محققة.

هؤلاء جميعاً يتعاضدون على بُغض المُبدع وشنآن المُجدّد ومقت المُبتكر فيرمونه بكل نقيضه ويُلصقون به كل تهمة ويُلحقون به كل عيب ويعدمون إلى إغتياله معنوياً وتصفيته جسدياً إذا وجدوا لذلك سبيلاً.

وعلى مدار تاريخ الفكر في القديم والوسيط والحديث دفع الدعاة إلى التجديد والمنادون بالإستنارة ورافعو شعارات العقلانية أثماناً باهظة وحرياتهم وأرزاقهم...

ولكن لسخرية القدر سرعان ما يتبيّن للمناوئين ويتضح للمعارضين ويظهر للمعاندين قيمة الفكرة الجديدة وثمانة الرأي المُبتدع ونفاسة الطرح المُستحدث فيعتنقونه ويأخذون به...

والحق أن ذلك أمر متوقع وشأن منطقي وحدث مُفترض لأن التغير سُنّة الحياة والتطور ناموس العمران والتحول دستور المجتمع رغم العوائق وبغض النظر عن العقبات ومع انتصاب المُثّبِطات - إنما بعد أن يدفع المبدعون الضريبة التي عناها الشيخ الخولي ويسددوا

الفاتورة ويوفّوا بكشف الحساب. وهم أسعد الناس بذلك ـ رغم ما حاق بهم من ظلم وما لحق بهم من جور وما أصابهم من عنت وما نالهم من عسف ـ إذ يرون أفكارهم التي حُوربوا من أجلها وآراءهم التي هُوجموا بشأنها وطروحاتهم التي عُودوا بسببها ـ قد ذاعت وشاعت وتَدُوّرلت وتُبودلت وأقبل عليها من كان يسخط عليها ورحّب بها من كان يعبس في وجهها، وهشّ لها من كان ينفر منها بل إن هؤلاء تحولوا إلى دعاة ومُروّجين وأنصار لها.

وهذا عين ما حدث لخلف الله مُبدع (الفن القصصي) إذ يخبرنا الشيخ أمين الخولي أنه لم يمض وقت قصير حتى كانت الرسالة تُدَرّس في بعض كليات الآداب في جامعات عربية بل وفي بعض معاهد القاهرة.

* * *

ونحن لسنا بصدد تأريخ للأحداث التي واكبت ظهور رسالة القصص الفني التي يتقدم بها محمد أحمد خلف الله لنيل درجة الدكتوراه، فإن هذا صنيع مؤرخي الفكر. إن كل ما يهمنا طرحه هنا:

أنه بمجرد أن قدّم خلف الله رسالة (الفن القصصي) لكلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) ١٩٤٧/١٩٤٨ حتى قامت الدنيا ولم تقعد وفُتحت على الطالب والمُشرف على رسالته وهو الشيخ أمين الخولي طاقة وسيعة من الجحيم المستعر وارتفعت أصوات منكرة وشُرعت أقلام شرسة وامتشقت أسياف جديدة صارمة تطعنها. ومن المؤسف أن أساتذة جامعيين وعلماء (باللقب) أكاديميين كانوا في مقدمة المهاجمين وعلى رأس المحاربين وأول المخاصمين وبحسب توصيف الشيخ الخولي شكّل ذلك محنة عقلية وسقطة خُلُقية وأزمة فكرية لأن هؤلاء لم يعمدوا إلى النقد العلمي والتفنيد الموضوعي والرد المنطقي شأن العلماء وديدن المفكرين وسبيل الأكاديميين الحقيقيين وما تُحتّمه تقاليد الجامعات وأعراف الكليات ونظم المعاهد العالية أو حتى الخفيضة ولكنهم جنحوا إلى التجريح وما هو أوعر منه وعمدوا إلى اللمز وما هو أقسى منه ويمحوا شطر الغمز وماهو

أشد منه نكراً إذ نادى بعضهم باعتبار الطالب مرتداً يتعين إنزال حد الردّة عليه وكان هذا منهم أو إن شئت الدقة من بعضهم ذروة سنام الشطط وقمة العناد والذؤابة العليا للعسف والعنت والجور وجاوز هذا المسلك كل الحدود وقفز على جميع الإعتبارات وتخطّى كل الموانع.

ولم يقف الأمر عند ذلك بل وثب من على أسوار الجامعة وخرج مُهرولاً إلى الصحف السيارة والمجلات الأسبوعية وكتب فيه - كالعادة التي لازالت مستمرة حتى الآن مع بالغ الأسف - من لم يقرأ من الرسالة حرفاً بل سمع من هنا كلمة ومن هناك جملة... فارتفعت زوبعة أو بالأصح عاصفة لُحمتها الغوغائية وسُداها الجهل وسِمتها الرِعَاعيّة وبنيتها الأوباشيّة وعلاها والإنحطاط وركبتها الشهولة ومازجتها الركاكة وحاينتها الغثاثة وللأسى الشديد نجحت في ما هدفت إليه ووصلت إلى ما ابتغته ووُفقت (إن صحّ أن ذلك كان توفيقاً) في ما سعت إليه إذ اضطر خلف الله إضطراراً وهو كاره إلى سويها والتقدم بأطروحة أخرى نال بها درجة الدكتوراة.

* * *

بيد أن ذلك لم يمنع من ذيوع الرسالة وانتشارها، فقد طُبعت في حياة مؤلفها ثلاث مرات وهذه هي الطبعة الرابعة التي تقدمها دار سينا المصرية ومؤسسة الإنتشار العربي البيروتية اللبنانية إلى القارىء وهما تستهدفان على الأخص الجيل الجديد أو حتى المتوسط الذي لم يسعده الحظ فيشهد تلك الملحمة المجيدة التي خاضها خلف الله بشجاعة نادرة وجرأة عديمة الضريب وصبراً واحتساباً يعزّ نظيرهما ويقرأ الرسالة التي لم تُنتشر منذ عدة عقود من الأعوام.

ولكني على ثقة أن تلك المعركة تركت في نفس خلف الله مرارة بالغة ربما هي العلة في إحجامه عن طبع رسالته هذه الفريدة طوال تلك المدة ولولا ذلك لتعددت طبعاتها.

* * *

ومن المضحك المبكي أنني وأنا أطالع أحداث هذه المحنة الفاذة قرأت أن جبهة العلماء أدلت بدلوها في الهجمة التتارية فوصفت الرسالة بأنها أشد شناعة من وباء الكوليرا الذي كان يحصد نفوس المصريين حصداً في تلك الأيام.

وجبهة العلماء هذه ما زالت تقوم بدورها المجهد فهي تقف حالياً بالمرصاد لكل المفكرين المستنيرين وما من واحد منهم إلا وَصَمته بالكفر ووسمته بالإرتداد عن الدين وحكمت عليه بالخروج عن الملة فأدركت على الفور أن أعضاءها الحاليين هم خير خلف لسلفهم الصالح وأنني أتوقع أنهم سوف يقفون ذات الموقف من هذه الطبعة الجديدة.

* * *

ونحن لا نملك إلا أن نحيي الشيخ أمين الخولي رحمه الله على ضربه مثلاً رفيعاً في الإستنارة ورحابة الأفق ونفاذ البصيرة وفي شجاعته الأدبية لإشرافه على الرسالة ثم الدفاع عنها وعن صاحبها ولوقوفه صامداً غير عابىء بما ناله من هجوم تعرّى عن كافة القيّم والمبادىء الخُلُقية ولم يكْتف بذلك بل كتب مقدمتين للطبعتين الثانية والثالثة وواصل فيهما المحاماة عن الرسالة والمنافحة عن مصنفها منددأ بالذين حملوا عليهما حملة شعواء على غير أساس من علم أو دين مؤكداً أنها (تلك الحملة) رفعت الستار عن حقيقة ما يجري في الجامعة المصرية بشأن حرية البحث المزعومة... ومما يدور خارجها من دغدغة للعواطف الفجة للعامة تحت ستار الدفاع عن القرآن، ونعت ذلك بأنه هبوط علمي وتدنٍ خُلُقي وإنحطاط اجتماعي، وفي كل مرة كان يحيي صاحب الرسالة ويُشِيد بعلمه وخُلقُه وصبره وشجاعته الأدبية وجرأته الفكرية. ونحن من جانبنا نكتفي بكلمات الشيخ الجليل في حق تلميذه مبدع هذه الرسالة المتميزة الفريدة.

الدقي، في الثامن من جمادى الأول ١٤١٩ هـ
التاسع والعشرون من شهر سبتمبر/أيلول ١٩٩٨م
خليل عبد الكريم

الجزء الأول

الفن القصصي في القرآن الكريم

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتّبعني﴾

الفن القصصي في القرآن الكريم

تأليف
محمد أحمد خلف الله

تصدير

(١)

كنت أريد أن أقف في هذا الموطن لأبيِّن في وضوح وجلاء العلل والأسباب التي دفعت بالجامعيين من أصحاب الهوى والغرض إلى هذه المواقف:

(أ) التقوُّل على رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» والإدعاء عليها بما ليس فيها وبما لا يمكن أن يخطر ببال صاحبها، وتحريف نصوصها تحريفاً يمكن من إستثارة الجماهير ضد الرسالة وضد صاحبها في سهولة ويُسر.

(ب) قبول الأستاذ أحمد بك أمين أن يكون عضواً في رسالة يشرف عليها الأستاذ الخولي مع تحاشيه مثل ذلك من قبل لما بين الأستاذين من خصومات، وبخاصة إذا كان هذا القبول قد تم بعد أن نشأت المسألة الدينية وبعد أن اعتذر الأستاذ عبد الوهاب حمودة. واعتذار الأستاذ حمودة لم يكن إلا ليحل محله الأستاذ أحمد أمين، ولم يكن إلا بعد أسابيع ثلاثة من تكوين لجنة الفحص ومن قبول الأستاذ حمودة عضوية اللجنة.

حرص الأستاذ أحمد بك أمين على أن يجنِّب صديقه السنهوري باشا كل ما

يعكّر عليه صفو الحكم وملذاته، ولذا نراه ينصح عميد الآداب ومدير الجامعة بالنيابة الدكتور عبد الوهاب بك عزام بأن يأخذ في هذه الرسالة رأي المسؤولين قبل أن يأخذ رأي العلماء وبعبارة أخرى ينصحه بأن يأخذ رأي السنهوري باشا ومن هنا نستطيع أن نقول بأن الأستاذ أحمد أمين قد كتب تقريره على الأساس السياسي لا على الأساس العلمي ولا على الأساس الديني.

بل لعل الأستاذ أحمد أمين بك لم يقبل عضوية اللجنة إلا ليؤدي هذه المهمة. ومن هنا نراه يصمت بعد ذلك فلا يرد على تقرير الأستاذ الخولي وإنما يترك مهمة الرد للأستاذ الشاب ولا يدفع عن نفسه ذلك الإتهام الفاضح الذي نشرته جريدة «أخبار اليوم» ولا يجيب عن ذلك التحدي العلني الذي نشرته جريدة «الإخوان المسلمون».

(ج) إصدار الأستاذ الشايب أحكاماً ثلاثة في شأن هذه الرسالة:

فهي عنده حسنة إلى الحد الذي يجعله حريصاً على أن يشرك الأزهر في مناقشتها ليتبيَّن الأزهر بنفسه الجهود الحسنة التي يبذلها في سبيل الدراسات الإسلامية أبناءُ الجامعة.

وهي عنده لا بأس بها وإنه إنما ينصح بتعديل بعض فصولها قبل تقديمها إلى المناقشة.

وهي عنده سيئة جداً، سيئة إلى الحد الذي يجعله يقرر بأن أقل ما تستحقه هو الرفض التام.

ثم إرساله بعد كل هذا خطاباً إلى المشرف يسحب فيه بعض صفحات التقرير الثاني لأنه قد كتب ما كتب قبل أن يرجع إلى كتب التفسير.
وأخيراً إلتقاؤه مع الأستاذ أحمد أمين في الحرص على سلامة الحكومة وهو نفسه الذي يدلّنا على أنه قد تحدَّث مع العميد في شأن الضجيج السياسي الذي تعانيه الحكومة وأنه يريد برفضه هذه الرسالة أن يجنِّب

الحكومة أي ضجيج ديني[1].

لقد بدأ الأستاذ الشايب مساوماً رسالة برسالة. رسالة خلف الله برسالة المحاسني. ثم ثنّى مدافعاً عن الدين والقرآن الكريم، ثم ثلّث مدافعاً عن الحكومة لأنه الرجل الذي يريد أن يجنّبها أي ضجيج.

(د) موقف الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد الآداب ومدير الجامعة بالنيابة، وكيف أحدث هذه الأزمة بإستماعه إلى وشايات الدكتور شوقي ضيف[2].

ثم كيف أنه لم يسلك السبيل العلمية الجامعية مع هذه الرسالة فلم يجمع لجنة الفحص لتضع تقريرها عن الرسالة، ولم يعرض المشكلة على مجلس الكلية ليرى رأيه في النزاع القائم، وإنما سلك سبيلاً سياسة ملتوية.

فهو أولاً: يبلغ الطالب أن اللجنة المكوّنة لفحص الرسالة قد قررت أنها غير صالحة للمناقشة مع أن اللجنة لم تجتمع حتى هذه اللحظة ولم تضع من باب أولى مثل هذا التقرير.

وهو ثانياً: ينشر بياناً في الصحف يذيع فيه أن الجامعة قد رأت أن هذه الرسالة لا تستحق أن يمنح عليها صاحبها درجة علمية جامعية. مع أنه يعلم العلم كله بأن الأستاذين اللذين قد اعتمد عليهما في تنفيذ خطة السياسيين قد فشلا الفشل كله حين ادعيا على الرسالة وحين حرّفا نصوصها ولقد ثبت هذا التحريف في محضر قام بعمله رجال ثلاثة هم الدكتور الشرقاوي بك والدكتور زكي حسن بك والأستاذ عبد الوهاب خلاف بك.

ثم هو ثالثاً: لم يقبل تكوين لجنة جديدة لفحص هذه الرسالة يكون مفتي الديار المصرية عضواً فيها. ويكون أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق عضواً ثانياً ويكون المشرف عضوها الثالث على ما هو القانون ونص اللائحة.

---

(١) ص ١٣ من التقرير الثاني.

(٢) نقد صاحب الرسالة في التمهيد بحوث الأستاذ شوقي فأحفظه ذلك وبدأ هجومه على صاحب الرسالة واتخذ من المسألة الدينية ميدان هذا الهجوم.

(هـ) موقف الجامعة وكيف أنها ناقضت نفسها بنفسها في كثير من تصرُّفاتها حتى إذا دافعت عن الطالب في الرد على السؤال وهاجمت الطالب في الرد على الإستجواب ولم يكن ذلك إلا لرفض الطالب فكرة المساومة.

(و) تصرُّفات معالي وزير المعارف وأحاديثه مع الطالب ومحاولاته إخفاء نفسه في كل تصرُّف حتى لكأن الجامعة هي التي تتصرف وحرصه الشديد على إنقاذ الأستاذ أحمد بك أمين بعد أن ورَّط نفسه في سبيله.

كنت أريد أن أقف عند كل هذه المسائل لأفسِّرها وأشرح العلل والأسباب التي أدت إليها وكيف أن الهيئات الدينية قد استُغلَّت حتى لا ينكشف أمر السياسيين ومَن اعتمدوا عليهم من الجامعيين. ولكني آثرت أن أترك ذلك إلى ساحة أخرى تستطيع أن تأخذ المذنب بجريرته وتحمِّله أضرار أخطائه المتعمدة وتلك هي ساحة القضاء.

(٢)

وكنت أريد أن أقف أيضاً لأحدِّد المخالفات التي لم تصدر عن هوى وغرض وإنما صدرت عن بطء في الإدراك وسوء الفهم وعن عدم بصر بالنظرية وبما يمكن أن تؤديه للإسلام من خدمات. وأرد على هذه المخالفات واحدة واحدة. ولكني آثرت أن أشرح النظرية بتفصيل فأوضح المبهم وأفسر المشكل وأترك الأمر بعد ذلك للقارىء، فإن شاء آمن بها وقال للمخالفين من الجامعيين **﴿أفمَنْ يَهْدِي إلى الْـحَـقِّ أحَقُّ أنْ يُـتْـبَـع أمَّنْ لا يهدي إلاَّ أن يُهْدَى فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَـحْكُمُونَ﴾**[1].

وإن شاء أعرض عنها وقال معهم **﴿قلُوبُنَا في أكِنَّةٍ مِـمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وقْرٌ وَمِنْ بَـيْـنِـنَـا وَبَـيْـنِـكَ حِـجَـابٌ﴾**[2].

إنها إن تكن الثانية فليس لي معه ومعهم إلا قوله تعالى **﴿قل هَذِهِ سَبِيلي أدْعو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنْ اتَّـبَـعَـنِـي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أنَا مِنَ الْـمُـشْـرِكِينَ﴾**[3].

(١) سورة يونس، الآية ٣٥.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥.

(٣) سورة الرعد، الآية ١٠٨.

(٣)

بقيت كلمة صغيرة أقولها لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم أبطالاً في الدين وفي سبيل القرآن الكريم من الجامعيين وغيرهم. كلمة أقولها لهم جميعاً هي أنهم حتى في هذا الموقف الذي ينشدون فيه البطولة الدينية قد أعرضوا عن الإسلام وتعاليمه وعن هُدى القرآن الكريم، وأقبلوا كل الإقبال على تلك الخطة التي كان الجاهليون في وثنيتهم الأولى يحاربون بها النبي عليه السلام ويعارضون بها القرآن الكريم.

أعرضوا عن الإسلام وتعاليمه لأن القرآن الكريم ينصح النبي عليه السلام وينصح جماعة المسلمين بأن يجروا مع مخالفيهم في الرأي والعقيدة على سنَّة المجادلة والمجادلة بالتي هي أحسن **﴿ولا تُجَادِلوا أهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بالَّتِي هيَ أحْسَنْ﴾**.[١] وليس يخفى أن هذه السنة كانت تحتِّم عليهم أن يقدموا الرسالة للمناقشة.

وأقبلوا كل الإقبال على الخطة الجاهلية لأنهم اعتمدوا في كسبهم للخصومة في الرأي على إستثارة الجماهير. وذلك هو ما صوَّره القرآن الكريم عن خطة الجاهلين **﴿لا تَسْمعُوا لِهَذِا القُرْآنِ والْغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَـغْلِـبـونَ﴾**[٢].

يا أيها المخالفون. إن كنتم حريصين حقاً على الإسلام وعلى القرآن الكريم فقارعوا الحجة بالحجة وأبطلوا الدليل بالدليل. أما إستثارة الرأي العام وتحريك عواطف الجماهير فأمر لا يليق بالعقلية الإسلامية ولا يليق بأبناء القرن العشرين.

إن لكم في تعاليم الإسلام وهدى القرآن الأُسوة الحسنة. وإن لكم في مسلك سعادة عبد الحميد بدوي باشا لقدوة يجب أن تتبع إن كنتم حقاً من المسلمين وكنتم حقاً من العلماء العاملين[٣].

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٦.

(٢) سورة **فصلت**، الآية ٢٦.

(٣) كانت بعض المشاكل قد أشكلت على سعادة بدوي باشا فطلب عنها إيضاحاً يجده القارىء في الصفحات التالية.

سعادة الأستاذ الكبير الدكتور عبد الحميد بدوي باشا.

تحدَّثت إلي السيدة بنت الشاطىء طالبة أن أوضح لسعادتكم موقفي من هذه الآيات التي يصف فيها القرآن بأنه الحق مع ما أذهب إليه من قول بفنية القصة القرآنية. ولقد ذكرت لي السيدة آيتين كريمتين نطقتم بهما في معرض الحديث هما قوله تعالى: **﴿إنّ هذا لَهُوَ القَصَصُ الحق﴾**.[1] وقوله تعالى: **﴿نحن نقُصُّ عليك نبأهم بالحق﴾**.[2]

وأخبر سعادتكم أولاً وقبل كل شيء أن هذه المسألة من المسائل التي التفت إليها المفسرون، والتفتوا إليها لأنها جاءت مع الأمثال في قوله تعالى **﴿إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم...﴾** [3] إلخ. والأمثال لا يلزم أن تكون من الحقائق الثابتة فقد تكون من المتخيلات ومن الأساطير والأوهام. ولقد أجاب هؤلاء عن هذه المسألة وكانت إجابتهم أن المثل يوصف بالحق لأنه شارح للحق ومبين له ولأنه مقرر للحق ومؤكد له.

وأستطيع أن أضع بين يدي سعادتكم هذا النص الذي يشرح به صاحب المنار الدور الذي يلعبه المثل في تقرير الحقيقة والذي يفسر به صاحب المنار معنى الحق مع المثل. جاء في جـ ١ ص ٢٣٦ من تفسير المنار ما يلي «والمثل في اللغة الشبه والشبيه، وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانه، وهو في الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها، ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية. واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الإنفعال كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه، ولكن في الكلام قلباً حيث جعل المثل هو المضروب وإنما هو مضروب». هذا ما قاله الأستاذ الإمام.

وجاء في ص ٢٣٧ من الجزء نفسه: «ثم ذكر تعالى أن الناس فريقان: **﴿فأما الذين آمنوا**

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٢.

(٢) سورة الكهف، الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٦.

فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾. لأنه ليس نقصاً في حد ذاته، وقد جاء في كلامه تعالى: فهو ليس نقصاً وإنما هو حق لأنه مبين للحق ومقرِّر له وسائق إلى الأخذ به لما له من التأثير في النفس وذلك أن المعاني الكلية تعرض للذهن مبهمة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها والمثل هو الذي يفصل إجمالها ويوضح إبهامها فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ومشكاة الهِداية ونبراسها. ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغة والواضع الأول لعلمي المعاني والبيان ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لتحقيق إعجاز القرآن حيث قال في كتابة الأول واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي بإختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً...» إلخ.

هذا الذي يقال في المثل يقال في القصة لا لأن المثل قد يكون قصة أو أن القصة قد تجيء مثلاً فحسب بل لأن هذا الذي يقال في التمثيل من حيث شرح المسائل والتمكين لها في الأنفس يقال مثله وأكثر منه في القصة. ولقد صرَّح القرآن الكريم في كثير من المواطن بأن أخبار الأنبياء والمرسلين أو أقاصيصهم لم ترد في القرآن إلا على أساس أنها من الأمثال. قال تعالى **﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون...﴾**[1] إلخ. وقال تعالى **﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾**[2] إلخ. **﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون...﴾**[3] إلخ.

وعلى هذا الأساس جاء تعريف الرازي للقصة عند تفسيره لقوله تعالى **﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾** [4] كما جاء تعريفه للحق عند تفسيره لقوله تعالى **﴿وكلاً نقص عليك**

(١) سورة يس، الآية ١٣.

(٢) سورة التحريم، الآية ١٠.

(٣) نفس السورة، الآية ١١.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٦٢.

من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [1] إذ نراه يقول عند تفسيره للأولى: «والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة». كما نراه يقول عند تفسيره للثانية «أما الحق فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة. وأما الذكرى...» إلخ.

ومما يؤكد هذا الذي يذهب إليه المفسّرون أن القرآن الكريم قد جرى في أقاصيصه على هذا الأساس أساس أن القصة إنما توصف بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره لا لأنها في ذاتها حقيقة ثابتة. وليس أدل على هذا من قصة أصحاب الكهف تلك القصة التي وردت فيها الآية الكريمة **﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾**[2] إذ الذي نطمئن إليه والذي قال به بعض الأقدمين من المفسرين أن القرآن الكريم لم يذكر في هذه القصة الحقيقة التاريخية. وإنما ذكر ما كان يعرفه اليهود وأهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين. والأستاذ النجار إنما يعتمد على هذا القول ويرفض ما عداه في تعليقه على مادة أصحاب الكهف من الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية على أنا نستطيع أن نشرح المسألة بإيجاز فنقول.

يذكر الدارسون للقرآن والشارحون لأسباب النزول أن قصة أصحاب الكهف إنما نزلت إجابة عن أسئلة توجّه بها المشركون من أهل مكة بإيعاز من اليهود إلى النبي عليه السلام ليعرفوا أمن الأنبياء هو أم من المتنبّين؟ ويذكر الدارسون والشارحون أن المشركين حينما رجعوا من المدينة أو من عند اليهود إنما رجعوا ومعهم المقياس الذي يقيمون به صدق نبوة النبي وصحة رسالته ولم يكن هذا المقياس إلا الإجابة عن الأسئلة.

هنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال. ما الإجابة التي يتوقع المتوقع أن ينزل بها الوحي من السماء ليثبت نبوة النبي وصدق رسالته؟ أهي الحقيقة التاريخية عن أمر أصحاب الكهف. أم هي الإجابة التي ذكرها اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة وجعلوها المقياس الذي يقاس به أمر النبي عليه السلام؟

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٢٠.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ١٣.

أعتقد أنك قد فطنت إلى أن الإجابة الثانية هي المطلوبة لأنها وحدها المقياس الذي وضعه اليهود في يد المشركين ولأنها التي تثبت حقاً أن الوحي ينزل من السماء لأن معرفة ما قاله اليهود للمشركين قد تكون أشق وأعسر من معرفة الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب الكهف لأن المعرفة الأولى معرفة الخبايا والأسرار والمعرفة الثانية معرفة الوقائع البشرية التي يسجّلها التاريخ والتي يتناقلها الرواة والأفراد.

هذا الذي نقول به هو الذي يتَّضح تماماً من فن بناء هذه القصة في القرآن.

لماذا ردَّد القرآن الكريم عدد الفتية من أصحاب الكهف بين الثلاثة الرابعهم كلبهم والخمسة السادسهم كلبهم والسبعة الثامنهم كلبهم؟ لماذا ردَّد ولم يذكر العدد الحقيقي لكل هؤلاء؟

ولماذا لم يذكر القرآن الكريم العدد الحقيقي للسنين؟ لماذا قال **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾**[1] ثم أعقبه بقوله **﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾**[2].

لماذا كل هذا؟

لا نستطيع أن نتصوَّر أن هناك مَن يدَّعي أن المولى سبحانه وتعالى كان يجهل العدد الحقيقي من أمر هؤلاء الفتية فالله يعلم السر وأخفى والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وحاشا للمولى سبحانه وتعالى ألا يتعلق بعلمه أمر ما في الأرض أو في السماء.

إن الترديد في العدد وإن التجهيل في أمر السنين لم يكن إلا لحكمة يريدها المولى وليست الحكمة فيما نرى إلا أن ينزل القرآن بما قالته اليهود للمشركين ومن هنا كانت أيضاً هذه النصائح التي يذكرها في القصة القرآن الكريم.

لقد كانت إجابات اليهود عير موحَّدة ومن هنا كان ما ترى في القصة من تجهيل وترديد. فن بناء القصة في القرآن يشعر بما نذهب إليه من أن صفة الحق في هذا

(١) سورة **الكهف**، الآية ٢٥.

(٢) نفس السورة، الآية ٢٦.

الموطن لم تطلق على النبأ من حيث هو حق في ذاته وإنما أطلقت عليه من حيث هو شارح للحق ومبيِّن له. ولا نريد في هذا المقام أن نتعرض لما يقوله الكثيرون من أن هذه القصة ليست إلا أسطورة من الأساطير الرومانية لأن هذا التعرُّض لا يليق بهذا المقام. وقد يكفي في هذا الموطن أن نحيلك إلى دائرة المعارف لترى ما يذكره الذاكرون هناك.

* * *

والشارحون لمعنى كلمة الحق في القرآن الكريم من أمثال الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات في غريب القرآن يذهبون إلى أن الحق كلمة أو صفة يوصف بها في بعض الأحيان الفعل أو العمل الذي يجيء على مقتضى الحكمة. كما قد تجيء وصفاً للفعل أو القول الذي يكون بحسب ما يجب وفي الوقت الذي يجب.

وعلى الأساس السابق لاستعمال لفظة الحق في القرآن الكريم لو أنك قصصت قصة خيالية على طفل صغير أو إنسان كبير تقصد بها ردعه وزجره أو تربيته وتهذيبه أو حتى إدخال السرور على قلبه وتنشيط همته وأحدث القص ما إليه قصدت فهذه القصة حق. هي حق لا من حيث الأحداث والأشخاص فهما كما ذكرنا من نسيج الخيال وإنما من حيث الأثر النفسي الذي تحدثه القصة أي من حيث الوصول إلى الهدف وتحقيق المقاصد والأغراض.

هذا الذي نقول به على هذا الوجه هو الذي التفت إليه القاضي عبد الجبار عند حديثه في كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن عن قصة المباهلة وإليك أولاً ما قال.

يقول القاضي الفاضل في ص ٦٢ من كتابه ما يلي «مسألة. وربما قيل في قوله تعالى ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾.

كيف ترفع محاجة النصارى في عيسى إذ قالوا أنه الله وأنه ابن الله. ومحاجة اليهود إذ كذبوا بولادته من غير ذِكر بالمباهلة التي ذكرها الله؟

وجوابنا أن الحجة في إبطال قولهم إذا ظهرت،ولم يقع القبول وعلم الله تعالى أن في المباهلة مصلحة لم يمنع ذلك. ومعلوم أن عند المباهلة والملاعنة يخاف المبطل فربما يكون ذلك

من سبب تركه الباطل إما ظاهراً وإما باطناً ولذلك قال تعالى بعده ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾[1] لأن ما ينذر ويخوّف يوصَف بذلك». انتهى.

وواضح من قول القاضي عبد الجبار أن المباهلة لم تكن إلا للتخويف وأن الخوف من العوامل التي تدعو الإنسان إلى ترك الباطل وأن ما يبعث الخوف يوصف بالحق.

القصة التي تبعث الخوف وتدفع إلى ترك الباطل توصف بأنها حق. توصف بهذه الصفة لا من حيث وقوعها أو عدم الوقوع وإنما من حيث بعثها للخوف واستثارتها له لأن ما ينذر ويخوّف يوصف بذلك.

المسألة على هذا القول في غاية الوضوح ولا تحتاج إلى دليل أو برهان على أننا نستطيع أن نفسّر المسألة من وجهة نظر أخرى هي التالية:

يذهب بعض المفسرين إلى التفرقة بين الحكاية أي بين جسم القصة أو هيكلها وبين ما فيها من توجيهات دينية أو إجتماعية. ويذهب هؤلاء إلى أن الجسم أو الهيكل غير مقصود وأن المقصود من عملية القص القرآنية ليس إلا هذه التوجيهات. ليس إلا ما في القصة من المعاني الدينية والخلقية والقيم الإجتماعية والنفسية: ويذهب هؤلاء أيضاً إلى أن المشركين قد ضلّوا السبيل حين اعتقدوا أن المقصود من عملية القص القرآنية هو الحكاية وأنه من هنا ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عد القصص القرآني من الأساطير وها هي بعض العبارات من كتب هؤلاء المفسّرين.

جاء في الرازي جـ ٤ ص ٥٩١ عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾[2] ما يلي «الأول أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٢.

(٢) سورة يونس، الآية ٣٩.

وجاء في النيسابوري جـ ١١ ص ٨٥ هامش الطبري عند تفسيره للآية السابقة ما يلي: «وذلك إنما حملهم على التكذيب أولاً وآخراً وجوه منها أنهم وجدوا في القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فقالوا أساطير الأولين وخفيَ عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل وبالعكس ليعرف المكلّف أن الدنيا ليست مما يبقى فنهاية كل حركة سكون وغاية كل سكون ألا يكون، كقوله عز من قائل **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾**[١]».

ويمضي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى أبعد من هذين حين يقول عند تفسيره لقصة هاروت وماروت من سورة البقرة ما يلي فيما نقل عنه صاحب المنار جـ ١ ص ٣٩٩ «قال الأستاذ الإمام ما مثاله: بيّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والإعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الإعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والإعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهِداية ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظْم ما يدل على إستحسان الحسن وإستهجان القبيح.

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعمَلة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله **﴿كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس﴾**[٢] وكقوله **﴿بلغ مطلع الشمس﴾**[٣] وهذا الأسلوب مألوف فإننا نرى كثيراً من كتّاب العربية وكتّاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية...

إذ الواضح أن الأستاذ الإمام يجيز أن يكون في التعبير القرآني قصصاً وغير قصص

(١) سورة **يوسف**، الآية ١١١.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٥.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ٩٠.

أثر للأساطير إجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية لأنه يحكي من عقائدهم الحق والباطل كما يجيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء فجعل الخرافات الوثنية أداة للتعبيرات البلاغية».

يجيز الأستاذ الإمام هذا كله إلى جانب نصّه الصريح والواضح على أن التاريخ غير مقصود.

والآن إذا كانت المعاني التاريخية غير مقصودة فهل يجيء مَن يقول بأن صفة الحق إنما تنصب على هذه المعاني؟ أعتقد أن لا.

المقصود بالصفة هو الهدف الذي يقصد إليه القرآن من القص فالحق هنا ليس المعاني التاريخية وإنما هي المعاني الدينية والخلقية، إلخ. تلك التي قصد إليها القرآن من عملية القص.

* * *

هذه تفسيرات مختلفة لهذه الصفة لك أن تقبل منها ما تشاء. وأن ترفض ما تشاء ولك أن تفهم إلى جانبها أن القصة الفنية قد تختار أحداثها وأشخاصها من التاريخ ومن واقع الحياة وليس يلزم حتماً حين نقول بأن القصة في القرآن عمل فني أن نقول إن فنية القصة في القرآن إنما تجيء من أن عناصرها من نتاج الخيال.

لا يلزم هذا ويجب ألا يُفهم قولي على إطلاقه وإنما هي الحلول التي نضعها لنفسح مجال القول أمام الدارسين ونمكّن العقل الإسلامي من أن يفهم القصص القرآني على أسس أدبية، أسس لم نجيء بها من عندنا وإنما وقفنا عليها من ملاحظة الظواهر الفنية والأدبية التي تجري عليها عملية القص في القرآن.

وفي الختام أرجو أن أكون قد قدّمت ما فيه الخير.

والسلام عليكم ورحمة الله.

القاهرة

محمد أحمد خلف الله

تمهيد

أريد أن أوضح في هذا التمهيد شيئين: الأول منهما الأسباب التي دفعتني إلى إختيار هذا الموضوع موضوع الفن القصصي في القرآن الكريم والثاني المنهج الذي سرت عليه في دراسته.

أما الأسباب التي جعلتني أعنى بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميدان أبحاثي فيها فترجع قبل كل شيء إلى نوع من الإستهواء عمل على إذاعته في نفسي درس أستاذنا الخولي عن المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره فقد كانت تلك اللفتات تستقر في نفسي إستقراراً يجعلني أتخيَّل أني أستطيع تمثُّل هذا المنهج والسير عليه في تفسير كتاب الله.

ساعد على هذا التخيُّل ونماه في نفسي تلك التربية الدينية التي لاحقتني صغيراً والتي جعلتني أؤمن إيماناً قوياً بأن العقلية الإسلامية الحقة إنما تظهر سافرة مشرقة في الجانب الديني والتشريعي من جوانب الثقافة الإسلامية. ومن هنا كنت أعتقد أني من أحق طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب وأجدرهم على السير في هذه السبيل والضرب فيها بخطى ثابتة.

وكان منهج الأصوليين في البحث في المقدمات اللغوية وفهم النصوص القرآنية حين يستخرجون الأحكام ويضبطون أمور التشريع من العوامل التي تغريني أيضاً فعقدت

العزم على أن أصنع صنيعهم في القرآن في غير باب التشريع. عقدت العزم على أن أجمع الآيات المتعلقة بجزئية من الجزئيات أو مسألة من المسائل فأرتِّبها الترتيب التاريخي وأفهمها الفهم الذي يساعدني على استخلاص الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه من أفكار وآراء.

دفعتني كل هذه الأشياء إلى القرآن فطاوعتها وأخذت موضوعي الأول «جدل القرآن الكريم» موضوعاً لدراسة الماجستير.

اخترته وما كنت قد تبيَّنت تماماً ذلك المنهج الأدبي، فلم تكن أصوله قد استقرت في نفسي إستقرار الحقائق الواضحة وما كنت أطمع في أكثر من دراسة القرآن على منهج الأصوليين في الدرس فإن انحرفت فاستجابة لشيء مبهم لم يتضح بعد الوضوح الكافي.

لكني ما لبثت أن تبيَّنت حقيقة ذُهلت لها أول الأمر فقد تبيَّنت أن القرآن نفسه اعتمد على ما يعتمد عليه أصحاب الدعوات من عوامل وأنه صور العوامل النفسية للدعوات ولفت الذهن إلى الفاعلية القوية التي تكمُن في الألفاظ وعرف للدعاية والرقابة سلطانهما ففرضهما على النبي عليه السلام وعلى المؤمنين بالقدر الذي كانت تسمح به الظروف في هاتيك الأيام.

ومضيت في الدرس فاستقر في نفسي شيء آخر هو أن تلك الآراء التي يثبتها المفسِّرون على أنها متعارضة وتلك المذاهب العديدة التي توزَّعتها الفرق الدينية المختلفة لعلها قامت على غير أساس. قامت لأن قصد القرآن من استعمال الألفاظ لم يُفهم تماماً. وقامت لأنه استقر في ذهن المؤمنين بها أن المطلوب من وراء الألفاظ ليس شيئاً غير المعاني. وقامت لأن هذه الفرَق قد حددت المعنى حيثما استقر في ذهن أصحابها من وراثة أو تلقين. وعلى الجملة قامت لأن هذه الجماعات كانت تفرض آراءها ومعتقداتها على القرآن ولم تفهم القرآن الكريم فهماً سديداً قائماً على أسس سليمة من الدرس والفهم والتي من أولها ألا نفرض ثقافتنا وعلمنا وفلسفتنا على النصوص التي أمامنا وإنما نحاول جاهدين الوقوف على ما في هذه النصوص من قيَم ومن آراء ومعتقدات ومن أفكار علمية وإجتماعية يدل عليها النص نفسه ويوحي بها ويشير إليها حتى ولو لم تتفق هذه الأفكار وما به ندين.

وإذا أردنا أن نضع بين يديك ألواناً من هذه المثل فلن نجد خيراً من هذين المثلين:

(١) في تفسير المفسرين لقوله تعالى ﴿يس ● والقرآن الحكيم ● إنك لمن المرسلين ● على صراط مستقيم ● تنزيل العزيز الرحيم ● لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ● لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ● إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقمحون ● وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ● وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[١] نجد كثيراً من الآراء المتعلقة بالمشكلة الفلسفية مشكلة القضاء والقدر وخلق الأفعال هي التي تملي على المفسرين أقوالهم في الآية حتى لنرى الطبري وهو أبعد المفسّرين عن حشو كتابه بآراء الفرق الدينية يقول «يقول تعالى ذِكره وسواء يا محمد على هؤلاء فإنهم عليهم القول أن الأمرين كان منك إليهم الإنذار أو ترك الإنذار فإنهم لا يؤمنون لأن الله قد حكم عليهم بذلك» وهو قول يدعو إلى العجب من غير شك إذ الناظر في هذه الآيات وفي أمثالها يرى أنها وصف أدبي دال يعبّر أقوى تعبير عن حال أولئك الذين أثقلتهم التقاليد وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم. وأولئك الذين تمكّنت منهم العقائد الباطلة حتى لينظرون إلى الوجود من خلالها. ولم يرد القرآن الكريم فيما نرى تلك الأشياء التي وقف عندها المفسّرون وبخاصة الرازي من أدلة الفِرق الدينية وجدلها العقيم فأطالوا الوقوف وذكروا منها ما يباعد بين المرء وبين الفهم السديد للقرآن الكريم. بل ذكروا ما يفسد ذوقه الأدبي وحسّه بوقع الألفاظ على النفس الإنسانية وما يلفت الذهن إلى قضايا عقلية كان من الخير له وللقرآن الإعراض عنها.

إن ختام هذه الآيات يشرح لنا ما يريده القرآن أجمل شرح ويوضح لنا ظاهرة إجتماعية تحدث مع كل دعوة وتوجد في كل زمان ومكان إذ نفوس الناس مختلفة وإستعداداتهم متفاوتة وقدرتهم على التخلُّص من القديم والإستجابة للجديد تتوقف إلى حد كبير على ما يحيط بهم من ظروف وما يلم بهم من أحداث وما يعده الزمن للمستقبل من رجال أحرار يحاولون النهوض بأمتهم والأخذ بيدها في طريق التقدُّم والرقي ومن هنا نرى القرآن الكريم يقابل في الآيات السابقة بين صنفين من الناس: صنف عدم القادة فأثقلتهم التقاليد وتمكّنت من نفوسهم العقائد وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله

(١) سورة يس، الآيات ١-١٠.

تعالى ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾[1]. وصنف استعدَّت نفوسهم وتهيَّأت لأمثال هذه الدعوات وهم الذين قال فيهم ﴿إنما تنذر مَن اتَّبع الذِكر وخشي الرحمن بالغيب﴾[2].

ونستطيع أن نمضي مع هذه الآيات وكثير غيرها فنرى أن القرآن الكريم يقصد إلى هذه الظاهرة فيصوِّرها ويصوِّر إستعدادات النفوس فإن اختلف التصوير فلأمر يُقصد كأن يكون القصد التسرية عن النبي عليه السلام وإزالة الهم والغم عن نفسه. أو يكون تنفير هؤلاء وأمثالهم من ذلك الموقف الذي يحيط به الجمود من كل النواحي. كما قد يكون غير هذين من أمور يستطيع الباحث الوقوف عليها. ولكن لن يكون منها فيما نعتقد ذلك الذي ذهب إليه المفسِّرون من أن المولى سبحانه وتعالى قد حكم عليهم بعدم الإيمان في المستقبل ولسنا بحاجة إلى القول بأن كثيرين من هؤلاء الذين وصفهم القرآن الكريم بهذه الصفات قد آمنوا عام الوفود وعام فتح مكة فهذه أمور قد تكفَّل بها التاريخ.

(٢) وفي تفسير المفسِّرين أو في محاولتهم للتوفيق بين ألفاظ الجان والثعبان والحية من قصص موسى نراهم يهتمون بالمعاني ويعرضون عما تثيره الألفاظ من إنفعالات وأحاسيس ومن هنا لا يوفَّقون إلى الفهم الصحيح فيما نعتقد. يقول صاحب الكشاف في تفسيره لقصة موسى من سورة طه «فإن قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان والثعبان قلت. أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفي ذلك وجهان أحدهما أنها كانت وقت إنقلابها حية حلا لها تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورَّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها. والثاني أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان. وقيل كان لها عرف كعرف الفرس وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعاً».

وصاحب الكشاف ومَن تابعه يعتقدون أنهم بهذا القول قد خرجوا من تناقض وأن

---

(١) سورة يس، الآية ٦.

(٢) نفس السورة، الآية ١١.

القرآن قد سلم من إعتراض وإنه لتناقض دفع إليه الوهم وساعد عليه ما في قصة الخروج من الجنة من اختلاف بين التوراة والقرآن، فقد ساعد على خروج آدم من الجنة إبليس في القرآن والحية في التوراة ووفق الموفّقون بين القولين وانتهوا إلى أن الجان نوع من الحيات.

إن القوم لو تدبّروا قليلاً لما احتاجوا إلى مثل هذه الوقفة فالقرآن في استعماله لهذه الألفاظ إنما يقصد إلى ما تثيره الألفاظ من إنفعالات وما توحي به من عواطف وهو في هذه الآيات إنما يستعمل لفظ الجان حين يقصد إلى الحديث عن موسى عليه السلام لتصوير عاطفة الخوف وغريزة الهرب وذلك عند رؤيته العصا تتحرك ولذا نراه يقول بعد لفظ الجان ﴿ولى مدبرا﴾[1] والجان فيما نرى مثير للخوف ينفر منه الناس ويولون ما أسعفتهم أرجلهم. ويستعمل القرآن لفظ الثعبان أو الحية حين يقصد إلى تصوير ما حصل بين موسى والسحرة أو موسى وفرعون وبعبارة أخرى حين لا يقصد إلى تصوير خوف موسى حين رأى العصا تهتز.

ثم مضيت وكلما ازددت مضاء استقر المنهج الأدبي في نفسي فازددت تعلُّقاً بالقرآن ودرسه وتنبّه ذهني إلى كثير من موضوعاته التي يمكن أن يكون منها موضوع رسالة الدكتوراه.

كان القصص القرآني من الموضوعات التي اتجه إليها ذهني منذ اللحظة الأولى وكان السبب في ذلك أن القصص كان من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن في الجدل والحوار وفي البشارة والإنذار وفي شرح مبادىء الدعوة الإسلامية والتمكين لها وفي تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب مَن اتَّبعه من المهاجرين والأنصار.

اتجه ذهني إلى القصص القرآني ولم أكن قد قدَّرت بعد سلطان القصة في الجزيرة العربية في ذلك الوقت ولم أكن قد عرفت بعد أنها الوسيلة التي كانت تلجأ إليها المعارضة حين تحاول الكيد للنبي عليه السلام والتحدي للقرآن الكريم. ولم أكن قد وقفت بعد على ما يروونه عن النضر بن الحارث وكيف كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس محمد

(١) سورة **النمل**، الآية ١٠ وسورة **القصص**، الآية ٣١؛

عليه السلام وكيف كانت قريش تستملح حديثه حتى لتنصرف عن النبي إليه حين يقص على الجماعات أخبار فارس وقصص رستم واسفنديار.

لم أكن قد وقفت على شيء من هذا ولذا لم أكد أقف عليه وأتأمّله حتى قرّ في نفسي أن يكون «الفن القصصي في القرآن الكريم» موضوع رسالتي المقبلة رسالة الدكتوراه.

على أني لم ألبث أن تبيّنت أسباباً أخرى أكّدت في نفسي ما سبق فقد لاحظت أن أئمة الدين والتفسير يعدون القصص القرآني من المتشابه وأن الملاحدة ومَن نحا نحوهم من مبشّرين ومستشرقين قد وجدوا منه الثغرة التي ينفذون منها للطعن على النبي وفي القرآن الكريم.

هنا حلا لي الوقوف فأطلت وإليك ما عنّ لي من ملاحظات.

لاحظت أن السبب في موقف أولئك وهؤلاء من القرآن يرجع في جملته وفي تفصيله إلى ذلك المنهج المنحرف الذي جرى القوم عليه والذي دفعهم إلى دراسة القصص القرآني كما تدرس الوثائق التاريخية لا كما تدرس النصوص الدينية والنصوص الأدبية البليغة أو المعجزة ومن هنا وقفت لأدرس القصص القرآني على منهج الأصوليين واللغويين والأدباء عسى العُقد أن تُحل وعسى المشكلات أن تزول وعسى هذا الباب الذي يلج منه الملاحدة والمبشّرون أن يوصد إلى غير رجعة إن شاء الله.

ولاحظت أن الوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من إجتماعية وخلقية ومن هنا تبيّنت لماذا عدّ القدماء من المفسّرين القصص القرآني من المتشابه.

ولاحظت أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلا في النادر الذي لا حكم له وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقوّمات التاريخ من زمان ومكان ومن هنا تبيّنت أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقوّمات التاريخ وهي غير مقصودة وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني. ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك المقاصد الحقة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير ولأبرزوا الجوانب الدينية والإجتماعية من القصص القرآني إبرازاً ملموساً يثير المشاعر والعواطف ويؤثر في العقول

والقلوب وعند ذلك كانوا يمكّنون للدين وقضاياه ويسيرون وهدى القرآن الكريم.

ولاحظت أن القوم أعرضوا عن الوقوف عند الأحداث والأشخاص من حيث تصويرها تصويراً معجزاً رائعاً ووقفوا عندها من حيث هي أداة من أدوات التاريخ ومن هنا أخذوا يسألون أنفسهم أسئلة عقدت القصص القرآني أمامهم فكانوا يسألون مثلاً عن الحادثة أوقعت أم لم تقع؟ وإذا كانت قد وقعت فمَن الذي أوقعها؟ وأين ومتى؟ إلى غير ذلك من أسئلة حالت العناية بها بينهم وبين الوقوف على القصد الذي يرمي إليه القرآن من تصويره للأحداث من حيث هي أدوات ترغيب وترهيب وموعظة وعبرة وهِداية وإرشاد ولو أن القوم درسوا الصيغ المعبّرة عن الأحداث على هذا الأساس لأراحوا واستراحوا وفطنوا إلى أمور كثيرة من أسرار الأعجاز ولعرفوا الفاعلية القوية لسحر الألفاظ.

ولاحظت أخيراً أن المستشرقين قد عجزوا عجزاً يكاد يكون تاماً عن فهم أسلوب القرآن الكريم وطريقته في بناء القصة وتركيبها وعن الوحدة التي يقوم عليها فن البناء والتركيب ومن هنا ذهبوا إلى ذلك الرأي الخاطىء القائل بتطوُّر الشخصية في القرآن الكريم. كما رأيتهم قد عجزوا عن فهم طبيعة المواد القصصية في القرآن وعن أسرار إختيارها ومن هنا ذهبوا إلى ذلك الرأي الذي سبقهم إليه المشركون من أهل مكة والملاحدة من المسلمين من القول بأن الذي يعلم محمداً بشر وأن بالقرآن أخطاء من أخطاء التاريخ. ولو أنهم فهموا أسرار القرآن لما كان منهم ذلك القول الذي يدل على جرأة على الحق وبعد عن روح العلم وهي مما لا يحب العلماء أن تكون من صفاتهم.

لاحظت كل هذه الأشياء فأكدت في نفسي كما قلت عوامل إختيار الفن القصصي في القرآن الكريم ومنَّيت النفس بحل المشكلات وإزالة الشبه وإني لأعتقد أنك سترى من ذلك ما يعجبك وما يرضيك.

وهنا جدٌّ في الأمر جديد هو من الخطورة بمكان وهو أن القصص القرآني يحقق غرضاً منهجياً في الدراسة الأدبية الجامعية. غرضاً منهجياً حادت عنه كليتنا أو قسمنا على أقل تقدير مع أنه المنهج السليم فيما أرى وإليك البيان.

كنت قد أحسست بحاجتي الملحة إلى الإطلاع على ما يفعله علماء الغرب حين يدرسون الأدب وتاريخه فاستجبت لهذا الإحساس وقرأت بعض الكتب التي تعالج هذه

المسائل وكان مما قرأت تلك المجموعة من الأبحاث التي قام بها الأدباء وعلماء الأدب من الإنجليز وأخرجتها جامعة أكسفورد على أساس من الدراسة فريد فلقد قامت دراسة هؤلاء على أن الأدب تجربة وتقليد وأن الدراسة التاريخية له على هذا الأساس يجب أن تبدأ معه وهو وليد.

وقامت هذه الدراسة أيضاً على أساس أن كل لون من ألوان الأدب يكتب في تاريخه إثنان مؤرخ للأدب وأديب فيكتب في الشعر مؤرخ للشعر وشاعر ويكتب في القصة مؤرخ للقصة وقاصّ وفي النثر الفني مؤرخ للنثر وكاتب وهكذا.

ثم كان مما قرأت أيضاً ذلك البحث القيّم الذي كتبه عن المنهج الأدبي لانسون وعربه مندور قرأت هذه الكتب فانتهت بي القراءة إلى الإحساس بالمفارقة العجيبة التي توجد بين ما تصوَّرته للدراسة الأدبية من منهج وما عليه نسير.

تصوَّرت أن القوم يفرِّقون بين دراستهم للنصوص دراسة أدبية وبين قراءة هذه النصوص للإستمتاع واللذة وترضية العواطف والشعور.

وتصوَّرت أنهم حين يدرسونها دراسة أدبية يعنون العناية التامة بالتفرقة بين ما فيها من قيَم عقلية وما فيها من قيَم عاطفية وأخرى فنية أو بلاغية.

وتصوَّرت أنهم لا يصدرون حكماً من الأحكام الأدبية على شاعر أو مدرسة أدبية أو مذهب فني أو حتى على عصر من العصور وبيئة من البيئات إلا بعد إستكمال الوسائل التي تمكِّنهم من الحكم على هذا أو ذاك.

وتصوَّرت أن أولى هذه الوسائل هي الوقوف على المواد التي يجب درسها قبل إصدار الحكم ومن هنا رأيتهم حينما يحاولون إصدار حكم أدبي يتطلَّبون إستكمال هذه المواد.

أولاً: النصوص الأدبية فيجمعونها ويحقِّقونها ويدرسونها دراسة أدبية عميقة توضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية وتفسِّرها تفسيراً واضحاً مقبولاً.

ثانياً: وهم ثانياً لا يفسِّرون خصائص الأديب الشاعر أو الناثر كما لا يفسِّرون خصائص المدرسة أو المذهب والعصر أو البيئة إلا على أسس ثابتة.

فالخصائص التي لا يشرك الأديب فيها غيره هي خصائصه المميّزة والخصائص التي يشركه فيها غيره هي خصائص المدرسة أو المذهب فإن كانت من الخصائص العامة التي تعم البيئة أو تجاوزها فهي خصائص العصر أو البيئة هكذا.

ثالثاً: وهم ثالثاً لا يستطيعون الحكم الأدبي على عصر من العصور أو مدرسة من المدارس ويتبيّنون خصيصته المميّزة إلا بعد الوقوف على الخصائص المميّزة لكل عصر من العصور السابقة.

إنهم يتطلّبون في الدراسة القيّمة للتاريخ الأدبي أن تسير سيراً منطقياً مسلسلاً وأن تبدأ مع الأدب فتخطو معه خطواته الأولى وتشركه في الحياة منذ أن تدب فيه.

إنهم يسلسلون التيارات الأدبية ويحلّلون ما فيها من قيَم ويصوِّرون لنا الحياة العقلية بما فيها من فلسفة وعلم والحياة الفنية بما فيها من مذاهب وصور للتعبير.

وفرق كبير بين ما عليه هؤلاء وما عليه تسير وإنه لفرق يشعرنا بالنقص الذي يجب علينا أن نتداركه وإلا ضاعت قيمة العلم والتعليم وتستطيع أن تفكّر معي في هذا المثال.

هذان بحثان أخرجهما زميل من الزملاء هما الفن ومذاهبه في الشعر وقد كان رسالة لنيل درجة الدكتوراه والفن ومذاهبه في النثر وقد خرج بعد الأول بثلاثة أعوام فهل نستطيع أن نتصوَّر أنهما أخرجا إخراجاً علمياً سليماً؟

إن إخراج هذين يحتاج إلى درس نستطيع أن نعدّه في حكم المستحيل من حيث ما يتطلبه من دقة علمية واستقصاء في البحث ذلك لأن هذا الإخراج يتطلّب قبل كل شيء الوقوف على المواد الأدبية أو على النصوص وتصور معي طول الزمن واتساع الرقعة فهذا الأدب العربي يطول ويطول حتى يطوي خمسة عشر قرناً أو تزيد. وهذه الرقعة تتسع وتتسع حتى لتجاوز القارة الواحدة إلى القارات فإنها تشمل بلاد العرب بما فيها الحجاز واليمن وتشمل بلاد الشام بما فيها سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن وتشمل العراق. ثم هي تنتقل من آسيا إلى إفريقية فتشمل مصر وشمال إفريقية طرابلس وتونس والجزائر ومراكش. ثم تنتقل إلى القارة الأوروبية فتشمل بلاد الأندلس.

ثم تصوّر معي إلى جانب طول الزمن واتساع الرقعة ما تراكم فيها من تراث فهناك

الشعر العربي كله وهناك النثر العربي كله بما فيه من خطَب ومقالات ورسائل وحكايات وكتب مختلفة الألوان وقصص ومقامات.

تصوّر كل هذا ما طُبع وما لا يزال مخطوطاً وقل لي هل استطاع صاحبنا جمع هذا التراث والوقوف عليه في دقة واستقصاء؟ وإذا كان فهل استطاع أن يدرسه حقاً؟ وإذا كان فهل استطاع من هذه الدراسة الوقوف على كل ما فيه من ظواهر عقلية وأخرى عاطفية وثالثة فنية أو بلاغية؟ وإذا كان فهل استطاع أن يفسّر هذه الظواهر تفسيراً سليماً؟ وإذا كان فهل استطاع أن يسلسل الصور التعبيرية من استعمال للألفاظ وبناء للجمل والتراكيب والرسائل والقصص والمقامات... إلخ؟ وإذا كان فهل أقام الفروق في كل هذا على الخصائص المميّزة لكل من الأديب ثم المدرسة والمذهب ثم العصر والبيئة؟. إن قلت نعم فإني أقول كلا وألف مرة كلا اللهم إلا إذا كان صاحبي ممَّن يصنعون الخوارق وممَّن تجري على أيديهم المعجزات.

إن إختيارنا لأمثال هذه الموضوعات يباعد بيننا وبين الدرس العلمي الصحيح ومن هنا يكون كل ما نصنعه أننا نقرأ ما كُتب عن هذه النصوص نفسها وأنّا نسجّل من الأحكام الأدبية قضايا عامة لم تُمحص ولم تدقّق ومن هنا يكون العلم منها براء.

إن الخطة العلمية الجامعية عندنا تسير على غير هدى وبينة ومن هنا نعرض كثيراً عن الجزئيات ونجري سراعاً إلى الأمور العامة وهذا هو البلاء.

إننا في حاجة إلى أن نبدأ مع الأدب وهو وليد ونسايره في النمو حتى تكون الأحكام صادقة ويكون الدرس العلمي منتجاً وتسدد في كليتنا الخطوات.

هذا هو الجديد الذي قوّى في نفسي إختيار الفن القصصي في القرآن الكريم فقد رأيت هذا الموضوع يحقق هذا المنهج من حيث أن القصص القرآني نقطة البدء في دراسة القصة العربية عامة والدينية بصفة خاصة ولا أخالك في حاجة إلى أن أدلّك على أن ما سبق القصص القرآني من قصص عربي لا يصلح أن يكون مادة للدراسة الأدبية للقصة بحال من الأحوال وليس ذلك إلا لأنه لم يصلنا سليماً وكل ما حوفظ عليه فيه هو قيمته الفكرية وأنه من هنا يصلح لدراسة التيارات العقلية ولا يصلح لدراسة التيارات الفنية.

إن القصص القرآني هو القصص الذي وصلنا سليماً وهو الذي نثق ونطمئن إليه ومن هنا نستطيع أن نعتبره الصورة الأولى للقصة العربية.

هذه الأمور مجتمعة هي التي دفعتني إلى إختيار هذا الموضوع وإني لأرجو أن أكون في درسه من الموفَّقين.

محمد أحمد خلف الله

المنهج

وأستطيع الآن أن أوضح المنهج وأن أصوّر الخطوات التي سرت عليها أثناء الدرس لهذا الموضوع. وهي خطوات قد تُعتبر جديدة بالنسبة لموضوعنا هذا فلم يسبق أن درس القصص القرآني على هذا الأساس الأدبي الذي يصوّر ما فيه من ظواهر أدبية هي سر قوته وإعجازه. ثم هي جديدة أيضاً إذا فهمنا أن ليست هناك مناهج عامة تصلح لكل شيء إذ لكل مشكلة حلها الخاص بها ومنهجها الذي تعالج أو تدرس بمقتضاه والسبب في ذلك سهل يسير فنحن نعرف أن لكل مشكلة ظروفها المحيطة بها ولكل مسألة أدبية أو بلاغية عواملها الخاصة التي لعبت دوراً مهماً في تكوينها والتي لا تحل المشكلة حلاً دقيقاً أو سليماً إلا إذا نظرنا في بحثها إلى أثر تلك الظروف أو هذه العوامل.

وهذه الخطوات ذاتها قد تُعتبر قديمة إذا نظرنا إليها على أنها مستقاة من كتب المناهج أو من الواقع العملي لما يفعله النقّاد وكبار رجال الأدب حين يدرسون الآثار الأدبية والفنية. ولقد مكّنتني متابعتي لما يفعله هؤلاء من الوقوف على أساليب مختلفة في تسجيل الظواهر بعد الوقوع عليها وفي تفسيرها تفسيراً أدبياً معقولاً كما علّمتني كيف أتذوّق تذوُّقاً أدبياً عميقاً.

ولعل أهم ما أفادتني به هذه الخبرة هو أن القصد من أي بحث يلعب دوراً كبيراً

في تشكيل منهجه وفي رسم خطته ومن هنا كان من المحتَّم أن نلتفت سوياً إلى الوراء وأن نذكر الأسباب التي دفعتني إلى إختيار هذا الموضوع إذ منها يتبيَّن القصد.

والآن نستطيع أن نعرض عليك الخطوات:

أولاً ـ جمع النصوص : إذا كانت معرفة نص ما تستلزم حتماً وجوده كانت أولى الخطوات من غير شك هي الوقوف على النصوص وجمعها وإني لأعترف بأني لم أجد في موضوعي هذا من حيث هذه الناحية عناء يُذكر. ذلك لأن القصص القرآني موجود في القرآن والقرآن قد جمع في المصاحف أصدق جمع وأدقه بالنسبة لما عاصره من نصوص حتى بالنسبة لأحاديث الرسول عليه السلام. ومن هنا لم يكن عملي في هذه المرحلة إلا الرجوع إلى المصحف وقراءة القرآن الكريم للوقوف على ما فيه من أقاصيص.

وإني لأعترف هنا أيضاً بأني قد اكتفيت في استخراج الأقاصيص القرآنية بحد للقصة غير جامع ولا مانع إذا كان لا بد من الحدود الأدبية للقصة القرآنية وهذه هي موطن البحث والدرس وإلا لزم الدور.

اكتفيت إذا بحد اللغويين والمفسّرين للقصة حين هممت بالجمع والتسجيل وأرجأت الحد الأدبي إلى ما بعد الدرس والبحث. وستقف على هذا التعريف الأدبي في الفصل الأول من الباب الثاني إن شاء الله.

ثانياً ـ الترتيب التاريخي للنصوص : وهذا الترتيب يدل الباحثين على التطوُّر في الفنون والآداب ويستوي في ذلك عندهم التطوُّر الداخلي والتطوُّر الخارجي. ونقصد بالأول أن يدلنا هذا الترتيب على تطوُّر ذوق الكاتب وأفكاره أو ميادينه الفنية ونشاطه النفسي. ونقصد بالثاني دلالة النص على التطوُّر العام لتاريخ الآداب والفنون من حيث صلته بالسابق واللاحق والدور الذي لعبه النص في الحياة الأدبية ومجراها العام.

وإني لأعترف هنا أيضاً بأن هذه الخطوة وإن تكن أشق من الأولى وأعسر إلا أني لم أبذل جهداً يُذكر ذلك لأني اعتمدت في هذا الترتيب التاريخي للقصص القرآني على المصحف الملكي وإن كنت أعلم أنه ليس بالترتيب التاريخي الدقيق لكن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

ولكني أعترف إلى جانب هذا بأن ذلك الترتيب كان عظيم الفائدة في دراسة القصص القرآني وصلته بالبيئة ونفسية النبي وتطوُّر الدعوة الإسلامية فلقد كان مرآة صادقة لكل ما يصادف الدعوة من عقبات كما كان الصورة الصادقة لما يعانيه النبي عليه السلام من أزمات نفسية وعاطفية.

وعلى كل فقد أفادني هذا الترتيب التاريخي فيما يخص القصص القرآني بدراسة التطوُّر الداخلي لهذا القصص وشرحت ذلك في فصلين هما تطوُّر الفن القصصي في القرآن والقصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام.

أما التطوُّر الخارجي فلقد حالت بيني وبينه عقبات. منها أن الوقوف على النصوص السابقة للقصص القرآني من أقاصيص الجاهليين لا سبيل إليها ومنها أن صلة القصص القرآني باللاحق يتوقف أولاً على صلته بالمعاصر من أحاديث الرسول وهذه من الأمور التي سأفرغ لها بعد بحثي هذا إن شاء الله.

وقفت من هذه الخطوة إذاً عند الفائدة التي تجنيها من التطوُّر الداخلي وحسبي هذا في هذا الموضع. ونظرة إلى ميسرة.

ثالثاً ـ فهم النصوص: وهنا لا بد من التفرقة بين نوعين من الفهم: الأول الفهم الحرفي وهو الذي يقوم على دراسة معنى الألفاظ والتراكيب والجمل كما يقوم على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية وكل تلك أمور تتوقف إلى حد كبير على ثقافة الدارس تلك الثقافة التي شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسِّرون للمفسِّر والتي حدد ميادينها الأصوليون في مقدمات كتبهم وأني لأعترف هنا بأني قد وقفت على الكثير من هذه الأمور من كتب التفسير المختلفة وكان الجهد الذي أبذله يقوم على المقارنة والترجيح والوقوف عند بعض اللمسات التي تفتح آفاقاً واسعة أو تصحح أخطاء بعض الأقدمين وذلك أمر ليس باليسير فيما أعتقد. الثاني: الفهم الأدبي وهو ذلك الفهم الذي يقوم على تحديد ما في النص من قيَم عقلية وعاطفية وفنية فنقف على ما في النص من صور وآراء ونبحث عما خلف هذه الصور وهذه الآراء من أخرى لم يشعر صاحب النص بالحاجة إلى التعبير عنها إما لأنه كان يفهمها في نفسه وإما لأن المعاصرين له كانوا يفهمونها عنه.

وأعتقد أن هذا الصنيع في الفهم الأدبي كان جديداً بالنسبة لموضوعي هذا اللهم إلا في القليل النادر. فما في القصص القرآني من قيَم عقلية وعاطفية وما في القصص القرآني من ظواهر أدبية وفنية لم يدرس ولم يعرض بالصورة التي عرضتها فيه هنا. وذلك أمر لم يكن سهلاً ولا يسيراً.

رابعاً ـ التقسيم والتبويب: عندما يصل الباحث إلى هذا الحد من الفهم الأدبي يكون قد أقام من العلاقات ما تسمح له بأن يقسم بحثه أبواباً وفصولاً يقيم كل واحد منها على نوع من العلاقات التي يوحي بها المنهج أو القصد من الدراسة. فقد تجمع النصوص لما بينها من علاقات في الموضوع وقد تجمع لما بينها من علاقات في الصياغة وقد تجمع لما يتسلّط عليها من مقاصد وأغراض. وهذه كلها أشياء قد وقفت عليها وأقمت عليها أساس التقسيم في موضوعي هذا وهي التي انتهت بي إلى ذلك التقسيم الذي ستراه في هذا البحث فدفعتني إلى أن أجعله بابين كبيرين هما باب القيَم العقلية وباب القيَم الفنية أو الظواهر الأدبية، وهي التي دفعتني إلى أن أجعل فصول الباب الأول هي القيَم التاريخية والقيَم الإجتماعية والنفسية والقيَم الدينية والخلقية وهي التي دفعتني إلى أن أجعل كل واحدة من الفصول فقرات.

أما الباب الثاني فقد قسّمته إلى الفصول الآتية:

القصة الأدبية وألوانها. الوحدة القصصية في القرآن الكريم. الموضوعات والأغراض. المواد القصصية وأسباب إختيارها. العناصر القصصية وتوزيعها، الأشخاص، الأحداث، الحوار، المناجاة. تطوُّر الفن القصصي في القرآن الكريم. القصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام. وقسّمت كذلك كل واحد إلى فقرات.

خامساً ـ الأصالة والتقليد: وهذه مسألة من أهم المسائل عند الدارسين لحياة العلوم والفنون وعند مَن يريدون الفهم الدقيق العميق للمسائل العلمية والأدبية. ذلك لأنها هي التي ستدلّنا على المواد التي تكون منها النص وعلى كيفية تكوينه. وعلى أي منها من عند الأديب وأيها سبق إليه أو بعبارة أخرى أيها اهتدت إليه فطرته وأيها من رواسب الأجيال السابقة.

وهنا أعترف بأن هذا البحث في موضوعنا هذا من العسر والمشقَّة بحيث يعرض الإنسان لشر عظيم الخطر ولست أخفي أني لقيت عناءً كبيراً ولست أخفي بأني أخشى ضرراً عظيماً لكن ما حيلتي والعلم يقتضيني أن أستوفي هذا الموضوع حقّه.

لقد درست هذه المسائل وكانت لها نتائج قيِّمة بعضها يخص إثبات التجديد في الحياة المكية الأدبية وذلك كمسألة القصة الأسطورية ووجودها في القرآن الكريم. وبعضها الآخر يخص القوة القادرة على تحويل المواد من تاريخية إلى أدبية أو إلى قصصية حتى لتصبح سحراً من السحر أو أشد. وهذه مسائل قد عرضتها في فصل خاص بها هو فصل المواد القصصية وأسرار اختيارها.

ولعل من المسائل ما وقفت فيه بين بين فلم أعرف أهو من التجديد القصصي في القرآن أم هو من الإستعمال العادي المألوف عند العرب وذلك كرسمه للأشخاص وتصويره للأحداث.

تلك هي الخطوات المنهجية التي سرت عليها والتي انتهت بي إلى هذا البحث الذي سأعرضه عليك منذ الآن.

الباب الأول

المعاني والقيَم التاريخية والإجتماعية والخلقية والدينية

المعاني التاريخية

ليس القصد من هذه الوقفة حصر المعاني التاريخية أو الأحداث القصصية التي وردت في قصص القرآن الكريم وإنما القصد منها البحث عن قيمة هذه الأحداث القصصية في المجالات التاريخية. فهل هي من الوقائع التاريخية أو هي من الأحداث القصصية التي لم يقصد منها إلى التاريخ؟

والوصول إلى ما نعتقد أنه الحق في هذه المسألة يتطلب منا أولاً درس هذه المسألة في العقلية الإسلامية والوقوف على التيارات المختلفة التي لعبت دورها في تكوين هذه الآراء التي نراها في العقلية الإسلامية والتي احتفظت بها كتب التفسير ذلك لأن هذا الدرس هو سبيلنا الوحيدة إلى تكوين الرأي السديد في هذه المسألة الشائكة.

وتاريخ هذه المسألة إنما يرجع إلى عصر البعثة المحمدية أو قبله بقليل. ذلك لأنه يرجع إلى ذلك الرأي الديني الذي كانت تقول به اليهود والذي يجعل لهم الحق في معرفة الصادق والكاذب ممَّن يدعون النبوة ويذكرون للناس أن الوحي ينزل عليهم من السماء فلقد كان من مقاييس هؤلاء في التفرقة بين النبي والمتنبي أن النبي يعلم الغيب وأن من علوم الغيب معرفة أخبار السابقين من الرسل والأنبياء ومَن خفيَت على الناس أمورهم.

هذا المقياس واضح كل الوضوح من هذه الحادثة التي يقص أخبارها المفسّرون

والباحثون في أسباب النزول والتي وردت في أسباب النزول للنيسابوري بعبارة هذا نصها:

«وذكر محمد بن اسحاق سبب نزول هذه القصة - قصة أصحاب الكهف - مشروحاً فقال: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث رستم وأسفنديار وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب مَن كان قبلهم من الأمم فكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام. ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلمّوا فأنا أحدّثكم بأحسن من حديثه ثم يحدّثهم عن ملوك فارس. ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد. فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب وعن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول...»[1] فإن هذا النص كما ترى يدلّنا على أن اليهود هم الذين كانت بأيديهم المقاييس التي يفرّقون بها بين الصادق والكاذب من النبيين والمتنبئين. ثم هو يدلّنا على أن معرفة أخبار السابقين من هذه المقاييس.

على أن القرآن نفسه قد اعتمد على هذا المقياس في الإيحاء بنبوة محمد عليه السلام وصدق رسالته حين ختم بعض الأقاصيص القرآنية بآيات يُستفاد منها أن الأخبار الواردة في هذه الأقاصيص من أنباء الغيب وأنها قد أوحيت إلى النبي عليه السلام. قال تعالى عقب قصة مريم ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾[2]. وقال عقب قصة يوسف ﴿**وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون**﴾[3]. كما قال في قصة موسى ﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ● ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم**

---

(١) **أسباب النزول** للنيسابوري، سورة الكهف.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٤٤.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ١٠٢.

العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنّا كنّا مرسلين ● وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربّك لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يتذكّرون﴾[1]. وقال في ختامه لقصة نوح **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتّقين﴾**[2].

والظاهرة التي يحسن بنا الإلتفات إليها في هذا المقام هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة جعلها أيضاً مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار حتى ليخيَّل إلينا أن مقياس صدقها وصحّتها من الوجهة التاريخية ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار. قال تعالى بعد ذِكره لقصة يوسف **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حدّيثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**[3]. وقال تعالى بعد ذِكره لقصة موسى وفرعون **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربّك فلا تكوننَّ من الممترين﴾**[4].

وإعتماد القرآن على هذا الرأي الديني اليهودي أو على هذا المقياس خلف في الجو في عصر النبوة وما تلاه رأيين مختلفين:

(أ) الرأي الأول رأي المشركين والكفار من أهل مكة فإن هؤلاء مع معرفتهم لهذا المقياس من طريق وفدهم إلى أحبار اليهود بالمدينة لم يستطيعوا التسليم بما ترتَّب عليه من نتائج فلم يؤمنوا بصدق النبي عليه السلام أو بصحة رسالته إعتماداً على هذه الأخبار الواردة بالقصص القرآني وليس يرجع ذلك إلى أن هذه الأخبار لا تتفق ومعارفهم التاريخية فيظهر أنها كانت تتفق وما يعرفون أو تجري وهذه المعرفة في نسق. وإنما يرجع ذلك فيما

(١) سورة **القصص**، الآيات ٤٤-٤٦.

(٢) سورة **هود**، الآية ٤٩.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ١١١.

(٤) سورة **يونس**، الآية ٩٤.

هو الواضح من آيات القرآن الكريم إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن الوقوف على أمثال هذه الأخبار الواردة في القصص القرآني ليس شاقاً ولا عسيراً فضلاً عن أن يكون مستحيلاً حتى يصبح معجزاً ومن هنا ذهبوا إلى أن محمداً عليه السلام يكتتب هذه الأخبار وأنها ليست من الوحي وأن الذي يعلّمه إياها بشر. قال تعالى **﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾**[1] وقال تعالى **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾**[2] بل ذهبوا إلى أبعد من هذا فذهبوا إلى أنهم يستطيعون الإتيان بمثل هذه الأساطير. ولقد صوَّر القرآن قيلهم وصوَّر صنيعهم. فقال تعالى مصوّراً هذا القيل **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[3]. وقال تعالى مهدداً أولئك الذين يعارضون النبي والقرآن **﴿ومَن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوحَ إليه شيء ومَن قال سأنزل مثل ما أنزل الله...﴾**[4]. **﴿ومن الناس مَن يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ● وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشّره بعذاب أليم﴾**[5].

ويفهم المفسّرون هذا الصنيع من المعارضة وإنهم ليذكرون لنا أن قريشاً كانت تستملح هذه الأحاديث حتى لتنصرف عن النبي عليه السلام إلى النضر بن الحارث وأضرابه. جاء في الكشاف بصدد حديثه عن الآية السابقة «وقيل نزلت في النضر بن الحارث وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدّث بها قريشاً ويقول إن كان محمد يحدّثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدّثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن»[6].

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٥.
(٢) سورة **النحل**، الآية ١٠٣.
(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٣١.
(٤) سورة **الأنعام**، الآية ٩٣.
(٥) سورة **لقمان**، الآيتان ٦ ـ ٧.
(٦) **الكشاف**، جـ ٢، ص ١٩٣.

كان المشركون فيما هو الواضح من النصوص السابقة يستبعدون أن يكون هذا الذي يأتي به محمد من عند الله ومن هنا كانوا يسخرون. **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم قالوا أساطير الأولين﴾**(١). وكانوا يطلبون من العلي القدير أن ينزل عليهم العذاب إن كان الذي يأتي به محمد هو الوحي وهو الحق **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾**(٢).

وكان المشركون يعتقدون أن هذه الأخبار التي يجيئهم بها محمد ليست إلا أساطير الأولين ومن هنا لم يؤمنوا. ولم يكن لذلك المقياس الذي اعتمد عليه القرآن الكريم في الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته وهو الإتيان بأخبار السابقين كبير قيمة عندهم.

مضى هؤلاء وجاء من بعدهم قوم لم يقفوا بالمسألة عند حد القدرة على الإتيان بمثل هذه الأخبار وإنما حاولوا مستعينين بمعلوماتهم ومعارفهم الطعن في النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم وذلك بإتخاذ التاريخ مقياساً تقاس به هذه الأخبار وبيبان وجه المخالفة بين الأقاصيص القرآنية وبين ما يعرفون من تاريخ ونستطيع أن نعرض عليك في هذا الموقف بعض المسائل التي وقف عندها الملاحدة أو اليهود والنصارى أو المستشرقون والمبشّرون.

(١) يقول الرازي عند تفسيره لقوله تعالى **﴿ويكلّم الناس في المهد...﴾** (٣) ما يأتي «واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلّم في زمان الطفولة واحتجّوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدعاوى على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لمعرفة النصارى لا سيما وهم من أشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلهاً ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد. ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلّم في زمان الطفولية وادّعى الرسالة لكانت عدواتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل

(١) سورة **النحل**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٣٢.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ٤٦.

شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلّم...»[1].

(٢) ويقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**ياهامان ابن لي صرحا...**﴾[2] ما يلي «...المسألة الرابعة. قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر فالقول بأن هامان كان موجوداً في زمان فرعون خطأ في التاريخ. وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الإسم في زمانه. قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجوداً في زمان فرعون ما كان شخصاً خسيساً في حضرة فرعون بل كان كالوزير له ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجوداً لعرف حاله. وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجوداً في زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار علم أنه غلط وقع في التواريخ. قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد صلّى الله عليه وسلّم فلو أن قائلاً ادّعى أن أبا حنيفة كان موجوداً في زمان محمد عليه الصلاة والسلام وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو أيضاً يسمى بأبي حنيفة فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا»[3].

(٣) ويقول عند تفسيره لقصة بلقيس وسليمان من سورة النمل ما يلي: «البحث الأول: إن الملحدة طعنت في هذه القصة من وجوه... وثالثها كيف خفيَ على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال أن الجن والأنس كانوا في طاعة سليمان وأنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال... ومع أنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام. رابعها: من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم

---

(١) الرازي، جـ ٥، ص ٣٥.

(٢) سورة غافر، الآية ٣٦.

(٣) الرازي، جـ ٧، ص ٢٧٧.

للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه»[1].

(٤) ويقول القاضي عبد الجبار في كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن: «وربما قيل في قوله تعالى ﴿**يا أخت هارون**﴾[2] كيف يصح أن يقال لها ذلك وبينها وبين هارون أخي موسى الزمن الطويل؟ وجوابنا أنه ليس في الظاهر أنه هارون الذي هو أخو موسى بل كان لها أخ يسمى بذلك وإثبات الإسم واللقب لا يدل على أن المسمى واحد، وقد قيل كانت من ولد هارون كما يقال للرجل من قريش يا أخا قريش»[3].

(٥) ويشرح المبشِّرون مسألة مريم السابقة فيقولون «قصة مريم: ورد في سورة مريم الآية ﴿**فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ● يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء...**﴾[4] إلخ. فيتَّضح من هذه الآية أن محمداً كان يرى أن مريم كانت أخت هارون أخي موسى. ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً وجلاء ما ورد في سورة التحريم ونصه ﴿**ومريم ابنة عمران**﴾[5] وهذا مذكور أيضاً في سورة آل عمران ﴿**إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً...**﴾[6] إلخ. وفي سورة الفرقان ونصه ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً**﴾[7]. فثبت من ذلك أن عمران وموسى وهارون ومريم هم الأشخاص أنفسهم الذين ورد ذِكرهم بهذه الأسماء في خمسة أسفار موسى غاية الأمر أن ورد في التوراة عمرام عوضاً عن عمران. وورد في سفر العدد الإصحاح ٢٦ الآية ٥٩ ما نصه ﴿**واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوي التي ولدت لأوى في مصر. فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم اختهما**﴾. وورد في سفر الخروج أيضاً الإصحاح ١٥ الآية ٢٠ أن مريم النبية كانت أخت هارون. كما رأينا في سورة مريم حيث قيل ﴿**يا مريم... يا أخت**

---

(١) الرازي، جـ ٧، ص ٢١٨.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٨.

(٣) **تنزيه القرآن عن المطاعن**، ص ٢٦٠.

(٤) سورة مريم، الآيتان ٢٧-٢٨.

(٥) سورة التحريم، الآية ١٢.

(٦) سورة آل عمران، الآية ٣٥.

(٧) سورة الفرقان، الآية ٣٥.

هارون﴾[1] فلا شك أن محمداً توهَّم أن مريم أخت هارون التي كانت أيضاً ابنة عمرام «أي عمران» هي مريم نفسها التي صارت أم يسوع ـ المسيح عيسى ـ بعد ذلك بنحو ألف وخمسمائة وسبعين سنة. وهذا القول يشبه الرواية الواردة في الشاهنامة... إلخ. وربما كان سبب هذا الغلط أنه ورد في إحدى خرافات اليهود كلام بخصوص مريم أخت هارون نصه **﴿أن ملاك الموت لم يتسلَّط عليها، بل ماتت بقبلة إلهية ولم يتسلَّط عليها الدود ولا الحشرات﴾**. وعلى كل حال فهذا خطأ جسيم لأنه لم يقل أحد من اليهود أن مريم هذه بقيت على قيد الحياة إلى أيام المسيح[2].

هذه الأقوال وكثير غيرها قصد إليها المبشِّرون والملاحدة ليثبتوا للناس أن القرآن من عند محمد لأنه لو كان من عند الله لما وجدت فيه هذه الأخطاء التاريخية.

وهذه الأقوال وكثير غيرها إنما كانت لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي أو البياني البلاغي لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح ولسدوا على المشركين والمبشِّرين السبل وحالوا بينهم وبين الطعن في النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم.

(ب) أما الرأي الثاني فهو رأي المسلمين وهم يؤمنون بهذا المقياس ويعتقدون بصحَّته ويرون أن ورود هذه الأخبار في القصص القرآني إنما هو دليل النبوة وعلامة الرسالة وأنه لولا الوحي لما عرف النبي الأمي هذه الأخبار مع أنه لم يقرأ في كتاب ولم يتتلمذ على مَن قرأ في كتاب.

وإيمان المسلمين بهذا المقياس لم يكن وقفاً على عصر النبوة وإنما امتد به الزمن حتى شمل الأعصر الإسلامية من لدن البعثة المحمدية إلى وقتنا هذا. وحتى أصبح عنصراً مهماً من العناصر المكوّنة للعقلية الإسلامية يهتز باهتزازها ويتأثر بما تتأثر به من تيارات فكرية تتعاقب عليها بتعاقُب السنين والأعوام.

(١) سورة مريم، الآيتان ٢٧-٢٨

(٢) مصادر الإسلام ، ص ١٠٢-١٠٤.

وإيمان المسلمين بهذا المقياس جعل المفسّرين منهم يصدرون في فهمهم للقصص القرآني وتفسيرهم له عن ثقافة تاريخية لا ثقافة فنية أدبية ومن هنا لم تسلم لهم الخطى وقامت في وجوههم العقبات فوقفوا وأطالوا الوقوف لعل الطريق أن تسلم ولعل الفهم أن يستقيم ولكن شيئاً من ذلك لم يكن أللهم إلا في بعض المواطن التي رجعوا فيها إلى الحق والتي أقاموا فيها فهمهم للقصص القرآني على أسس من البلاغة والفن الأدبي تلك الأسس التي تجعل الأحداث القصصية مكانها الأول في الشرح والتفسير ولا تجعل للمواد التاريخية إلا مقاماً ثانوياً أو لا مقام على الإطلاق.

والمواقف التي وقف عندها المفسّرون لتسلم لهم الطريق ويستقيم الفهم كثيرة متنوعة ونستطيع أن نعرض عليك بعضاً منها لتستبين إلى أي حد كان يتعثر هؤلاء المفسّرون.

أولاً ـ الإشارات التاريخية: وقف المفسّرون وقفة طويلة عند هذه الإشارات التاريخية التي جعلها القرآن مادة أدبية في بناء القصة القرآنية وهي إشارات قد قصد القرآن إلى إبهامها أو إلى إبهام مقوّماتها التاريخية. وقصد القرآن إلى ذلك إنما يفسّر بحالة من حالتين: يفسّر بأن القرآن قد أبهم هذه المقوّمات لأن المعاصرين للنبي عليه السلام ولنزوله كانوا يعرفون ما وراء هذا الإبهام من ثقافة تاريخية. كما يفسّر بأن القرآن قد عمد إلى تنحية التاريخ عن ميدان القصة القرآنية ليتجه العقل البشري منذ اللحظة الأولى إلى ما هو المقصود من أقاصيص القرآن من عظة وعبرة ومن إرشاد وهداية ومن إنذار وبشارة.

أبهم القرآن مقوّمات التاريخ في قصصه فأبهم الزمان والمكان وأبهم في كثير من المواطن الصفات المميّزة للأشخاص. واختار من الأحداث التاريخية بعضاً دون بعض. صنع القرآن كل هذا أو أحسّ المفسّرون منه بهذا الصنيع وشعروا بأن الفهم التاريخي للقصص القرآني لن يستقيم حتى يذهب هذا الغموض التاريخي وحتى يذهب ما قصد إليه القرآن من إبهام ومن هنا رأيناهم يعمدون إلى الثقافة التاريخية وإلى الإسرائيليات بل رأيناهم أحياناً يعمدون إلى الفروض النظرية الصرفة لعل واحدة منها أو كلها مجتمعة أن تزيل عن القصص القرآني ما به من غموض أو إبهام تاريخي.

والظواهر التي يحسن بنا أن نلتفت إليها من وقفات المفسِّرين عند هذه الإشارات التاريخية وما يحيط بها من غموض أو يكتنفها من إبهام هي التالية:

(١) أن المفسِّرين وقد ارتضوا الأساس التاريخي أساساً للفهم وقفوا كثيراً وطويلاً عند مسائل التاريخ وقضاياه حتى لنرى بعضهم يقف عند كل قصة ويجعل لها عنواناً كذلك الذي نجده في كتب التاريخ ثم يتحدث عن شخصية النبي وعن الأحداث القصصية كما يتحدث المؤرِّخون سواء بسواء[١].

(٢) أن هذه الوقفات الطويلة عند الأساس التاريخي جعلت المفسِّرين يألفون هذا المذهب في فهم القصص القرآني حتى لنراهم ينكرون غيره من مذاهب فنية وأدبية وحتى لنراهم حين تلجئهم الضرورات إلى المذاهب الأدبية يوجزون في القول ولا يقفون إلا لماماً. هذا ما فعله الزمخشري في تفسيره لقصة ﴿**وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب...**﴾[٢] إلخ من سورة ص وهذا ما فعله الطبري في أحد أقواله عند تفسيره لقصص آدم في كل من سورتي البقرة وص[٣]. وإنّا لنشعر من صنيعهم أنهم يعتقدون أن المذهب الأدبي لا يتفق وما أنزل الله من قصص وما أراد به الله لهذا القصص من أن يكون وسيلة هِداية وإرشاد وبشارة وإنذار وأنه لم يقصد فيه إلى التاريخ بحال من الأحوال.

(٣) أن إعتماد المفسِّرين على الثقافة التاريخية والإسرائيليات وعلى الفروض النظرية لم يصل بهم في كل موطن إلى ما يريدون من كشف عن الغموض وإزالة للإبهام وأنه على العكس من ذلك وصل بهم إلى متاهات فلم يصلوا إلى وجه الحق في المسألة وهذا هو الذي نراه في تفسيرهم لقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها وفي شرحهم لمسألة كيفية دخول إبليس الجنة بعدئذٍ أخرجه الله منها ليوسوس إلى آدم ويدفعه إلى الأكل من الشجرة.

---

(١) راجع قصص سورتي الأعراف ويونس في تفسير الخازن.

(٢) سورة ص، الآية ٢١.

(٣) الطبري، ج١، ص ١٧٥ - ١٧٦، ج٢٣، ص ١٠٧.

جاء في البحر المحيط لأبي حيان ما يلي: «والذي مرَّ على قرية هو عزير... وقيل أرمياء... وقيل هو أرمياء وهو الخضر... وقيل على كافر مرَّ على قرية... وقيل رجل من بني إسرائيل غير مسمى... وقيل غلام لوط... وقيل أشعياء.

والقرية، بيت المقدس... أو قرية العنب... أو الأرض المقدَّسة أو المؤتفكة... أو القرية التي خرج منها الألوف حذر الموت... أو دير هرقل... أو شابور أباد... أو سلماياذ...»[١].

وجاء في الرازي ما يلي «اختلفوا في أنه كيف تمكَّن إبليس من وسوسة آدم عليه السلام مع أن إبليس كان خارج الجنة وآدم كان في الجنة وذكروا فيه وجوهاً. أحدها قول القصاص وهو الذي رووه عن وهب بن منبه اليماني والسدى عن ابن عباس رضيَ الله عنهما وغيره. أنه لما أراد إبليس أن يدخل الجنة منعته الخزنة فأتى الحية وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البختية وهي كأحسن الدواب بعد ما عرض نفسه على سائر الحيوانات فما قبله واحد منها فابتلعته الحية وأدخلته الحية خفية من الخزنة فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فمها واشتغل بالوسوسة فلا جرم لعنت الحية وسقطت قوائمها وصارت تمشي على بطنها وجعل رزقها في التراب وعدوا لبني آدم.

واعلم أن هذا وأمثاله مما يجب ألا يلتفت إليه لأن إبليس لو قدر على الدخول في فم الحية فلمَ لم يقدر على أن يجعل نفسه حية ثم يدخل الجنة. ولأنه لما فعل ذلك بالحية فلمَ عوقبت الحية مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة؟

وثانيها أن إبليس دخل الجنة في صورة دابة. وهذا القول أقل فساداً مَن الأول.

وثالثها قال بعض أهل الأصول إن آدم وحواء عليهما السلام لعلهما كانا يخرجان إلى باب الجنة وإبليس كان يقرب من الباب ويوسوس إليهما.

ورابعها وهو قول الحسن أن إبليس كان في الأرض وأوصل الوسوسة إليهما في الجنة. قال بعضهم هذا بعيد لأن الوسوسة كلام خفي والكلام الخفي لا يمكنه إيصاله من الأرض إلى السماء.

واختلفوا من وجه آخر وهو أن إبليس هل باشر خطابهما أو يقال إنه أوصل الوسوسة

---

(١) **البحر المحيط**، جـ ٢، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

إليهما على لسان بعض أتباعه؟...»[1].

(٤) إن العقل الإسلامي وقد شغلته هذه الثقافة التاريخية لم يفرغ إلى غيرها ومن هنا لم يقف إلا قليلاً ليوضح ما في القصص القرآني من هِداية وإرشاد ويؤكد ما فيه من بشارة وإنذار. وهو بهذا قد فوّت على نفسه كثيراً من المسائل التي كانت جديرة بأن توجّهه إلى الوقوف على الأسس النفسية والدعامات الإجتماعية التي قامت عليها الدعوة الإسلامية وتقوم عليها كل دعوة إجتماعية.

ثانياً ـ التكرار: وقفة ثانية وقفها العقل الإسلامي عند الأقاصيص التي كررت. ذلك لأنه وقد اعتمد المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني قد عجز عن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار.

لماذا كرّر القرآن قصص آدم ونوح وهود ولوط وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل والأنبياء؟

إن الوقوف على تاريخ كل واحد من هؤلاء قد يكفي فيه إيراد القصة الواحدة في الموطن الواحد وليس يلزم أن تكرّر القصة في أكثر من موطن من مواطن القرآن.

إن تكرار القصة وبخاصة حين تكون الأحداث القصصية واحدة والمواد التاريخية متشابهة والمواقف متّفقة أمر يحتاج إلى تعليل وإلى بيان وإيضاح[2].

سؤال آخر سأله العقل الإسلامي نفسه فيما يخص هذا التكرار وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار فلماذا كان هذا الإختلاف؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر؟ لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه في سورة طه عنه في غيره من السور مع أن الموقف واحد والحادثة واحدة؟ لماذا قال القرآن في سورة طه **﴿وهل أتاك حديث موسى ● إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ● فلما أتاها نودي يا موسى ●**

(١) الرازي، جـ ١، ص ٣١٣.

(٢) **مشكل القرآن وغريبه**، لابن قتيبة، جـ ١، ص ١٥٣.

إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ● وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ● إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ● إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ● فلا يصدّنك عنها مَن لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ● وما تلك بيمينك يا موسى ● قال هي عصاي أتوكّأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ● قال ألقها يا موسى ● فألقاها فإذا هي حية تسعى ● قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى● واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ● لنريك من آياتنا الكبرى ● إذهب إلى فرعون إنه طغى ● قال رب...﴾[1] إلخ. ولماذا قال في سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ● فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومَن حولها وسبحان الله رب العالمين ● يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ● وألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون ● إلا مَن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ● وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين...﴾ إلخ[2]. ولماذا قال في سورة القصص غير هذين؟

إن الموقف واحد وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف يختلف والحوار غير الحوار وحديث الرب العلي مع موسى النبي في موطن غيره في آخر.

لقد حاول العقل الإسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ولكنه لم يهتد إلى رأي قاطع ومن هنا آثر الكثيرون عد القصص القرآني من الآيات المتشابهات[3]. يقول الطبري: «المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة

(١) سورة طه، الآيات ٩-٢٥.

(٢) سورة النمل، الآيات ٧-١٢.

(٣) راجع درة التنزيل وثمرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي.

باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني»[1]. وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسّرين.

ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس بلاغي أو أساس فني أدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذي عده من التكرار ليس من التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبَر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ومن هنا كان الإختلاف لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى إختلاف الصور الأدبية.

مقصد القرآن من قصة موسى في سورة طه غيره من قصة موسى في سورة النمل وقصة موسى في سورة طه قصة مستقلة وقصته في سورة النمل قصة مستقلة ومن الوجهة الأدبية البلاغية هذه قصة وتلك أخرى وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه. وكل هذه مسائل ستشرح بتفصيل في الباب الثاني إن شاء الله.

ثالثاً ـ المادة القصصية والحقيقية: وقفة ثالثة وقفها العقل الإسلامي حين بان له أن كثيراً من هذه المواد القصصية التي جاء بها القرآن الكريم لا تستقيم وما يعرف من علم إلا على ضرب من التأويل وإلا بعد الرجوع إلى المذهب الأدبي يستمد منه العون ويطلب إليه المدد.

(١) بان للعقل الإسلامي أن مسألة غروب الشمس في عين حمئه لا تستقيم وما يُعرف عن حقائق هذا الكون من أن الشمس طالعة أبداً وأن الأرض تدور حولها وأن الشمس لا يمكن أن تغرب في هذه العين الحمئة بحال من الأحوال. وخيّل إلى العقل الإسلامي أن كلام الله لن يستقيم إلا على ضرب من التأويل فأوجب هذا التأويل على نفسه وانتهى به الأمر فيما نرى إلى التسليم بالمذهب الفني إذ قرر أن القرآن قد صوَّر في هذه القصة الصور الذهنية لغروب الشمس لا حقيقة هذا الغروب. صوَّر ما يراه القوم بأعينهم ولم يصوِّر ما يحدث فعلاً من غروب للشمس وشروق. يقول الرازي في تفسيره لقصة ذي القرنين من سورة الكهف ما يلي: «البحث الثاني: أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة

(١) الطبري، جـ ٣، ١٠٣.

وأن السماء محيطة بها ولا شك أن الشمس في الفلك وأيضاً قال ﴿ووجد عندها قوماً﴾[1]. ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود. وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض... إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله ﴿تغرب في عين حمئة﴾[2] من وجوه.

الأول أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبقَ بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهذه مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم يرَ الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر...»[3].

ويقول القاضي عبد الجبار: «كيف يصح أن يجدها تغرب في شيء من الأرض وهي إنما تغرب في مجاري غروبها؟ فجوابنا أنها تغرب على وجه يشاهد كذلك كما توجد الشمس تغرب في البحر إذا كان المرء على طرفه وكما يقول المرء إن الشمس تطلع من الأرض وتتحرك في السماء. والمراد بذلك ما ذكرناه من تقدير المشاهدة»[4].

(٢) وبان للعقل الإسلامي أن ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانت الأوثان التي تعبد في الجزيرة العربية زمن البعثة المحمدية وقبلها بقليل أو كثير. وعجز العقل الإسلامي عن أن يفهم الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح عليه السلام حتى تجيء في قصته ولذا عد هذه المسألة من المشكلات. جاء في الرازي بصدد تفسيره لسورة نوح ما يلي:

«المسألة السادسة: هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث. هكذا قيل في الكتب. وفيه إشكال لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان فكيف بقيت تلك الأصنام وكيف انتقلت إلى العرب؟ ولا يمكن أن يقال إن

(١) سورة **الكهف**، الآية ٨٦.

(٢) نفس السورة والآية.

(٣) الرازي، جـ ٥، ص ٣٠٥ وما بعدها. وسنشرح هذه المسألة في الباب الثاني.

(٤) **تنزيه القرآن عن المطاعن**، ص ٢١٧.

نوحاً عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها في السفينة سعيا منه في حفظها»[1].

(٣) وبان للعقل الإسلامي أن هذه المحاورة التي يصوِّرها القرآن الكريم قائمة بين المولى سبحانه وتعالى وبين عيسى عليه السلام في آخر سورة المائدة لا تفهم على ظاهرها ولا تفسّر على أنها قد وقعت حقاً وأنها لا يمكن أن تكون إلا التصوير الأدبي الذي يقصد منه إلى توبيخ النصارى المعاصرين لمحمد عليه السلام. جاء في كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ما يلي: «مسألة. وربما قيل في قوله تعالى **﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله﴾**[2]. كيف يصح ذلك وعيسى لم يقل ذلك للناس؟ وكيف يصح أن يقول وإذ قال الله وذلك يخبر به عن الماضي ولم يتقدم ذلك منه تعالى في الدنيا؟

وجوابنا أن ذلك من الله تعالى على وجه التوبيخ والتقريع لمن قال ذلك وقد يجوز من الحكيم أن يخاطب بذلك متهماً بفعل ليكون ردعاً وتوبيخاً لمن فعل والله تعالى عالم بالأمور ولا يصح الإستفهام عليه فالمراد ما ذكرنا.فقد كان فيهم مَن يزعم أن عيسى صلّى الله عليه وسلّم أمرهم بأن يتخذوا إلهين فيعبدوهما ويطيعوهما كطاعة المرء لله ولذلك قال بعده **﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾**[3].

(٤) وبان للعقل الإسلامي أن وصف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله في قول اليهود الذي حكاه عنهم القرآن في قوله تعالى **﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾**[4] لا يمكن أن يفهم على أنه قد صدر حقاً عن اليهود فهم لم ينطقوا بهذا الوصف وإنما القرآن هو الذي أنطقهم به ذلك لأن وصفه بالرسالة ليس إلا التسليم بأنه رسول الله وهم لم يسلموا بهذا ولو سلموا بها لأصبحوا مسيحيين ولما كان بينهم وبينه أي لون من ألوان العداء ولما كان قُتل وصُلب. إن اليهود إنما يتهمون عيسى بالكذب وينكرون

---

(١) الرازي، جـ ٨، ص ٢٣٢.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ١١٦.

(٣) **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، ص ١١٥، نفس السورة والآية.

(٤) سورة **النساء**، الآية ١٥٧.

عليه أنه رسول الله ويذكرونه بالشر ويقولون إنه ابن زنا وأن أمه زانية. يقول اليهود كل هذا وأكثر منه ومن هنا لم يستطع العقل الإسلامي أن يسلم بأن وصف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله قد صدر حقاً عن اليهود ولجأ العقل الإسلامي في هذا الموقف إلى المذهب الفني فأفاده. جاء في الكشاف عند تفسيره لهذه الآية: «فإن قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله قلت قالوه على وجه الإستهزاء كقول فرعون إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله ﴿**ليقولن خلقهن العزيز العليم ● الذي جعل لكم الأرض مهداً**﴾[1].

(٥) وبان للعقل الإسلامي أنه لا يستطيع أن يتصوَّر مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك حديث مَن يأخذ الناس بعقائدهم تقوية للروح المعنوية وبثاً للأمل القوي بالإنتصار السريع في النفوس. جاء في المنار: «وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال: إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبرايل بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو يوم بدر فأي حاجة إلى مقاتلة الناس الكفار؟ وبتقدير حضوره أي فائدة في إرسال سائر الملائكة؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم.

وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ولأنه خلاف قوله ﴿**ويقللكم في أعينهم**﴾[2] ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البتة.

وعلى الثاني كان يلزم جز الرؤوس وتمزُّق البطون وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات فكان يجب أن يتواتر ويشتهر ين المسلم والكافر والموافق

(١) **الكشاف**، جـ ٥، ص ٢٨١، سورة **الزخرف**، الآية ١٠.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٤٤.

والمخالف. وأيضاً أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكل وإن كانوا أجساماً لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول[1].

بانت للعقل الإسلامي هذه الأشياء وكثير غيرها وفطن العقل الإسلامي إلى أن هذه الأشياء لا تُفهم على أنها الحق التاريخي والواقع العملي إلا بضروب من التأويل ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني منذ اللحظة الأولى على المذهب الأدبي لما احتاج إلى هذه التأويلات وإلى أمثال هذه الوقفات التي ألجأته إلى المذهب الأدبي مضطراً لا مختاراً.

رابعاً ـ الأخبار والإعجاز: وقفة أخيرة وقفها العقل الإسلامي يحاسب فيها نفسه وينظر ما قدَّمت يداه من خير فهل كان من الخير للنبي عليه السلام وللقرآن الكريم أن يكون المذهب التاريخي الأساس الأول في فهم القصص القرآني أو أن هذا المذهب كان الثغرة التي نفذ منها المبشِّرون والملاحدة للطعن في النبي وفي القرآن؟

أحصى العقل الإسلامي كل شيء عدداً فأحصى أقوال المشركين وأقوال الملاحدة والمبشِّرين وأحصى المشكلات التي تعرّض لها حينما وقف عند هذه الإشارات التاريخية وما فيها من غموض وإبهام وعند هذه الأقاصيص المكرّرة وما تدفع إليه من قول بعد القصص القرآني من المتشابه وعند هذه الأخبار والصور التي لا تتفق وما يعتقده الحق والواقع إلا بضرب من التأويل أو قول بالمذهب الأدبي.

أحصى العقل الإسلامي كل هذه الأشياء فتبيَّن له أن ما يقدِّمه المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني من خير أقل بكثير مما يقدِّمه من شر ونكر وبلاء. وعند ذلك أعاد العقل الإسلامي التفكير في هذا المذهب نفسه وفي الأسباب التي تدعوه إلى التمسُّك به والتشبُّث بأهدابه. ووجد العقل الإسلامي الأسباب واضحة في هذه الأقاصيص التي يعتمد عليها القرآن في الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصحة رسالته وفي عد ما اشتملت عليه هذه الأقاصيص من أخبار من المعجزات.

(١) المنار، جـ ٤، ص ١١٣.

أما إن هذه الأخبار من المعجزات فأمر أعاد العقل الإسلامي التفكير فيه وانتهى به هذا التفكير إلى أن هذه الأخبار لم تكن فيما هو الواضح من آيات القرآن مناط الرد على المشركين من أهل مكة ولا موطن التحدي حتى يصح القول بأنها إحدى المعجزات.

فكر العقل الإسلامي في هذه الأخبار فرأى أولاً أن الكثير منها كان معروفاً بالجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ومعروفاً المعرفة التي جعلت المفسّرين يعلّلون بلاغياً بهذه المعرفة التركيب القصصي القرآني ﴿**ألم ترَ**﴾. جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**ألم تر كيف فعل ربّك بعاد...**﴾[1] إلخ. من سورة الفجر ما يلي: «ألم ترَ ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر. أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب. وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب وبلاد فرعون أيضاً متّصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضروري والعلم الضروري جار مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة فلذلك قال ألم ترَ بمعنى ألم تعلم»[2]. وهذه المعرفة تجعل من غير شك أمثال هذه الأخبار غير صالحة لأن تكون موطن التحدي أو دليل الإعجاز.

وفكّر العقل الإسلامي في هذه الأخبار فرأى ثانياً أن تلك الأقاصيص التي يعتمد عليها القرآن في الإيحاء بنبوة النبي وصدق رسالته لا تشتمل على أخبار يستحيل معرفتها وهي على العكس من ذلك أخبار معروفة لدى أهل الكتاب وإذا كان هناك من إستحالة فإنها الإستحالة العادية التي تقوم على أمية النبي محمد عليه السلام أو تقوم على التفصيلات الدقيقة لهذه الأخبار جاء في كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن «مسألة: وربما قيل في قوله ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**﴾. كيف يصح ذلك وقد كان هذا الخبر موجوداً عند النصارى وغيرهم؟

وجوابنا أنه صلّى الله عليه وسلّم لم يخالطهم مخالطة يقف بها على تفصيل هذه الأمور وكان كسائر العرب فبيّنَ تعالى أنه قد خصّه بهذا الغيب ليعرف به صحة نبوته ولذلك قال:

---

(١) سورة **الفجر**، الآية ٦.

(٢) الرازي، جـ ٨، ص ٤٢٣.

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ فحكى تفصيل ما كان يجري في أمر مريم وذلك من أعظم معجزاته صلَّى الله عليه وسلَّم»[1]. وجاء في الرازي: «فإن قيل أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم. قلنا تلك القصة بحسب الإجمال كانت مشهورة أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة»[2].

وفكَّر العقل الإسلامي في هذه الأخبار فرأى ثالثاً أن القول بأنها إحدى المعجزات لا يدحض أقوال المشركين أولئك الذين قالوا بأن محمداً عليه السلام يكتتب هذه الأخبار وأنه يعلمه إياها بشر وأنهم لو شاؤوا لقالوا مثلها وأنهم قد قصّوا بالفعل أخبار رستم وأحاديث اسفنديار وأن قريشاً كانت تستملح هذه الأقاصيص وتنصرف عن محمد عليه السلام إلى المعارضين للنبي وللقرآن.

فكَّر العقل الإسلامي في كل هذه الأشياء وانتهى به التفكير إلى أن القرآن نفسه لم يجعل هذه الأخبار موطن التحدي ومناط الإعجاز وإنما جعل الإعجاز كل الإعجاز في قوة التأثير وسحر البيان. جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾[3] ما يلي: «والحاصل أن القوم اتَّهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه عرفها بالوحي وهو كاذب فيه. ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي...﴾ وأما وجه تقرير الجواب فاعلم أنه إنما يظهر إذا قلنا القرآن الكريم إنما كان معجزاً لما فيه من الفصاحة العائدة إلى اللفظ وكأنه قيل هب أنه يتعلم المعاني من ذلك الأعجمي إلا أن القرآن إنما كان معجزاً لما في ألفاظه من الفصاحة»[4]. ولعله من هنا كان القرآن يتحدى العرب بالسور المفتريات فقد جاء في المنار: «كأنه يقول أدع لكم ما في سور القصص من الأخبار عن الغيب وأتحدّاكم أنتم وسائر الذين تستطيعون الإستعانة بهم على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن في

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن، ص ٥٩.

(٢) الرازي، جـ ٥، ص ٦٥.

(٣) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٤) الرازي، جـ ٥، ص ٣٥٠.

قصصها مع السماح لكم بجعلها قصصاً مفتراة من حيث موضوعها»[1].

التحدي إنما يقوم كما رأيت على قوة التأثير وسحر البيان ومن هنا لا نستطيع أن نعد هذه الأخبار التي جاءت في القصص القرآني إحدى المعجزات.

أما إن هذه الأخبار قد أفادت كثيراً في الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته فهو الأمر الذي لا ننكره بل نقر به ونؤكده لكن على أساس أن قوة هذا الإيحاء إنما تقوم على ذلك الرأي الديني اليهودي الذي كانت تدين به الجماعة والذي لا يلزم حتماً أن تكون هذه الأخبار من التاريخ فقد كان يكفيه منها أن تكون مما يعرفه اليهود أو تعرفه العرب كما سنرى بعد لحظات.

هذه الوقفات الطويلة وهذا التفكير المستمر جعل العقل الإسلامي يقرّر أخيراً في قوة أن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وأن التمسك بالخطر أي خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة.

جاء في الرازي: «واعلم أن هذا الكلام - قوله تعالى ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾[2] - يحتمل وجوهاً: الأول أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو الحكاية نفسها بل أمور أخرى مغايرة لها»[3].

وجاء في غرائب القرآن للنيسابوري عند تفسيره للآية السابقة: «وذلك إنما حملهم على التكذيب أولاً وآخراً وجوه منها أنهم وجدوا في القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فقالوا أساطير الأولين وخفيَ عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل وبالعكس ليعرف المكلّف أن الدنيا ليست مما يبقى فنهاية كل حركة سكون وغاية كل سكون ألا يكون كقوله عز من قائل ل﴿**قد كان**

(١) المنار، جـ ١، ص ١٩٤.

(٢) سورة يونس، الآية ٣٩.

(٣) الرازي، جـ ٤، ص ٥٩١.

في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[1].

وجاء في المنار: «ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره لم يبيِّن الزمان والمكان...»[2].

وجاء «هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع»[3].

وجاء «بينّا مراراً أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم وما تتضمَّنه من أصول الدين والإصلاح»[4].

وجاء «فإن قيل إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والإستغناء بها عن الوحي فلماذا كثُرت سور الأخبار التاريخية في القرآن وكانت في التوراة أكثر؟

والجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها وإنما هي الآيات والعبَر تجلَّت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم إنذاراً للكافرين بما جاء به محمد صلَّى الله عليه وسلَّم وتثبيتاً لقلبه وقلوب المؤمنين»[5].

وجاء «وبقي مما يتعلق بهذا التفسير مسألتان قد أكثر الناس الكلام فيهما وهما مسألة خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ومسألة عصمة آدم. فأما الأولى فليس في القرآن نص فيها ولا يلزمنا حمل قوله وخلق منها زوجها على ذلك لأجل مطابقة سفر التكوين فإن القصة لم ترد في القرآن كما وردت في التوراة التي في أيدي أهل الكتاب حكاية تاريخية. وإنما جاء القرآن بموضع العبرة في خلق آدم وإستعداد الكون لأن يتكمَّل به وكونه

(١) غرائب القرآن، جـ ١١، ص ٨٥ ط هامش الطبري، سورة يوسف، الآية ١١١.

(٢) المنار، جـ ١، ص ٢٧٩.

(٣) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٧.

(٤) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٠١.

(٥) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٠.

قد أعطى إستعداداً في العلم والعمل لا نهاية لهما ليظهر حكم الله ويقيم سنته في الأرض فيكون خليفة له وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثّر بالوسوسة التي تحمل على المعصية. ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره لم يبيّن الزمان والمكان كما بينّا في سفر التكوين وكان بيانها سبباً لرفض الباحثين في الكون وتاريخ الخليقة لدين النصرانية لأن العلم المبني على الإختبار والمشاهدة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ في التوراة ووجدت للإنسان آثار في الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة في تاريخ تكوينه فقام فريق من أهل الكتاب يركب التعاسيف في التأويل وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل»[1].

وواضح من هذه النصوص أن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع وليست من مقاصد القرآن في شيء ومن هنا أهمل القرآن مقوّمات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث.

إن قصد القرآن من هذه المعاني إنما هو العظة والعبرة أي في الخروج بها من الدائرة التاريخية إلى الدائرة الدينية. ومعنى ذلك أن المعاني التاريخية من حيث هي معانٍ تاريخية لا تعتبر جزءاً من الدين أو عنصراً من عناصره المكوّنة له. ومعنى هذا أيضاً أن قيمتها التاريخية ليست مما حماه القرآن الكريم ما دام لم يقصده.

حين وصل العقل الإسلامي إلى هذه المرحلة من التفكير كان قد وصل إلى خير كثير ذلك لأنه كان قد قطع شوطاً طويلاً في سبيل تحرُّر العقل الإسلامي من هذا المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني. وكان قد وصل إلى القضاء على القصد التاريخي والقضاء على هذا القصد قد جلب للعقلية الإسلامية الفوائد التالية.

(١) التحرُّر من الإسرائيليات والتخلُّص من كثير من هذه الفروض النظرية.

(٢) توجيه الذهن البشري إلى ما هو المقصود من القصص القرآني من المواعظ

---

(١) المنار، جـ ١، ص ٢٧٩.

والعبَر ومما هو من أبواب المعاني الدينية والمعاني الإجتماعية.

(٣) القضاء على فكرة التكرار وعلى عد القصص القرآني من المتشابه.

(٤) أصبح العقل الإسلامي غير ملزم بالإيمان برأي معين في هذه الأخبار التاريخية الواردة في القصص القرآني وذلك لأنها لم تبلغ على أنها دين يتبع وإنما بلغت على أنها المواعظ والحكَم والأمثال التي تُضرب للناس ومن هنا يصبح من حق العقل البشري أن يهمل هذه الأخبار أو يجهلها أو يخالف فيها أو ينكرها. جاء في المنار بصدد تفسيره لقصة هاروت وماروت من سورة البقرة ما يلي: «ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضي أن يكون ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النفي لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذِكرها في سياق النفي.

قال الأستاذ الإمام: بينّا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والإعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الإعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والإعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهِداية»[1].

هذه هي الفوائد التي جناها العقل الإسلامي بعد أن قطع هذه المرحلة الطويلة الشاقة من التفكير في العلاقة بين القصص القرآني والتاريخ وإنها فوائد لا يدفع خطرها ولا تنكر قيمتها وإن تكن بعد ذلك قاصرة عن أن تحل تلك المشكلة الخالدة التي من أجلها عقدنا هذا الفصل وهي المشكلة القائمة على أساس أن بالقصص القرآني أخطاء من أخطاء التاريخ.

إنها مشكلة خالدة بين المسلمين والمعارضين فالأولون ينكرون هذا القول ويقولون بأن الذي في القرآن هو الحق وأن ما عداه هو الخطأ ولن يحكم التاريخ على القرآن الكريم. والآخرون يؤيِّدون القول بما وصلوا إليه من علم ومعرفة ويذهبون إلى أن هذه الأخطاء هي الدليل كل الدليل على أن القرآن لم ينزل من السماء وأن محمداً ليس بالنبي وأنه الذي

(١) المنار، جـ ١، ص ٣٩٩.

يصنع القرآن ويدَّعي أنه من عند الله وأنه يختلق من الحوادث ما لم يقع ويصوِّره على أنه الواقع التاريخي.

وليس من شك عندي في أن هذه القضية لا تحتمل من مبدئها هذا اللجاج ولا هذا العناد وأن كلا من الفريقين قد جانب الحق وباعد الصواب.

وليس من شك عندي أيضاً في أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه مَن آمن بهذه الأشياء وصدَّق كل ما فيها من تاريخ أو مَن أنكرها وادَّعى أنها أخطاء تاريخية أو قصص ملفَّقة هو جهل أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات ولما يصنعه الأول وخاصة ما فيه من قصص حين يستغل الثاني في أداء رسالته في هذه الحياة.

وأعتقد أن من حقِّنا أن نقف وقفة قصيرة نشرح فيها هذه العلاقات لنقدِّر ما في القرآن من قيَم تاريخية تقديراً لا ينكره الدين.

الأدب والتاريخ

أما إعتماد التاريخ على الأدب فأمر لا ينكره أحد ذلك لأن المؤرّخين يؤمنون بأن الأدب أخصب ميدان لتصوير حضارة الشعوب ولذا نراهم يعتمدون عليه ويعدونه من أهم العناصر المكوّنة للتاريخ بل لعل منهم مَن يراه أصدق الأشياء في هذا الجانب ذلك لأنه يدل على البذور الكامنة في النفوس لكثير من الآراء التي قدّر لها أن تسود الجماعات ولأنه يصوّر الآمال والمُثل العليا بل يصوّر الأحلام وما فيها من رغبات مكبوتة لجأ الأدب نفسه في تصويرها إلى الرمز والإشارة وغيرهما من أدوات التعبير.

وأما إعتماد الأدب وبخاصة القصة على التاريخ فهو الأمر الذي يحتاج إلى حديث. نعم إن الواقع العملي لكبار الكتّاب يؤيّد هذه القضية. وإن إعتماد القصاص على التاريخ يكسب حديثه سحراًويجعل النفوس شديدة الميل وسريعة التصديق لكثير مما جاء فيه. ولكن المسألة فيما نعتقد ليست مسألة إعتماد فحسب وإنما هي إلى جانب ذلك أو قبل ذلك مسألة الخلق الفني. وإذا كان الخالق المبدع يعمل غير مقيّد يعمل وقد ملك حريته كان من الحتم علينا أن نتحدث عن هذه الحرية (١) ميدانها (٢) وحدودها.

أما ميدان هذه الحرية فقد يكون إختيار بعض الأحداث التاريخية دون بعض وقد يكون إهمال مقوّمات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث كما قد يكون القرب أو

البعد من الواقع التاريخي وبعبارة أخرى قد يكون تحري الصدق والصحة أو المجاوزة عن هذا التحري وذلك لأن الأدب يكتفي في كثير من الحالات بالمشهور المتداوَل من المعارف التاريخية أو بالصور الذهنية للجماعة البشرية عن هذا الكون وأحداثه وبخاصة حينما يقصد إلى هذه المعارف ليتَّخذ منها المواد التي تعينه على ضرب الأمثال وقص القصص. وإذا كان من المحدِّثين من يعبِّر عن هذه الحالة بقوله إن الأدب يتناول الأشياء لا كما هي بل كما تبدو في ظاهرها ولا كما هي كائنة في ذاتها بل كما تدركها الحواس وتؤثِّر في عواطفنا فإن من الأقدمين العرب مَن فطن إلى هذه الحقيقة الفنية وأولئك هم البلاغيون إذ ليس يخفى أنهم اكتفوا في اللزوم باللزوم الذهني الذي يقوم على العرف والعادة ولم يتطلبوا اللزوم العقلي المنطقي الذي يقوم على حقائق الأشياء في ذاتها لا كما تدركها الحواس.

واكتفاؤهم باللزوم العرفي في مسائل البيان من تشبيه وإستعارة ومن كناية وتمثيل ومن قص القصص لضرب الأمثال وللهداية والإرشاد يجعلهم في حل من أن يعتمدوا من قضايا التاريخ ما هو المشهور المتداوَل حين يقصّون القصص ويضربون الأمثال وليس يلزم أن يكون هذا المشهور والمتداوَل مطابقاً للحق والواقع لأن هذه المطابقة إنما يتطلَّبها المؤرِّخ والفيلسوف لا الشاعر ولا الأديب القاصّ[1].

وأما حدود هذه الحرية فقد تتسع لدى القاصّ حتى لتشبه قصته أن تكون أسطورة أو ضرباً من ضروب الخيال وقد تضيق حتى لتشبه القصة أن تكون كتاباً من كتب التاريخ والأمر بعد متوقِّف على قصد الأديب فإن كان تعليم التاريخ بواسطة القصة ضاقت هذه الحدود لكن لا إلى الحد الذي تفسد فيه الحقائق التاريخية على القارىء إستمتاعه بالفن.

أما إن كان القصد من القصة التاريخية الإعتماد على ذلك الميل النفسي ميل المحبة لكل ما هو قديم لأنه يكسب القصة روعة وجلالاً ويضفي عليها شيئاً من السحر ويكسبها تلك القوة التي تجعلها قريبة من الواقع وتجعل القارىء أو السامع يصدق بسهولة كل ما جاء فيها فإن هذه الحرية تتسع لكن لا إلى الحد الذي يتعارض فيه الواقع التاريخي مع قضايا

---

(١) راجع شروح التلخيص، جـ ٣، ص ٣٧٣.

الفن ومسائله وإلا أفسد هذا التباين على القاص غرضه. ولذا تعتبر القضايا التاريخية المغرقة في القدَم والتي تجهل تفاصيلها جهلاً يكاد يكون تاماً أحسن ميدان لهذا النوع من القصص إذا أردنا للخلق الفني الإنطلاق من القيود والإنفلات من الحدود والتمتُّع بالحرية التامة الشاملة.

والأمثلة التي نستطيع أن نضربها كثيرة متنوعة فلدينا من أحداث التاريخ أحداث كثيرة استغلها قاصّون كثيرون وقد كان لكل منهم حريته في تصوير الحادثة وخلق الشخوص وقد يكفي في هذا المقام أن نذكر كليوبطرة وكيف استغل كل من شكسبير وبرنارد شو وشوقي موقفها من أنطونيو في تصوير قصته. وقد يكفي كذلك أن نذكر من أسماء القاصّين الذين استغلوا التاريخ إسم والتر سكت لنعرف كيف كان يتصرف في التاريخ فلقد كان هذا الرجل يعمد إلى إحياء التاريخ الأوسط وكان يرى فيه مجالاً خصباً لإرسال الخيال وخلق القصص ومن هنا لم يلتزم الصدق والدقة بل كثيراً ما كان يخلق شخوصاً من العدم وينطقها بما يشاء من أقوال كما كان يذكر أحداثاً لم تقع ويصوِّرها الصورة التي يرى أنها تحدِث الأثر المطلوب.

لكن الوصول بنا إلى هذه المسألة يوقعنا في حيرة ويعقِّد المسألة أمامنا ويجعل من الشاق العسير أن نستخلص ما في القصة من صور صادقة عن الأحداث الماضية ويجعل ما في القصة من قيَم تاريخية مجال الشك إن لم يكن الرفض ذلك لأن الباحث لن يستطيع أن يعلم في يقين أين من الحقائق المذكورة ما أفرغ فيه الكاتب خلجات نفسه وأين منها ما خلقه خلقاً لتتَّسق له الصورة وأين منها ما اكتفى فيه برواية الصادق الأمين.

إن إستخلاص الحقائق التاريخية من الأقاصيص يتوقف على معرفتنا لمدى تلك الحرية التي تمتع بها القاص أثناء تصويره الأحداث وتحريكه للأشخاص وتصويره للبيئة وإنطاقه كل هذا بما يوائم الفن ويلائم الحرية ويجري مع الخلق الأدبي في مضمار واحد حتى النهاية وإنه لأمر شاق عسير.

نعم نستطيع أن نفترض أن دراسة الأحداث التاريخية والوقوف عليها من كتب التاريخ ييسر الأمر ويسهِّل السبيل ويصل بنا إلى ما نريد من تحديد وتقدير لما في القصص

من قيَم تاريخية. ولكن ذلك الفرض لن يشفي الغليل لأن الأمر قد يكون أمر أحداث أُغرقت في القدَم ثم نُقلت إلينا في روايات شفهية زادت عليها أو نقصت منها حتى أحالتها إلى شيء يشبه القصص أو يشبه الأساطير ووقفت الأمور عند هذا الحد حتى لم يجد أي دليل غير تلك الروايات ومن أمثال ذلك ما رواه الجاهليون عن ناقة صالح وجن سليمان وساقه القوم فيما بعد على أنه الحقيقة والتاريخ. كما قد يكون الأمر أمر اعتماد القاص على الواقع النفسي لا الواقع التاريخي أي الإعتماد على المشهور المتداوَل لا على الصور الحقيقية لأحداث التاريخ.

هذه أمور يجب مراعاتها حين البحث عما في القصص من مسائل التاريخ وقضاياه وهي أمور تجيء دائماً بعد البحث عن أغراض القصص لأن الأغراض والمقاصد تلعب الدور الأول في كيفية بناء القصة من حيث توزيع المناظر وإقامة الحوار ورسم الشخوص والأحداث وليس يخفى أن تلك من عوامل الإستهواء التي توحي بما يريد القاص من فكر أو آراء ومعتقدات.

والآن نستطيع أن ننتقل مرة ثانية إلى الجو القرآني لنرى رأينا في تلك المشكلة المتعلقة بالقصص القرآني وما يقال من أن به أخطاء من أخطاء التاريخ.

وقبل البدء ننظر في إعتراض قد يُستثار ذلك لأن ما قرَّرناه من صلة بين التاريخ والقصة يعتمد على ظاهرات في القصص لوحظت حديثاً وقرِّرت على أنها بعض التقاليد الأدبية التي تصوِّر ما للقاص من حرية. والقرآن أقدم من هذه الملاحظات للظواهر وهذه المقررات للتقاليد. على أنها لو كانت قديمة لا تلزم القرآن في شيء إذ لكل قاص مذهبه وطريقته ولكل خالق حريته في الخلق والإبتكار ولن يقرِّر ما في القرآن من قيَم إلا مذهب أدبي التزمه القرآن نفسه أو على أقل تقدير حرص عليه وهو قول له وجاهته فيما نعتقد ثم هو يلزمنا إلى أن نبحث طريقة القرآن من واقعه العملي فهل توجد فيه يا ترى تلك الحرية أو التزم طريقة واحدة هي طريقة الصدق والتحري عن الحقيقة حين يصوِّر أحداث التاريخ؟

يدلّنا الإستقراء على أن ظواهر كثيرة من ظاهرات الحرية الفنية توجد في القرآن الكريم ونستطيع أن نعرض عليك منها في هذا الموقف ما يلي:

(١) إهمال القرآن حين يقص لمقوّمات التاريخ من زمان ومكان فليس في القرآن الكريم قصة واحدة عني فيها بالزمان. أما المكان فقد أهمل إهمالاً يكاد يكون تاماً لولا تلك الأمكنة القليلة المبعثرة هنا وهناك والتي لم يلفت القرآن الذهن إليها عرضاً.

على أن القرآن عمد إلى إهمال الأشخاص في بعض أقاصيصه إهمالاً تاماً. وهذه من المسائل التي سنعرض لها في الباب الثاني إن شاء الله.

(٢) إختياره لبعض الأحداث دون بعض فلم يعنَ القرآن بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص أو الحاصلة في أمة تصويراً تاماً كاملاً وإنما كان يكتفي باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه أي ما يلفت الذهن إلى مكان العظة وموطن الهِداية ولعله من أجل ذلك كان القرآن يجمع في الموطن الواحد كثيراً من الأقاصيص التي تنتهي بالقارىء إلى غاية واحدة. وتلك أيضاً من المسائل التي ستُشرح في الباب الثاني.

(٣) كان لا يهتم بالترتيب الزمني أو الطبيعي في إيراد الأحداث وتصويرها وإنما كان يخالف في هذا الترتيب ويتجاوزه الأمر الذي أكثر من الإشارة إليه صاحب المنار»[1] والذي نستطيع أن نجعل منه أيضاً قصة لوط فقد قال تعالى في سورة الحجر ﴿**فلما جاء آل لوط المرسلون ● قال إنكم قوم منكرون ● قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ● وآتيناك بالحق وإنّا لصادقون ● فأسر بأهلك بقطع من الليل واتّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمَرون ● وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ● وجاء أهل المدينة يستبشرون ● قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ● واتّقوا الله ولا تخزون ● قالوا أو لم ننهك عن العالمين ● قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ● لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ● فأخذتهم الصيحة مشرقين**﴾[2]، فإن هذه القصة لو لوحظت مع إحدى قصص لوط في القرآن كقصته في سورة هود مثلاً لوجدنا القصة في سورة هود تجري على هذه الطريقة. مجيء الملائكة ثم حاله واضطرابه النفسي، ثم مجيء القوم ثم موقفه وعرض بناته حتى لا يخزى، ثم ردّهم عليه وعزمهم على إتمام قصدهم، ثم موقف الملائكة

(١) المنار، جـ ١، ص ٣٤٦ و جـ ٨، ص ٥٠٢.

(٢) سورة الحجر، الآيات ٦١-٧٣.

وإخبارهم إياه أنهم رسل ربّه، وإخباره بمجيء العذاب وموعده، ثم نوع العذاب. فهنا نلحظ أن المحاورة بينه وبين قومه تتم قبل أن تخبره الملائكة بأنهم رسُل ربّه والقصة تجري بعد ذلك وقد رتّبت وقائعها الترتيب الذي يشعر بأن الزمن هو المحور الذي يربط هذه الوقائع المختارة أو هذه الأحداث المصوَّرة. أما في سورة الحجر فتعلّمه الملائكة كل شيء قبل مجيء قومه ومع ذلك تمضي المحاورة مع قومه وكأنه لم يعلم بأن أضيافه من الملائكة. وليس يخفى أن هذا بعيد عن الوقائع ومشاكلته قريب من القصص وما فيه من حرية تؤذن للقاص بأن يرتِّب أحداثه الترتيب الذي يصل إلى الغرض ويؤدي إلى الأهداف.

(٤) إسناده بعض الأحداث لأناس بأعيانهم في موطن ثم إسناده الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موطن آخر ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف **﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾**[1] إذ نراه في سورة الشعراء مقولاً على لسان فرعون نفسه **﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾**[2]. وكذلك تجد في قصة إبراهيم من سورة هود أن البشرى بالغلام كانت لامرأته بينما نجد البشرى لابراهيم نفسه في سورة الحجر وفي سورة الذاريات.

(٥) إنطاقه الشخص الواحد في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرّر القصة ومن ذلك تصويره لموقف الإله من موسى حين رؤيته النار فقد نودي في سورة النمل بقوله **﴿فلما جاءها نودي أن بورك مَن في النار ومَن حولها﴾**[3] وفي سورة القصص **﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾**[4] وفي سورة طه **﴿فلما أتاها نودي يا موسى ● إني أنا ربّك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدَّس طوى﴾**[5]. وذلك يشبه تصويره للموقف الواحد بعبارات مختلفة حين صوَّر

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٠٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٣٤.

(٣) سورة النمل، الآية ٨.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٠.

(٥) سورة طه، الآيتان ١١-١٢.

خوف موسى فمرة اكتفى بقوله **﴿خذها ولا تخف﴾**[1] ومرة أخرى قال **﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾**[2]. وهكذا في غيرهما من المواقف كتعبيره بالرجفة مرة وبالصيحة أخرى والطاغية في غيرهما وكتعبيره في إنشقاق الحجر عن الماء في قصة موسى فانفجرت مرة وانبجست أخرى وهكذا من المسائل التي جعلتهم يعدون القصص القرآني من المتشابه وليس من شك عندي في أن الإختلاف كان نتيجة تغيُّر في القصد أو الموقف وأن هذا التغيُّر جعل هذه قصة وتلك قصة وما نرى من إختلاف ليس إلا الصور الأدبية التي تلائم المقاصد والأغراض.

(٦) وجود مواقف جديدة لم تحدث بعد في سياق القصة التي تصوّر أحداثاً وقعت وانتهت ومن ذلك قوله في سورة الأعراف **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**[3] وذلك في سياق القصة التي تصوّر موسى وإختياره للسبعين رجلاً وتوجُّهه إلى الله ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى **﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾**[4] فليس من شك أن اليهود ينكرون رسالة عيسى ومن أجل ذلك قتلوه. فهم لم يقولوا هذا القول وإنما أنطقهم به القرآن. ومن قوله تعالى في آخر سورة المائدة وصفاً لموقف في الآخرة **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس إتّخذوني وأمي إلهين من دون الله...﴾**[5] إلخ. فإن هذا القول وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد بل لعله لن يحدث إذ القصد منه كما سبق أن ذكرنا التأثير على المعاصرين لمحمد عليه السلام والعمل على تنفيرهم من عبادته وعبادة أمه عليهما السلام.

ومثل ذلك الموقف أو قريب منه ما عرض له القرآن من حديث عن الجن في أثناء

---

(١) سورة طه، الآية ٢١.

(٢) سورة النمل، الآية ١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(٤) سورة النساء، الآية ١٥٧.

(٥) سورة المائدة، الآية ١١٦.

تصويره لوفاة سليمان عليه السلام فقد قال تعالى ﴿**فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**﴾[1] فقد قصد القرآن وقد عرض للجن بالحديث في أثناء قصّه أشياء عن سليمان عليه السلام أن يحارب الفكرة الجاهلية الشائعة في الجزيرة العربية وقت البعثة المحمدية من أن الجن تعرف أخبار السماء وتطّلع على الغيب وتلقي ما تعرف من ذلك على العرّافين والكهّان فقد كانت هذه الفكرة من العقبات القوية إن لم تكن أولى هذه العقبات في سبيل النبي عليه السلام وإثبات نبوّته فلقد كان القوم يذهبون إلى أن الشياطين تملي عليه ما يقول وأنها تسمع هذا الذي تمليه من السماء ﴿**وما تنزّلت به الشياطين ● وما ينبغي لهم وما يستطيعون ● إنهم عن السمع لمعزولون**﴾[2].

وهكذا نستطيع أن نمضي في حصر الظواهر التي تثبت لنا مذهب القرآن القصصي والتي تدل دلالة قوية على أن بعض ظواهر الحرية الأدبية التي يمنحها الأدباء لأنفسهم توجد في القرآن الكريم وأن القرآن قد قصد إليها ولكننا نريد أن نقف من كل ذلك عند قصتين اثنتين كانتا موطن إختبار النبي عليه السلام لمعرفة صدقه من كذبه أو معرفة هل هو نبي أو متنبّي وهما قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين فإن هاتين القصتين تقدّمان لنا الدليل القوي على المذهب القرآني في العلاقة بين القصة والتاريخ.

أما قصة أصحاب الكهف فنقف منها في هذا الموطن عند مسألتين الأولى مسألة عدد الفتية والثانية مدة لبثهم في الكهف.

أما من حيث العدد فليس يخفى أن القرآن لم يذكر عددهم في دقة وإنما ردّد الأمر بين ﴿**ثلاثة رابعهم كلبهم**﴾و ﴿**خمسة سادسهم كلبهم وسبعة ثامنهم كلبهم**﴾[3]. وليس يخفى أيضاً أن القرآن الكريم قد ختم هذه الآية بتلك النصيحة التي يتوجّه بها إلى النبي عليه السلام وهي قوله تعالى ﴿**قل ربي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار**

(١) سورة سبأ، الآية ١٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٢١٠-٢١٢.

(٣) سورة الكهف، الآية ٢٢.

فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ● ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً ● إلا أن يشاء الله واذكر ربّك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا﴾[1].

ما معنى هذا الترديد في العدد؟ وما معنى هذه النصائح؟

لا نستطيع أن نقول إن المولى سبحانه وتعالى كان يجهل عدد الفتية من أهل الكهف وأنه من أجل هذا لم يقطع في عددهم برأي فالمولى سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وإنه ليعلم السر وأخفى. وإنما نستطيع أن نقول إن هذا لم يكن إلا لحكمة والحكمة فيما نعتقد هي أن المطلوب من النبي عليه السلام أن يثبت أن الوحي ينزل عليه من السماء وأن يثبت ذلك لا بالعدد الحقيقي للفتية من أصحاب الكهف فذلك لم يكن موطن الإجابة وإنما بالعدد الذي ذكره اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة حين ذهب وفدهم ليسأل عن أمر محمد أنبي هو أم متنبّي. وإذا كان أحبار اليهود قد اختلفوا في أمر العدد وذكر كل منهم عدداً معيناً كان على القرآن أن ينزل بهذه الأقوال حتى يكون التصديق من المشركين بأن محمداً عليه السلام نبي ولو ذكر القرآن العدد الحقيقي وأعرض عن أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمداً لم يعرف عدد الفتية وليس وراء هذا إلا أن الوحي لا ينزل عليه من السماء.

ومثل هذا تماماً موقف القرآن من عدد السنين فلم يذكر القرآن العدد الحقيقي وإنما اكتفى المولى سبحانه وتعالى بما يعرفه اليهود ومن هنا نصح النبي عليه السلام بأن يقول **﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض﴾**[2] ولسنا بحاجة إلى أن نقول هنا أيضاً بأن العلي القدير لم يعرض عن عدد السنين الحقيقي إلا لحكمة وأن هذه الحكمة هي أن يكون ما يُذكر في القرآن الكريم مطابقاً لما قاله اليهود للمشركين. وهذا هو الذي أشار إليه بعض الأقدمين من المفسّرين. جاء في الطبري «... فقال بعضهم ذلك حبر من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله

(١) سورة **الكهف**، الآيات ٢٢-٢٤.

(٢) نفس السورة، الآية ٢٦.

﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ وقالوا لو كان ذلك خيراً من الله عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره»[1].

موقف القرآن من قصة أصحاب الكهف موقف مَن لا يحكي الحقيقة التاريخية وإنما يحكي أقوال اليهود التي قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها ومن هنا لا يصح أن يتوجَّه أي إعتراض على هذه القصة من حيث إختلافها مع الواقع لأن تحقيق هذا الواقع ليس المقصود من القصة في القرآن الكريم وسنزيد هذه القصة بياناً وإيضاحاً في الباب الثاني إن شاء الله.

وأما قصة ذي القرنين فقد سبق أن شرحنا أن القرآن إنما يصوّر في هذه القصة وبخاصة عند حديثه عن غروب الشمس ما يراه القوم بأعينهم وبعبارة أخرى يعبر القرآن عن مبصرات القوم كما يستطيعون رؤيتها لا حقيقة ما يقع وإذا كنا سنقف عند هذه القصة في الباب الثاني لنثبت أن القرآن إنما صوَّر في هذه القصة ما كانت تعرفه الجماعة العربية عن ذي القرنين وعن غروب الشمس من طريق السمع وأنه صوَّر مسموعاتهم لا مبصراتهم فأنّا سنقف هنا لنرى رأينا في مذهب القرآن البلاغي. فهل كان يقيم تشبيهاته وإستعاراته كما كانت تقيمها العرب على العرف والعادة أو كان يتطلب الحقيقة العقلية ليقيم عليها بيانه العربي من تشبيه وإستعارة ومن كناية وتمثيل؟

كان القرآن يجري على الصور الذهنية أو على الواقع النفسي في تشبيهاته وإستعاراته حين يتحدث عن جهنَّم ويصف طعامها والشراب وحين يتحدَّث عن الذي يتخبَّطه الشيطان من المس. جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ● طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾[2] ما يلي: «وأما تشبيه هذا الطلع برؤوس الشياطين ففيه سؤال لأنه قيل إنّا ما رأينا رؤوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها؟ وأجابوا عنه من وجوه الأول: وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسير واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة فكما حسن

---

(١) الطبري، جـ ١٠، ص ١٠٢

(٢) سورة الصافات، الآيتان ٦٤-٦٥.

التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة في قوله أن هذا إلا ملك كريم فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة»[1].

وجاء في الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى **﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس﴾**[2] ما يأتي: «لا يقومون إذ بُعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان أي المصروع وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون.

والمس الجنون ورجل ممسوس وهذا أيضاً من زعماتهم وأن الجني يمسّه فيختلط عقله وكذلك جن الرجل ضربته الجن ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات»[3].

القرآن يجري كما ترى في فنّه البياني على أساس ما كانت تعتقد العرب وتتخيَّل لا على ما هو الحقيقة العقلية ولا على ما هو الواقع العملي ولعله أن يكون من ذلك حديث القرآن عن المنافقين في قوله تعالى **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾**[4] فإنّا نراه يقيم تكذيب المنافقين على أساس ما يعتقدون لا على أساس ما هو الحق والواقع فلقد كان المنافقون يعتقدون أن محمداً غير مرسل من ربه وكان الحق والواقع أنه لرسول وقيل المنافقين له إنك رسول الله يتّفق مع الحق ويختلف وما يعتقدون ومن هنا رماهم القرآن بالكذب وحذّر النبي عليه السلام منهم.

والقرآن يجري على هذا المذهب أيضاً حين يتحدّث عن الجن وعن عقيدة المشركين فيهم وأنهم كانوا يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارها ثم يقومون بعد ذلك

(١) الرازي، جـ ٧، ص ٩٩.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٥.

(٣) **الكشاف**، جـ ١، ص ١٧٦.

(٤) سورة **المنافقون**، الآية ١.

بإلقاء هذه الأخبار على الكهنة وكان الكهنة يدّعون الإطّلاع على الغيب ومعرفة الأسرار.

يجري القرآن على هذا المذهب الأدبي في محاولته هدم عقيدة المشركين السابقة وقد كانت تُعتبر العقبة الأولى في سبيل الدعوة الإسلامية لما فيها من إتاحة الفرصة للمشركين بأن يدعو أن محمداً من الكهّان وأن الذي يطلعه على الغيب هم الشياطين وليس وحي السماء.

حارب القرآن هذه الفكرة وحاربها تدريجياً وبأساليب مختلفة. فالجن كانت تقعد مقاعد للسمع ولكن الكواكب أصبحت رجوماً والشهب أصبحت رواصد **﴿وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمَن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾**[1]. والجن تخطف الخطفة حتى بعد رسالة محمد عليه السلام وحتى بعد أن حدثت المعجزة ومنعت الجن من الإستراق. **﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ● وحفظا من كل شيطان مارد ● لا يسّمّعُون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ● دحوراً ولهم عذاب واصب ● إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾**[2].

ذلك أسلوب محاربة الفكرة يوم أن كان سلطانها قوياً وإيمانهم بها عنيفاً ويوم أن كان القرآن في أول عهده بهم ولكن حينما تقدّم الزمن وحينما استقر الأمر في البيئة واشتهر أمر المعجزة وأخذ القوم يصدقون بالرجم انتقل القرآن إلى أسلوب آخر في محاربة الفكرة فادّعى أن الجن ما كانت تعلم الغيب وأنها لو كانت تعلمه ما لبثت في العذاب بعد أن فارق سليمان عليه السلام الحياة **﴿فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾**[3].

وأسلوب المحاورة أولاً وآخراً يوقع بعض المفسّرين في إشكالات خاصة حينما يأخذون المسائل مأخذ الجد ويحاولون البحث عن الأجرام السماوية وهل كانت موجودة قبل محمد أو لم تكن؟ وإذا كانت فكيف جعلت رجوماً؟ وهكذا إلى أن يضيقوا هم

(١) سورة الجن، الآية ٩.

(٢) سورة **الصافات**، الآيات ٦-١٠.

(٣) سورة **سبأ**، الآية ١٤.

أنفسهم بأمثال هذه المسائل. جاء في الرازي ما يلي: يروى أن السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمَّع لخبر السماء فلما بعث محمد صلَّى عليه وسلَّم حرست السماء ورصدت الشياطين فمَن جاء منهم مسترقاً السمع رميَ بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره. فهذا هو السبب في انقضاض الشهب وهو المراد من قوله **﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾**[1] ومن الناس من طعن في هذا من وجوه:

أحدها: أن إنقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة قالوا إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس وإذا أبلغ النار التي دون الفلك احترق بها فتلك الشعلة هي الشهاب.

وثانيها: أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة ومراراً وألفاً امتنع أن يعود إليه من غير فائدة.

وثالثها: أنه يقال في ثخن السماء أنه مسيرة خمسمائة عام فهؤلاء الجن إن نفذوا في جرم السماء وخرقوا إتصاله فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال **﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾**[2]. وإن كانوا لا ينفذون في جرم السماء فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم؟ ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم فلمَ لا يسمعون كلام الملائكة حال كونهم في الأرض؟

ورابعها: أن الملائكة إنما اطَّلعوا على الأحوال المستقبلة إما لأنهم طالعوها في اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقَّفوها من وحي الله تعالى إليهم وعلى التقديرين فلمَ لم يسكتوا عن ذِكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها؟

وخامسها: أن الشياطين مخلوقون من النار والنار لا تحرق النار بل تقوّيها فكيف يُعقل أن يقال إن الشياطين زجروا عن إستراق السمع بهذه الشهب.

---

(١) سورة **الملك**، الآية ٥.

(٢) نفس السورة، الآية ٣.

وسادسها: أنه إن كان القذف لأجل النبوّة فلمَ دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام؟

وسابعها: أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض بدليل أنّا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض فكيف يقال إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك؟

وثامنها: أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة فلمَ لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفّار حتى يتوصل الكفّار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟

وتاسعها: لمَ لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب؟[1].

ولو أن الرازي فطن من أول الأمر إلى أن القرآن إنما يحارب هذه العقيدة ويحاربها بأسلوبه الخاص القائم على فكرة التدرُّج وأن هذا التدرُّج يشبه تماماً التدرُّج في التشريع في مسألة محاربة الخمر وغيرها وأن النسخ في التشريع إنما يعلَّل بهذه الفكرة. لو فطن الرازي إلى كل هذا لما أتعب نفسه وأتعب غيره في هذه الوقفات الطويلة ولقال بأن القرآن إنما يأخذ الناس بتصوُّراتهم وأنه في هذا الموقف قد سلم بهذه العقيدة لا لأنها حق وصدق وإنما لأنه يريد أن يهدمها تدريجياً فيسلم بها أولاً ثم يأخذ في هدمها مستعيناً بالزمن.

أعتقد أن قد اتضح الآن أن القرآن كان يأخذ الناس بتصوُّراتهم ويأخذهم بالعِرف والعادة وأنه كان يفعل هنا ما كان يفعله في أمور التشريع من أخذ الناس بعاداتهم ومن تغيير هذه العادات تدريجياً الأمر الذي من أجله كان النسخ في التشريع.

وأعتقد أن قد وضح أيضاً أن القرآن قد قصَّ في القصص التي كانت موطن الإختبار لمعرفة نبوَّة النبي عليه السلام وصدق رسالته ما يعرفه أهل الكتاب عن التاريخ لا ما

(١) الرازي، جـ ٨، ص ١٨٣.

هو الحق والواقع من التاريخ وأنه من هنا لا يجوز الإعتراض على النبي عليه السلام وعلى القرآن الكريم بأن بهذه الأقاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ.

أعتقد أن قد وضحت هذه الأمور وسنزيد هذه المسائل بياناً ووضوحاً في الباب الثاني إن شاء الله.

وقبل أن نختم هذا الفصل نلفت ذهن القارىء إلى أنه إذا وضح لديه الوضوح الكافي بأن القصة القرآنية قد قصد منها إلى التاريخ فإنه يتعيَّن عليه أن يؤمن بما جاء فيها على أنه التاريخ وذلك كتقرير القرآن لمسألة مولد عيسى عليه السلام وتقريره لمسألة إبراهيم عليه السلام وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً. أما تلك التي يقصد منها إلى العظة والعبرة وإلى الهِداية والإرشاد فإنه لا يلزم أن يكون ما فيها هو التاريخ فقد يكون المعارف التاريخية عند العرب أو عند اليهود وهذه المعارف لا تكون دائماً مطابقة للحق والواقع. وإكتفاء القرآن بما هو المشهور المتداوَل أمر أجازه النقد الأدبي وأجازته البلاغة العربية وجرى عليه كبار الكتّاب ومن هنا لا يصح أن يتوجَّه إعتراض على النبي عليه السلام أو على القرآن الكريم.

القيَم الإجتماعية والنفسية

وتختلف المسألة هنا عنها في القيَم التاريخية إختلافاً يكاد يكون تاماً وذلك لأسباب كثيرة ولعل أهمها ما يخص:

(١) المقاصد والأغراض.

(٢) وما يخص النتائج المترتِّبة على كل.

أما من حيث المقاصد فقد سبق أن علمنا في الفصل السابق أن المعاني التاريخية غير مقصودة من القصص القرآني. فطن إلى ذلك المفسِّرون ونصَّ عليه القرآن ومن هنا لم تكن صالحة لأن تكون محلاً لاستنباط القضايا التاريخية كما لم تعتبر جزءاً من الدين وعنصراً من عناصره نزلت لنتعبَّد بها أو نؤمن بما فيها من رأي. أما هذه المعاني إجتماعية ونفسية فقد قصد إليها القرآن وحاول تقريرها في القصص وفي غيره ثم هو قد أخذ يستند إليها كلما حاول الدفاع عن النبي عليه السلام وعن الدعوة الإسلامية وصوَّرها على أنها من القواعد العامة الثابتة في كل قصة تصوِّر نزاعاً بين الرسل وأقوامهم حتى لقد أصبحت في عرفه من النواميس العامة التي تصلح لكل زمان ولكل مكان وذلك من أمثال مجيء الرسل بألسنة أقوامهم وأن لكل أمة رسولها ولكل أمة أجلها إلى غير ذلك من الأمور التي سنبسِّطها في هذا الفصل إن شاء الله.

وأما من حيث النتائج فنحن نعلم أن المعاني التاريخية كانت الباب الذي يلج منه الملاحدة والمستشرقون والمبشِّرون وكل مَن أراد الكيد للنبي وللإسلام أما هذه النواميس فهي فخر كل مسلم يؤمن بالقرآن ويدين بالقرآن ويدين للإسلام ذلك لأنها تقرِّر من النواميس النفسية والإجتماعية ما يجعل الدعوة الإسلامية أكثر إرتباطاً بالفطرة وأقدر الدعوات على مسايرة الرقي العقلي والتطوُّر الإجتماعي في هذه الحياة.

ولعل من أقوى المثل التي تصوِّر لك هذا الرأي موقف القرآن من المعجزات فلقد كان الأقدمون من أهل الكتابين ومَن مضى من الأمم السابقة لا يؤمنون بالنبوَّة ولا يدينون بالرسالة إلا على بيِّنة من المعجزات وجاء القرآن فارتفع بالعقل البشري درجات ودرجات. ارتفع به حين فصل بين المعجزات وبين الإيمان بالرأي وذلك حين قال **﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾**[1].

وارتفع به حين أزال عنه شبح الخوف حين دلَّه على أن المعجزات لم تكن إلا للإكراه والإلزام وذلك حين قال **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأوَّلون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾**[2].

وارتفع به حين ردَّ مسألة الإيمان والكفر إلى أسباب عامة ونواميس ثابتة مستقرة وذلك حين قال **﴿يس ● والقرآن الحكيم ● إنك لمن المرسلين ● على صراط مستقيم ● تنزيل العزيز الرحيم ● لتنذر قوماً ما أنذر أباؤهم فهم غافلون ● لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ● إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ● وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ● وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ● إنما تنذر من اتَّبع الذكر وخشيَ الرحمن بالغيب فبشِّره بمغفرة وأجر كريم﴾**[3].

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١١.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٥٩.

(٣) سورة **يس**، الآيات ١-١١.

إذ يرى الناظر في هذه الآيات وأمثالها أنها وصف أدبي دال يعبِّر أقوى تعبير عن حال أولئك القوم الذين أثقلتهم التقاليد وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وأولئك الذين تمكَّنت منهم العقائد الباطلة حتى لينظرون إلى الوجود من خلالها وختام هذه الآيات يشرح هذه الظواهر أجمل شرح ويوضح تلك الظاهرة الإجتماعية التي تحدث مع كل دعوة وتوجد في كل زمان ومكان وهي أن نفوس الناس مختلفة وإستعداداتهم متفاوتة وقدرتهم على التخلُّص من القديم والإستجابة للجديد تتوقف إلى حد كبير على ما يحيط بهم من ظروف وما يلم بهم من أحداث وما يعدّه الزمن للمستقبل من رجال أحرار يحاولون النهوض بأمَّتهم والأخذ بيدها والسير بها في طريق التقدُّم والرقي. ومن هنا نرى القرآن في هذه الآيات يقابل بين صنفين: صنف عدم القادة فأثقلتهم التقاليد وتمكَّنت من نفوسهم العقائد الموروثة وهؤلاء هم الذين خصَّهم بقوله ﴿**لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون**﴾[1] وصنف آخر استعدَّت نفوسهم وتهيَّأت عقولهم وقلوبهم لأمثال هذه الدعوة وهم الذين خصَّهم الله بقوله ﴿**إنما تنذر مَن اتَّبع الذكر وخشيَ الرحمن بالغيب**﴾[2].

وهكذا نستطيع أن نمضي مع هذه الآيات وأمثالها فنرى أنها من الأمور التي يفخر بها كل مسلم ويطمئن إليها كل باحث ويحرص عليها كل مَن وهبه الله ذوقاً مترفاً وإحساساً مرهفاً ليتبيَّن أن هذه النواميس من أكبر مواطن الإعجاز.

هذه أهم الفروق فيما نرى بين هذا المقام وذاك.

وهنا أمر لا بد من الوقوف عنده هو أنّا لن ندرس في هذا الفصل من القيَم الإجتماعية إلا ما كان عاماً كالنواميس الإجتماعية والنفسية التي تثبت وتستقر ولا تتغيَّر بتغيُّر الظروف والأحوال. أما تلك الحالات الخاصة التي كان يصوِّرها القرآن في حديثه عن الأقوام كصورته لقوم عاد وصورته لأهل مدين أو قوم شعيب من أنهم ينحتون من الجبال بيوتاً أو يطففون المكيال والميزان فأمور لن نعرض لها هنا لأنها بباب القيَم الخلقية أليَق ولأنها من قبيل الأجواء التي يحرص عليها القصاص.

(١) سورة يس، الآية ٦.

(٢) نفس السورة، الآية ١١.

وكذلك الحالات النفسية الخاصة كحلم إبراهيم وسرعة إنفعال موسى إذ أقرب المواطن إلى درسها هو الحديث عن عنصر الشخصيات.

سنقصر الحديث هنا على النواميس النفسية والإجتماعية وأعتقد أن قد آن الأوان للتمييز بين اللونين ليتّضح في ذهن القارىء المراد.

نقصد بالنواميس الإجتماعية تلك النظريات التي أشار إليها القرآن أو لفت إليها الذهن حين صوَّر العوامل المؤثِّرة في رقي الأمم وحياة الشعوب والتي جعلها من الأحكام العامة حتى لنحس من صنيعه بأنها من النواميس التي لا تتخلَّف في زمان أو مكان وذلك من أمثال ما تشير إليه الآية الكريمة **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة ● رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ● فيها كتب قيّمة ● وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيّنة﴾**[١] من نواميس إذ هي تشير أولاً إلى أن الأمم والجماعات في حاجة إلى الرجال، في حاجة إلى الأبطال النابغين الذين يأخذون بيدها وينيرون لها السبيل، في حاجة إلى الذين يتفهَّمون رغباتها وآمالها أو أحلامها وأمانيها، في حاجة إلى الذين يعبِّرون عن إحتياجاتها ويصوِّرون لها مثلها العليا، في حاجة إلى الذين يأخذون بيدها دائماً حتى لا تثقلها التقاليد أو تنوِّمها العادات وحتى لا تقف جامدة حيث يتقدَّم غيرها في مضمار السباق في هذه الحياة.

ثم هي تشير ثانياً إلى أن هؤلاء الأبطال أو القادة يكونون مثار فرقة ومصدر إنقسام ذلك لأن الأفراد يختلفون فيما بينهم فطرة وإستعداداً ومن هنا يختلفون على الرأي بين مؤيِّدين ومعارضين وعلى المبادىء بين مؤمنين وكافرين حسب ما يحيط بهم من أحداث وما يُستثار في أنفسهم من عواطف وإنفعالات.

ومن أمثال ما تشير إليه هذه الآية أيضاً **﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ● سُنّة مَن قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾**[٢]. إذ تشير الآية الكريمة إلى ناموس آخر هو أن الأمة التي تستعصي على التجديد تهلك ولا تعمر في الحياة طويلاً.

---

(١) سورة **البيّنة**، الآيات ١-٤.

(٢) سورة **الإسراء**، الآيتان ٧٦-٧٧.

ونقصد بالنواميس النفسية تلك العواطف أو الإنفعالات أو الأسس النفسية التي تصاحب سلطان مبدأ أو سيطرة زعيم والتي تمكّن للمبادىء أو تزعزع سلطانها وتحد من قدرتها والتي تظهر في الأفراد أو في الجماعات حين تلم بها الأحداث أو تزعجها صروف الزمان وذلك من أمثال العجب الشديد والحرص على المعتقَد القديم البادِيين في قوله تعالى **﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ● أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ● وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد﴾**[1].

ومن أمثال الخوف الشديد على المعتقَد وحياته ومحبة التخلُّص من المعارضين الواضحين في قوله تعالى **﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ● إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾**[2].

ومن أمثال التضحية في سبيل المعتقَد بالنفس والنفيس حتى ليصل الحال إلى التهديد بالقتل والتعذيب بالصلب مما سنعرضه عليك مفصّلاً في هذا الفصل إن شاء الله.

وقبل أن أبدأ بتسجيل ما وقفت عليه من ظواهر نفسية واجتماعية أخبرك بأني قد جمعت بين اللونين من النواميس في فصل واحد لأن القصص القرآني قد وحّد بينهما في كثير من الأحيان ولأني أريد أن أرتِّب هذه النواميس أو تلك الأسس حسب مقتضيات الزمان من حيث ظهورها في ميدان الدعوات.

على أن هناك أمراً آخر هو أن النواميس الإجتماعية نفسها لا تُفهم ولا يمكن تتبُّع ظواهرها إلا على أساس نفسي ومن هنا أيضاً أحسست بأن هذا الجمع مرغوب فيه وأن الإعتراض عليه ليس بذي بال.

ونبدأ الآن بتسجيل هذه الظواهر ونبدأ منها بالحديث عن الأشخاص.

---

(١) سورة ص، الآيات ٤-٦.

(٢) سورة نوح، الآيتان ٢٦-٢٧.

(١) الأنبياء والبيئة

ولن نتناول هنا أشخاصهم وكيف صوَّرها القرآن فذلك له موطنه من البحث في باب القيّم الفنية وإنما سنحاول أن نتحدث عنهم كأشخاص لهم في أممهم أثر كما أن لهم بها صلة لنعرف أين يضعهم القرآن من البيئة أكانوا أثراً من آثارها ونتاجاً من معدنها وتربتها أم كانوا فريدين تقدَّموا العصر والبيئة حتى لنحسبهم من عنصر خارج لم يرث عن الآباء والأجداد ولم يتأثر بالبيئة فيأخذ عنها أي أثر.

ولنعرف أيضاً كيف مضى معهم القرآن مصوِّراً نفسيتهم حيال مبادىء الإصلاح وسلطانها عليهم وحيال شخصيات المؤيدين والمعارضين من أقوامهم وحيال العقبات التي صادفتهم وهل وقفوا عندها أو تخطّوها.

للأنبياء في القصص القرآني أقدارهم فهم الذين يجدِّدون بناء المجتمع بما يبثّون من أفكار ويبذِّرون من آراء ويوجدون من مبادىء وهم الذين يلائمون ين حاجات الأمم ومقتضيات الزمان فيطيلون أعمارها ويباعدون بينها وبين الضعف والإنحلال **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممَّن أنجينا منهم واتَّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ● وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾**[1]. **﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين ● أن اعبدوا الله واتَّقوه وأطيعون ● يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخِّركم إلى أجَل مسمًّى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخَّر لو كنتم تعلمون﴾**[2].

والأنبياء في القرآن هم الذين يهيِّئون الأمم للتقدُّم ويجعلونها قادرة على التخلُّص من آثار الماضي وهم حين يندرون تفقد الأمة هذه القدرة فتنوء بها العادات وتثقلها التقاليد حتى لا تستطيع منهما تخلُّصاً أو لهما فكاكاً فتقف حينئذٍ مكتوفة الأيدي وتعجز عن التقدُّم في مضمار الحياة **﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾**[3].

---

(١) سورة هود، الآيتان ١١٦-١١٧.

(٢) سورة نوح، الآيات ٢-٤.

(٣) سورة يس، الآية ٦.

والأنبياء في القرآن هم الذين يهبون للأمة الوحدة فيجمعون ما تفرّق من شملها بتوحيدهم للعقائد وإحالتهم لها إلى قوة دافعة يصدر عنها الأفراد والجماعات حين يفكّرون ويعملون فتفسّر المسائل حينئذٍ تفسيراً يوحّد بين وجهات النظر في الأفراد فلا تفرّق بينهم الأهواء أو تتوزّعهم العواطف وتكون المبادىء إذ ذاك كالنور الذي يضيء الطريق ويهدي إلى السبيل القويم **﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبُل فتفرّق بكم عن سبيله﴾**[1]، **﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾**[2]. **﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور﴾**[3]، **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ● يهدي به الله مَن اتّبع رضوانه سبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**[4].

والأنبياء ينبتون نباتاً طبيعياً فهم من البيئة وليسوا بالغرباء عنها. هم من جنس القوم فلو كان سكان البيئة من الملائكة لكان أنبياؤهم كذلك **﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾**[5]. بل هم إخوانهم المتحدّثون بلسانهم فنبي قوم عاد أخوهم هود ونبي قوم ثمود أخوهم صالح ونبي مدين أخوهم شعيب. **﴿كذبت قوم نوح المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتّقون﴾**[6]، **﴿كذبت قوم لوط المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتّقون﴾**[7]، **﴿كذبت عاد المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتّقون﴾**[8]، **﴿كذبت ثمود المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم صالح ألا**

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٥٣.
(٢) سورة **النساء**، الآية ١٧٤.
(٣) سورة **المائدة**، الآية ٤٤.
(٤) نفس السورة، الآيتان ١٥-١٦.
(٥) سورة **الإسراء**، الآية ٩٥.
(٦) سورة **الشعراء**، الآيتان ١٠٥-١٠٦.
(٧) نفس السورة، الآيتان ١٦٠-١٦١.
(٨) نفس السورة، الآيتان ١٢٣-١٢٤.

تتقون﴾[1]، **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضل الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء وهو العزيز الحكيم﴾**[2].

والأنبياء ولدوا في البيئة وخالطوا الأهل والعشيرة وقلَّدوهم في كل ما يقال وما يُفعل وهم أطفال حتى لقد آمن بعضهم بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا لما تدين له من رأي وعبدوا ما تعبد من إله ولعلهم قد أتوا من ضروب التقديس والإجلال بما تأتّى ولعلهم قد تركوا منها ما تذر وما تدع فموسى مثلاً قد تربَّى في حُجر فرعون فتأثر به وبدينه **﴿قال ألم نربِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ● وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ● قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾**[3]. وشعيب عبد ما يعبد قومه **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنّ في ملّتنا قال أولو كنا كارهين ● قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكّلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾**[4]. والرسل جميعاً يجرون على هذه القاعدة ويسيرون على هذا المنوال **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملّتنا﴾**[5].

كان سلطان هذه الأشياء على الأنبياء عظيماً يوم لم يكن لهم من أمرهم شأن غير التلقين والتقليد فلما أن بلغوا أشدَّهم واستووا أتتهم البينة من ربهم وعند ذلك رأوا غير ما ترى البيئة وقدَّروا غير ما تقدِّر فيوسف ترك دين قومه **﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾**[6]. ومحمد صلَّى الله عليه وسلَّم نهى عن عبادة غير الله لما جاءته البيّنة **﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيّنات من ربي**

(١) سورة **الشعراء**، الآيتان ١٤١-١٤٢.

(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ٤.

(٣) سورة **الشعراء**، الآيات ١٨-٢٠.

(٤) سورة **الأعراف**، الآيتان ٨٨-٨٩.

(٥) سورة **إبراهيم**، الآية ١٣.

(٦) سورة **يوسف**، الآية ٣٧.

وأُمرت أن أسلم لرب العالمين﴾[1].

كانت البيئة في حالة تشبه الفساد إن لم تكنه فهفت نفوس أفرادها إلى الأنبياء ومنّت نفسها بالإستجابة لهم والإيمان بما يدعون إليه من رأي أو عقيدة **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾**[2]. **﴿وإن كانوا ليقولون ● لو أن عندنا ذكراً من الأولين ● لكنّا عباد الله المخلصين﴾**[3]. **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾**[4].

بل لعلها كانت تتطلَّع إلى فرد بعينه وشخص بذاته تعقد عليه الآمال وترجو أن يكون مخلّصها من الشر ومنقذها من الضلال **﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾**[5].

رجت فاستجاب لها ربها واصطفى واحداً من أبنائها وأرسله ليكون لها هادياً وبشيراً. أرسله فاستجاب له قوم ونفر منه آخرون وحدث ما يحدث في كل دعوة من وجود مؤيِّدين ومعارضين أو مؤمنين وكافرين فكانت الفرقة وكان الإنقسام.

(٢) الإنقسام

والإنقسام في الجماعة نتيجة حتمية للإختلاف في الآراء والتعصُّب لها. وإختلاف الآراء والتعصُّب لها أمران يحدثان كلما دعا داعٍ أو همَّ بالإصلاح رسول **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله**

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٦.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤٢.

(٣) سورة الصافات، الآيات ١٦٧-١٦٩.

(٤) سورة المائدة، الآية ١٩.

(٥) سورة هود، الآية ٦٢.

الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1].

ويصوِّر القرآن هذا الإختلاف على أنه الناموس العام الذي أراده الله للناس **﴿ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ● إلا من رحم ربّك ولذلك خلقهم﴾**[2].

ومن هنا لا نعجب حين نلمس أثر ذلك الناموس الإجتماعي في قوم موسى **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربّك لَقُضِي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب﴾**[3]. وفي قوم عيسى **﴿ولما جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيِّن لكم بعض الذين تختلفون فيه فاتّقوا الله وأطيعون ● إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ● فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾**[4]. وفي قوم صالح **﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾**[5]. بل في قوم كل نبي من الأنبياء **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربّك هادياً ونصيراً﴾**[6].

بل قد لا نعجب إذا امتد أثر هذا الناموس إلى ما هو أبعد غوراً وأكثر عمقاً فلا نعجب مثلاً حين نلمس أثره في الأسرة الواحدة وفي البيت الواحد حين نرى فرعون في وادٍ وزوجته في آخر **﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين﴾**[7]. وحين نرى نوحاً ينادي

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

(٢) سورة **هود**، الآيتان ١١٨-١١٩.

(٣) نفس السورة، الآية ١١٠.

(٤) سورة **الزخرف**، الآيات ٦٣-٦٥.

(٥) سورة **النمل**، الآية ٤٥.

(٦) سورة **الفرقان**، الآية ٣١.

(٧) سورة **التحريم**، الآية ١١.

ابنه بقلب مفطور **﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ● قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾**[1].

وحين نرى إبراهيم عليه السلام يحاول أن يهدي أباه فيعجز ويعتزله وقومه وما يدعون من دون الله **﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ● يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ● يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ● يا أبت إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ● قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك وأهجرني ملياً ● قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ● وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾**[2]. بل قد لا نعجب إذا لمسنا أثر ذلك الناموس في ذلك الموقف الفرد الذي يقف فيه ولد من والديه موقف الخصومة يدعوانه فلا يستجيب ويصم أذنيه عن الدعاء: ذلك الموقف الذي يقطر فيه البر والحنان من جانب والقسوة والعنف من آخر والذي يصوّره القرآن أبلغ تصوير فيملأه بالحركة والقوة والعواطف الهائجة والإنفعالات الثائرة ويعبّر عنه بصيَغ لم تخلَق إلا لهذا الموقف وأمثاله **﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾**[3].

وهكذا يسجل القرآن صور هذا الناموس ويتعقّبها لا في حياة الجماعة فحسب بل في حياة الأسرة الواحدة وفي المنزل الواحد بل قد يجاوز كل هذا إلى أثر ذلك الناموس في الحياة الفكرية للفرد حين تتنازعه العوامل بين قديمه والجديد وحين تتسلّط عليه الخواطر فيصيبه القلق **﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ...﴾**[4].

---

(١) سورة هود، الآيتان ٤٢-٤٣.

(٢) سورة مريم، الآيات ٤٢-٤٨.

(٣) سورة الأحقاف، الآية ١٧.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

والقرآن لا يقف من هذا الناموس الإجتماعي عند أثره في نفس الفرد أو في نفس الجماعة وإنما يعدوه إلى شرح علله وأسبابه ويرينا من كل هذه الأمور ما هو من عوامل التقدُّم والتجديد وما هو من عوامل الجمود والتقليد وهو يربط كل ذلك بظواهر إجتماعية هي من النواميس التي لا تتخلَّف. ولعل أحسن ما وقفنا عليه منها هو ما يأتي:

(أ) **الحالة المعيشية**: والنظرة الأولى فيما صوَّر القرآن من عوامل تدلّنا دلالة قوية على أن الأغنياء يقفون دائماً في وجه الدعوات ﴿**وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون**﴾[1]. وأنهم يكونون كتلة المعارضة التي تحارب الأفكار الجديدة والتي تنفق الأموال الضخمة في سبيل القضاء عليها بصد الناس عنها ومحاربة الداعين إليها ووضع العقبات في سبيلها ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**﴾[2].

والنظرة الأولى أيضاً تبيِّن لنا أن الفقراء على العكس من ذلك فهم الذين يستجيبون للأنبياء وهم الذين يؤمنون بالدعوات وهم الذين يقفون إلى جانب الرسل ينصرونهم ويشدّون أزرهم حين يكونون في حاجة إلى الأنصار والأعوان ثم هم الذين يدافعون عنهم ويعصون أمر مخالفيهم حين يكون الجدل والحوار. فالمستضعفون من قوم صالح هم الذين لبّوا دعوته وصدّقوا رسالته وآمنوا بما جاء به من دين جديد ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لِمَن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسَل من ربه قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون ● قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون ● فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسَلين**﴾[3].

وتتعقَّد الأمور دائماً بين الفقراء والأغنياء كلما دعا داعٍ أو جاء رسول بدين جديد. ومن هنا نرى تلك الخصومة التي تقوم بين الأغنياء والفقراء أو المستضعفين والمستكبرين. كما نرى الأغنياء يعيرون الرسل بانضمام الفقراء إليهم وأنهم أول مَن استجاب للدين

(١) سورة سبأ، الآية ٣٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف، الآيات ٧٥-٧٧.

الجديد ﴿**وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي**﴾[1]. بل يذهبون إلى أبعد من هذا ويرون أن دخول أمثال هؤلاء الفقراء في الدين هو الذي يحول بينهم وبينه وهو الذي يمنعهم من الإيمان والتصديق ﴿**قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون**﴾[2]. ومن هنا نراهم يطلبون إلى الأنبياء طرد الفقراء من مجالسهم وتنحيتهم عن أن يكونوا عقبات في سبيل هؤلاء الأغنياء. وهنا يصوِّر لنا القرآن رفض الأنبياء خوفاً من عقاب الله أو حرصاً على مصلحة الدعوة ونصرة الدين. ﴿**وما أنا بطارد المؤمنين ● إن أنا إلا نذير مبين**﴾[3]، ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾[4]، ﴿**ويا قوم مَن ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون**﴾[5].

وتعليل هذه الظاهرة الإجتماعية أو هذا الموقف من كل من الأغنياء والفقراء ليس بالشاق ولا بالعسير. فالقرآن نفسه يشير إليه في أكثر من موطن ويرشد إليه كلما وجد إلى ذلك السبيل. ومن هنا تعدَّدت العلل واختلفت باختلاف المواطن ولعل من أهمها ما يلي:

أن الغنى يجعل أمور الناس ميسرة وحاجاتهم مقضية ويجعل من السهل عليهم الإستمتاع بما في الحياة من لذائذ وطيبات ولذا يجنح الأغنياء إلى الراحة ويخلدون إلى السكينة ويطمئنون إلى ما هم عليه من حال فلا يحاولون تغيير أوضاعهم ومن هنا لا تخفق قلوبهم بحب الإصلاح ولا تنجذب نفوسهم أو تطمئن قلوبهم إلى التجديد من الدعوات. ﴿**بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ● ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون**﴾[6].

---

(١) سورة هود، الآية ٢٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١١١.

(٣) نفس السورة، الآيتان ١١٤-١١٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٥٢.

(٥) سورة هود، الآية ٣٠.

(٦) سورة الزخرف، الآيتان ٢٩-٣٠.

وكلما طال على الأغنياء الأمد وامتد بهم الزمن تولَّدت في نفوسهم محبة الحياة وقويت في نفوسهم الأثرة وخُيِّل إليهم أن قد كُتب لهم الخلود. **﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متَّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾**(١). ومن هنا نرى القرآن يعمد إلى تخويفهم وزعزعة هذه الأسس من قلوبهم وعقولهم فيلفت ذهنهم إلى أنه يأتي الأرض ينقصها من أطرافها **﴿بل متّعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾**(٢). وإلى أن عذابهم في الآخرة سيكون قوياً عنيفاً **﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ● لا تجأروا اليوم إنكم منّا لا تنصرون ● قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ● مستكبرين به سامراً تهجرون﴾**(٣).

أما الفقراء فيسيرون على العكس من هؤلاء في هذه المواطن فهم قد سُلِّط عليهم الزمن وألهبتهم ضرورات الحياة ففكَّروا في أمورهم وتمنّوا حالة أسعد من حالتهم وراموا سهل العيش ولين الحياة فما إن دعاهم الداعي حتى لعب خيال المستقبل بعقولهم وقلوبهم وقاربت الآمال أن تصبح حقائق ومن هنا يستجيبون لعل السعادة أن تقبل بعد إدبار ولعلها أن تلازمهم بعد أن ملّوا الفراق وطول الإنتظار.

والغنى يدفع إلى الكبر والإستكبار والعناد: **﴿ويل لكل أفّاك أثيم ● يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشّره بعذاب أليم﴾**(٤)، **﴿كلا إن الإنسان ليطغى ● أن رآه استغنى﴾**(٥)، **﴿كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾**(٦). والمتكبّرون عادة يضيقون بالدعاة وينالونهم بالأذى حتى ولو رأوا أن ما جاءوا به هو الحق

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ١٨.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٤٤.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآيات ٦٤-٦٧.

(٤) سورة **الجاثية**، الآيتان ٧-٨.

(٥) سورة **العلق**، الآيتان ٦-٧.

(٦) سورة **المدثر**، الآية ١٦.

وما دعوا إليه هو الصدق والعدل. **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾**[1].

والفقر يذل النفس ويخضع هام الرجال ولذا يكون الفقراء أيسر إقناعاً وأسهل إنقياداً وأسرع إيماناً بالدعوات **﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾**[2]، **﴿وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾**[3]، **﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ● قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ● وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾**[4].

والغنى يجعل الناس أشد حرصاً على الحياة وعلى الإحتفاظ بما خلف الآباء من أثر وينمّي فيهم محبة المألوف والعادي **﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون ● قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾**[5] ثم إن الغنى يدفع إلى الإحتفاظ بالملك والرياسة ويحض على إكتساب السلطان والنفوذ **﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾**[6].

(١) سورة **النمل**، الآية ١٤.

(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ٢١.

(٣) سورة **الأحزاب**، الآية ٦٧.

(٤) سورة **سبأ**، الآيات ٣١-٣٣.

(٥) سورة **الزخرف**، الآيتان ٢٣-٢٤.

(٦) سورة **يونس**، الآية ٧٨.

ومن هنا يتطيَّرون بالدعاة ويتشاءمون منهم **﴿قالوا اطّيرنا بك وبمَن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتنون﴾**[1]. ويعتقدون أن الرسل من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾**[2].

والفقر لا يدفع إلى الحرص على شيء فلا مال ولا جاه ولا نفوذ ولا سلطان والفقر لا يؤدي إلى الإستقرار وإذا فلا خضوع إلى رأي بعينه ولا إستقرار للتقاليد والعادات وبالجملة فالفقراء في حالة لا يُحسَدون عليها ولن تطلب منهم أكثر من حمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

(ب) **الحالة الثقافية والفكرية**: إن تهيئة الأذهان لموضوع الدعوة أو المبادىء الجديدة له قيمته الفعّالة في قبول هذه الأشياء كما أن ترك النفوس غفلاً والأذهان خلاء هو الذي يدفع إلى إنكار هذه المبادىء والآراء وهذا الأمر هو الذي أشار إليه القرآن حين قال **﴿تنزيل العزيز الرحيم ● لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ● لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ● إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ● وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ● وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ● إنما تنذر مَن اتَّبع الذكر وخشيَ الرحمن بالغيب فبشِّره بمغفرة وأجر كريم﴾**[3]. إذ الواضح من هذا النص أن الذين سيتبعونه إنما هم الذين استعدَّت نفوسهم وتهيَّأت عقولهم أما أولئك الذين لم تأتِهم النذر أو لم تنزل عليهم الكتب فهم أبعد الناس عن الإيمان والتصديق.

وليس الأمر في هذه المسألة خاصاً بمَن خشيَ الرحمن بالغيب بل هو خاص بالإستعداد أياً كان هذا الإستعداد ولذا نرى المشركين تصغي أفئدتهم لما تهيَّأت له عقولهم وذلك واضح من قوله **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم**

(١) سورة **النمل**، الآية ٤٧.

(٢) سورة **غافر**، الآية ٢٦.

(٣) سورة **يس**، الآيات ٥-١١.

إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ● ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾[1].

والذين يهيّئون الأذهان لهذه المبادىء إنما هم الرسل وما ينزل عليهم من كتب أو هم العظماء وما ينشرون من أفكار ولذا نرى القرآن يتعجَّب من موقف المشركين من محمد عليه السلام ويرى أنه قائم على غير أساس لأن الأساس السليم في مثل هذا الموقف إنما هو ذلك الذي يعتمد على الرسل والكتب ولذا نراه يقول **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا أفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ● وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾**[2].

كما يدل في غير هذه الآيات على أن مهمة الرسل إنما هي الهِداية والإنذار وقال تعالى **﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾**[3].

والأمر في المسألة يرجع من الوجهة النفسية إلى أن الإنسان يفسِّر ظواهر الوجود بما يعرف من أفكار وآراء إذ هو يربط ما يحس بما يعرف أو يربط غير المفهوم بالمفهوم ومن هنا تتقارب التفسيرات وتتشابه عند الذين يدينون بآراء واحدة أو متشابهة وتختلف إختلافاً كبيراً حين يتباين ما في أدمغة الناس من أفكار وآراء.

والأمر لا يقف عند هذا الحد بل تتبعه حالة نفسية أخرى هي أن المؤمن برأي ما يعتقد بحيازته للحقيقة المطلقة فيرى نفسه المصيب وغيره المخطىء وذلك واضح في القرآن **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم**

---

(١) سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٢-١١٣.

(٢) سورة **سبأ**، الآيتان ٤٣-٤٤.

(٣) سورة **السجدة**، الآية ٣.

يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[1].

ومن هذين نرى أمراً ثالثاً هو لتكون الثقافة نافعة ومفيدة للدعوات الجديدة يجب أن تكون بينها صلة فيبنى الجديد على القديم. وكلما ازدادت هذه الصلة خلقت جواً عاطفياً يقوّي الآراء ويمكّن لها. وكلما ضعفت هذه الصلات أو تلاشت قابلت النفس الجديد بفتور أو بإعراض ونفور. والواقع العملي والآيات القرآنية يؤيّدان هذه الحقيقة النفسية فقد آمن المدنيون أو كانوا أسرع إستجابة لأن الدعوة الإسلامية كانت متقاربة أو متشابهة لما يألفون وعلى العكس من ذلك كان المكيون الذين باعدت الوثنية بينهم وبين ما يُراد منهم من توحيد. والآيات القرآنية تقول بوجود الصلة بين الكتب المُنزَلة كما تصوّر ذلك الجو العاطفي الذي يظهر حين تتّفق الآراء وتتشابه أو تختلف وتتباين فيكون الإستبشار مثلاً من القوم حين يسمعون ما يتفق وأهواءهم وتكون النفرة والإشمئزاز حين يسمعون ما ينكرون **﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾**[2]، **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم مَن يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ● وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾**[3].

ولعل هذا هو السر الذي من أجله عتب القرآن على أهل الكتاب وعاب منهم موقفهم من محمد مع وجود الصلة وقوة المشابهة **﴿قل يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ● قل يا أهل الكتاب لمَ تصدّون عن سبيل الله مَن آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾**[4].

كما اعتذر عن موقف المشركين من أنه لم ينزل عليهم كتاباً ولم يرسل إليهم رسولاً. وأنهم تركوا لأهوائهم فأعمتهم وأضلّتهم فهُم كالأنعام أو أضل سبيلاً وليس من

(١) سورة البقرة، الآية ١١٣.

(٢) سورة الزمر، الآية ٤٥.

(٣) سورة التوبة، الآيتان ١٢٤-١٢٥.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان ٩٨-٩٩.

شك في أن الثقافة تجعل العقلية مرنة وتهيّء الإنسان لفهم الكثير مما يعرض عليه وقبوله في إسماح ويسر وأن وجود الأفكار المعارضة أو الجهل بموضوع الدعوات يجعل قبول الإنسان لها شاقاً عسيراً.

(ج) **سلطان الآباء والأجداد**: وسلطان التقاليد له قيمته في كل أمة من الوجهة الإجتماعية ذلك لأنه المساك الذي يثقل الأمة عن أن تكون ريشة في مهب الرياح وهو من هذه الناحية ذو فائدة كبيرة للأمة مهما يكن حظها من التقدُّم والرقي. إلا أنه قد يكون حجر عثرة في سبيل الأمة فيثقلها عن أن تنهض ويجرّها إلى الوراء ويجعلها تلتفت دائماً إلى ما ورثته من تراث عن الآباء والأجداد لتقف عنده راضية مطمئنة وهو من هذه الناحية يكون آية من آيات الرجعية ودليلاً من أدلة الجمود. ولذا كانت خير الأمم تلك التي تقف بين هذين فيكون لها من التقاليد ما يحفظها من الذبذبة وعندها من القدرة على التخلُّص من سلطان هذه التقاليد ما يجعلها مرنة طيّعة تسير حين يُكتب لها النهوض أو تستحث عليه بخطى ثابتة.

والعوامل التي تهب للأمة هذه المقدرة كثيرة لعل أهمها وجود الأبطال وقد سبق لنا أن تحدَّثنا عن آثارهم في هذه الناحية ويعنينا الآن أن نذكر الجانب المقابل الذي يقعد بالأمة عن النهوض ويكتب عليها الجمود ويجعلها غير قادرة على الحركة والسير في مضمار الحياة وهو سلطان التقاليد أو سلطان الآباء والأجداد..

يتفاوت هذا السلطان في الأمم بتفاوُت الأطوار التي مرَّت بها من حيث السلّم الحضاري فهو في الأمم الصناعية والتجارية مثلاً أخف وطأة منه في الأمم الزراعية والراعية وهو في هذين وبخاصة الأخيرة ذو سلطان قوي مكين ذلك لأن النظام الذي يقوم في مثل هذه البيئة إنما هو النظام الرعوي والنظام الرعوي بحكم طبيعته يمكن لسلطان التقاليد وهذا هو الواضح من تصوير القرآن وهذا هو الذي أقعد الكثيرين من أبناء الأمة العربية عن الإستجابة فإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها وإذا قال لهم تعالوا إلى أهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون ويكرر القرآن الآيات التي تدل على سلطان هذه التقاليد

ويذكرها على ألسنة أقوام الرسل المختفلين فيذكرها على لسان قوم إبراهيم حين يقولون **﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾**(١) وعلى لسان قوم هود **﴿إن هذا إلا خلق الأولين ● وما نحن بمعذَّبين﴾**(٢) وعلى لسان قوم موسى حين عجبوا من دعوته لهم وطلبه منهم نبذ عبادة الأوثان **﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾**(٣). وهكذا قوم محمد **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾**(٤)، **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾**(٥) وهكذا نستطيع أن نقول إن التفاوت في كل من الثروة والثقافة والطور الحضاري يساعد على الإختلاف والإنقسام في الرأي حين تنبت دعوة أو يظهر بطل جديد وأن هذا الإختلاف أو ذلك الإنقسام يؤديان إلى نتيجة أخرى هي الصراع ذلك لأن النفس الإنسانية لا تطيق المخالف.

(٣) نفس المؤمن لا تطيق المخالف

وهذا ناموس نفسي يصوِّره القرآن حين يقول **﴿تلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض منهم مَن كلَّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيَّدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم مَن آمن ومنهم مَن كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾**(٦) ويدل على قوَّته وتأثيره حين يهدِّد المستجيبين لوحيه والخاضعين لسلطانه بقوله **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشِّرهم بعذاب أليم﴾**(٧).

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٧٤.

(٢) نفس السورة، الآيتان ١٣٧-١٣٨.

(٣) سورة **يونس**، الآية ٧٨.

(٤) سورة **المائدة**، الآية ١٠٤.

(٥) سورة **لقمان**، الآية ٢١.

(٦) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٣.

(٧) سورة **آل عمران**، الآية ٢١.

ويظهر لنا أن السر في هذا إنما يرجع إلى أن الإيمان يخلق في النفوس جواً عاطفياً نحو الآراء والأشياء ومن هنا عبَّر القرآن عن الصلة بين الآلهة والأتباع بالحب حين قال ﴿**ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾[1].

هذا الجو له أثره في كل من الأفراد والجماعات فهو الذي يدعوها إلى هذا الموقف من المخالف وهو الذي يضطرها إلى الفتك والإضطهاد.

فأولاً: يدفع هذا الجو المؤمن أياً كان دينه إلى كراهية مَن ينال معتقداته بأذى أو يمسّها بسوء فالمشركون مثلاً يكادون يزلقون النبي بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون والكفرة يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آيات ربهم ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا**﴾[2]. وأهل الكتاب جاءتهم الرسل بغير ما تهوى أنفسهم ففريقاً كذبوا وفريقا يقتلون ﴿**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾[3].

وثانياً: يدفع هذا الجو المؤمن إلى الإحساس بأنه على الحق وغيره في ضلال ولذا لا يحس بما في رأيه من خطأ حتى ولو كان واضحاً للعيان ومن هنا رأت اليهود أن ليست النصارى على شيء ورأت النصارى أن ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾[4]. ومن هنا أيضاً رأى قوم نوح أنه في ضلال ﴿**قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين ● قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين**﴾[5]. ورأى قوم شعيب أن مَن اتَّبعه هم الخاسرون ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتَّبعتم شعيباً إنكم**

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢) سورة **الحج**، الآية ٧٢.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٨٧.

(٤) نفس السورة، الآية ١١٣.

(٥) سورة **الأعراف**، الآيتان ٦٠-٦١.

إذاً لخاسرون﴾[1] ويرى الذين أجرموا أن أتباع محمد ضالون **﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾**[2].

والمؤمن وإن توجّع لعمى قلب مَن يخالفه **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾**[3] لا يتأخر عن حمل الناس بالقوة على الإيمان بمعتقده، إن وجد إلى ذلك السبيل.

وثالثاً: يخلق الإيمان في الجماعة نوعاً من المشاعر تجمع شملها وتلم شعثها وتربط بين عناصرها وتجعلها سلسلة متشابكة من الحلقات. كما يبث الإيمان في الجماعة روحاً تصدر عنها في أفكارها وآرائها وتبنى عليه مختلف التقاليد والعادات. ولذا تحرص الجماعة على هذه الروح وعلى تلك المشاعر لأنها سر قوتها وآية عزها ومنعتها، ومن هنا لا ترضى الجماعة عن الشخص حتى يكون على دينها أو وفق هواها **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم﴾**[4]. ومن هنا أيضاً تكره الجماعة مَن يشذ عنها أو يخرج عليها حتى ولو كان نابغة أو عبقرياً وترى فيه نذير الشؤم وآية الضعف والإنحلال ولذا تطير قوم صالح به وبمَن معه **﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ● قال يا قوم لـِمَ تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ● قالوا اطّيرنا بك وبمَن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون﴾**[5]. ورأى قوم هود هوداً في سفاهة **﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة وإنّا لنظنّك من الكاذبين ● قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾**[6]. وأحس فرعون أن موسى يريد أن يبدّل دينه أو أن يظهر في الأرض الفساد **﴿وقال فرعون ذروني أقتل**

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٩٠.

(٢) سورة **المطففين**، الآية ٣٢.

(٣) سورة **هود**، الآية ٢٨.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ١٢٠.

(٥) سورة **النمل**، الآيات ٤٥ ـ ٤٧.

(٦) سورة **الأعراف**، الآيتان ٦٦-٦٧.

موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[1] وليس من شك في أن جزاء المفسدين والشواذ إنما هو الأذى ينالهم والعقاب يحل بهم **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض﴾**[2]. وليس ما هو أهون من ذلك عند الجماعات.

هذه هي العلل التي نفسّر بها هذا الناموس وتبقى بعد ذلك ظواهره المختلفة تلك التي صوَّرها القرآن في كثير من القصص والآيات.

وقبل أن نسجِّل هذه الظواهر نلفت الذهن إلى أن موقف المخالف يتبدَّل في الجديد من الدعوات. ذلك لأن المخالف يكون في أول الأمر الرسول ومَن اتَّبعه من المؤيدين والأنصار. ويكون في آخر الأمر مَن تخلَّف من الجماعات عن اللحاق بها واتباع دينها الجديد. ونبدأ هنا بتصوير مظاهر الشق الأول وما يؤيِّده أو يعارضه من أسس ونواميس.

ويكون الرسول هو المخالف أولاً ومن هنا يناله الأذى وينزل به العقاب وتبدأ هذه الأشياء هينة فتكون أولاً بالسخرية والإستهزاء ويسمع الرسول ومَن اتَّبعه أمثال هذه الكلمات. **﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾**[3]. **﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾**[4]. **﴿أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾**[5] ويخرج القرآن بهذه المسألة من أن تكون خاصة بالنبي العربي فيصوِّرها على أنها من الأذى الذي ينال الرسل في كل زمان ومكان **﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ● وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون﴾**[6].

ويمضي الرسول في دعوته فيمضي القوم في إيذائهم فترى التهديد بالكثير من ألوان العقاب فنرى التهديد بالرجم **﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك**

---

(١) سورة غافر، الآية ٢٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٤١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٣٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية ٥٣.

(٦) سورة الحجر، الآيتان ١٠-١١.

واهجرني ملياً﴾(١)، **﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾**(٢)، **﴿قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منا عذاب أليم﴾**(٣). ونرى التهديد بالسجن فيقول فرعون لموسى **﴿لئن اتُّخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾**(٤).

ونرى التهديد بالإخراج من الأرض فيقول قوم شعيب **﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملّتنا﴾**(٥) ويقول قوم لوط **﴿لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾**(٦). ويقول الكافرون لرسلهم **﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملّتنا﴾**(٧) ويفعل مثل ذلك المشركون في مكة **﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها﴾**(٨).

ونرى التهديد بالقتل وحده أو مع التمثيل بالجثث والأجسام أو بالإحراق فيقول قوم إبراهيم بعضهم لبعض حين دعاهم **﴿اقتلوه أو حرّقوه﴾**(٩) ويقول فرعون لقومه **﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾**(١٠).

كما نرى المؤامرات ومحاولة الإغتيال في قصة صالح **﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ● قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ● قالوا اطّيرنا بك وبمَن معك قال طائركم عند**

---

(١) سورة مريم، الآية ٤٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١١٦.
(٣) سورة يس، الآية ١٨.
(٤) سورة الشعراء، الآية ٢٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية ٨٨.
(٦) سورة الشعراء، الآية ١٦٧.
(٧) سورة إبراهيم، الآية ١٣.
(٨) سورة الإسراء، الآية ٧٦.
(٩) سورة العنكبوت، الآية ٢٤.
(١٠) سورة غافر، الآية ٢٦.

الله بل أنتم قوم تفتنون ● وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنّا لصادقون ● ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ● فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين ● فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾[1].

وتأخذ هذه الأشياء في النهاية مكانها من الواقع فيكون الإخراج كما حدث مع النبي العربي **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾**[2]. وكما حدث لإبراهيم فقد ترك قومه وهاجر حين استعصى عليه هِدايتهم **﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾**[3]. وأتباع محمد حدث لهم أيضاً مثل هذا كما صوَّر القرآن الكريم **﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾**[4]. **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله﴾**[5]. وكما حدث لموسى وقومه فقد خرج من مصر مهاجراً بدينه وأتباعه **﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ● أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين ● وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين ● وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ● وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ● فدعا ربه أنّ هؤلاء قوم مجرمون ● فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ● واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾**[6].

ويكون الإحراق كما حدث لإبراهيم **﴿قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم ● فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾**[7]. **﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ●**

---

(١) سورة **النمل**، الآيات ٤٥-٥٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٩١.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآية ٢٦.

(٤) سورة **الحج**، الآية ٤٠.

(٥) سورة **الحشر**، الآية ٨.

(٦) سورة **الدخان**، الآيات ١٧-٢٤.

(٧) سورة **الصافات**، الآيتان ٩٧-٩٨.

قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[1]. وكما حدث بالمؤمنين في قصة الأخدود **﴿قتل أصحاب الأخدود ● النار ذات الوقود ● إذ هم عليها قعود ● وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ● وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**[2].

ويكون القتل كما حدث لزكريا ويحيى فيما يروي المفسّرون عند تفسيرهم لقوله تعالى **﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾**[3].

ويكون في النهاية الإقتتال بين المؤيدين والمعارضين حين يكثر المؤيدون والأتباع.

ويلقي هذا الناموس في روع الإنسان أن الدعوات مقضي عليها بالفشل وأن التجديد ضرب من المحال ذلك لأن الجماعة قوية بنفسها ثم هي لا تصبر على المجددين والدعاة وهو أمر يكاد أن يكون صادقاً لولا وجود عوامل أخرى تحد من قدرته وتعطّل من سيره وهي بهذا تفسح المجال أمام الدعاة والأتباع وكأن إرادة الله هي التي اقتضت هذا ليكون التقدُّم والتجديد ولئلا يتعطل الرقي في هذه الحياة.

هذه العوامل كثيرة وواضحة فيما صوَّر القرآن ونستطيع أن نسجّل هنا:

أولاً: ذلك الجو العاطفي الذي يسيطر على الجماعة حيال الآراء والمعتقدات إذ على قدر قوته وضعفه يتوقف حرص الجماعة على المحافظة على ذلك التراث. كما يتوقف عليه غضبها على الخارج ونقمتها عليه ومن هنا لا يقدر النجاح للدعوات إلا إذا كان ما ستحل محله قد وهن وضعف بفعل الزمان وغيره من المؤثرات إذ عند ذلك يضعف غضبها وتقل نقمتها فلا يكون قتل أو إغتيال. ولعل ذلك هو الذي قصد إليه القرآن حين جعل إرسال النبي العربي على فترة من الرسل **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء**

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٨-٦٩.

(٢) سورة البروج، الآيات ٤-٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٨٧.

قدير﴾[1] وحين جعل إرسال عيسى ليبيِّن لهم الذي يختلفون فيه **﴿ولما جاء عيسى بالبيِّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾**[2] حيث لا يكون إختلاف إلا إذا ضعف سلطان العقائد ووهن أثر الأديان.

وهذا هو الواقع العملي في الدعوة الإسلامية فقد ضعف سلطان العقائد على بعض النفوس بفعل اليهودية وغيرها فتهوَّدوا وتنصَّروا وتحنَّفوا وتركوا عبادة الآباء والأجداد. بل هفت نفوسهم إلى الرسالة والكتاب فقالوا **﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾**[3] وقالوا **﴿لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾**[4]. **﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية﴾**[5] **﴿ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾**[6]. وهكذا سبيل كل دعوة ودعاة.

ثانياً: تلك الصلة التي تكون دائماً بين الجديد والقديم من الأديان إذ تجعل الجديد غير غريب على البيئة وأهلها وهذا هو المعنى الذي أكَّده القرآن حين شرع لمحمد ما وصى به نوحاً **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾**[7]. وحين جعل الكتب مصدقة بعضها لبعض من إنجيل وتوراة وقرآن **﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ● وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ● وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل**

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٩.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٦٣.

(٣) سورة طه، الآية ١٣٤.

(٤) سورة الصافات، الآية ١٦٨.

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٠٩.

(٦) سورة فاطر، الآية ٤٢.

(٧) سورة الشورى، الآية ١٣.

جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾[1].

والواقع العملي من الدعوة الإسلامية يؤيِّد هذا فقد كان موقف القوم من الجديد والغريب عليهم قوياً عنيفاً وحسبنا أن نذكر موقفهم من البعث ووحدانية الله على حين لم يكن في موقفهم من الحج أي مكابرة أو عناد.

ثالثاً: ونختم حديثنا عن هذه العوامل بالحديث عن تلك الصلة التي تكون بين الرسول وقومه أو البطل وأمته تلك الصلة التي سبق لنا أن تحدثنا عنها حين قلنا بأن الرسول أخو القوم المتحدِّث بلسانهم... إلخ. إذ أن هذه الصلة تجعل البطل يستعذب الألم في سبيل هِداية قومه وإصلاحهم فلا يفر من الميدان حين تلاقيه الصعاب أو تصادفه العقاب ذلك لأنه يحس في قرارة نفسه أن إسعادهم هو الغاية التي ليست وراءها غاية والمطمع الذي ليس بعده مطمع ومن هنا نراه يحرص على هذه الهِداية في الوقت الذي يقفون منه موقف العداء **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[2]. ومن هنا أيضاً يعتب عليهم في كثير من الألم والمرارة فيرى أنهم لم يفهموا أغراضه ولم يتبيَّنوا مقاصده مع أنه لم يأتهم إلا ليخرجهم من الظلمات إلى النور وإلا ليهديهم إلى الطريق المستقيم وهو في سبيل كل ذلك يضحي بمنفعته وراحته ويكفيه أنه يسعد نفسه بهِداية قومه إلى طريق ربه العلي العظيم. فشعيب لا يريد إلا الإصلاح **﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب﴾**[3] ومحمد يهدي إلى الصراط المستقيم **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**[4]. **﴿الَرَ كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾**[5]. وصالح

---

(١) سورة المائدة، الآيات ٤٦-٤٨.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٣) سورة هود، الآية ٨٨.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٥) سورة إبراهيم، الآية ١.

لا يسأل قومه أجراً على الهِداية **﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾**[1]. وموسى وهارون يقفان موقفاً يتصوَّرانه القتل في سبيل إخراج قومهم من مصر وتخليصهم من فرعون وما يلحقه بهم من ذل وهوان. **﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ● اذهبا إلى فرعون إنه طغى ● فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ● قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ● قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ● فأتياه فقولا إنّا رسولا ربك فارسل معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على مَن اتَّبع الهدى﴾**[2]. وهكذا سبيل المرسلين.

وهذه الصلة نفسها تؤثر في نفس الجماعة فلا تعجل العقوبة لواحد منها وإبن من أبنائها وهي لا تصدق أولاً شذوذه عنها أو خروجه عليها بل ترى به جنوناً أو تعتقد أن الآلهة قد اعترته بسوء **﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾**[3] ولذا قد تلتمس له الطب والعلاج فإذا خاب ظنها أو فأل رأيها رمته بالسفه أو رأته في ضلال ولذا قد تلتمس العلاج عند أقاربه وتبقي عليه لمكانة رهطه وعشيرته **﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك﴾**[4] وهكذا تتدرَّج من لين إلى شدة حتى يكون الإقتتال.

وهكذا تكون هذه الصلة بين البطل والبيئة وسيلة فعالة في سبيل إنجاح الدعوات وإن كنا نلحظ أنها تكون في النهاية عقبة في سبيل إنتشار الأديان ولعل هذا هو السبب الذي من أجله حاربها القرآن فنحن نلحظ أنه في النهاية جعل العاطفة الدينية فوق عاطفة القرابات فنهاهم عن مودة أقربائهم إذا كان ذلك على حساب دين الله وطلب إليهم أن يتخذوا من إبراهيم الأسوة الحسنة في هذا الميدان **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم**

(١) سورة **الشعراء**، الآية ١٠٩ وعدة آيات أخرى بعدها.

(٢) سورة **طه**، الآيات ٤٢-٤٧.

(٣) سورة **هود**، الآية ٥٤.

(٤) نفس السورة، الآية ٩١.

أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومَن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ● إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ● لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ● قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ● ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ● لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد ● عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ● لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ● إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون﴾[1].

وهكذا تكون القرابة عاملاً مفيداً في إنجاح الدعوات في أول الأمر كما قد تكون عاملاً معطلاً حين يكون الإقتتال بعد كثرة الأعوان والأنصار. والآن وقد وضّحنا العوامل المؤثرة في سير هذا الناموس النفسي النفس لا تطيق المخالف ولا تصبر عليه نحب أن نصوّر موقف البطل أولاً وحين يتعدّل الميزان.

قلنا إن البطل أولاً يكون هو المخالف فيناله الأذى وذكرنا بعض ألوان العقوبات ونقول الآن إن موقف البطل في هذا الدور هو موقف الضعيف الذي لا يملك من الحول والطول إلا الإلتجاء إلى ربه والدعاء على الأعداء. هكذا نرى موقف نوح **﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ● إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾**[2]. وهكذا نرى موقف موسى **﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة**

---

(١) سورة الممتحنة، الآيات ١-٩.

(٢) سورة نوح، الآية ٢٦.

وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾[1]. وهكذا نرى موقف غيرهم من الأنبياء.

ثم يلجأ الرسول إلى التهديد والوعيد ويكونان بالمصائب في الدنيا والعذاب في الآخرة ويستجيب الله للرسل فتكون الصواعق وغيرها من ألوان العقوبات. هكذا نرى فرعون وقومه **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾**[2]. ونرى شعيباً وقومه **﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**[3] **﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾**[4]. وإلى هذا أيضاً أشار النبي العربي والقرآن الكريم **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[5]. وهكذا غيرهم من المرسلين.

وحين تقوى الدعوة ويكثر الأعوان والأنصار وحين يحس النبي في نفسه القدرة على الفتك والإضطهاد يستجيب لهذا الناموس ويبدأ فيحاول القضاء على المتخلِّفين من الجماعة ويجبرهم بالقوة على اتباع تعاليمه والإيمان بما يدعو إليه من آراء ومعتقدات وهذا هو الذي نلحظه من موقف النبي العربي من المشركين وأضرابهم والمنافقين ومَن لفَّ لفّهم يقول الله تعالى **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ● وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾**[6]. ويقول **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا**

(١) سورة **يونس**، الآية ٨٨.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٣٣.

(٣) سورة **هود**، الآية ٨٩.

(٤) نفس السورة، الآية ٩٤.

(٥) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٧ وسورة **النحل**، الآية ٣٦.

(٦) سورة **الأنفال**، الآيتان ٣٨-٣٩.

قليلاً ● ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ● سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[1].

وعند ذلك يكون النصر قد كتب للمبادىء فتسيطر على نفوس الأفراد والجماعات. وفي الفقرة التالية نتحدث إن شاء الله على ناموس آخر هو:

(٤) الرسول لا يشك في مستقبل دينه

ونتيجة الناموس السابق واحدة من اثنتين:

(١) فإما أن يذهب الرسول ضحية المبدأ والعقيدة، فيقتل أو يخرج مهاجراً. وتلك أحوال لم يقصّها القرآن إلا نادراً، وهو حين يقصّها يعتمد على الإجمال والإبهام، فنراه مثلاً يقول في حق الإسرائيليين وهو متعجّب من صنيعهم: **﴿أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾**[2].

ويتفق المفسّرون جميعاً على أن من الذين قتلوا يحيى عليه السلام.

كما نلحظ خروج إبراهيم مهاجراً بعد إذ عاداه قومه، ووقفوا منه ذلك الموقف الذي تصوّره هذه القصة القرآنية: **﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتّقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ● إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ● وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ● أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ● قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ● يعذّب مَن يشاء ويرحم مَن يشاء وإليه تقلبون ● وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ● والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ● فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم**

(١) سورة الأحزاب، الآيات ٦٠-٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٧.

يؤمنون ● وقال إنما اتَّخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ● فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ● ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[1].

والذي يلاحظ في مثل هذه المواقف أن الهجرة تُعتبر نصراً للدين الجديد وللرسول الداعي وذلك هو الواضح كل الوضوح من قصص موسى ومحمد عليهما السلام. وتكون عاقبة المتخلِّفين في بعض الأحوال الهلاك والدمار وذلك هو الوضع الذي يقرِّره قصص كثير من قصص القرآن من مثل أحوال قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط. وذلك الوضع هو الذي قصَّه شعيب وصوره القرآن **﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**[2].

(٢) وإما أن ينتصر الرسول فيسود الدين الجديد وتُنشر المبادىء وتلك هي الأحوال التي صوِّرت كثيراً في القصص القرآني وتلك هي الأحوال التي تشير إليها الآيات القرآنية الكريمة الخاصة بالنصر والتي نستطيع أن نختار منها قوله تعالى **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ● إنهم لهم المنصورون ● وإن جندنا لهم الغالبون ● فتول عنهم حتى حين ● وأبصرهم فسوف يبصرون﴾**[3]. وقوله **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ● يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**[4] وقوله **﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجِ المؤمنين﴾**[5].

على أن هذا النصر لا يتم في سهولة ويسر إذ دونه عقبات لا بد من تخطِّيها وأزمات نفسية لا بد من القضاء عليها.

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآيات ١٦-٢٧.

(٢) سورة **هود**، الآية ٨٩.

(٣) سورة **الصافات**، الآيات ١٧١-١٧٥.

(٤) سورة **غافر**، الآيتان ٥١-٥٢.

(٥) سورة **يونس**، الآية ١٠٣.

والعقبات كثيرة متنوعة منها نوع نستطيع أن نسميه بالعقبات الداخلية وصوره في القرآن ليست بالعديدة. والأسباب التي تدفع إلى هذا اللون قد تكون:

(أ) طبيعة الشخص وتكوينه إذ يكون ضعيف الإرادة لا يملك من أمر نفسه وقيادها الشيء الكثير وذلك هو الأمر الواضح في قصة آدم إذ نهاه ربه عن الأكل من الشجرة فلم يمتثل ونسيَ فلم تجد له عزماً **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾**[1]. **﴿وعصى آدم ربه فغوى ● ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾**[2].

(ب) وقد ترجع إلى لون من العقَد النفسية التي تسيطر على أعمال المرء والتي تلعب دورها في قوة ومهارة. وذلك هو الأمر الواضح من قصة موسى فقد اصطفاه ربه فاختاره رسولاً إلى فرعون ولكنه طلب من العلي القدير أن يرسل معه أخاه هارون وزيراً. واستجاب ربه وأرسل معه أخاه وهنا يظهر المخبوء وينكشف الغطاء إذ تسيطر حادثة قتل المصري على عقل موسى ويتذكَّر خروجه من أرض الفراعين هارباً وكيف أخبره الصديق الذي جاءه يسعى من أقصى المدينة بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه. لذا نراه يتوجَّه إلى ربه مفصحاً عن دخيلة نفسه **﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ● وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ● قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومَن اتَّبعكما الغالبون﴾**[3]. **﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ● اذهبا إلى فرعون إنه طغى ● فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ● قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾**[4].

ولم يذهبا حتى تلاشى الخوف واستقر الهدوء والإطمئنان واستجابت أنفسهما لقول العلي العظيم **﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾**[5].

---

(١) سورة طه، الآية ١١٥.

(٢) نفس السورة، الآيتان ١٢١-١٢٢.

(٣) سورة القصص، الآيات ٣٣-٣٥.

(٤) سورة طه، الآيات ٤٢-٤٥.

(٥) نفس السورة، الآية ٤٦.

(ج) كما قد ترجع إلى بعض الرغبات المكبوتة التي لا تزال في حالة قوية من الفاعلية وذلك هو الأمر الواضح من حال محمد عليه السلام حين كان يحرص على تحسين ما بينه وبين قومه من علاقات حرصاً شديداً وهذا ما يوضحه النص الآتي: «قال قتادة ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ذات ليلة إلى الصبح يكلِّمونه ويفتحمونه ويسودونه ويقاربونه فقالوا إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس وأنت سيدنا يا سيدنا وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ثم عصمه الله تعالى فأنزل الله تعالى ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً ● ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا ● لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾[1].

ومنها نوع نستطيع أن نسمّيه بالعقبات الخارجية وصور هذا النوع في القصص القرآني كثيرة منوَّعة يجمعها كلها ما يقوم به المعارضون للأنبياء من أعمال وأقوال وذلك من مثل تكذيبهم للرسل ورميهم لهم بأنهم في سفاهة أو ضلال وأن ما يقولونه شعر وأن الشياطين تنزل عليهم وأن الآلهة قد اعترتهم بسوء ثم من صدهم الناس عن اتباع الأنبياء ومحاولتهم صرف النبي أو الرسول عن الدعوة بالأذى تارة وبالتهديد والوعيد تارة أخرى ثم تحدّيهم لهم وطلبهم إنزال العذاب أو الإتيان بمعجزة إلى غير ذلك من الأمور التي تتضح في القصص والتي يكفي في الدلالة عليها أن نورد هذه القصة ﴿**وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتّقون ● قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة وإنّا لنظنّك من الكاذبين ● قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ● أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ● أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ● قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ● قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ●**

---

(١) **أسباب النزول**، ص ٢١٩، سورة الإسراء الآيات ٧٣ ـ ٧٥.

فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾(١).

ويترتب على هذه العقبات أنواع من الألم تختلف قوة وضعفاً فقد يخرج الألم الرسول عن حد الإعتدال والقصد فتثور إنفعالاته وتضطرب نفسه وتجمح العواطف حتى ليعجز عن كبحها وذلك هو الواضح من موقف ذي النون عليه السلام حين ذهب مغاضباً **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ● فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾**(٢).

وقد يؤثّر هذا الألم على الإتجاه العام في حياة الرسول والدعوة حتى ليهم بتركها وذلك هو الواضح من قوله تعالى **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾**(٣).

وقد يكون هذا الألم من القوة والعنف بحيث يبعث الشك في النفوس ويبذر اليأس في القلوب والحالة الأولى هي التي يصوّرها قوله تعالى **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾**(٤).

كما يصوّرها قوله **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنّوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فَنُجّيَ مَن نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾**(٥).

إلا أنه على الرغم من كل هذه العقبات فإن الرسل يظفرون بالإنتصار فنراهم وقد تخطّوا العقبات وانتصروا على الأعداء حتى لكأن الألم الذي عانوه لم يكن إلا المطهر الذي نفث فيهم الصلابة والقوة وأحالهم خلقاً آخرين أقدر من غيرهم على تحمُّل العقبات

---

(١) سورة **الأعراف**، الآيات ٦٥-٧٢.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآيتان ٨٧-٨٨.

(٣) سورة **هود**، الآية ١٢.

(٤) سورة **يونس**، الآية ٩٤.

(٥) سورة **يوسف**، الآية ١١٠.

وعلى إستعذاب الألم في سبيل الدعوات. وكأن تلك الوقفات القصيرة لم تكن إلا الإستعداد للوثبة تتبعها وثبات.

يعمل على هذا الإنتصار فيما نعتقد أمران:

الأول: تلك العقيدة الدينية التي يحس بأثرها النفسي جميع المؤمنين بالعقائد والأديان من أن الله يرعاهم ويحفظهم ويثبت خطاهم ويهيّء لهم من أمورهم رشداً والأثر النفسي لهذه العقيدة هو أنها تشحذ الهمم وتقوّي العزائم وتزيل الضعف عن النفوس وتبعد اليأس عن القلوب **﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين﴾**[1].

الثاني: ذلك الأثر النفسي الذي يقوم به الفن من عمليات الإيحاء والإفاضة حين يقص على المعاصرين أخبار مَن سبقوهم وكيف كانوا أبطالاً وكيف كان النصر في النهاية حليفهم. والقصص القرآني يعمل من غير شك على تخفيف الضغط العاطفي وعلى إنقشاع الأزمات النفسية من عند النبي والمؤمنين وهذا هو الأمر الذي ستتحدَّث عنه بتفصيل عند حديثنا عن أغراض القصص القرآني إن شاء الله ولذلك نكتفي هنا في الدلالة على تلك الحقيقة بذلك النص القصير المنقول عن صاحب الكشاف بصدد حديثه عن الصلة بين قوله تعالى **﴿طه ● ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى...﴾**[2] وبين قصة موسى عليهما السلام قال رحمه الله: «قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمُّل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود»[3].

وصدق الله العظيم حين يقول **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق﴾**[4].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٢٨.

(٢) سورة **طه**، الآيتان ١-٢.

(٣) **الكشاف**، جـ ٢، ص ٢٥.

(٤) سورة **هود**، الآية ١٢٠.

وحين يقول ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ● ونمكّن لهم في الأرض﴾...[1].

(١) سورة القصص، الآيتان ٥ ـ ٦.

القيَم الدينية والخلقية

وأعترف منذ اللحظة الأولى بأن لا فضل لي في هذا الفصل إلا فضل التنظيم والعرض ذلك لأنه قد سبق أن عالجت موضوعات هذا الفصل في بحثي الأول الذي قدَّمته لنيل درجة الماجستير فإن زدت شيئاً فهو الخروج من الأمور الخاصة بمحمد عليه السلام إلى الأمور العامة والخاصة به وبغيره من الرسل والأنبياء والشيء الذي أعتبره جديداً نوعاً ما في هذا الفصل هو الحديث عن المعاني الخلقية وما يستتبعها من تلك اللمحات الخاطفة التي صوَّر بها القرآن بعض العادات.

ولعل أوضح الأمور فيما يتعلق بالمعاني الدينية التي وردت صور عنها في القصص القرآني هي الأمور المتعلقة بالآلهة ثم بالرسل والمعجزات وهذا هو الأمر الذي يمشي مع طبيعة الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت ويجري مع طبائع الأشياء.

ذلك لأن أكثر القصص القرآني مكيٌ وفي مكة لم تتجه الدعوة إلى غير المسائل الكبرى من قضايا الأديان ومن هنا كانت الوحدة التي عبَّر عنها القرآن حين قال **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[1] ومن هنا أيضاً كان التشابه بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

(١) سورة الشورى، الآية ١٣.

على أن للمسألة وجهاً آخر هو أن القصص القرآني كان يعنى العناية كلها بأمور المخالفين في أمر الدعوة والمعارضين للنبي عليه السلام ولذا كان القصص يوجّه الحديث التوجيهات التي تشرح هذه الأمور وتقرّها في الأذهان. وإذا كانت هذه الأمور المتنازَع عليها خاصة بالوحدانية والبعث والرسالة كانت هي الواضحة كل الوضوح في قصص القرآن.

ثم إن أمور الدين الإسلامي نفسه كانت أشبه بالتنظيمات الداخلية التي يقوم بها الفرد بعد أن يعتنق الدين الجديد ويدخل في حظيرة الإسلام وأمثال هؤلاء لا يثيرون جدلاً ولا يقيمون الصعاب.

على أني أستغفر الله وأستثني شيئاً هو تلك العادات الخلقية التي كانت قد استقرت وعظُم شأنها بحيث لم يقدر الفرد على التخلي عنها بمجرد دخوله في حظيرة الدين والإيمان. وتلك كبخس الناس أشياءهم وتطفيف الكيل والميزان. ومن هنا تعرَّض لها القرآن أيضاً وإن نالها على أنها من الأخلاق العامة إذ تعرَّض لها في قصة شعيب عليه السلام.

ونبدأ من قضايا الدين في قصة شعيب بالحديث عن التديُّن.

والتديُّن في حس القرآن غريزة إنسانية فهي **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[1]. وهي من هنا عامة وخالدة يستوي فيها الناس جميعاً وسواء في ذلك المتحضِّر منهم والباد.

وتتَّصف هذه الغريزة أو تلك الفطرة بإسنادها قدرة عظيمة وقوى قاهرة إلى موجودات وكائنات والغريب أن هذه القدرة قد تسند لغير الله فتسند للأصنام وتسند لغيرها من الآلهة التي يعبدها الوثني في مختلف الأديان ومن هنا قدَّروها فعبدوها وأخافوا الأنبياء من غضبها وانتقامها.

عبد قوم عاد أسماء سمّوها وعبد قوم إبراهيم آلهة صنعوها بأيديهم. وقال الله في حق الأولين من سورة الأعراف **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ● قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في**

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾[1]. وقال في حق الآخرين من سورة العنكبوت **﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً﴾**[2]. كما قال متعجباً في الصافات **﴿أتعبدون ما تنحتون﴾**[3].

وإذا كانت الآلهة تعبد إتقاء غضبها أو رجاء خيرها فذلك هو الذي كان بين الآلهة وهؤلاء فقد أخافوا الأنبياء من شرِّها وقد أحبوها حبهم لله.

أخاف قوم إبراهيم فيما ذكر القرآن: **﴿وحاجَّه قومه قال أتحاجّوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ● وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾**[4].

واعتقد قوم عاد أن آلهتهم قد مسَّت هوداً بسوء. قال تعالى **﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ● إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾**[5].

وقامت مودَّة بين قوم إبراهيم والأوثان، واتَّخذ غيرهم أوثاناً يحبونهم كحب الله وإن يكن الذين آمنوا أشد حباً لله. قال تعالى: **﴿وقال إنما اتَّخذتم من دون الله أوثاناً مودَّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾**[6]. وقال تعالى: **﴿ومن الناس مَن يتَّخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾**[7].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآيتان ٧٠-٧١.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ١٧.

(٣) سورة **الصافات**، الآية ٩٥.

(٤) سورة **الأنعام**، الآيتان ٨٠-٨١.

(٥) سورة **هود**، الآيتان ٥٣-٥٤.

(٦) سورة **العنكبوت**، الآية ٢٥.

(٧) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

ومن هنا اتَّجه القرآن إلى ما في عقلية هؤلاء من تناقض ظاهر بين الصورة النفسية للآلهة والواقع العملي الذي يحس ويشاهد. اتَّجه إلى أن الأسباب التي تعبد من أجلها الآلهة وتحب غير متوفرة في هؤلاء. اتَّجه إلى كل هذه الأشياء وصوَّرها، ووضع صورها بين أيدي هؤلاء الأقوام ليلمسوا بأيديهم ويحسوا بأبصارهم وبصائرهم أنهم في غفلة وضلال، وأنه كيف يصح في شرعة العقل أن يعبد إنسان ما خلقه الوهم وصنعه الخيال، فيعبد أسماء أو أن يعبد ما يصنع بيديه فيعبد ما ينحت.

ولعل أوضح المثل في كل هذا، هو ما ورد في قصص إبراهيم عليه السلام. قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿**واتل عليهم نبأ إبراهيم ● إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ● قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ● قال هل يسمعونكم إذ تدعون ● أو ينفعونكم أو يضرون ● قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ● قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ● أنتم وآباؤكم الأقدمون● فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ● الذي خلقني فهو يهدين ● والذي هو يطعمني ويسقين ● وإذا مرضت فهو يشفين ● والذي يميتني ثم يحيين ● والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾[٢]. وقال في سورة الأنبياء: ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ● إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ● قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ● قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ● قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ● قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين● وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ● فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ● قالوا مَن فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ● قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ● قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ● قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ● قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ● فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ● ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ● قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم ●**

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٦٩-٨٢.

أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[١].

كما قال في حق المعاصرين للنبي عليه السلام قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرّت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ● فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ● أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ● ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ● وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ● إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ● ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ● إن وليّي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ● والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ● وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[٢].

وكل الذي أراده القرآن من وضع هذه الصور هو أن يفهموا حقيقة هذه الآلهة وأنها لا تنفع ولا تضر إذ عند ذلك ينصرف الإنسان عن عبادتها ويبحث له عن معبود سواها.

هذه الصورة النفسية للآلهة أو تلك الظواهر التي يسندها خلق التديُّن للقوى القوية القاهرة يردها القرآن إلى إله واحد هو الله. بذلك تحدَّث الرسل إلى أقوامهم وبهذا جاءت الأديان فيقول كل واحد من الرسل لقومه في قصص سورة الأعراف ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[٣] ويقول كثير من الأقوام لرسلهم ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده﴾[٤].

(١) سورة الأنبياء، الآيات ٥١-٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآيات ١٨٩-١٩٨.

(٣) نفس السورة، الآية ٨٥.

(٤) نفس السورة، الآية ٧٠.

وينزه القصص القرآني الإله الواحد عن كل نقص كما ينزهه عن أن يتخذ الشريكة والولد سبحان الله عما يصفون رب العرش العظيم **﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾**(1)، **﴿قل أُوحيَ إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً ● يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً ● وأنه تعالى جد ربنا ما اتَّخذ صاحبة ولا ولداً ● وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً﴾**(2).

وتلك الصورة التي يريد القرآن أن يقرّها من هذا الجانب هي الصورة الواردة في قوله تعالى **﴿قل هو الله أحد ● الله الصمد ● لم يلد ولم يولد ● ولم يكن له كفواً أحد﴾**(3).

وإذا كان الإنسان يعبد الآلهة للضرر والنفع كان لا بد له من تنظيم الصلات بينه وبينها كما كان لا بد له من نوع من فروض الطاعة والمحبة يتجلى في الفرائض الدينية وما يقدمه أحياناً من ضحايا وقرابين.

على أن القصص القرآني قد أهمل هذا الجزء الأخير إلا في النادر القليل كما هو الحال في قصة إبراهيم وإسماعيل حين رأى في المنام أمر ربه بذبح ابنه وحين هم بفعلته إستجابة لنداء ربه لولا تلك الفدية التي أرسلها ربه وهي الذبح العظيم. وهذه القصة واردة في سورة الصافات قال تعالى **﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ● رب هب لي من الصالحين ● فبشّرناه بغلام حليم ● فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ● فلما أسلما وتله للجبين ● وناديناه أن يا إبراهيم ● قد صدقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين ● إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾**(4) ومن هنا سنقصر حديثنا عن تلك الصلات التي يستطيع الإنسان بمقتضاها أن يعرف أوامر ربه ونواهيه يقوم بها ابتغاء مرضاته يرجو جلب النفع ودفع الضر وتيسير كل شاق عسير.

---

(1) سورة مريم، الآية ٣٥.

(2) سورة الجن، الآيات ١-٤.

(3) سورة **الإخلاص**.

(4) سورة **الصافات**، الآيات ٩٩-١٠٧.

والقرآن يصوِّر لنا من هذا الجانب إتجاهات بعضها يقوم على الأمور الحسية كإجالة الأقداح والإستقسام بالأزلام وتلك لم ترد في القصص القرآني وإن وردت في بعض المواطن الخاصة بالمعاصرين للنبي عليه السلام.

وبعض آخر يقوم على صلة بين بين. إذ يتصل فيها الكهان والعرافون بالأرواح الخفية وهذه بدورها تطلعهم على أخبار السماء. وذلك إتجاه حاربه القرآن في مواطن كثيرة وورد منه في القصص القرآني آيات في سورة الجن قال تعالى ﴿**وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ● وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمَن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً**﴾[1].

ويظهر أن هذه العقيدة وردت في القصة ليكون حديث الجن عن نفسها أبعد نفاذاً وأقوى أثراً.

ويبقى بعد ذلك إتجاه واحد هو إختيار واحد من البشر ليكون الرسول.

ويظهر أن العقيدة الأولى وهي عقيدة الأرواح الخفية كانت أقوى من تلك وأشد إذ الذي يلاحظ في القصص القرآني أن أكثر الأقوام كانوا يقولون لرسلهم ﴿**لو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين**﴾[2].

وإذا كان قد سبق لنا الحديث عن بشرية الرسل من الوجهة الإجتماعية فإنّا نقصر الحديث عنهم هنا من حيث تلقّي الأديان لتوصيلها إلى الخلق ودعوتهم إلى الإيمان بها.

والإله الواحد هو الذي يستأثر بعلم الغيب ولا يطلع على هذا الغيب أحداً إلا مَن ارتضى من رسول. وهو يصطفي هذا الرسول ليطلع البشرية على الغيب ويرسم لها طريق الوصول إلى المستقبل السعيد قال تعالى ﴿**ولكن الله يجتبي من رسله مَن يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾[3].

---

(١) سورة **الجن**، الآيتان ٨-٩.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٢٤.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٩.

وإلقاء هذه المعرفة في نفس الرسول أو إطلاعه على ما في الغيب يختلف باختلاف الظروف والمناسبات فترى منه نوعاً يأخذ صورة الرؤيا الصادقة وذلك يمثله ما حدث لإبراهيم ويوسف عليهما السلام. يقول الله تعالى في حق الأول **﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك...﴾**[1] وهي القصة التي سبقت في هذا الفصل.

ويقول في حق الثاني: **﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ● قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ● وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم﴾**[2].

ونرى منه نوعاً آخر يعتمد على التكليم. يقول الله تعالى بصدد الحديث عن الرسل في حق موسى **﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾**[3]. وقال **﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾**[4].

ثم هنالك غير هذين، هناك ذلك اللون الذي يرسل فيه الإله ملكاً فيتمثل للمرسل إليه بشراً ويلقي إليه ما أمره به الله. يقول الله تعالى **﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ● فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ● قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ● قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا﴾**[5]. كما قال في قصة إبراهيم عليه السلام **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين● إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ● فراغ إلى أهله فجاء بعجل**

(١) سورة **الصافات**، الآية ١٠٢.

(٢) سورة **يوسف**، الآيات ٤-٦.

(٣) سورة **النساء**، الآية ١٦٤.

(٤) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٤.

(٥) سورة **مريم**، الآيات ١٦-١٩.

سمين ● فقربه إليهم قال ألا تأكلون ● فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف وبشّروه بغلام عليم● فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ● قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾[1].

وهنا شيء لا بد من التنبيه عليه، هو أن هذه الأرواح الخفية كانت تختلط في ذهن العربي فلا يعرفها إلا بآثارها، وكان يعتقد أن الملائكة تأتي بالخير وأن الشياطين تأتي بما يسوء، ومن هنا كانوا يعتقدون أن الشياطين هي التي تنزل على محمد، وإلا لما كان منه خروج على الجماعة ولما كان منه سبب للآلهة.

والواضح من القرآن أن الشياطين كانت تسمع أخبار السماء، وأنها منعت من أجل النبي عليه الصلاة والسلام. وسبق أن شرحنا هذه العقيدة في فصل (المعاني التاريخية)، وهو الفصل الأول من هذا الباب.

ويبقى بعد ذلك لون أخير، هو إلقاء المعاني المرادة في ذهن الرسول، وذلك هو الأمر الذي حدث مع كل الرسل والأنبياء، حدث لنوح وإبراهيم وحدث لهود وصالح وشعيب، وحدث لغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ويحمل القرآن معظم هذه الحالات في قوله تعالى **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾**[2].

وهنا نعود مرة ثانية إلى الحديث عن الأرواح الخفية، التي تنقل إلى الناس أخبار السماء. إذ ما العمل ما دام هؤلاء القوم يسلمون بوقوف الشياطين على تلك الأخبار.

هنا يبرز أمران:

الأول: أن الشياطين منعت بعد النبي، ومن الجائز أن تكون قد منعت في حياة كل واحد من الرسل والأنبياء، وهذا ما يقول به بعض المفسّرين، وعلى رأسهم الرازي.

الثاني: أن الرسول الذي يأتيه الوحي وتنزل عليه الملائكة لا بد له من معجزة تدل

(١) سورة **الذاريات**، الآيات ٢٤-٣٠.

(٢) سورة **الشورى**، الآية ٥١.

على صدق رسالته وصحة نبوَّته، وذلك هو الأمر الذي سنتحدث عنه في الفقرة التالية عند حديثنا عن المعجزات، غير أني قبل أن أبدأ الحديث عنها أريد أن أذكر شيئاً هو الحديث عن تلك العقيدة التي كانت شائعة معروفة في الجزيرة العربية قبل مبعث الرسول عليه السلام.

قلنا إن التديُّن يرمي إلى جلب النفع ودفع الضرر من الآلهة، حتى ولو كانت أوثاناً، ونقول إن الأمر الذي ينبني على هذا هو أن الشعب الذي يمن الله عليه بالفضل، فيختار واحداً من أبنائه ليكون الرسول، هو الشعب الذي يعتقد بنفسه الفضل، وأنه محل الرعاية والعناية.

ولقد كان الشعب الإسرائيلي يؤمن بهذا، ويذيع ذلك في الجزيرة العربية، ولقد كان لكل ذلك أثره في حياة اليهود في الجزيرة في حياة النبي والإسلام، وصوَّر القرآن عقيدتهم تلك حين ذهبوا إلى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وحين قال موسى لهم **﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين﴾**[1].

ولكن القرآن حارب هذه العقيدة، ومضى إلى العكس منها، وذهب إلى أن الرسالة لا تخص شعباً دون شعب، ولا أمة دون أمة، وأن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء الله ذو الفضل العظيم. قال تعالى **﴿إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾**[2] وقال تعالى **﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾**[3].

فالقرآن كما ترى يجعل الرسالة ظاهرة دينية وإجتماعية لا تخص أمة دون أمة ولا يستأثر بها شعب دون آخر وهذا هو الأمر الذي شرحناه بتفصيل عند حديثنا عن المعاني الإجتماعية.

ونبدأ الآن بالحديث عن المعجزات فنقول:

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٠.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٣) سورة يونس، الآية ٤٧.

جاء القرآن والقوم يذهبون في الغالب مذهبين: الأول أن الرسول لا بد وأن يكون من الملائكة وذلك هو الرأي الذي صوَّرنا أن القرآن يجري على خلافه عند حديثنا عن المعاني الإجتماعية من أن الرسول يكون من الجماعة ويكون من الذين عرفوا آمالها وأحسوا آلامها فهو أخو القوم المتحدِّث بلسانهم.

الثاني أن الرسول من البشر لكنه يؤيد دائماً بمعجزة ومن هنا كانوا يقفون دائماً في وجه الأنبياء يطالبونهم بالآيات أو البينة.

وموقف القرآن هنا موقف مَن لا ينكر أمر المعجزة لكنه ينكر أن يتوقف الإيمان عليها أو يتعلق بها ولذا نراه يذكر المعجزات التي عرفت لمن سبق النبي عليه السلام من الرسل فيذكر معجزات موسى وعيسى كما يذكر ناقة صالح وإلقاء إبراهيم في النار.

لكنه في الوقت نفسه يرى ألا تعلق لهذه بتلك فالآيات لم تأتِ دائماً لتكون الدليل وإنما جاءت تخويفاً وإنذاراً ومن هنا أصبحت قليلة النفع عديمة الفائدة. يقول الله تعالى ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً**﴾[1].

والآيات قد تأتي الواحدة بعد الأخرى ومع ذلك لا يكون إيمان ولا ينفع مع المعارضة أي دليل. قال تعالى ﴿**ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون**﴾[2].

وقد فطن الطبري إلى ذلك فقال عند تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلَّى الله عليه وسلَّم يا محمد آيس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام القائلين لك لئن جئتنا بآية لنؤمن لك فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عياناً وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك ودلالة على نبوّتك وأخبروهم أنك محق فيما تقول وأن ما جئتم به حق من عند الله وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً فجعلناهم لك قبلاً ما آمنوا ولا صدَّقوك ولا اتَّبعوك إلا أن يشاء الله لمَن شاء منهم ولكن أكثرهم

(١) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١١١.

يجهلون يقول ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا كفروا وليس ذلك كذلك ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ولا يكفر إلا مَن خذلته عن الرشد فأضللت[1]».

ونستطيع أن نكتفي بهذا القدر عن المعاني الدينية وقد كانت هذه الأمور الوحدانية والرسالة والمعجزات أهم المشاكل التي عني بها القصص وأكثر من الحديث عنها. كما أن التوجيهات الدينية عن كثير من هذه المسائل قد تقدَّمت في فصل الحديث عن الأسس النفسية والإجتماعية وسيأتي عنها حديث آخر في الفصول المقبلة خاصة عند حديثنا عن عنصر الحوار في القصص.

ثم هناك سبب آخر أعتقده وجيهاً هو أن أكثر هذه الموضوعات قد قتلت بحثاً في الثقافة الإسلامية كما أني قد عرضت لها في رسالة الماجستير ومن هنا أعتقد أن الإبتكار في هذه الأشياء ليس بالأمر المنتظَر ويكفي في التوجيهات ما ذكرت.

وننتقل الآن إلى الحديث عن المعاني الأخلاقية.

وللقصص القرآني طرق خاصة في تصوير الأشياء الخلقية. فهو مرة يعمد إلى النهي الصريح وذلك في حالات منها أن يكون المنهي عنه من الأمور العادية التي تركَّزت في البيئة فأصبحت من العادات الإجتماعية المرذولة وذلك كتطفيف الكيل فقد نهى القرآن عن هذه العادة القبيحة المرذولة في قصة من قصص شعيب.

ومنها تلك الأمور التي يقوم بها الناس ترضية لعاطفة أو إستجابة لرغبة وذلك كقعودهم بكل صراط يصدون عن سبيل الله مَن آمن وتلك تكرَّرت في كثير من القصص ووردت أيضاً في قصة شعيب.

ويمثل النوعين من النهي قصة شعيب في الأعراف. قال تعالى **﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل**

(١) الطبري، جـ ٨، ص ٢.

والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ● ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله مَن آمن به تبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾[١].

وهو مرة يعمد إلى التعجُّب أو إلى الإستفهام الإنكاري وذلك أيضاً قد يكون في العادات القبيحة المرذولة التي استقرَّت في البيئة وأصبحت خلقاً عاماً وذلك كإتيان الذكران من العالمين في كل قصة ورد فيها إسم لوط. قال الله تعالى **﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ● أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾**[٢].

ثم هناك الطريقة العرضية التي يعرض فيها القرآن أخلاق بعض الجماعات أو أخلاق بيئة من البيئات وذلك يكثر في القصص الذي سنقول عنه في المستقبل أنه لا يقصد شيئاً معيناً وأكثر ما يكون هذا اللون في قصص موسى عليه السلام إذ في ذلك القصص نجد تصويراً لأخلاق اليهود كما نجد بعض لفتات لأخلاق المصريين.

ولا نستطيع أن نقول هنا بأن هذا كان تصويراً للواقع في جملته وتفصّيله فقد يكون التعبير الأدبي عن حالات بعينها هو الذي أدى إلى مثل هذه المعاني الخلقية. ومن هنا نريد أن نلتزم في هذا اللون ما التزمناه سابقاً في الحديث عن المعاني التاريخية حيث انتهينا إلى القول بتلك الحرية الفنية التي تدفع بالأديب إلى أن يلاحظ الواقع النفسي أكثر من ملاحظته لصدق القضايا وصحتها لأن المسألة قد تكون مسألة حرب أعصاب لا أكثر ولا أقل ولعل هذا هو الذي يلاحظ فيما يخص اليهود. فقد كان القرآن ينزل على النبي وفيه هجوم عنيف على اليهود خاصة في العهد المدني.

وأول الأشياء التي تؤخذ على اليهود عدم الوفاء بالعهود فقد كانوا ينقضون الإيمان

(١) سورة **الأعراف**، الآيتان ٨٥-٨٦.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآيتان ٢٨-٢٩.

بعد توكيدها. وقد كانوا ينكثون في كثير من الأمور التي اتفقوا عليها مع موسى عليه السلام. قال الله تعالى ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ● أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ● ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾(١). وقال تعالى بصدد الحديث عن خلقهم أيضاً ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ● بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ● إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ● وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾(٢).

وكذلك صنع القرآن مع المصريين فقد صوَّرهم على أنهم قوم ينكثون ما عاهدوا الله عليه. قال الله تعالى ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون● فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومَن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ● وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ● فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ● ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ● فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ● فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾(٣).

كما رماهم بالخفة والطيش في اتباع فرعون وعبادته. قال تعالى في سورة الزخرف

(١) سورة البقرة، الآيات ٩٩-١٠١.

(٢) سورة آل عمران، الآيات ٧٥-٧٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيات ١٣٠-١٣٦.

﴿وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ● فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ● ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ● أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ● فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ● فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[1].

وقبل أن ننتهي من الحديث عن المعاني الخلقية نلفت الذهن إلى ما قلناه في الفصل السابق عن أثر الإقتصاد في المعارضة إذ نجد هناك بعض الأشياء التي نستطيع أن نسميها أخلاقاً دفعت إليها الحالة الإقتصادية وذلك كالكبر والعناد بالنسبة للأغنياء والخضوع بالنسبة للفقراء حتى لقد كان الأغنياء يزدرونهم.

وعلى الجملة فالجوانب الخلقية في القصص القرآني ليست بالكثيرة ولعل أهمها هو الذي صوَّرناه هنا بحيث لا نستطيع القول بأنّا قد تركنا منها أمراً له قيمة.

ولا يسعني في ختام هذا الفصل إلا أن أعتذر عن التقصير الذي دفع إليه كتابتي لهذا الفصل سابقاً في رسالة أخرى. ولأن مواد هذا الفصل بالذات قد أشبعها القدماء بحثاً ودرساً.

---

(١) سورة الزخرف، الآيات ٤٩-٥٤.



الباب الثاني

الفن في القصة القرآنية

ما هي القصة؟ وهل في القرآن قصة فنية؟

ونحاول أن نقف على تلك الصورة التي كان يتصوَّر بها الأقدمون من علماء البلاغة والنقد الأدبي القصة الفنية فنعجز. ويرجع هذا العجز إلى أن هؤلاء العلماء لم يلتفتوا إلى هذه القصة على أنها لون من ألوان الفنون والآداب فضلاً عن الوقوف عندها لبحثها ودرسها وتقعيد قواعدها ومن هنا جاءت كتبهم خالية من أي حديث عن القصة حتى ذلك الحديث الذي يحدِّدها ويعرف بها.

نعم نحن لا نستطيع أن ننكر أن من مسائل البيان ما يمكن الإعتماد عليه في شرح وتفسير العناصر القصصية والظاهرات الأدبية في القصة الفنية وذلك من أمثال مسائل التوسُّع واللزوم والتمثيل فإن المسألة الأولى يمكن الإعتماد عليها في شرح عنصر الحوار الفني وتفسيره والثانية يمكن الإعتماد عليها في الحديث عن الأحداث القصصية وبيان مدى صلتها بالحق والواقع أو بالعرف والخيال والثالثة يمكن الإعتماد عليها في بيان كيفية إستخراج القيَم العقلية والتيارات الفكرية من القصة كما يمكن الإعتماد عليها في بيان أن المثل به لا يلزم أن يكون من الحقائق فقد يكتفى فيه بالمشهورات المتداولة وبالفرضيات المتخيلة كما سنرى بوضوح عند حديثنا عن القصة التمثيلية في هذا الفصل إن شاء الله. لا نستطيع أن ننكر شيئاً من ذلك بل نستطيع القول بأنّا قد اعتمدنا على

شيء من ذلك في بحثنا هذا ولكن ذلك كله لا يثبت أن هذا قد كان من الثقافة للقصة الفنية وأنه إنما كان منا لنرضي هذه العقلية الأزهرية التي تجهل الثقافة القصصية والتي لا يرضيها من مسائل البيان العربي والنقد الأدبي إلا ما كان قديماً أو ما كان متصلاً من هذا القديم بسبب.

وعدم وقوف البيانيين وعلماء النقد من الأقدمين عند القصة الفنية هو الذي سبَّب ذلك الإهمال الشنيع لأمر القصة في بيئاتنا الرسمية بيئات أساتذة اللغة العربية في المعاهد المختلفة ولعله أن يكون من العجب أو من أعجب العجب أن تمضي جامعاتنا المصرية على هذه السنة فتهمل شأن القصة وشأن الثقافة الفنية القصصية حتى وقتنا هذا مع إعتراف جميع الدارسين للآداب والفنون بأن القصة الفنية أقوى ألوان الفنون تأثيراً وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً. ومَن يدري فلعل هذا الإهمال هو الذي سبَّب هذه الثورة الأزهرية وتلك المعارضة الجامعية لرسالة الفن القصصي لأن الإهمال يدفع إلى الجهل والجهل يدفع إلى العداء. ومَن جهل شيئاً عاداه.

وعدم وقوف البيانيين عند القصة لا يعني أن غيرهم لم يقف عندها فنحن نعلم أن هناك وقفات من المفسِّرين وعلماء اللغة.

أما علماء اللغة فقد اكتفوا من الحديث عن القصة بتحديدات مبهمة وتعريفات ناقصة بل هم اكتفوا بما يستثيره لفظ قصة في الذهن من معنى وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشأن علماء اللغة وبخاصة مَن هم من أبناء العربية أن يذكروا لنا معاني الألفاظ أو ما تستثيره الألفاظ في الأذهان من صور وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود الفنية والتعريفات العلمية وما يتبع ذلك من حديث تام شامل عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلمية أو الفنية.

والمعاني التي وقف عندها علماء اللغة عند حديثهم عن مادة «ق ص ص» كثيرة ولعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث أدبي ما رواه اللغويون عن الأزهري وعن الليث.

يقول الأول: القص فعل القاص إذ قصَّ القصص والقصة معروفة.

ويقول الثاني: القص اتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصاً في أثر فلان وقصا وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لأتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً[1].

أما في كتب التفسير فتخطو المسألة خطوة إلى الأمام ذلك لأنهم ينظرون إلى المسألة باعتبارين: إعتبار لغوي يعتمدون فيه على ذلك الحصيل اللغوي الذي صوَّرنا لك طرفاً منه. وإعتبار ديني ينظرون فيه من وجهة نظر خاصة هي قصد القرآن الكريم من قصصه أو أهدافه التي يرمي إليها. وإذا حاولنا إختيار واحد من المفسّرين يمثل الإعتبارين ويقترب إلى حد ما من الميدان الأدبي فسنختار الرازي.

يقول رحمه الله عند تفسيره للآية **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾**[2] ما يأتي: «المسألة الثانية: القصص إتباع بعضه وأصله في اللغة المتابعة قال تعالى **﴿وقالت لأخته قصيه﴾**[3] أي إتبعي أثره. وقال تعالى **﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾**[4] أي إتباعاً وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً»[5].

وهو قول يدل على أن الرازي يحاول التقريب بين المعنى اللغوي والإصطلاح الأدبي وذلك حين يربط بين الإثنين باستعماله لفظ الحكاية وإطلاقه لفظ القصة عليها.

ويقول أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى **﴿إن هذا لهو القصص الحق...﴾**[6] إلخ ما يلي والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة[7].

---

(١) مادة قصص في كل من اللسان والقاموس ومفردات الراغب والنهاية.

(٢) سورة **يوسف**، الآية ٣.

(٣) سورة **القصص**، الآية ١١.

(٤) سورة **الكهف**، الآية ٦٤.

(٥) **التفسير الكبير**، جـ ٢، ص ١٨١.

(٦) سورة **آل عمران**، الآية ٦٢.

(٧) **التفسير الكبير**، جـ ٢، ص٧٠٣.

وهو قول يشرح معنى القصص شرحاً دينياً والرازي بهذا القول يدخل الميدان الأدبي أو يقترب منه وذلك لأن القصة الدينية ليست إلا لوناً من ألوان القصص الأدبي.

ونحن مع إحترامنا لكل من اللغويين والمفسّرين لا نستطيع ونحن ندرس القصص الفني أن نقف عند هذه الحدود ذلك لأنّا حين نذكر قصة إنما نقصد شيئاً آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث. نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيُّل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت للبطل ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي فقدم بعضها وأخّر آخر وذكر بعضها وحذف آخر أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ في التصوير إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها من الأشخاص الخياليين.

ذلك هو الذي نقصده عندما نذكر لفظة قصة في الميدان الأدبي وهو الذي نقصد إليه من درسنا للقصص الفني في القرآن الكريم ومن هنا يجب علينا أن نقف لنبحث عن ذلك القصد الأدبي أو الفني من قصص القرآن الكريم فهل وجد ذلك القصد أو لم يوجد؟ وبعبارة أخرى هل قصد القرآن من قصصه إلى ما يقصد إليه الأدباء من التأثير الوجداني وإستثارة العاطفة والخيال أو قصد إلى التأثير العقلي وإقامة الدليل والبرهان؟

لا أريد في هذا الموقف أن أملي عليك رأياً بعينه وإنما أريد أن نستعرض سوياً بعض الأقاصيص القرآنية لنرى رأينا فيها من حيث ذلك القصد الفني وسأحرص في هذا العرض أن تكون هذه الأقاصيص في مجموعات كل واحدة منها تمثل لوناً من ألوان القصص الفني وسنكتفي في هذا العرض بالألوان التالية:

(١) اللون التاريخي: ونقصد منه في هذا الموقف ذلك اللون الذي يدور حول الشخصيات التاريخية من أمثال الأنبياء والمرسلين والذي يعتقد الأقدمون أن الأحداث القصصية فيه هي الأحداث التاريخية.

(٢) اللون التمثيلي: ونقصد منه في هذا الموقف ذلك اللون الذي يرى بعض الأقدمين أن الأحداث فيه ليست إلا الأحداث التي يقصد منها إلى البيان والإيضاح أو إلى

الشرح والتفسير والذي لا يلزم فيه أن تكون أحداثه من الحقائق فقد يكتفى فيه بالفرضيات والمتخيلات على حد تعبير الأقدمين.

(٣) اللون الأسطوري: وهو الذي تبنى فيه القصة على أسطورة من الأساطير والذي يقصد منه في الغالب إلى تحقيق غاية علمية أو تفسير ظاهرة وجودية أو شرح مسألة قد استعصت على العقل. والعنصر الأسطوري في هذه الأقاصيص لا يقصد لذاته وإنما يتخذ كما سنرى بعد لحظات على أنه الوسيلة والأداة.

ونستطيع أن نبدأ الآن بذلك اللون الذي يسلم الجميع بوجوده في القرآن الكريم وهو اللون التاريخي.

(١) القصة التاريخية

ولن نقف هنا عند طبيعة الأحداث الواردة في هذا اللون من القصص من حيث وقوعها أو عدم الوقوع فلذلك محله في فصل خاص بالمواد القصصية وطبيعتها وموقف القرآن الكريم منها. وإنما سنمضي في هذا الموقف وقد فرضنا أو سلّمنا بأن هذه الأحداث قد وقعت حقاً لنرى رأينا في كيفية صياغة القرآن الكريم لهذه الأحداث وتصويره للأشخاص وهل قصد من وراء كل ذلك إلى العظة والعبرة أو إلى الحقيقة والتاريخ؟

(١) لنقرأ سوياً هذه القصة: قال تعالى ﴿**كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ● إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ● تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ● فكيف كان عذابي ونذر**﴾(١).

ولنفكر فسنرى أن القرآن قد تخلى عن كثير من التفصيلات فلم يذكر عن عاد شيئاً قبل التكذيب وحتى عملية الإرسال نفسها قد تجاوز عنها فلم يذكر عن هود شيئاً وهو الرسول الذي كذّبه القوم. كما لم يذكر هنا صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها ومساكنها ولم يذكر لنا شيئاً مما دار بين هود وقومه من جدل أو حوار. ترك كل هذا وأسرع إلى وصف العذاب. وهنا صوّره صورة أدبية رائعة بألفاظ جزلة تهز العاطفة وتستثير الإنفعال وتأخذ مكانها من الأفئدة والألباب فهناك الريح الصرصر وهناك النحس المستمر وهناك قوة

---

(١) سورة **القمر**، الآيات ١٨-٢١.

الريح التي تنزع الناس وكأنهم أعجاز نخل منقعر.

فعل القرآن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يريد في ذلك العهد أن يبث في نفوس المعاصرين للنبي صلّى الله عليه وسلّم الخوف من العذاب ويريد أن يريهم من الصور ما يجعل الخوف قوياً عنيفاً ومن هنا اختار هذه الصورة واكتفى بها حتى لا يشغل الذهن عنها بغيرها. وحرص القرآن على أن يكون العذاب والخوف منه هو النتيجة التي يجب أن تقر في النفس وفي الفؤاد ومن هنا بدأ القصة بذلك الإستفهام الذي يصوّب إلى القلب السهام **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾**؟ وختمها أيضاً بالإستفهام نفسه وكأنه يريد أن يصيب من الناس المقاتل.

وحرص القرآن في هذه السورة وبعد عرضه لكل قصة من قصصها أن يلفت أهل مكة إلى موقفهم من النبي والقرآن وإلى أن هذا الموقف فيه ما فيه **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾**[1].

فعل القرآن كل هذا لأن قصص هذه السورة لم تنزل إلا للإنذار وللتخويف من العذاب.

وعلى هذا فأنت ترى أن القرآن يختار من المواد الأُدبية القصصية ما يحقق الغرض ويوفي بالقصد وأنه يعرض عما عداه من أحداث وأشخاص وتفصيلات. ومن هنا لا نستطيع أن نقول بأن هذه القصة تقصد إلى تعليم الوقائع والتعريف بالتاريخ وإن كنا نستطيع أن نقول إنها قصة أدبية نزلت لقصد عاطفي هو التخويف والإنذار.

ولقد فطن ابن الأثير إلى هذا الصنيع القصصي من القرآن وعلله تعليلاً أدبياً أو بلاغياً أو فنياً حين قال **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ● فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمَّرناهم تدميرا﴾**[2]: «ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية فإن تقديره فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما

(١) سورة القمر، الآية ١٧.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان ٣٥-٣٦.

فدمَّرناهم تدميراً فذكر حاشيتي القصة أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل وإستحقاق التدمير بتكذيبهم»[1].

فابن الأثير كما ترى يعلّل الذكر والحذف في القصة بعلل أدبية بيانية ويدلنا على أن القرآن اكتفى في الذكر بحاشيتي القصة لأنها المقصود وأعرض عما عداه الأمر الذي لا يستطيع المؤرخ أن يهمله ولا مجال له في العدول عنه لأن التاريخ لا يكون تاريخاً إلا به وذلك من مثل ذكر صفة موسى ونسبه ووقت الإرسال والقصد من إرساله ولمَن أرسل وأين وكيف جعل هارون وزيراً وسببه وما كان بينهما وبين القوم من جدل وحوار... إلخ.

عدل القرآن عن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يقص للموعظة والعبرة ولا يؤرخ للأفراد والجماعات أو للأمم والشعوب.

جاء في المنار بصدد حديثه عن قصة الطوفان من سورة هود ما يلي: «وبينّا أن قصة نوح عليه السلام جاءت في عدة سور في كل سورة منها ما ليس في سائرها من ذلك ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا ما فيه العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها فذكرت في بعضها بآية وفي بعضها بآيتين فما فوقها من جمع القلة وما في هذه السورة هو أطولها وأجمعها»[2].

ونستطيع الآن أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن المقاصد والأغراض هي التي تدفع إلى ذكر بعض الأحداث وحذف بعضها الآخر. وإلى القول بأن ما يقال أساساً للذكر والحذف عند الأقدمين من مفسّرين وأدباء، هو ما نقول به اليوم أساساً لاختيار الأحداث في القصص القرآني وإن هذا الإختيار إنما يقوم على الإعتبارات البلاغية الأدبية التي نردها إلى منطق العاطفة لا إلى منطق النظر العقلي لأن قضايا الأول وجدانية شعرية وهي التي تليق بهذا الميدان.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذا اللون من قصص القرآن قصص أدبي تاريخي

(١) المثل السائر، ص ٢٠٥.

(١) المنار، جـ ١٢، ص ١٠١.

يأخذ القرآن مواد القصص فيه من أحداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها عرضاً أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً يبيّن المعاني ويؤيّد الأغراض ويؤثّر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعاً إستهوائياً خطابياً يستثير منها العاطفة والوجدان.

(٢) وانظر معي في هذه القصص:

قال تعالى **﴿فلما جاء آل لوط المرسلون ● قال إنكم قوم منكرون ● قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ● وآتيناك بالحق وإنّا لصادقون ● فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمَرون ● وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ● وجاء أهل المدينة يستبشرون ● قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ● واتّقوا الله ولا تخزون ● قالوا أو لم ننهك عن العالمين ● قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ● لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ● فأخذتهم الصيحة مشرقين ● فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ● إن في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾**[1].

وقال تعالى **﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيءَ بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ● وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيّئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتّقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ● قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ● قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ● قالوا يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ● فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ● مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾**[2].

ثم أنظر فستجد القصة في سورة هود وهي القصة الثانية جرت على هذا الأساس أو على هذه الطريقة: مجيء الملائكة ثم حال لوط واضطرابه النفسي ثم مجيء القوم ثم موقفه منهم وعرضه لبناته حتى لا يخزى في ضيفه ثم ردهم عليه وعزمهم على المضي فيما

(١) سورة الحجر، الآيات ٦١-٧٥.

(٢) سورة هود، الآيات ٧٧-٨٣.

جاءوا من أجله ثم موقف الملائكة وإخبارهم لوطاً بأنهم رسل ربه ونصحهم له بالسرى وإخبارهم له بأن العذاب نازل وأن موعدهم الصبح.

وهكذا تجري القصة وقد رتِّبت وقائعها على أساس يشعر بأن الزمن هو المحور الذي يربط هذه الوقائع المختارة وتلك الأحداث المنتقاة من حياة لوط عليه السلام. كما تجري المحاورة بينه وبين قومه على أساس من المنطق النظري إذ تدور بينه وبين قومه قبل أن يعرف أن ضيفه هم رسل ربه.

وستجد القصة في سورة الحجر تجري على نسق آخر إذ تعلمه الملائكة أنهم رسل ربه وتنصح له بالسرى وتنبئه بما سيحل بالقرية وأهلها من عذاب قبل أن يجيئه قومه ويكون بينهم وبينه ذلك الحوار.

إن المحاورة في قصة الحجر تدور بينه وبين قومه بعد أن عرف أن ضيفه هم رسل ربه وأنهم لن يصابوا بسوء. ويشعرنا هذا الصنيع بأن تسلسُل هذه الأُحداث لا يقوم على الترتيب الزمني ولا على أساس من التسلسل المنطقي الذي كان من الممكن أن يكون، ذلك لأن العقل يجيز أن لوطاً وقد عرف أن ضيفه هم رسل ربه وأنهم من الملائكة لا يخشى شيئاً ولا يخاف عليهم من قومه ومن هنا لا يعرض بناته لأذى أو مكروه. لكن القرآن خالف بين القصتين وجرى على نهجين مختلفين في البناء والتركيب.

فكر في الأمر فستجد أن القصد من القصتين مختلف وسترى أن القرآن قد خالف بينهما في الترتيب ليشعرنا بأن هذه القصة مستقلة وتلك قصة مستقلة وأن ترتيبه للأحداث يختلف لاختلاف المقاصد حتى ولو أدى هذا الإختلاف إلى إهمال أهم مقومات التاريخ وهو الزمان.

إن القصد من قصة لوط في سورة هود هو تثبيت قلب النبي محمد عليه السلام ومن أجل ذلك عني القرآن بما ينال لوطاً من أذى ومن هنا عني القرآن بحالته النفسية وقصد إلى أن يبرز عواطفه ويصوِّر أفكاره وهذا هو صنيع القرآن في كل القصص الذي ورد في هذه السورة وهو الذي يتلاءم مع بدئها والختام. فقد قال تعالى في مفتتح هذه السورة مصوِّراً نفسية محمد عليه السلام ﴿**فلعلَّك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به**

صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك...﴾[1] إلخ. وقال في الختام **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك...﴾**[2] إلخ.

وحرص القرآن أيضاً على أن يشعرنا بأن الضيق يجيء للنبي من حرصه على هِداية قومه وموقفهم منه. كما صرَّح بأن السبب في قصص سورة هود إنما هو تثبيت فؤاده ومن هنا كان يعني بما ينال الرسل من أذى وما يشعرون به من ضيق.

أما القصد من قصة لوط في الحجر فقد كان بيان ما ينزل بالمكذِّبين من أذى ومن هنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها وتخبر لوطاً بما سيحل بالقوم من مصائب وما سينزل عليهم من عذاب. وهذا هو الذي يتلاءم وحالة النبي محمد عليه السلام وهو ما صرَّح به القرآن في ختام سورة الحجر حين قال **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين● عما كانوا يعملون ● فاصدع بما تؤمَر وأعرض عن المشركين ● إنّا كفيناك المستهزئين ● الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر...﴾**[3] إلخ.

فالحرص على العذاب الذي ينزل بأقوام الرسل هو المقصود من القصة وهو الذي يتلاءم مع ذلك القسم الأخير ومع إعلان حماية الله للنبي وطلبه منه أن يعرض عن المشركين وأنه سيكفيه هؤلاء وأنهم سيعلمون عاقبة هذا الموقف ومغبّة هذا الأمر.

وهكذا تجد أن ترتيب هذه الأحداث يقوم على أساس غايته تحريك العاطفة ويؤدي نتيجة بغيتها هز العقول والأفهام. وكل هذا هو ما نطلق عليه اليوم منطق العاطفة والوجدان.

ولقد كان هذا الإختلاف في أسلوب القرآن وطريقة بناء القصة من حيث ترتيب الأحداث محيراً للقدماء حين أشكل الأمر عليهم فذهبوا إلى أن هذه الحادثة في هذا الموطن هي التي ذكرت في ذلك.

---

(١) سورة هود، الآية ١٢.

(٢) نفس السورة، الآية ١٢٠.

(٣) سورة الحجر، الآيات ٩٢-٩٦.

جاء في النيسابوري ما يلي: «وللمفسِّرين خلاف في أن هذا الميقات عين ميقات الكلام والرؤية أم غيره. الذاهبون إلى الأول قالوا إن موسى كان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل فلما سمعوا الكلام طلبوا الرؤية وقالوا **﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**[1] فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة في هذه الآية. والذاهبون إلى الثاني حملوا القصة على ما مرَّ في البقرة في تفسير قوله **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك﴾**[2]. وقد ذكرنا هنالك أن منهم مَن قال هذه الواقعة كانت قبل قتل الأنفس توبة من عبادة العجل ومنهم مَن قال إنها كانت بعد القتل واحتج أصحاب هذا المذهب على المغايرة بأنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها ذكر قصة العجل ثم ختم الكلام بهذه القصة. فظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه القصة مغايرة لتلك وإلا انخرم التناسب»[3].

فالنيسابوري هنا يصوِّر لنا الخلاف في الترتيب بين قصتين ويرى أن ظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه غير تلك وهو يقول بهذا القول خشية إنخرام التناسب ولو فطن النيسابوري إلى أن القرآن هو الذي قصد إلى هذا لما قام عنده ولا عند غيره من المفسِّرين أمثال هذه المشكلات القصصية في القرآن.

إن ترتيب الأحداث في قصة البقرة قام على أساس تذكير اليهود أنفسهم بالنعَم التي أنعم الله بها عليهم ليحببهم في النبي عليه السلام ويدفعهم إلى الدخول في الإسلام ومن هنا لم يعن القرآن بتفصيل الأحداث ولا بما وقع من المصائب كالقمل والضفادع والدم وغيرها أما ترتيبها في قصة الأعراف فيقوم على أساس آخر لم يعن القرآن فيه باليهود ليعظهم ويذكِّرهم وإنما عُني بالأحداث نفسها ليلقي الرعب في قلوب المشركين من أهل مكة ويدفعهم إلى البعد عن التكذيب والإستكبار ومن هنا سرد الأحداث سرداً تفصيلياً ودل على ما كان ينزل بهم من العذاب والمصائب دلالة قوية وأظهر عطفه على موسى واختياره له كما أظهر عطف موسى عليه السلام على قومه.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٥٥.

(٢) نفس السورة والآية.

(٣) النيسابوري، جـ ٩، ص ٥٣.

إن المقاصد التي يرمي إليها القرآن هي التي تملي الأسلوب والطريقة وهي التي من أجلها يسلسل القرآن الأحداث ويربط بينها برباط من العاطفة والوجدان.

ولقد كان الأستاذ الإمام رحمه الله سباقاً إلى تقرير هذه القاعدة القصصية في ترتيب الأحداث. وهذه بعض النصوص التي توضح ذلك:

جاء في المنار ما يلي: قال الأستاذ الإمام: إن كثيرين من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا إن الإستقساء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكرها هنا بعد تلك الوقائع. والجواب عن هذه الشبهة يفهم ما قلناه مراراً في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتَّبة بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الإعتبار والعظة ببيان النعَم متصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتَّقى من وجهتها. ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر علة الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير[(١)].

وجاء فيه أيضاً: قال الأستاذ الإمام: جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة. وإنما ينسّق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ويهز النفس للإعتبار هزاً وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات وإبتلائهم بالحسنات والسيئات وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون إلى كفرهم[(٢)].

وواضح من نصوص المنار أن الأستاذ الإمام يرى أن ترتيب الأحداث في القصص القرآني يرجع إلى إعتبار بلاغي خاص من أجله يقوم العرض على أساس عاطفي وإنه في

---

(١) المنار، جـ ١، ص ٣٣٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٤٦.

ذلك يخالف الأساس الذي يقوم عليه ترتيب الأحداث عند المؤرخين قطعاً وهذا هو جوهر ما نقصد إليه حين نقول بأن عرض القرآن لأحداثه القصصية ليس إلا العرض الأدبي العاطفي، ليس إلا العرض الفني وأن القصص القرآني فني.

وهكذا نستطيع أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن أحداث التاريخ التي وردت في القصص القرآني قد رتبت ترتيباً عاطفياً وبُنيت بناءً يقصد به تحريك الهمم والنفوس ومعنى ذلك أنها لون من ألوان القصص التاريخي الفني. وأن العمل فيها فني يقدّر بموازين الفن القولي لا بموازين المؤرخين.

واقرأ معي أيضاً هذه الأقاصيص:

•قال تعالى ﴿كذبت عاد المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتّقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ● أتبنون بكل ريع آية تعبثون ● وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ● وإذا بطشتم بطشتم جبارين ● فاتقوا الله وأطيعون ● واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون ● أمدّكم بأنعام وبنين ● وجنات وعيون ● إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ● قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ● إن هذا إلا خلق الأولين ● وما نحن بمعذّبين ● فكذّبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[1].

وقال تعالى ﴿كذبت قوم لوط المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ● أتأتون الذكران من العالمين ● وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ● قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ● قال إني لعملكم من القالين● رب نجّني وأهلي مما يعملون ● فنجّيناه وأهله أجمعين ● إلا عجوزاً في الغابرين● ثم دمّرنا الآخرين ● وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ● إن في ذلك

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٢٣-١٤٠.

لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[1].

ثم انظر فسترى وحدة في التصميم وإتفاقاً في البناء والتركيب وإن اختلفت مواد البناء في بعض الأحيان.

هذا المطلع في الثانية وذاك المطلع في الأولى متفقان حتى في الألفاظ والتراكيب وحتى في الخروج من الإفراد في الرسل إلى الجمع فنحن نعلم أن عاداً لم يكن لها من الرسل غير هود وكذلك الحال مع قوم لوط.

وهذه الخواتم في القصتين متفقة في الألفاظ والتراكيب.

وهذا الجو العاطفي الذي يسود القصتين من حرص على الهِداية من الرسل ذلك الحرص الذي يدفعهم إلى الإستعانة ببعض الصفات التي ترقّق العاطفة وتذيب القلب من أنه أخوهم ومن أنه الرسول الأمين الذي يبذل النصح لوجه الله ولا يسألهم أجراً والذي لا يطلب منهم إلا أن يتقوا الله ويطيعوه. أما هم فحريصون على المخالفة لا يقبلون النصح والإرشاد ويصرّون على موقفهم على ما فيه من فساد وضلال. فقوم هود لن يستجيبوا وسواء عليهم أوعظ أم لم يكن من الواعظين وقوم لوط يطلبون إليه أن يكف عن وعظه وإلا كان من المخرجين.

وهكذا ترى أن الأساس الذي قام عليه بناء القصتين واحد وأن الروح التي تسود القصتين واحدة وإن اختلفت العناصر من أحداث وأشخاص وحوار في بعض الأحيان.

إن السر في هذه الوحدة هو أن القصد الذي يرمي إليه القرآن من القصتين واحد وهو ذلك الذي أشار إليه في أول السورة من حرص محمد عليه السلام على هِداية قومه ثم من موقفهم منه ذلك الموقف الذي لخّصته السورة في الختام.

قال تعالى **﴿طسم ● تلك آيات الكتاب المبين ● لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ● إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾**[2].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٦٠-١٧٥.

(٢) نفس السورة، الآيات ١-٤.

ولعل هذه الروح هي التي سادت ما ورد في السورة من قصص ومن هنا بنيت بناءً متشابهاً واتَّفقت في كثير من مواد هذا البناء.

ونستطيع أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن الكريم من حيث الإختيار أو بتعبير الأقدمين من حيث الذكر والحذف وليس هذا فحسب بل هو الذي يسودها من حيث الترتيب أو باصطلاح القدماء من حيث التقديم والتأخير. وليس هذا فحسب بل من حيث التصميم والبناء ومعنى ذلك أن القصص التاريخي في القرآن قصص أدبي أولاً وأخيراً وهكذا يكون معجزة بلاغية قولية تُفهم بأضواء الدرس الفني.

عرضنا عليك في الفقرات السابقة أموراً تدل على أن القصة التاريخية ليست عرضاً تاريخياً تطلب فيه المطابقة الواقعية المحققة للصدق العقلي وإنما هي عرض أدبي يطلب فيه التأثير وقوة الوقع ليتحقق به الصدق الفني أو الأدبي ويكون التوجيه نحو الغاية المبتغاة وانتهينا إلى أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية يقصد منها غير ما يقصد من التاريخ وتعرض غير ما يعرض التاريخ وتثبت غير ما يثبت التاريخ وشرحنا كل ذلك شرحاً إعتمدنا فيه على العلاقات التي تقوم بين المواد القصصية المتعددة من حيث إختيار بعض المواد دون بعضها الآخر أو بإصطلاح الأقدمين من حيث الذكر والحذف ومن حيث الإيجاز والإطناب. ثم من حيث ترتيب المواد المختارة أو المنتقاة أو بعبارة الأقدمين من حيث التقديم والتأخير وكان كل ذلك في القصة الواحدة. ثم شرحنا بعض ذلك شرحاً إعتمدنا فيه على العلاقات بين القصص المختلفة من حيث التصميم أو الصوغ والتركيب وذلك في القصص التي تختلف عناصرها أو مواد بنائها ولاحظنا أن كل هذه الأُمور توجّه على ما يحقق القصد والغرض وأن الذي يسودها هو الجو العاطفي وأن الذي ينظِّمها هو منطق العاطفة والوجدان وأنها لكل هذا قصة أدبية وعمل فني رائع معجز.

والآن نريد أن ننظر في أمر آخر هو موقف القرآن من العنصر القصصي الواحد. لننظر سوياً في هذه العناصر:

(أ) قال الله تعالى ﴿وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[1].

وهو قول يخاطب به القرآن المعاصرين للنبي عليه السلام من أهل الكتاب ويذكر نعمه عليهم وفضله الذي أسبغه فيما مضى لكنا نلحظ أنه لم يأتِ بالصيغ التي تدل على هذه الحقيقة من حيث الزمان فهو يعرض عن الماضي الذي يصوّر ما حدث لأجدادهم في زمن موسى وقبله ويصوّر هذا الحدث بالصيغة التي تدل على الحضور والمشاهدة وكأن الأمر يقع بهم لا بأجدادهم وكأنه يقع بهم الآن.

إنما يفسّر هذا الصنيع ما نعرفه من العناية الأدبية التي يرمي إليها القرآن والتي هي سر إعجازه والتي تعنى بالتأثير على النفوس فيخرج الكلام وقد ساده ذلك المنطق الذي نسميه بمنطق العاطفة والوجدان.

إن الأسرار التي من أجلها ذكر القرآن هذه النعم التي تفضل الله بها فيما مضى على اليهود وأهل الكتاب هي أن يرقق قلوبهم ويصرفهم إلى الإيمان بمحمد عليه السلام وأنه من أجل هذا أعرض عن الصيغة الدالة على الحدث والزمان إلى صيغة أخرى تضع المسألة بين أيديهم وتعرضها على أبصارهم بما فيها من حيوية فنية هي تلك الحيوية التي يعبر عنها في الأدب بالتصوير بالحركات والإشارات.

إن هذه الصورة أقدر على تحريك القلوب وأكثر إستثارة للعاطفة والوجدان، إنها الصورة التي تبعث في أنفسهم الخشية والخضوع المحبب للواحد الديان.

(ب) قال تعالى ﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ● وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان ٢١-٢٢.

هذه آيات تصوِّر موقفاً من مواقف الآخرة وتصوِّر نزاعاً بين المستضعفين والمستكبرين وبين الشيطان ومتَّبعيه وهي من حيث الزمان لم تقع بعد ولو كان المنطق العقلي يوجب الأمر للواقع والمطابقة وجب أن تصوِّر هذه الصورة بالصيَغ التي تدل على المستقبل لكن القرآن عدل عن هذه الصورة إلى الصورة التي تدل على أنها وقعت فعلاً ذلك لأنه عبَّر عن ذلك بالماضي. ﴿**وبرزوا**﴾ ﴿**وقال الشيطان**﴾ ﴿**فقال الضعفاء...**﴾ إلخ. فما هو السر؟

إن الوقوف على السر ليس بالعسير ولا الشاق فالقرآن لا يقصد من هذه الصورة أن يعلم الناس شيئاً تتعلق به عقيدة ما أو عمل ما سيحدث بين المستضعفين والمستكبرين في الآخرة أو بين هؤلاء وبين الشيطان فيعرفوا منه حقائق ويتعلموا منه معارف يعتقدونها أو يستعملونها إنما يريد أن يصلح نفوسهم بهدايتها إلى ما ينتظرها في العالم الآخر من مؤاخذة ومسؤولية ومحاكمة وما إلى ذلك وهو يصل إلى هذا من الطريق الأدبي البليغ وما يتبعه من إهتزازات عاطفية وإنفعالات نفسية.

إنما يقصد القرآن من هذه الصورة أن يبث الخوف والقلق في نفوس المعاصرين للنبي عليه السلام وأن يصرف المستضعفين عن إتباع المستكبرين والإستماع إليهم وأن يصرف المستكبرين عن الجري مع الهوى وخلف الشيطان وأنه من أجل ذلك صوَّر هذه المحاورة بصورة الأمر الواقع وجاء لها بصيغة الماضي وأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعلم أن المعاصرين للنبي عليه السلام ينكرون البعث الذي هو حق لا بد من وقوعه وأنه يريد أن يسد عليهم المنافذ وأن يضع المسألة موضع الأمر الذي قد وقع ومضى فجاء بالصيغة الدالة على ذلك وهي صيغة الماضي الذي يؤكد وقوع الفعل أو بعبارة حديثة صور هذا المنظر بالصورة التي تدل على الإيهام بالواقع.

إن التعبير بالماضي هنا يدل عقلياً على الوقوع قبل زمن الكلام ويدل عاطفياً أو بلاغياً أدبياً أو فنياً على حقيقة الحدث وأنه لا بد كائن ولا مفر فالدلالة الأولى حين تراد يكون ذلك منطق العقل ويحكم عليه بالصدق الخلقي والعقلي أو قسيمه وهو ما ليس من مراد القرآن فلا محل للمؤاخذة به.

وأما المعاني الثانية والدلالة البلاغية حين تراد فيكون ذلك منطق العاطفة الذي لا يحكم عليه أو معه بصدق أو كذب لأن المراد ليس إفادة الوقوع والتحقُّق بل إفادة شيء آخر هو التحقُّق والتأكُّد.

ولعل الذي يؤكد كل هذا هو ذكره سبحانه وتعالى في الآية السابقة لهذه الآيات المتقدمة فقد قال **﴿ألم ترَ أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد ● وما ذلك على الله بعزيز﴾**(1).

إذ يوجِّه الخطاب إلى قوم النبي عليه السلام ويصوِّر موقفهم منه ذلك الموقف الذي يدل على أنهم قد بلغوا من العنت نهاية الشوط حتى ليذهبهم ويأتي بخلق جديد.

إن المنطق الذي يسود هذه الصورة هو المنطق الأدبي منطق العاطفة والوجدان ولقد لحظ القدماء من علماء البلاغة العلاقة بين الصور والصيغ وبين أثرهما النفسي والعاطفي. جاء في ابن الأثير بصدد حديثه عن اللونين من التعبير، عن المستقبل بالماضي وعن الماضي بالمستقبل ما يلي: والفرق بينه وبين الإختبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذلك تبيُّن

هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد بعد فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى... وكذلك جاء قوله تعالى **﴿ويوم نسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾**(2) وإنما قيل وحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم لأن من الناس مَن ينكره كالفلاسفة وغيرهم من أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي(3).

(1) سورة إبراهيم، الآيتان ١٩-٢٠.

(2) سورة الكهف، الآية ٤٧.

(3) المثل السائر، ص ١٧٣.

وواضح أن ابن الأثير يرى أن المنطق الذي يسير هذه الصيغ هو المنطق النفسي لا العقلي، هو المنطق البلاغي أي المنطق الأدبي أو الفني.

ولقد كان هذا الصنيع من القرآن محيراً للقدماء ذلك لأنهم مع وجود هذا الإيضاح البلاغي لم يفسروا هذه الظاهرة على أساس من المنطق الأدبي وإنما فسروها على أساس المنطق العقلي أو المنطق التاريخي، ومن هنا وقعوا في المآزق وعانوا كثيراً من المشكلات. ومن ذلك موقفهم من قصة عيسى في آخر سورة المائدة وهي قوله تعالى **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب ● ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ● إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾**(1).

فقد وقفوا عند هذه المحاورة ليفسّروها على أساس الدلالة اللغوية والمعاني الأولى فجعلوها من المنطق التاريخي ومن هنا أخذوا يسألون أنفسهم متى وقعت هذه المحاورة فذهب قوم إلى أنها كانت عند رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وذلك تمشّياً مع التعبير بصيغة الماضي وذهب آخرون إلى أنها لم تقع بعد وإلى أنها ستكون يوم القيامة بدليل قوله تعالى **﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾**(2) إذ هو وصف ليوم القيامة وذلك واضح في النيسابوري. والسبب في هذا أنهم فهموا من الآية المعاني الأولى كما يقول البلاغيون فجعلوها من المنطق العقلي ومن هنا حاولوا معرفة الوقت الذي حدثت أو ستحدث فيه هذه المحاورة بين عيسى عليه السلام والخالق سبحانه وتعالى ولو أنهم ذكروا وجه المسألة وقدّروا أن المراد منها المعاني الثانية وهي المعاني الأدبية أو الفنية لوضعوها على أساس من المنطق الأدبي منطق العاطفة والوجدان وبحثوا عن القصد الذي يرمي إليه القرآن وأنه ليس الإخبار

(1) سورة المائدة، الآيات ١١٦-١١٨.

(2) نفس السورة، الآية ١١٩.

بما سيحدث يوم القيامة وإنما توبيخ النصارى الموجودين في زمن النبي وحضّهم على التخلي عما يتمسَّكون به من عبادة عيسى عليه السلام.

إن المفسِّرين لو مضوا في فهم المسألة على هذا الوجه لما وجدوا فيها شيئاً يسبِّب هذه المشكلة ويجعلهم يختلفون هذا الإختلاف. ولو فعلوا لما بقيَ عليهم إلا أن يعللوا لماذا جاءت هذه المحاورة بالصيغة الدالة على الوقوع وهو الأمر اليسير ذلك لأن القرآن يريد أن يأخذ على هؤلاء الطرق ويسد عليهم المسالك ومن هنا وضع المسألة موضع الأمر الواقع المفروغ منه حتى كأنه ليس محلاً للشك فضلاً عن الإنكار وذلك مما يزعزع عقيدتهم ويخوِّفهم من عذاب المنتقم الجبار. وإني لا أرى مانعاً في أن تكون هذه المحاورة مشبهة للمحاورة السابقة التي دارت بين المستضعفين والمستكبرين وبين المستكبرين والشيطان.

وإني لأعتقد أن مذهب القرآن في تصوير مشاهد القيامة أو ما يستبعد وقوعه من المصائب والعذاب يعتمد في الغالب على هذا الأسلوب أسلوب إستعمال الصيَغ الدالة على الوقوع ليقضي على ما في النفس العربية من شك أو إنكار وهذا هو الواضح من أمثال هذه الآيات ﴿**إقتربت الساعة وانشقَّ القمر**﴾[1] ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾[2].

والذي نريد أن ننتهي إليه هنا هو أن القرآن وهو يعاجز معاجزة أدبية بلاغية كان في قصصه وما إليه من وسائل التعبير الأدبي إنما يريد المعاني الثانية وأنه من هنا كان الأمر للمنطق الأدبي في صيَغ الأفعال المحددة للزمان وأنه من هنا أيضاً كان يخرج بها عن تلك الدلالة الزمنية التي هي المعاني الأولى إلى الصور الأدبية التي تستثير العاطفة وتهز الوجدان لذا لا نستطيع أن نحكم عليها بصدق عادي ولا بكذب عقلي. ومعنى كل هذا أن أسلوب القرآن في عرض المواد القصصية الجزئية كان أسلوباً أدبياً يخضع لمنطق العاطفة والوجدان.

على أن هذا هو الأسلوب البياني في التعبير فالأديب المتفنن يريد وصف رجل

---

(١) سورة القمر، الآية ١.

(٢) سورة النحل، الآية ١.

بالشجاعة فيتجوَّز لذلك ويستعير ويكني عن ذلك بما يشاء الله أن يكني ولكل من هذه الألوان صيغه وعباراته وهي كلها صادقة في تحقيق الغاية الأدبية في وصف هذا الإنسان بالشجاعة وليست دالة على وقوع شيء من تلك الصور البيانية ولا توصف بصدق ولا كذب.

وإذا كان هذا الأمر قد وقع حينما ذهب بعض الأقدمين إلى أن الإستعارة أو التخييل كذب والكذب لا يجوز وقوعه في القرآن فقد مضى ذلك الزمن وأصبحنا نرى وقوع الإستعارة والمبالغة واعترف بذلك علماء البيان ومضوا على أن هذه الأشياء البيانية من إستعارة وتشبيه وكناية أبلغ من غيرها ومن هنا نراهم يقولون المجاز أبلغ من الحقيقة.

إن المهم في هذه المسألة كما سنشرح ذلك في القصة التمثيلية أن يعرف الأسلوب الذي يبني عليه الأديب عباراته ومتى عرف ذلك له فلا صدق ولا كذب ولا خلافه من وجهة النظر الأدبية والبلاغة:

لقد تقرر أن القرآن إنساني العبارة بشري الأسلوب جاء على سنَن العرب في بلاغتها وبيانها فهل بعد ذلك كله يأتي مَن يقول إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب؟

إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينيها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه وإستعارة وكناية... إلخ وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب وإنما هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان.

وهنا نعرض عليك صنيع القرآن في العنصر القصصي الواحد حين يختلف وصفه في الأقاصيص المختلفة التي تدور حول شخصية واحدة فيختلف منها البناء والتركيب وطريقة العرض باختلاف القصد والغرض وظروف البيئة وتقلُّبات الزمن. إقرأ معي هذه الآيات:

قال تعالى **﴿وما تلك بيمينك يا موسى ● قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ● قال ألقها يا موسى ● فألقاها فإذا هي حية تسعى ● قال**

خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ● واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ● لنريك من آياتنا الكبرى﴾(١).

ويعلّق الزمخشري على هذه الآيات عند تفسيره لها بقوله: إن قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان والثعبان. قلت أما الحية فإسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات الدقيق وفي ذلك وجهان أحدهما أنها كانت وقت إنقلابها حية حلا بها تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها. والثاني أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله فلما رآها تهتز كأنها جان وقيل كان لها عرف كعرف الفرس قيل كان بين لحييها أربعون ذراعاً(٢).

وقبل أن نفسّر هذه المسألة وندلّك على ما بيننا وبين صاحب الكشاف من خلاف نحب أن نعرض عليك هذا العنصر القصصي الذي ورد بألفاظ مختلفة في سور مختلفة لنصل إلى الوجه الحق في تفسير هذه الظاهرة.

قال تعالى **﴿قال لئن اتَّخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ● قال أولو جئتك بشيء مبين ● قال فأت به إن كنت من الصادقين ● فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ● ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ● قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾**(٣).

وقال تعالى **﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ● فلما أتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ● وأن ألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ● اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ● قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون...﴾**(٤) إلخ.

---

(١) سورة طه، الآيات ١٧ ـ ٢٣.

(٢) **الكشاف**، جـ ٢، ص ٢٢.

(٣) سورة **الشعراء**، الآيات ٢٩-٣٤.

(٤) سورة **القصص**، الآيات ٢٩-٣٣.

لقد تقرّر أن القرآن إنساني العبارة بشري الأسلوب جاء على سنن العرب في بلاغتها وبيانها فهل بعد ذلك كله يأتي مَن يقول إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب؟

ونحب هنا أن نلفت الذهن إلى أن الزمخشري قد أبعد حين أدخل قوله تعالى ﴿**فإذا هي ثعبان مبين**﴾[1] في الموضوع. ذلك لأن هذه عنصر آخر فهي تصوِّر موقفاً غير ذلك الذي يصوّر في الموقفين السابقين. فمسألة إنقلاب العصا ثعباناً كانت بمحضر من فرعون حين طلب البينة من موسى. ومسألة إنقلابها حية أو إهتزازها كالجان كانت بين يدي الخالق سبحانه وتعالى وحدثت حين رأى موسى النار بعد إذ سار بأهله وهذا يجعل المسألة قابلة للإختلاف في التصوير:

وقد أبعد صاحب الكشاف أيضاً فيما ذهب إليه مَن رأى ذلك لأن إختيار الألفاظ لا يقوم إلا على إعتبار بلاغي عاطفي ومن هنا لم يحل الرأي الذي ذهب إليه المشكلة إذ يبقى بعد ذلك - على فرض الترادف - سؤال ما السر البلاغي في إختيار هذا اللفظ هنا وذلك اللفظ هناك؟

إن الرأي فيما أعتقد هو أن الصورة التي يرسمها القرآن من سورة القصص صورة يشيع فيها الخوف من كل جانب وهو خوف قاتل وقد كان اللفظ الذي يلائم هذا الخوف ويجعل موسى يفر من الميدان هو أن يحضر اللفظ في الذهن صورة لشيء مخيف مرعب ومن هنا جاء لفظ الجان وفرق كبير بين الحية وبين الجان: إن الأولى لا تدفع الإنسان إلى أن يولي مدبراً حتماً وإن الذي يدفع إلى ذلك حتماً هو الجان.

أما قصة طه فقد نزلت تسلية للنبي عليه السلام وتسرية عنه وإزالة لما بنفسه من هم وقلق ومن هنا قال تعالى في أول السورة ﴿**طه ● ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾[2] ولذا كان عرض المسائل في هذه القصة عرضاً هيناً ليناً يدفع إلى النفس الثقة والطمأنينة ويدفع عنها الهم والحزن ومن هنا كانت لفظة الحية أليق بالمقام.

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٣٢.

(٢) سورة طه، الآيتان ١-٢.

ونستطيع هنا أن نعلل لماذا كانت العصا في سورة الشعراء هي الثعبان المبين؟ إن الأمر يسير فيما نعتقد فالموقف موقف تحيّر وطلب بينة ومن هنا كان لا بد للعصا من أن تكون ثعباناً ولا بد للثعبان من أن يكون مبيناً ليسهل الإقناع.

وهكذا ترى أن العنصر القصصي الواحد يعرض في صور مختلفة مناسبة للسياق ويلحظ فيها القصد والغرض تحقيقاً للمنطق العاطفي. ومعنى ذلك أن القرآن يصوّر التصوير الأدبي لا التصوير التعليمي التاريخي وليس بعد ذلك من دلالة على أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية.

(٦) على أنّا نستطيع أن نمعن في الدلالة على أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية يعتمد فيها القرآن على تصوير الأحداث كما يعتقدها المخاطبون وهو الأمر الذي أجازه بعض القدماء بل رآه بعضهم أمراً لا بد من القول به ليسلم القرآن من المطاعن ويستقيم الأسلوب الأدبي في قصص القرآن الكريم.

إقرأ معي هذه الأجزاء القصصية من سورة الكهف:

(أ) قال تعالى من قصة أصحاب الكهف ﴿**وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا علىأمرهم لنتّخذن عليهم مسجداً ● سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمارِ فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ● ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً ● إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً ● ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ● قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً**﴾[١].

(ب) وقال تعالى ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ● إنّا مكنّا**

(١) سورة **الكهف**، الآيات ٢١-٢٦.

له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ● فاتبع سبباً ● حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ● قال أما من ظلم فسوف نعذِّبه ثم يرد إلى ربه فيعذِّبه عذاباً نكراً ● وأما مَن آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له مَن أمرنا يسراً ● ثم أتبع سبباً ● حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ● كذلك وقدأحطنا بما لديه خبراً ● ثم أتبع سبباً...﴾[1] إلخ.

وفكّر معي في صنيع الأقدمين.

أما صنيعهم في القصة الأولى قصة أصحاب الكهف فأمر هين يسير ذلك لأن بعضهم قد رأى فيما يروي الطبري أن القرآن الكريم يصوِّر في هذه المسائل التي سُئل عنها النبي عليه السلام آراء أهل الكتاب فيها ومن هنا كان القرآن يذكر هذه العبارات التي تدل على ذلك من أمثال قوله تعالى **﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾**[2] **﴿وقل الله أعلم بما لبثوا﴾**[3]. ومن هنا أيضاً طلب القرآن إلى النبي عليه السلام ألا يماري فيهم وألا يستفتي فيهم أحداً.

جاء الطبري بصدد حديثه عن عدد الفتية ما يلي **﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾** يقول عز ذِكره لنبيه محمد صلَّى الله عليه وسلَّم قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجماً منهم بالغيب **﴿ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم﴾** يقول ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه كما حدثنا... قوله **﴿ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾** يقول تعالى ذِكره ولا تستفتِ في عدة الفتية من أصحاب الكهف منهم يعني من أهل الكتاب أحداً لأنهم لا يعلمون عدتهم وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب لا يقيناً من القول[4].

وجاء في الطبري بصدد حديثه عن المدة ولبثوا... إلخ اختلف أهل التأويل في معنى

(١) سورة **الكهف**، الآيات ٨٣-٩٢.

(٢) نفس السورة، الآية ٢٢.

(٣) نفس السورة، الآية ٢٦.

(٤) الطبري، جـ ١٥، ص ١٥٢.

قوله ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ فقال بعضهم ذلك خبر من الله تعالى ذِكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ وقالوا لو كان خبراً من الله عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره. ذكر مَن قال ذلك...

وهكذا ترى أن من الأقدمين مَن أجاز أن تكون هذه الصور التاريخية صوراً لما يعرفه أهل الكتاب عن قصة أصحاب الكهف ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يصوِّر في بعض قصصه إعتقاد المعاصرين أو المخاطبين.

وهذا الرأي هو الذي اعتمد عليه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجّار في رده على المستشرقين الذين كتبوا مادة أصحاب الكهف من دائرة المعارف الإسلامية فقد قال رحمه الله: الذي ألاحظه أن عبارة دائرة المعارف الإسلامية كعبارة أكثر المفسّرين تعتبر أن

> قوله تعالى ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ خبر عن مدة مكث أهل الكهف في كهفهم منذ دخلوه إلى أن استيقظوا. ولكني أفهم غير ذلك وأقول إن قوله ولبثوا إلخ معمول لقوله سيقولون ثلاثمائة إلخ فهو من مقول السائلين وليس خبراً من الله تعالى ولذا أتبع ذلك القول بقوله ﴿قل الله أعلم بعدَّتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾. وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التي مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم بل أمر الله رسوله أن يقول عن عددهم ﴿ربي أعلم بعدَّتهم﴾ وأن يرد عليهم حين يقولون ﴿ولبثوا في كهفهم...﴾ إلخ بقوله ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾ وقد ورد هذا القول عن ابن عباس[1].

وأعتقد أن السر في هذه المسألة واضح بيِّن فالقوم يسألون النبي عن العدد وعن المدة وقد جعلوا آراء اليهود مقياساً يقيسون به صدق النبي عليه السلام ولو نزل القرآن بغير هذه الآراء وبخلاف هذا المقياس لكذبوا النبي ولما آمنوا به أو بالقرآن.

إن إخبار القرآن بهذه الآراء هو الدليل على أن الوحي ينزل على النبي عليه السلام من السماء ومن هنا كانت أمثال العبارات السابقة: ﴿رجماً بالغيب﴾ ﴿قل ربي أعلم

(١) مادة أصحاب الكهف، دائرة المعارف الإسلامية الترية العربية.

بعدتهم﴾ ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾. أمراً واجباً إذ لولاها لآمن الناس بأن هذا هو رأي القرآن في المسألة وعندئذٍ تقوم هذه المشكلات التي أوردها المستشرقون إعتراضاً على القرآن ودافع عن القرآن الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجّار.

ليس من شك في أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بالعدول عن الأخبار الصحيحة أمراً وليس هذا الأمر فيما نرى إلا صدق النبي عليه السلام والدلالة على أن الوحي ينزل عليه من السماء وأنه هو الذي أخبر النبي عليه السلام عما قاله اليهود للمشركين من قريش.

على أن هذا الأمر الذي أجازه المفسّرون فيما يخص قصة أصحاب الكهف يصبح ضرورة من الضرورات الواجبة التصديق في قصة ذي القرنين.

إن صنيع القرآن وموقف بعض المفسّرين يكشف عن هذه الظاهرة كشفاً واضحاً ويدفعنا إلى تفسيرها تفسيراً معقولاً ويجعلنا نجزم بأن صنيع القرآن لم يكن إلا الصنيع الأدبي الذي يقوم على الدلالات التي يعتقدها المخاطب.

جاء في الرازي بصدد حديثه عن قصة ذي القرنين ما يلي: أعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فاتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغه. أما قوله ﴿وجدها تغرب عن عين حمئة﴾ ففيه مباحث:

البحث الأول ـ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم في عين حامية بالألف من غير همزة أي حارة. وعن أبي ذر قال كنت رديف رسول الله صلّى عليه وسلّم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تغرب في عين حامية. وهي قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر والباقون حمئة وهي قراءة ابن عباس.

واتّفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بألف فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أميرالمؤمنين. ثم وجّه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة.

والحمئة ما فيه ماء وحمأة سوداء. وأعلم أنه لا تنافي بين الحمئة والحامية لجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً.

البحث الثاني ـ أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها ولا شك أن

الشمس في الفلك وأيضاً قال ﴿ووجد عندها قوماً﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض.

إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله ﴿تغرب في عين حمئة﴾ من وجوه.

الأول ـ أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبقَ بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهذه مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم يرَ الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر.

هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره.

الثاني – أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وهي أيضاً حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله ﴿تغرب في عين حمئة﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة.

الثالث ـ قال أهل الأخبار إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة وهذا في غاية البعد وذلك لأنّا إذا أرصدنا كسوفاً قمرياً فإذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا حصل هذا الكسوف في أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا حصل في أول النهار فعلمنا أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر ووقت الضحوة في بلد ثالث ووقت طلوع الشمس في بلد رابع ونصف الليل في بلد خامس وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الإستقرار والإعتبار ليس هناك تضارب فهي تغيب في الطين والحمأة وتختفي عن الطين والحمأة كما ثبت من العلوم الفلكية والجغرافية وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات كان الذي يقال أنها تغيب في الطين والحمأة كلاماً على خلاف اليقين و كلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبقَ إلا أن يصار إلى التأويل الذي ذكرناه[1].

وواضح من هذا النص أن الرازي يرى أن التأويل في هذه المسألة من الأمور

---

(١) **التفسير الكبير**، جـ ٥، ص ٥٠٥ وما بعدها.

الضرورية ليبرأ كلام الله من أن يكون على خلاف اليقين. كما يرى ذلك أيضاً كل من النيسابوري وأبي حيان في تفسيرهما لهذه القصة.

ونحن مع إتفاقنا معهم في أن هذا الحديث لا يصوِّر حقائق تاريخية ومع إحترامنا لكل ما ذكروه من تأويل لهذه القصة نختلف وإياهم ونرى أن المسألة لا تحتاج إلى هذا اللون أو ذلك من التأويل.

إن القرآن لم يصنع هنا إلا ما صنعه في القصة السابقة قصة أصحاب الكهف من تصويره لما يعرفه أهل الكتاب عن الإسكندر أو ذي القرنين ولما قالوه لوفد قريش ولعل تاريخ المسألة في كتب التفسير يكشف لنا عن الحل.

ينتهي الطبري كما ينتهي صاحب الكشاف من بعده إلى أن الشمس تغرب في عين ويوفِّق الطبري كما يوفِّق الزمخشري من بعد بين القراءتين وينتهي المفسِّران من كل هذا إلى أنه لا مانع من أن تجمع العين بين الصفتين فتكون حمئة وحامية ثم يقفان عند هذا الحد ولا يصيران إلى التأويل كما صار إليه الرازي. بل هما يرويان الحديث السابق حديث أبي ذر والخبر السابق خبر كعب الأحبار.

وعلى الجملة فهما يقفان عند الحد الذي وقف عنده الرازي في المبحث الأول. ومعنى كل هذا أن هؤلاء لم يأخذوا المسألة على أنها التعبير الأدبي البلاغي وإنما أخذوها على أنها الحقائق الكونية التاريخية.

إن الرأي الواضح في هذه المسألة هو أن هؤلاء الأعلام لم يعرفوا ما عرفه الرازي عن حقيقة الشمس والأرض وبقية الكواكب وأنهم ما كانوا يعرفون إلا تلك الحقائق المروية عن غروب الشمس وأنهم من أجل ذلك لم يجدوا ضرورة ملجئة تصرفهم عن هذا الفهم وتضطرهم إلى التأويل.

إن الذي دفع المتأخرين من أمثال الرازي إلى هذا التأويل إنما هو الكشف العلمي عن الكون وحقائقه والتاريخ ووقائعه. وإن تاريخ المسألة في حياة النبي عليه السلام وموقف المشركين واليهود منه وتوجيههم إليه الأسئلة على أن تكون الإجابة كما يعرفون هو الذي يضطرنا إلى أن نذهب إلى ما ذهبنا إليه من أن هذه القصة تصوِّر المعارف التاريخية والكونية عند أهل الكتاب وعند المشركين من الذين يعاصرون النبي. وإن تاريخ المسألة في

كتب التفسير القديمة كالطبري والكشاف ووقوفهم عند أمثال هذه الحقائق التي تروى عن النبي عليه السلام وعن كعب الأحبار تدل على أن هذا الرأي هو الرأي السائد في هذا المجال:

ثم إن موقف بعض أعلام ألتفسير من القصة السابقة قصة أصحاب الكهف ودلالتهم على أنها تصوِّر معلومات أهل الكتاب عنهم تؤيِّد هذا الذي ذهبنا إليه في قصة ذي القرنين.

إن التأويل كان أمراً ضرورياً وواجباً دينياً عند الرازي ومَن جاء بعده لأن الكشف العلمي هو الذي اضطرَّهم إلى هذا.

وإن تاريخ المسألة يدل على أنّا لا نحتاج إلى مثل هذا التأويل إذا فهمنا القصة على حقيقتها وعرفنا القصد الذي يرمي إليه القرآن وهو أن محمداً عليه السلام نبي وينزل عليه الوحي وأنه الذي أخبره بالإجابة عن تلك الأسئلة التي وجِّهت إليه من مشركي مكة وأن هذه الإجابة قد وردت كما أخبر اليهود أهل مكة.

وإذا كان القرآن يعرض الأمور التاريخية في بعض الأحيان على هذا الوجه الذي وصفنا من مجيئها مطابقة لاعتقاد المخاطب وأنه الأمر الذي يخرجنا من الميدان التاريخي عندما لا يكون القصد البحث عن الحقيقة التاريخية ويدخلنا في ميدان الأدب والبلاغة لأن القصد ليس إلا الإيحاء والتأثير وإستثارة العاطفة والوجدان.

إن القصة التاريخية في هذا اللون قصة أدبية ما في ذلك شك أو جدال.

وهناك أمور أخرى تدل على أن صنيع القرآن في قصصه التاريخي ليس إلا الصنيع الأدبي وذلك من أمثال:

(أ) الجمع بين العناصر التي باعد بينها الزمن لا في حياة الرسول الواحد كما سبق أن بيّنا في أول هذا الفصل عند حديثنا عن الأخبار أو الذكر والحذف بل في حياة الأمة الواحدة كأمة بني إسرائيل أو في حياة البشرية كما هو الحال في قصة بني آدم.

جاء في النيسابوري ما يلي: الصفة الرابعة **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**[1]. الضمير في يجدونه للذين يتبعونه من بني إسرائيل. ثم إن كان المراد أسلافهم فالوجه أن يراد بالإتباع إعتقاد نبوّته من حيث وجدوا نعته في التوراة إذ لا يمكن أن يتبعوه في شرائعه قبل بعثه إلى الخلق ويكون المراد من قوله والإنجيل أنهم يجدون نعته مكتوباً عندهم في الإنجيل فمن المحال أن يجدوه في الإنجيل قبل إنزال الإنجيل. وإن كان المراد المعاصرين فالمعنى أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا مَن اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى واتَّبع نبي آخر الزمان في شرائعه[2].

إذ نلحظ هنا أن القرآن قد جمع بين عناصر متباعدة من حياة أمة بني إسرائيل في قصة واحدّة فهم يجدونه مكتوباً في التوراة ويجدونه مكتوباً في الإنجيل ومطلوب منهم الإيمان به وهو سيأتي بعد مدة طويلة من الزمن. وكل هذا يقال على فرض أن هذا الخطاب لِمَن يعاصر موسى عليه السلام.

وعلى فرض أن الخطاب لمعاصري محمد عليه السلام فإن المسألة لا تزال قائمة لأن المعنى كما يقول النيسابوري أنه لا يفوز بهذه الرحمة من بني إسرائيل إلا مَن اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى ثم اتَّبع نبي آخر الزمان في شرائعه وهو بهذا يجمع بين أمور خاطب بها المولى موسى عليه السلام وامتدت إلى زمن محمد عليه السلام.

وجاء في البحر المحيط حديثه عن قصة بني آدم ما يلي: وقال الحسن لم يكونا ولديه وإنما هما أخوان من بني إسرائيل قال لأن القربان إنما كان مشروعاً في بني إسرائيل ولم يكن قبل ووهم الحسن في ذلك وقيل عليه كيف يجهل الدفن في بني إسرائيل حتى يقتدي فيه بالغراب[3].

. وأحب أن نلفت سوياً إلى التعليل وإلى الإعتراض ذلك لأن التعليل يقوم على

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٥٧.

(٢) النيسابوري، جـ ٩، ص ٥٦.

(٣) **البحر المحيط**، جـ ٣، ص ٤٦٠.

أساس من تاريخ التشريع وهو أن القربان إنما شُرِّع في بني إسرائيل. أما الإعتراض فيقوم على أساس آخر من تاريخ العادات أو العقل البشري وهو كيف يظل دفن الميت مجهولاً حتى يصل الزمن من آدم إلى بني إسرائيل وحتى يقتدي أبناء إسرائيل في ذلك بالغراب.

لقد تعارضت النظريات وحاول المفسِّر أن يرجّح واحدة. ولو فكَّر تفكيراً بلاغياً أدبياً لوضع المسألة وضعاً آخر وفكَّر فيها على أساس من القريب أن يكون سليماً وهو أن القرآن قد جمع بين مواد قصصية متباعدة في الزمن لأنه يقصد التصوير والتمثيل وأنه من أجل ذلك جمع بين تقديم القربان وبين ما ترتَّب عليه من حسد وما أدى إليه هذا الحسد من قبل ثم من بعث الغراب ليريه كيف يدفن أخاه.

إن المسألة ترجع فيما أعتقد إلى طريقة القرآن في إختيار مواده القصصية وفي عملية الربط بينها تلك العملية التي تقوم على أساس أدبي عاطفي حتى ولو باعد الزمن فيما بينها.

(ب) إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به مراعاة لأمور إعتبارية وذلك هو الأمر الذي أجازه كثير من أئمة التفسير.

جاء في الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله**﴾[1] فإن قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمّونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا ﴿**إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله**﴾. قلت قالوه على وجه الإستهزاء كقول فرعون ﴿**إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون**﴾[2]. ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله ﴿**ليقولن خلقهن العزيز العليم ● الذي جعل لكم الأرض مهداً**﴾[3].

فصاحب الكشاف يجيز هنا أن يضع الله الذكر الحسن على ألسنة القوم بدلاً من

(١) سورة **النساء**، الآية ١٥٧.

(٢) سورة **الشعراء**، الآية ٢٧.

(٣) **الكشاف**، جـ ١، ص ٢٨١، سورة **الزخرف**، الآية ١٠.

الذكر القبيح ويضرب لنا الزمخشري المثل بما قاله القرآن على ألسنة اليهود خاصاً بعيسى عليه السلام وبما قاله القرآن على ألسنة المشركين خاصاً بالخالق سبحانه وتعالى.

وهذا الذي يجيزه الزمخشري في هذه الآية يجيزه أيضاً كل من الرازي والنيسابوري وأبي حيان. بل وقف عنده ابن عطية فيما روى أبو حيان. جاء في البحر المحيط لأبي حيان ما يلي «ذكر الوجهين الزمخشري ولم يذكر ابن عطية سوى الثاني»[١].

وليس من شك في أن هذه العملية عملية إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به لإعتبارات يراها الخالق جل وعلا تدل على أن القصص القرآني عرض أدبي للأحداث والأقوال وليس عرضاً تاريخياً لها. ومعنى ذلك أن القصة في القرآن عمل أدبي فني.

(ج) إسناده الأحداث لأشخاص بأعيانهم في موطن ثم إسناده الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موطن آخر وذلك هو الأمر الذي فطن إلى بعض صوره القدماء.

جاء في كتاب درة التنزيل ما يلي: «للسائل أن يسأل في هذه القصة عن مسائل أولها قوله في سورة الأعراف» **﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾**[٢] ثم قال في سورة الشعراء **﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾**[٣] فأخبر في الأول أن قائل ذلك الملأ من قومه وفي الثانية أن فرعون هو القائل ذلك لملئه وهذا إختلاف ظاهر في الخبرين»[٤].

وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في قصة إبراهيم عليه السلام إذ نلحظ فيها أن البشرى بالغلام والحوار مع الملائكة والعجب من الولادة وإبراهيم شيخ وإمرأته عجوز كانت في سورة هود مع امرأة إبراهيم وفي سورة الحجر مع إبراهيم نفسه.

بل نلحظ في سورة الذاريات أمراً آخر هو أن البشرى بالغلام كانت لإبراهيم وأن الحوار مع الملائكة كان مع زوجته.

---

(١) **البحر المحيط**، جـ ٣، ص ٣٨٩.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١١٠.

(٣) سورة **الشعراء**، الآية ٣٤.

(٤) **درة التنزيل**، ص ١٤٥.

وكل هذه الظواهر تدل دلالة قاطعة على أن القرآن يعرض عن الأساليب التاريخية وأنه يعتمد كل الإعتماد على الأساليب الأدبية والوسائل الفنية أو البلاغية.

وأعتقد أن ما عرضناه عليك من ظواهر أدبية في القصص القرآني وما فسّرناه به من تفسيرات بيانية عاطفية قد جعلاك تطمئن إلى ما وصلنا إليه من نتائج.

والآن نستطيع أن نترك ذلك اللون القصصي «القصة التاريخية» من ألوان القصص القرآني على أنها الصنيع الأدبي الذي يحقق صورة من صور تعريف القصة عند الأدباء.

هذه الصورة هي «القصة هي ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تصوير القاص لأحداث وقعت من بطل له وجود لكنها نظّمت على أساس أدبي أو عاطفي فقدّم بعضها وأخّر آخر وحذف بعضها وذكر بعض آخر أو بولغ في تصويرها إلى الحد الذي يستأثر بعواطف القارىء أو السامع.

وهكذا نستطيع أن نتّفق جميعاً وألا يشذ واحد فينكر وجود القصة التاريخية الأدبية في القرآن أو ينكر أن المنطق الأدبي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن وإلا عزَّ عليه أن يجد بياناً مقبولاً لصنيع القرآن.

إن القرآن يجعل القصد من قصصه العظة والعبرة ويصل إليها بالأسلوب الذي يختاره وهو الأسلوب الأدبي الذي صوَّرنا لك بعض ظواهره فيما مضى والذي سنصوِّر لك ما بقيَ من ظواهره في الفصول أو الفقرات المقبلة من هذا البحث إن شاء الله.

وننتقل الآن إلى لون آخر من ألوان القصص الأدبي في القرآن الكريم وهو:

٢ ـ القصة التمثيلية

والقصة التمثيلية وهي القصة التي تضرب مثلاً أو تجيء تمثيلاً موجودة في القرآن الكريم وهي قصة فنية. بل هي عند المفسّرين أدخل في باب الفن والأدب من القصة التاريخية ذلك لأن المفسّرين لم يعرفوا عن القصة التاريخية إلا أنها القصة التي تصوِّر الحق والواقع من مسائل التاريخ وقضاياه فالأحداث التي تصوِّرها القصة قد وقعت حقاً والحوار قد صدر والأشخاص الذين ترسمهم القصة قد وجدوا حقاً وصدر عنهم كل ما ينسب

إليهم من أقوال وأفعال. كل ذلك قد كان لا زيادة فيه ولا نقصان ومن هنا كانت القصة التاريخية مصدراً من مصادر التاريخ عند هؤلاء. ومن هنا أيضاً كانت هذه المشكلات الكثيرة التي وقفوا عندها طويلاً والتي لم يستطيعوا لها حلاً إلا على ضروب من التأويل وإلا بالرجوع إلى المذهب الأدبي في فهم قصص القرآن الكريم.

هذا ما يعرفه المفسّرون عن القصة التاريخية أما ما يعرفونه عن القصة التمثيلية فأكثر وأدخل في باب الفن الأدبي.

يعرفون عن القصة التمثيلية أنها من التمثيل والتمثيل ضرب من ضروب البلاغة وفن من فنون البيان. والبيان العربي يقوم على الحق والواقع كما يقوم على العرف والخيال فليس يلزم في الأحداث أن تكون قد وقعت وليس يلزم في الأشخاص أن يكونوا قد وجدوا وليس يلزم في الحوار أن يكون قد صدر وإنما قد يكتفى في كل ذلك أو في بعض ذلك بالفرض والخيال ومن هنا كانت القصة التمثيلية عندالمفسّرين قصة بيانية أي قصة فنية.

وتفسير المفسّرين للقصة التمثيلية في القرآن يشعرنا أيضاً بأنهم يعرفون عنها أنها من القصص الفني ذلك لأنهم ربطوا بينها وبين الفن القصصي بأكثر من رباط فالمعاني والتيارات الفكرية والخلقية لا تستقر في التمثيل إلا على ذلك النحو الذي تستقر فيه القصة الفنية ولا تلتمس منه إلا كما تلتمس منها. والتماس هذه المعاني وهذه التيارات من التمثيل يحتاج فيما يرى الزمخشري إلى نوع من الدربة والمران وإلا زلّت الأقدام وضلّت الأفهام. ويرى الزمخشري أيضاً أن كثيرين ممّن ذهبوا إلى عد التمثيليات من كلام الله وكلام الأنبياء من المتشابه إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه بسبب عجزهم عن فهم التمثيل وكيفية إستخراج المعاني منه. ولعل أقوال الزمخشري تفسّر لنا بعض الشيء لماذا ذهب المفسّرون إلى عد القصص القرآني من المتشابه:

القصة التمثيلية قصة فنية هذا ما يقرّره الأقدمون ويشهد به الواقع وهذا هو الذي نريد أن نستعرضه سوياً من النصوص التالية.

لنقرأ سوياً هذه القصة:

قال تعالى ﴿**وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ● إذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطِط واهدنا إلى سواء الصراط ● إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب ● قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داوود إنما فتنّاه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب ● فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب**﴾[1].

ثم اقرأ معي هذه النصوص:

جاء في الكشاف ما يلي: فإن قلت ما معنى ذكر النعاج قلت كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا والتنبيه على أمر يستحيا من كشفه فيكنّى عنه كما يكنّى عما يستسمج الإفصاح به... فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صحَّ منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوّروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي كما تقول في تصوير المسألة زيد له أربعون شاه وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما فخلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد. وتقول أيضاً في تصويرها لي أربعون شاه ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها[2].

وجاء في الرازي ما يلي: المسألة الثانية ها هنا قولان: الأول أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داوود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه. والثاني أنهما كانا إنسانين ودخلا عليه للشر والقتل فظنّا أنهما يجدانه خالياً فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر.

أما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى ﴿**لا يسبقونه بالقول**﴾[3] ولقوله ﴿**ويفعلون ما**

(١) سورة ص، الآيات ٢١ ـ ٢٥.

(٢) **الكشاف**، جـ ٢، ص ٢٨١.

(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ٢٧.

يؤمرون﴾[1].

أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب[2].

وقال أبو السعود: ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه[3].

وجاء في معالم التنزيل للبغوي ما يلي: فإن قيل كيف قال ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ وهما ملكان لا يبغيان قيل معناه أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر. وهذا من معاريض الكلام لا على تحقيق البغي من أحدهما... قال الحسين بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغي فهو كقولهم ضرب زيد عمراً واشترى بكر داراً ولا ضرب هناك ولا شراء[4].

وجاء في البحر المحيط لأبي حيان: والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن ولا يكنّى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها فمثلوا بقصة رجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراد إنتزاعها منه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده ويدل على ذلك قوله ﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾ وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدل على المراد[5].

أعتقد أنك بعد هذا العرض الطويل للنصوص قد لاحظت الفرق بين المذهبين اللذين يشير إليهما الرازي وعرفت على أي أساس يقومان.

إن سر الإختلاف لا يقوم على التمثيل من حيث هو تمثيل ولا على أثره القوي في

(١) بسورة النحل، الآية ٥٠ وسورة التحريم، الآية ٦.

(٢) التفسير الكبير، جـ ٧، ص ١٢٨.

(٣) أبو السعود، جـ ٧، ص ٤٨٦.

(٤) معالم التنزيل، جـ ٧، ص ١٩٠.

(٥) البحر المحيط، جـ ٧، ص ٣٩٢.

النفس فكلهم يعترف بذلك حتى مَن يخشى منهم أن يكون التمثيل في قصة الملكين كذبا.

جاء في النيسابوري ما يلي: ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغي فإذا ذكر المثال اتَّضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال ولا شك أن الثاني يكون أكمل. وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذِكره في الكتاب الذي أنزل تبياناً لكل شيء[1].

لا يرجع سر الإختلاف إذاً إلى التمثيل من حيث هو تمثيل ولا إلى قوته وأثره النفسي في العاطفة والوجدان وإنما يرجع إلى نظرية الأقدمين في الصدق والكذب وإلى إيمانهم بمنطق العقل وحده وإهمالهم لما عداه حتى المنطق الأدبي منطق العاطفة والوجدان.

إن سر الإختلاف يرجع إلى أن بعضهم لا يعرف إلا الصدق العقلي وهو مطابقة القول للواقع وينكر أو ينسى ما عداه. ومن هنا رأى في المعاني التي تجيء في صورة التمثيل نوعاً من الكذب لا يليق بالملائكة. أما البعض الآخر فقد وفِّق إلى الحقيقة الأدبية واقترب من رأي المحدثين في الصدق الفني ومن هنا لم ينظروا إلى المسألة هذه النظرة القاصرة ولم يذهبوا إلى أن التمثيل كذب ومضوا على أنه تصوير للمسائل وفرض لها والتصوير للمسائل والفرض لها لا يُعتبر من الكذب ومن هنا لم يرَ هؤلاء في صنيع الملائكة شيئاً من الكذب في قليل أو كثير ومن هنا أصابوا التوفيق.

إن الأقدمين قد لمسوا الحقيقة الفنية أو الأدبية حين عرفوا الصدق في كتب البلاغة وحين اختلفوا في هذا التعريف ولقد أضرّوا بالدراسة الأدبية حين وقفوا عند الصدق المنطقي ورجّحوا التعريف القائل بأن الصدق مطابقة القول للواقع ذلك لأنهم بهذا التعريف قد دفعوا غيرهم من المفسّرين ورجال الدين إلى إنكار وجود القياس الشعري والحقيقة الفنية في كل من القرآن الكريم وفي كلام الأنبياء.

(١) **غرائب القرآن**، جـ ١، ص ١٩٥.

إنّا نؤمن بالحقيقة الأدبية كما نؤمن بالحقيقة العقلية ونعرف الصدق الفني كما نعرف الصدق العقلي وإذا كان الثاني هو مطابقة القول للواقع فإن الأول هو الصدق في تصوير ما يخلقه الوجدان أو يخترعه الخيال، هو الصدق في الترجمة عما بالنفس من رأي أو فكرة أو عاطفة أو إحساس. وإذا كان لا بد من قول قديم نستند إليه فهو مطابقة القول للإعتقاد.

إن هذه المسألة مسألة الصدق الفني لا تمس التمثيل وحده وإنما تمس غيره من أمور بلاغية أو بيانية كالمبالغة والغلو والإغراق ويعجبني في هذا الموقف رأي لابن قتيبة ذكره في كتاب الأشربة وأعتقد أنه يحل إلى حد ما هذا الإشكال. قال رحمه الله «وقال لنا إسحاق

عيب وكيع بقوله هو أحل من الماء لأنه إن كان حلالاً وهو بمنزله الماء فكيف جعله أحل منه ونحن نقول إنه ليس يلحق وكيعاً في هذا الموضع عيب ولا يرجع عليه منه عتب لأن كلمته خرجت مخرج كلام العرب في مبالغتهم في الوصف وإستقصائهم بالمدح والذم. يقولون هو أشهر من الصبح وأسرع من البرق وأبعد من النجم وليس ذلك بكذب لأن السامع له يعرف مذهب القائل فيه وكلهم متواطئون عليه كذلك قوله هو أحل من الماء يريد المبالغة في وصفه بالتحليل»[1].

وواضح أنه يريد أن يقول إذا كان هناك مذهب أدبي أو بلاغي تجري عليه اللغة في التعبير عن العواطف والأفكار وكان هذا المذهب لا يعنى بمطابقة لحق فإن للأديب الحق في أن يجري على هذا المذهب وليس للقارىء أو السامع عليه إعتراض ما دام قد عرف مذهبه في هذا ولا يستطيع أن يجعل صنيعه هذا من باب الكذب بحال من الأحوال.

ونعتقد أن هذا يوضح أموراً كثيرة ويجعلنا نقول بوجود القياس الشعري والتعبير عن الصور التي يخلقها الذهن أو الخيال في القرآن وفي كلام الأنبياء.

لنعد الآن إلى التمثيل وإلى القصة التمثيلية في القرآن.

وهنا أحب أن أصرّح بأني لا أقصد إلى القول بأن كل المواد القصصية في القصص التمثيلي القرآني وليدة الخيال ذلك لأن بعضها قد يكون وليد الأحداث الواقعية وذلك هو الواضح من قصة الملكين السابقة وما فيها من أحداث من تاريخ داوود عليه السلام.

(١) كتاب الأشربة، ص ٥٤.

وهنا أمر آخر لا بد من توضيحه هو أن الحاجة إلى الخيال في القصص القرآني أو في التمثيل القرآني لم تأتِ لحاجة المولى سبحانه وتعالى إلى الخيال في التعبير عن المراد. وحاشا لله أن يحتاج إلى الخيال. وإنما جاءت لحاجة البشرية لهذا الخيال ولأن ذلك هو الأسلوب الذي تجري عليه في التعبير عن الأحاسيس والأفكار.

يقول صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[1]. ما يلي: «وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصوّر مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع وهي به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها».

فإن قلت قد علم وجه التمثيل في قولهم الذي لا يثبت على رأي واحد أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى لأنه مثلت حاله في تميله وترجّحه بين الرأيين وتركه المضي على أحدهما بحال مَن يتردَّد في ذهابه فلا يجمع رجليه وليس كذلك ما في هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماد وإبائه وإشفاقه بحال في نفسه غير مستقيم فكيف صحّ بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبهه شيئاً والمشبه به غير معقول.

قلت الممثّل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيّل في الذهن كما المحققات. مثلث حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها[2].

إذ يلفت الزمخشري ذهننا إلى أن التمثيل هنا قد جاء لأنه الأسلوب العربي ولأن

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٧٢.

(٢) **الكشاف**، جـ ٢، ص.

القرآن ما جاء إلا على طرقهم وأساليبهم. كما يلفت ذهننا إلى أن التمثيل يكون بالصور المفروضة التي تتخيل في الذهن أي بالصور التي يخترعها الخيال وأن لهذه الصور قوتها التي قد تكون أوقع في الذهن وآكد في النفس من الصور التي تمثل الحقيقة.

وجاء في الكشاف أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى **﴿وما قدَّروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**[1] ما يلي: والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزّهن فيقول أنَّا الملك فضحك رسول الله صلعم تعجُّباً مما قال ثم قرأ تصديقاً له **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾**[2] الآية. وإنما ضحك أفصح العرب وتعجَّب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العِظام التي تتحيَّر فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هو أنَّا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيُّل ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء فإن أكثره وغلبته تخييلات قد زلَّت فيها الأقدام قديماً وما أتى الزلوان إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن في عِداد العلوم الدقيقة علماً لو قدَّروه حق قدره لما خفيَ عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم

(١) سورة الزمر، الآية ٦٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٩١ وسورة الحج، الآية ٧٤ وسورة الزمر، الآية ٦٧.

وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأوّل ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ولا يعرف قبيلاً من دبير[1].

فصاحب الكشاف يدلّنا على أن المعاني قد تجيء في صورة التمثيل مباشرة وهنا لا يأخذ القارىء أو السامع المعاني من الألفاظ المفردة ومن جزئيات التراكيب وإنما يأخذ المعاني من الكلام بجملته ويفهم أن معاني الألفاظ غير مقصودة في أمثال هذه التراكيب. ثم هو يدلّنا على أن هذه الصور تكون عادة من صنيع الخيال وأن الوقوف على ما فيها من عواطف وآراء عسير شاق وأنه الأمر الذي تزل فيه الأقدام.

وتنتهي من كل حديث الزمخشري على أن التمثيل من صنع الخيال وأنه موجود في كتاب الله. وأن من المعاني ما يجيء مباشرة في صورة التمثيل وأن إستخراج هذه المعاني يحتاج إلى دربة ومقدرة في علوم البيان.

وهكذا نرى أن الإعتماد على عنصر الخيال أسلوب من أساليب القرآن وأنه الأسلوب الذي دفع إليه حاجة العقل البشري إلى هذا اللون من الكلام.

ويحسن بنا الآن أن نعرض عليك ألواناً من القصص التمثيلي الذي قال القدماء والمحدثون من أئمة التفسير بوجوده في القرآن.

وقبل أن نعرض هذه الأشياء نلفت الذهن إلى أن للتمثيل مظهرين: الأول أن يجيء في أعقاب المعاني ليزيدها قوة وجلاء. والثاني أن يجيء المعنى ابتداء في صورة التمثيل. وهذا ما يشير إليه الجرجاني حين يقول: «واعلم أن مما اتّفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشبَّ من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة و كلفاً وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً»[2].

---

(1) **الكشاف**، جـ ٢، ص ٢٧٠.

(2) **أسرار البلاغة**، ص ٨٦ وما بعدها.

ولعل من أحسن المثَل في الدلالة على أن المعاني تبرز أحياناً في معرض التمثيل الآية السابقة كما شرحها الزمخشري وهي آية ﴿وما قدَّروا الله...﴾ إلخ.

هذا التمثيل بمظهريه كما يكون بالصور الأدبية والتشبيهات يكون أيضاً بالقصص فقد تجيء القصة في أعقاب المعاني لتزيدها وضوحاً وبياناً وذلك هو الواضح من سورة يس فقد ذكر المولى سبحانه وتعالى كثيراً من المعاني التي تصوِّر حال النبي عليه السلام مع قومه ثم أتبعها بقوله تعالى **﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ● إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزَّزنا بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون ● قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ● قالوا ربنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون ● وما علينا إلا البلاغ المبين ● قالوا إنّا تطيَّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منا عذاب أليم ● قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ● وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ● اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ● ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ● أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ● إني إذاً لفي ضلال مبين ● إني آمنت بربّكم فاسمعون ● قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ● بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾**(١).

وقد يجيء المعنى ابتداء في صورة القصة كما هو الحال في قصة الملكين مع داوود.

وسنقصر الحديث هنا على القصص التي تصوِّر المظهر الثاني من مظهري التمثيل وهي التي تبرز المعاني فيها في صورة القصة ابتداء.

وإليك شيئاً من هذه القصص:

(أ) قال تعالى **﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتَّقوا الله إن كنتم مؤمنين ● قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدَّقتنا ونكون عليها من الشاهدين ● قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ● قال الله**

---

(١) سورة يس، الآيات ١٣ - ٢٧.

إني منزلها عليكم فمَن يكفر بعد منكم فإني أعذِّبه عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين﴾[١].

وجاء في الطبري: وقال آخرون لم ينزل الله على بني إسرائيل مائدة. ثم اختلف قائلو هذه المقالة فقال بعضهم إنما هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم به عن مساءلة نبي الله الآيات. ذكر مَن قال ذلك ـ حدثنا ابن وكيع قال حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن ليث عن مجاهد: أنزل علينا مائدة من السماء قال مثل ضرب لم ينزل عليهم شيء[٢].

(ب) وقال تعالى **﴿ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾**[٣].

وذهب بعض القدماء من المفسِّرين فيما روى عنهم ابن كثير إلى أن هذه ليست قصة واقعية وإنما هي مثل «عن ابن جريج عن عطاء أن هذا مثل»[٤].

ويلاحظ أن الناشر قد كتب على الهامش هذه العبارة يعني أنها ضرب مثل لا قصة واقعية.

(ج) قال تعالى **﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾**[٥].

وجاء في المنار بعد تفسيره للقصة ما يلي «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم[٦]».

---

(١) سورة المائدة، الآيات ١١٢ ـ ١١٥.

(٢) الطبري، جـ ٧، ص ٨١.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٤٣.

(٤) ابن كثير، جـ ١، ص ٥٩٠.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٦) المنار جـ ٣، ص ٥٢.

(د) قال تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[1].

وجاء في الرازي ما يلي «المسألة الثانية: أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها على بعض غير أبي مسلم فإنه أنكر ذلك وقال إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى آراه الله تعالى مثالاً قرب به الأمر عليه والمراد بصرهن إليك الإمالة والتمرين على الإجابة أي فعود الطير الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحداً حال حياته ثم ادعهن يأتينك سعياً والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة»[2].

وأورد صاحب المنار هذا الرأي وعلّق عليه بقوله: وجملة القول أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم وهو الذي يجلي الحقيقة في المسألة... وما صرف جمهور المتقدمين عن هذا المعنى على وضوحه إلا الرواية بأنه جاء بأربعة طيور من جنس كذا وكذا وقطعها وفرقها على جبال الدنيا ثم دعاها فطار كل جزء إلى مناسبه حتى كانت طيوراً تسرع إليه فأرادوا تطبيق الكلام على هذا ولو بالتكلُّف.

وأما المتأخرون فهمهم أن يكون في الكلام خصائص للأنبياء من الخوارق الكونية وإن كان المقام مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور وهو أكبر الآيات. ولكل أهل زمان غرام في شيء من الأشياء يتحكم في عقولهم وأفهامهم والواجب على مَن يريد فهم كتاب الله أن يتجرد من التأثُّر بكل ما هو خارج عنه فإنه الحاكم على كل شيء ولا يحكم عليه شيء ولله در أبي مسلم ما أدق فهمه وأشد إستقلاله فيه[3].

(هـ) وقال تعالى ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرَّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

(٢) التفسير الكبير، جـ ٢، ص ٣٣٢.

(٣) المنار، جـ ٣، ص ٥٨.

يتقبّل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبّل الله من المتّقين ● لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا باسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ● إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ● فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين● فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين...﴾[1].

وجاء في المنار بصدد حديثه عن حب الأخوة ما يلي «والحق فيما قصّه علينا الوحي من قتل قابيل أنه بيان لما في إستعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطرة بالتعارض بين عاطفة وشيجة الرحم وحب العلو والرجحان والإمتياز على الأقران في رغائب النفس ومنافعها وما قد يلد من الحسد وما قد يتبع الحسد من البغي والعدوان فضرب الله مثلاً لبيان هاتين الحقيقتين ليرتّب عليه بيان كون غريزة الدين بل هدايته هي المهذبة للفطرة البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر فكان قابيل مثلاً لمَن غلبت عليه النزعة الثانية وهابيل مثلاً لمَن غلبت عليه الأولى بترجيح هداية الدين وذلك قوله حكاية عنه **﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا باسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ● إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾**. والدليل على محبة الأخوة ووشيجة الرحم في نفس قابيل وتنازعها مع حب العلو والرجحان على أخيه أو مساواته وحسده لتقبل قربانه دونه قوله تعالى **﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾** فإن التعبير عن ترجيح داعية الشر المتولدة من الحسد العارض على عاطفة حب الأخوة ورحمة الرحم بالتطويع من أبلغ تحديد القرآن لدقائق الحقائق باللفظ المفرد»[2].

(و) وقال تعالى **﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشّاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ● فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾**[3].

---

(١) سورة المائدة، الآيات ٢٧ - ٣١.

(٢) المنار، جـ ١٠، ص ٢٢٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ١٨٩-١٩٠.

وجاء في الرازي ما يلي «قصة ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾. التأويل الأول ما ذكره القفال فقال إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين عن جهلهم وقولهم بالشرك. وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية فلما تغشّى الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما في قول الطبائعيين وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجّمين وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام ثم قال تعالى ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أي تنزّه الله عن ذلك الشرك. وهذا جواب في غاية الصحة والسداد[1]».

(ز) وجاء في الطبري بصدد حديثه عن قصة آدم من سورة البقرة ما يلي «وهذا وإن كان من الله جل ثناؤه خبراً عن إبليس فإنه تقريع لضربائه من خلق الله الذين يتكبّرون عن الخضوع لأمر الله والإنقياد لطاعته فيما نهاهم عنه والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق.

وكان ممّن تكبّر عن الخضوع لأمر الله والتذلّل لطاعته والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأحبارهم الذين كانوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصفته عارفين بأنه لله رسول عالمين ثم استكبروا مع علمهم بذلك عن الإقرار بنبوته والإذعان لطاعته بغياً منهم له وحسداً فقرعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في إستكباره عن السجود لآدم حسداً له وبغياً نظير فعلهم في التكبّر عن الإذعان لمحمد نبي الله صلّى الله عليه وسلّم ونبوّته إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسداً وبغياً.

ثم وصف إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضربه لهم مثلاً في الإستكبار والحسد والإستنكاف عن الخضوع لمَن أمره الله بالخضوع له فقال جل ثناؤه وكان يعني إبليس من الكافرين نعم الله عليه وأياديه عنده بخلافه عليه فيما أمر به من السجود لآدم كما قال كفرت اليهود نعم ربها التي آتاها وآباءها من قبل إطعام الله أسلافهم المن والسلوى وإظلال الغمام

(١) التفسير الكبير، جـ ٤، ص ٣٤٢.

عليهم وما لا يحصى من نعمه... إلخ»[1].

وواضح من حديث الطبري أن إبليس في هذه القصة إنما يمثل يهود المدينة ومن أجل هذا التمثيل وصف المولى سبحانه وتعالى إبليس بمثل الذي وصف به اليهود وجعله من الكافرين.

ولعله مما يزيد رأي الطبري وضوحاً وبياناً ويجعل قصة آدم تمثيلية أنه جعلها كذلك في سورة ص أيضاً حيث نراه يجعل إبليس هناك مثلاً للكفرة من المشركين من أهل مكة حيث استكبروا أن يكونوا تبعاً لرجل منهم وقالوا **﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾**[2] فأنا نراه يقول بصدد حديثه عن القصة «وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وأبوا الإنقياد له وإتباع ما جاء به من عند الله إستكباراً عن أن يكونوا تبعاً لرجل منهم... إلخ»[3].

(ح) ونستطيع أن نختم هذا العرض لأقوال المفسّرين بذلك النص الواضح البيِّن الذي يصوِّر رأي الأستاذ الإمام في القصة التمثيلية. جاء في المنار ما يلي «وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فقال فيه إن القرآن كثيراً ما يصوِّر المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى **﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾**[4] فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحو قوله عزَّ وجل بعد ذِكر الإستواء إلى خلق السماء» **﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾**[5] «والمعنى في التمثيل ظاهر».

---

(١) **الطبري**، جـ ١، ص ١٧٥.

(٢) سورة **ص**، الآية ٨.

(٣) الطبري، جـ ٢٣، ص ١٠٧.

(٤) سورة ق، الآية ٣٠.

(٥) سورة **فصلت**، الآية ١١.

أقول هذا الأمر يسمى أمر التكوين ويقابله أمر التشريع وإنما سُمّي بأمر التكوين للتعبير عنه في التنزيل بقوله تعالى **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[1] فهو تصوير لتعلُّق إرادة الربوبية بالإيجاد. ولا أذكر عن أحد من المفسّرين المتبعين للأثر تصريحاً بأن الأوامر في قصة آدم من أمر التكوين إلا للحافظ بن كثير فإنه ذهب في تفسير **﴿قال فاهبط منها﴾**[2] من سورة الأعراف إلى أن الأمر فيه أمر قدري كوني. ومثله ما في معناه من قصة آدم ومن الآيات الأخرى من مخاطبة إبليس للرب وجوابها في شأن إغوائه للبشر وإنظاره إلى يوم القيامة.

قال الأستاذ الإمام: «وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا. إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض . وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطي إستعداداً في العلم والعمل لا حد لهما هو تصوير لما في إستعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض . وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لإستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في إستعمارها . وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصُّلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته . وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في تربية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك . وإباء إبليس وإستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثال التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض. ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري... إلخ».

وهكذا نستطيع أن ننتهي من الحديث عن هذا اللون القصصي إلى القول بأن القصة التمثيلية أو الخيالية موجودة في القرآن الكريم باعتراف أئمة التفسير من القدماء

(١) سورة يس، الآية ٨٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٣.

والمحدثين. وبأن القصة التمثيلية قصة أدبية وأنها تدخل تحت صورة من صور التعريف الأدبي للقصة وهي القصة هي العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيُّل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو من بطل له وجود ولكن الأحداث التي ألمَّت به لم تقع له أصلاً.

كما نستطيع أن نقول بأنّا بعد كل ما تقدَّم لن نجد مَن يعارض في وجود القصة التمثيلية في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال وأن الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم في بلاغتهم عليه والله سبحانه وتعالى إنما يحدِّثهم من هذا بما يعتادون. ولعل من القصص التمثيلي كل قصة أعرض القرآن فيها عن ذِكر البطل فأهمله أو أخفاه.

والآن نستطيع أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان القصص الأدبي في القرآن وهو اللون الخاص بالأساطير.

(٣) القصة الأسطورية

ويختلف الوضع هنا عنه في اللونين السابقين من حيث المواد الأدبية ومن حيث تناولها.

أما من حيث المواد فيرجع الإختلاف إلى أن المواد الأدبية في القصة التاريخية كانت أحداثاً واقعية تناولها القرآن ورتَّبها ترتيباً يحقق الغرض المراد في القصة القرآنية وإلى أن المواد في القصة التمثيلية كانت أحداثاً لا نعرف لها هذه الصفة من التاريخية والواقعية ومن هنا استطعنا أن نسميها في عرفنا البشري أحداثاً مفروضية أو متخيلة وقد تناول القرآن هذا اللون من الأحداث وعرضه العرض الذي تتحقق به الأغراض المرادة من القص.

أما في القصة الأسطورية فالمواد الأدبية قصة بأكملها ومن هنا يكون الصنيع البياني مخالفاً بعض الشيء له في اللونين الأولين من ألوان القصص القرآني.

وأما من حيث معالجة القصة الأسطورية فلن نستطيع أن نسلك السبيل التي سلكناها هناك فنبدأ بعرض بعض القصص لنلحظ الظواهر الأدبية ثم نسجِّلها ونفسِّرها

كما فعلنا هناك. والأمر في ذلك واضح فالقدماء من المسلمين يجمعون على وجود القصة التاريخية في القرآن مهما يكن الرأي في طريقة تناولها ونحن متّفقون معهم كل الإتفاق على هذا القدر وغاية الأمر أنّا نقول إن عرض القصة التاريخية للأحداث والأشخاص إنما هو العرض الأدبي البلاغي أي الفني. وبعض القدماء من المفسّرين يقول بوجود القصة التمثيلية أو غير الواقعية وعلى حد قول بعضهم الفرضية. ومن كل ما تقدم صلح في اللونين السابقين أن نبدأ بعرض قصص إنتهينا منه إلى المراد.

أما هنا فلم يقل واحد من المفسّرين بوجود القصة الأسطورية في القرآن بل على العكس نرى منهم كما نرى من بعض المحدثين نفوراً من لفظ الأسطورة ومن القول بأنها في القرآن ولو إلى حد ما.

نعم نحن لا ننكر أن بعض المفسّرين من أصحاب اللمحات قد فتح الباب وأجاز القول بوجود القصة الأسطورية وأصّل لذلك أصولاً مهمة لهذه الفكرة مثل تقريره أن هناك جسماً للقصة أو هيكلاً للحكاية وأن هناك أموراً أخرى. والجسم أو الهيكل غير مقصود أما المقصود حقاً فهو ما في القصة من توجيهات دينية أو خلقية وهو ما ذهب إليه الأقدمون كالإمام الرازي وهو ما قرّره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في صراحة ووضوح حين تحدّث عن التعبيرات البيانية وأنها قد تقوم على شيء من الخرافات الوثنية. وهذه هي أقوال هذين العالمين.

جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى **﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾**[1] من سورة يونس ما يلي «الأول أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها»[2].

فنحن نلحظ أن الرازي هنا يفرّق بين شيئين: الأول هيكل القصة أو جسم الحكاية.

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

(٢) التفسير الكبير، جـ ٤، ص ٥٩١.

الثاني ما في القصة من توجيهات دينية نحو قواعد الدعوة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف.

والرازي يلحظ أن الأمر الأول وهو هيكل القصة أو جسم الحكاية هو الذي أدخل الشبهة على عقول المشركين حين ظنّوا أنه المقصود من القصص ومن أجل هذا ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من أن القرآن أساطير الأولين.

والرازي يقرّر أن المقصود أمور أخرى مغايرة لهذا الجسم من القصة.

وجاء في المنار من حديث عند تفسيره لقصة هاروت وماروت من سورة البقرة ما يلي «قال الأستاذ الإمام ما مثاله: بينّا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والإعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الإعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والإعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهداية ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على إستحسان الحسن وإستهجان القبيح.

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعمَلة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله ﴿**كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾[1] وكقوله ﴿**بلغ مطلع الشمس**﴾[2] وهذا الأسلوب مألوف فإننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية»[3].

إذ الواضح أن الأستاذ الإمام يجيز أن يكون في التعبير القرآني قصصاً وغير قصص أثر للأساطير إجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية لأنه يحكي من عقائدهم الحق والباطل كما يجيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء فجعل الخرافات الوثنية أداة للتعبيرات البلاغية.

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٥.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٩٠.

(٣) المنار، جـ ١، ص ٣٩٩.

لا ننكر أن المفسِّرين الكبيرين قد قالا هذا وقد فتحا الباب أمامنا لكنهما وقفا عند هذا الحد ولم يضعا بين أيدينا قصة واحدة ليشرحاها الشرح الأدبي الذي يسمح لنا بأن نجعلها فاتحة الحديث عن القصة الأسطورية ونمضي على هدى منه.

إن كل ما صنعاه أنهما جعلا جسم القصة أو هيكل الحكاية غير مقصود من القرآن وأنه لو كان أسطورة من الأساطير فإن ذلك لا يقدح في حق القرآن الكريم لأنه ليس من مقاصده وليس من الأمور التي عُني بشرحها وتفصيلها.

لا بد إذن من الحديث المفصَّل عن هذا اللون من القصص ونظر القرآن إليه وتناوله له.

ونقدم بين يدي ذلك ما نشير به إلى أن السبيل إلى درس مثل هذه الموضوعات مرسومة من قبل. رسمها الأصوليون في بحث آيات التشريع وهي جمع الآيات المتعلِّقة بموضوع ما ثم فهمها وتسجيل ظواهرها ثم تفسير هذه الظواهر والإنتهاء من كل ذلك إلى حكم القرآن في المسألة. ولن تكون سبيلنا هنا إلا هذه السبيل.

وتلك هي آيات القرآن الكريم التي عرضت لذكر الأساطير نجمعها مستقصين لننظر فيها النظرة العلمية التي تسلم إلى الحق المبين.

(١) قال تعالى **﴿ومنهم مَن يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[١].

(٢) وقال تعالى **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ● وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إئتنا بعذاب أليم﴾**[٢].

(٣) وقال تعالى **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾**[٣].

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٢٥.
(٢) سورة **الأنفال**، الآيتان ٣١-٣٢.
(٣) سورة **النحل**، الآية ٢٤.

(٤) وقال تعالى ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون ● قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون ● لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[١].

(٥) وقال تعالى ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ● قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾[٢].

(٦) وقال تعالى ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنّا لمخرجون ● لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[٣].

(٧) وقال تعالى ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾[٤].

(٨) وقال تعالى ﴿ولا تطع كل حلاف مهين ● هماز مشاء بنميم ● مناع للخير معتد أثيم ● عتل بعد ذلك زنيم ● أن كان ذا مال وبنين ● إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾[٥].

(٩) وقال تعالى ﴿ويل يومئذٍ للمكذّبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾[٦].

هذه هي الآيات التي عرض فيها القرآن لهذه المسألة فلننظر لنرى ما فيها من دلالات على نظرية لهذه الأساطير.

وأول ذلك أن هذه الآيات جميعها من القرآن المكي حتى ما وُضع منها في سورة مدنية كالأنفال مثلاً فقد نص القدماء، واعتمد ذلك المصحف الملكي، على أن الآيات من

(١) سورة المؤمنون، الآيتان ٨٣-٨٤.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان ٥-٦.

(٣) سورة النمل، الآيتان ٦٧-٦٨.

(٤) سورة الأحقاف، الآية ١٧.

(٥) سورة القلم، الآيات ١٠-١٥.

(٦) سورة المطففين، الآيات ١٠-١٣.

٣٠ ـ ٣٦ من سورة الأنفال مكية. وأقرب ما يُفهم من ذلك أن الحديث عن الأساطير إنما كان من أهل مكة وجمهرتهم المطلقة من المشركين وأنه قول لم يقل في المدينة بعد إنتقال النبي عليه السلام إليها. وهذه ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

وثاني ما يُفهم من النظر في هذه الآيات أن القائلين لهذا القول هم في الغالب الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالحياة الآخرة. وذلك واضح كل الوضوح من آيات سور: المؤمنون، النمل، الأحقاف، المطففين. ذلك لأن الحديث معهم في هذه المسألة بالذات، وهو متصل بسبب قوي بالحديث عن الحياة الآخرة في آيات سور الأنعام والنحل.

وتلك ظاهرة تستحق التفسير أيضاً والتعليل.

وثالث ما يُفهم من النظر في هذه الآيات أن المشركين كانوا يعتقدون بما يقولون إعتقاداً صادقاً وأن الشبهة عندهم كانت قوية جارفة وذلك هو الواضح تماماً من هذه الآيات التي يحسن بنا أن نستعرضها سوياً.

في سورة الأنعام يذهب المشركون إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم فيستمعون القرآن لكنهم بعد الإستماع يجادلونه ويقولون له ﴿**إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾[1]. ونعتقد أنهم لم يقولوا هذا القول في مواجهة النبي وأمام سمعه وبصره إلا وهم يعتقدون أن ما يقولونه وما يرونه الصواب. ومعنى ذلك أن الشبهة عندهم في إحتواء القرآن على الأساطير شبهة قوية جارفة.

وفي سورة الأنفال يذهبون ويستمعون وبعد هذا وذاك يقولون ﴿**قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾[2]. ولا يكتفون في هذا الموطن بهذا القول وإنما يذهبون إلى أبعد من هذا في التحدي ويقولون ﴿**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾[3].

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٢٥.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٣١.

(٣) نفس السورة، الآية ٣٢.

ونحن إذ نعتقد بصدق القرآن ودقّته في تصوير إحساساتهم لا بد لنا من التسليم بأن هذه العقيدة كانت قوية عندهم وتقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول إلا إذا كان هناك ما يبرّر فعلاً هذا القول في تقديرهم ويجعلهم يؤكّدونه هذا التأكيد.

وفي الأحقاف يقف ولد هو فيما يروي المفسّرون ابن أبي بكر الصديق من والديه هذا الموقف القاسي العنيف **﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾**[1].

وما من شك في صدق القرآن ودقّته في تصويره لخلجات الأنفس ولذا نقدّر بأن هذا الشخص الذي يضجر من والديه ويتأفف من قولهما ويشك في عودته إلى الحياة مرة ثانية ويقيم هذا الشك على ملاحظته لظاهرة من الظواهر هي أن القرون قد خلت من قبله ولم يعد إلى الحياة أحد كان قوي العقيدة شديد اليقين في أن ما وعد به من الإخراج إنما هو من الأساطير.

وهكذا نلحظ أن الشبهة عنده قوية عنيفة وأن القرآن يصوّرها تصويراً دقيقاً صادقاً ونحس نحن من هذا التصوير القرآني أن القوم كانوا إنما يعبّرون عما يحسّون ويشعرون به نحو ما يتلى عليهم من آي الذكر الحكيم فهم لم يقولوا هذا القول كذباً وإدعاء وإنما قالوه عن شبهة قوية وعقيدة ثابتة.

ونستطيع أن نسأل أنفسنا قائلين هل معنى ذلك الذي يقرّره القرآن أن في القرآن شيئاً دعاهم إلى هذا القول الذي يدل على التقرير القوي والإعتقاد المتمكّن وهل هذا الشيء من الأخطاء التي ملكت عليهم نفوسهم أو هو شيء من حال القرآن جعلهم يقولون ذلك؟ لنلتمس الجواب عن هذا من دلالة تعرّض القرآن للأساطير من نفيها عن نفسه وشدة حرصه على ذلك أو من دلالته على وقوفه منها موقفاً يخالفه ذلك؟

لننتظر وسنرى.

---

(١) سورة **الأحقاف**، الآية ١٧.

ورابع ما يُفهم من النظر في هذه الآيات التي هي كل ما تحدَّث به القرآن عن الأساطير أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله.

واستعرض معي الآيات مرة أخرى لتتبيَّن موقف القرآن نحو هذا الحرص على نفي وجود الأساطير فيه وسترى:

(١) أن القرآن اكتفى بوصف هذا الصنيع من المشركين في آيات سور الأنفال، المؤمنون، النمل، الأحقاف، دون تعقيب عليه.

(٢) وأن القرآن إكتفى بتهديد القوم في آيات سور الأنعام والمطففين. وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث أو على صدِّهم الناس عن إتباع النبي وليس منه التهديد على قولهم بأن الأساطير قد وردت في القرآن الكريم.

(٣) ومرة واحدة يعرض القرآن للرد عليهم في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان، وهذه هي الآيات **﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ● قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما﴾**[١].

فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند الله. **﴿قل أنزله الذي يعلم السر...﴾** إلخ.

لعل الثاني أوضح، ولعل هذا الوضوح هو الذي جعل الرازي في مناقشته لرد القرآن عليهم يقول البحث الأول في بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة وتقريره ما قدَّمناه من أنه عليه السلام تحدّاهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٥-٦.

القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي من عند الله وكلامه فلهذا قال **﴿قل أنزله الذي يعلم السر﴾**[1].

والذي يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازي يسأل عن كيفية أن يكون قوله تعالى. **﴿قل أنزله الذي يعلم السر...﴾** إلخ إجابة عن قولهم **﴿وقالوا أساطير الأولين...﴾** إلخ ذلك لأن المتبادر أن الرد الذي كان يتوقّعه الرازي إنما يكون بنفي وجود الأساطير في القرآن ومن هنا حاول أن يجعل إجابة القرآن ملافية للشبهة حين وجد أن الرد ليس نفياً لوجود الأساطير في القرآن بل نفي موجود آخر هو أنه ليس منزلاً من **﴿الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾**. ولعلنا لا نوافق الرازي فيما وجّه به الرد بل نرى أن إجابة القرآن هي الإجابة الطبيعية وهي الإجابة التي لا محيد عنها في هذا الميدان. ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والمشركين لم يكن عن ورود الأساطير في القرآن وإنما كان عن إتخاذهم ورود الأساطير دليلاً على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء. ومن هنا كانت الإجابة في محلها وكان إثبات أن القرآن من عند الله **﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾** ولم تكن الإجابة نفي ورود أساطير في القرآن.

وهذا هو الذي يدل عليه أيضاً ما ذكره القرآن من قبلهم **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾**[2] ذلك لأنهم كانوا يتخيلون إستبعاد أن يصدر مثل هذا القصص الأسطوري عن الله ولذا وقفوا موقفهم هذا من النبي عليه السلام ومن القرآن واشتطّوا في ذلك وغلوا وهم مخطئون.

وإذا كان إحساس القوم بورود الأساطير في القرآن قوياً عنيفاً وعقيدتهم في ذلك قوية ثابتة.

وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله.

---

(١) **التفسير الكبير**، جـ ٦، ص ٣٥٤.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٢٤.

إذا كان كل هذا ثابتاً فإنّا لا نتحرج من القول بأن في القرآن أساطير لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن.

ويبقى من ذلك الشرح للظواهر وتفسيرها أمران: الأول لماذا صدر هذا القول عن منكري البعث؟ والثاني لماذا كان من المكيين؟

لنستعرض سوياً بعض القصص القرآني الذي عالج القرآن فيه مشكلة البعث:

(١) قال تعالى **﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبيَّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ● وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾**[1].

وواضح من القصتين أنهما تفسّران وتجسمان عملية الإحياء بعد الإماتة وهي العملية التي كان ينكرها المشركون إنكاراً تاماً ويزعمون أنها أحاديث خرافة.

ويقف بعض المفسِّرين من هاتين القصتين موقفاً يدل على أنهما عندهم من الأقاصيص التي تقع ولم تحدث.

جاء في تفسير المنار عقب حديثه عن القصة الأولى هذه الجملة «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل»[2].

وجاء في الرازي بعد تفسيره للقصة الثانية رأي لأبي مسلم ينكر فيه وقوع القصة ويذهب إلى أنها من قبيل التمثيل ليس غير. هذا الرأي الذي عرضناه عليك في الفقرة الخاصة بالقصة التمثيلية من هذا الفصل[3].

---

(١) سورة **البقرة**، الآيتان ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) **المنار**، جـ ٣، ص ٥٢.

(٣) الرازي، جـ ٢، ص ٣٣٣.

وإذا ما ضممنا إلى ذلك ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن قصة أصحاب الكهف قصة أسطورية[1]. تبيَّن لنا السر في أن القائلين بالأسطورية هم الذين ينكرون البعث إذ أنهم لم يستطيعوا تصديق أمثال هذه القصص التي تجسّم عملية الإحياء بعد الإماتة وجروا على أنها أساطير الأولين.

ونستطيع أن نذكر هنا أيضاً أن الشبهة التي دخلت على المشركين من أمثال هذه الأقاصيص قد دخلت أيضاً على بعض المفسّرين من الباب نفسه ومن هنا لم يستطيعوا تصديق وقوع هذه الأحداث وفسّروا هذا اللون من القصص على أنه قصص يراد به التمثيل.

والآن إلى هذه الظاهرة.

لماذا انقطع القول بالأساطير حينما انتقل النبي إلى المدينة؟

إن السبب فيما نعتقد واضح بين فالبيئة قد تثقّفت ثقافة كتابية بفضل اليهود. وفي الكتب السابقة وردت الأساطير لتشرح فكرة أو تمثّل وتجسّم عقيدة من العقائد وهذه فكرة يعرفها أهل الكتاب ونعتقد أن قد كان يعرفها المدنيون من العرب من هؤلاء.

والبيئة المكية لم تكن مثقفة ثقافة كتابية في هذا الجانب فيما نعتقد ومن هنا أنكرت على القرآن هذا الصنيع.

إن القصص الأسطوري يعتبر تجديداً في الحياة الأدبية المكية وتجديداً جاء به القرآن الكريم وتجديداً لم يألفه القوم ومن هنا أنكروه.

إن هذه النظرة تفسّر لنا جانباً من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم فقد وضع تقليداً جديداً في الحياة الأدبية العربية وهو بناء القصص الديني على بعض الأساطير. وهو بذلك قد جعل الأدب العربي يسبق غيره من الآداب العالمية في فتح هذا الباب وجعل القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب الدقيق الرفيع.

يجب أن نحرص على فتح هذا الباب ولا نوصده في وجه الذين يقولون بوجود

(١) مادة **أصحاب الكهف** في دائرة المعارف الإسلامية.

الأساطير في القرآن الكريم وإنما يجب أن نفسِّره التفسير الذي اهتدى إليه الرازي ووقف عنده الأستاذ الإمام ولم ينكره على نفسه القرآن الكريم.

فإذا ما قال المشركون إن بالقرآن أساطير قلنا ليس عليه في ذلك بأس وإنما البأس عليكم لأنكم قد عجزتم عن فهم مقاصده وقصدتم عن المضي معه في هذا السبيل.

وإذا ما قال المستشرقون إن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بُنيت على بعض الأساطير[1]. قلنا ليس في ذلك على القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى ويكفينا فخراً أن كتابنا الكريم قد سنَّ السنَن وقعَّد القواعد وسبق غيره في هذه الميادين.

ونستطيع الآن أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن القرآن الكريم لا ينكر أن فيه أساطير وإنما ينكر أن تكون الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام لم يجئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء.

ومن هنا يجب ألا يزعجنا أن يثبت عالم من العلماء أو أديب من الأدباء أن بالقرآن أساطير. ذلك لأن هذا الإثبات لن يعارض نصاً من نصوص القرآن الكريم.

جاء في الرازي عند تفسيره لآية النحل ما يلي «لقائل أن يقول كيف يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين. وجوابه من وجوه: الأول أنه مذكور على سبيل السخرية... الثاني أن يكون التقدير هذا الذي تذكرون أنه مُنزَل من ربكم هو أساطير الأولين. الثالث يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزل الله لكنه أساطير الأولين ليس فيه شيء من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق».

وواضح أن الرازي يجيز في رأييه الأخيرين القول بورود أساطير في القرآن الكريم وأنها من عند الله.

إن المسألة أوضح من أن نختلف عليها بعد الآن والله الهادي إلى سواء السبيل.

القصة الأسطورية إذاً من القصص الأدبي الذي نجد من المفسِّرين مَن أجاز أن يكون موجوداً في القرآن الكريم.

---

(١) راجع مادة **أصحاب الكهف** ومادة **إلياس** من دائرة المعارف الإسلامية.

هذه هي الألوان الثلاثة من القصص الأدبي وضعتها بين يديك ودللت على وجودها أو على إحتمال الوجود وإجازته وكلها يثبت أن القصة في القرآن الكريم عمل أدبي قصد إليه القرآن وجعله وسيلته إلى كل ما يريد من مقاصد وأغراض.

وننتقل الآن إلى الحديث عن أمر آخر هو الوحدة القصصية وسنرى منها أيضاً ما يزيد الأمر بياناً وإيضاحاً ويطلعنا على أن القصد الأدبي في القصص القرآني هو سر ما فيه من إعجاز.

الوحدة القصصية

والنزعة التاريخية التي سيطرت على عقلية الدارسين للقصة القرآنية جعلتهم يضلّون السبيل إلى الوحدة القصصية للقصة القرآنية. ذلك لأنها جعلتهم لا يستطيعون التفرقة في سهولة ويُسر وفي دقة وإحكام بين صنيع المؤرِّخين وصنيع الأدباء في رسم صور الشخصيات فهم لم يستطيعوا مثلاً أن يتبيَّنوا أنه إن كان من واجب المؤرِّخ أن يرسم الصورة كما كانت عليه الشخصية في الحياة فإن من حق الأديب أن يختار من الملامح وأن يبرز من القسمات وأن يعرض من جوانب الشخصية ما يمكِّنه من الوصول إلى تلك الأهداف التي قصد إليها من قص القصص. وإنَّ من حقه أيضاً أن يلوِّن الصورة بالألوان التي تجعل الشخصية قادرة كل القدرة على القيام بذلك الدور الذي قدّر لها أن تلعبه في القصة. ومن هنا لم يستطع هؤلاء الدارسون الإيمان بأن الشخصية الواحدة قد لا تتشابه صورها حين يصوِّرها أدباء مختلفون أو حين يصوِّرها أديب واحد في أقاصيص مختلفة. ولعله السبب الذي من أجله عجز هؤلاء عن تفسير تلك الظاهرة في الأقاصيص القرآنية، فلقد عجز القوم عن تفسير هذه الصور التي رسمها القرآن لفرعون من مجيئه مرة في مسوح العابد وأخرى في عزة المعبود.

وعدم القدرة على التفرقة بين الصنيعين صنيع الأدباء وصنيع المؤرخين هو الذي دفع

هؤلاء الدارسين إلى إعتقاد أن الشخصية القصصية في القصص القرآني ليست إلا الشخصية التاريخية وأن هذه الأخيرة هي كل شيء في القصص القرآني. فهي الأساس الذي تبنى عليه القصة وهي المحور الذي تدور حوله وتستند إليه بقية العناصر ثم هي العنصر المبين للوحدة القصصية والمميز لقصة قرآنية عن أخرى غير قرآنية.

ونحن في هذا الموقف لا نريد الحديث عن العناصر القصصية وكيفية توزيعها في القصة القرآنية ولا عن الشخصية وكيف أن القرآن كان يجعلها العنصر الأول حين يقصد إلى الإنذار ولا عن الحوار وكيف أن القرآن كان يجعله العنصر الأول حين يقصد إلى الرد على المعارضة وإلى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية. لا نريد الحديث عن شيء من هذا لأن لهذه المسائل جميعها محلها من البحث في فصل خاص بها هو فصل العناصر القصصية.

إننا نريد في هذا الموقف الحديث عن الوحدة القصصية عن الأساس الذي نميِّز به في القرآن قصة عن قصة. عن الأساس الذي يفرد القصة ويجعلها محل بحث ودرس لملاحظة الظواهر ثم تفسيرها وتعليلها ثم الوقوف على ما فيها من قيَم فنية وأدبية.

كان الأساس عند الدارسين قبلنا الشخصية التاريخية ومن هنا كانت تسميتهم للأقاصيص القرآنية بأسماء الأنبياء والمرسلين وأسماء غيرهم من رجال التاريخ فنرى في كتبهم قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وذي القرنين. كما نرى فيها أيضاً تمييزهم للأقاصيص بالصفات التي كان يطلقها القرآن الكريم على الشخصيات ومن ذلك قصص **﴿الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾**[1]، و **﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾**[2]، و **﴿أصحاب الكهف﴾**[3] و **﴿الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾**[4]، و **﴿أصحاب الجنة﴾**[5] وهكذا.

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٩.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٥.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ٩.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٤٣.

(٥) نفس السورة، الآية ٨٢ وفي عدة سور أخرى.

كانت النتيجة المنطقية لهذا الصنيع من القدماء أن تكون قصة موسى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء الذين تكرَّرت أسماؤهم في القرآن ودارت حولها أخبار وآراء هي مجموع هذه الأقاصيص التي دارت حول هذه الأسماء. وهنا نعترف بأنهم لم يقفوا طويلاً عند الأسرار التي من أجلها كرر القرآن هذه الأقاصيص وخالف فيما بينها بالذكر والحذف أو الزيادة والنقصان أو صوَّرها بصور مختلفة من حيث التقديم والتأخير وغير ذلك من طرق وأساليب عمد إليها القرآن.

إنه من هنا قامت في وجههم الصعوبات وتكاثرت أمامهم المشكلات وأحسّوا بعدم القدرة على الخروج مما وضعوا أنفسهم فيه من مآزق ولعلهم من هنا ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عد القصص القرآني من المتشابهات.

إن الأساس الذي يحسن بنا أن نسير عليه في فهم الوحدة للقصة القرآنية إنما هو الأساس الذي جعله القرآن نفسه أساساً للمجموعات القصصية التي جمع بينها في السورة الواحدة ووحَّد فيها بين البناء والتركيب. هو المقاصد والأغراض والموضوعات الدينية لا الأسماء ولا الأشخاص.

إن المشكلة التي تعالجها القصة هي الوحدة التي يقوم عليها فن التركيب والبناء.

إن ذلك الفهم للوحدة القصصية هو الذي يتفق وقواعد الأصوليين ويجري وصنيع القرآن ثم هو الذي لعله يفتح الطريق لإدراك معنى لهذا التشابه في قصص القرآن. ولعله يرد عن القرآن مطاعن الطاعنين من ملاحدة ومستشرقين.

(١) أما إنه يتفق وقواعد الأصوليين فلأنهم يجعلون مدار البحث في الآية القرآنية ما تصوَّره من حكم شرعي أو عقيدة دينية ولا يجعلونه الأشخاص الذين تدور حولهم هذه الأحكام ومن هنا توزَّع الحديث على الأزواج في مواطن كثيرة فجاء بعضه في آيات النكاح وبعضه في آيات الطلاق وبعضه فيما يقوم بين الزوجين من خصومات، كما جاء بعضه في آيات النفقة وبعضه في آيات الميراث وهكذا.

ولا يستطيع باحث أن يجمع بين آيات الطلاق وآيات الميراث إذ هذه توضع في باب الميراث وتلك في باب الطلاق وهكذا.

وهذا هو ما يحسن أن يجري عليه العمل في القصة القرآنية فيحسن أن تكون الوحدة هي الغرض القصصي فتكون هذه القصة للتخويف وتلك للإنذار وهذه للعظة وتلك لتثبيت قلب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

وواضح أنّا لا نستطيع أن نجمع بين قصة للبعث كقصة إبراهيم والطير في البقرة وقصة لتثبيت قلب النبي عليه السلام كقصة إبراهيم في هود وقصة المحاربة والأوثان كقصة إبراهيم في الأنبياء لمجرد أن هذه القصص كلها تدور حول شخصية إبراهيم عليه السلام.

وكذلك لا نستطيع أن نصنع هذا الصنيع في القصص الدائرة حول غيره من الأنبياء.

(٢) وأما إنه يجري وصنيع القرآن فلأنه الأساس الذي قام عليه الجمع في الأقاصيص المختلفة من حيث الأسماء الواردة في سورة واحدة من سور القرآن. وذلك هو الأمر الواضح من مجموعات القصص الواردة في كل من سور القمر والأعراف وهود والشعراء وغيرها من السور التي وردت فيها أمثال هذه المجموعات.

ثم لأن هذا الأساس هو الذي قام عليه التشابه والإتفاق في فن بناء قصة وتركيبها في كل من السور مهما تتغير الأسماء.

ولعل القصص التالية توضح لك صنيع القرآن وتبيِّن لك السر الذي من أجله جمع بين هذه الأقاصيص في سورة واحدة ووحّد بينها في فن بناء القصة وتركيبها مع الإختلاف في الأسماء.

قال تعالى ﴿كذبت ثمود المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتّقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين● أتتركون فيما ههنا آمنين ● في جنات وعيون ● وزروع ونخل طلعها هضيم ● وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● ولا تطيعوا أمر المسرفين ● الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا إنما أنت من المسحرين ● ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين ● قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ● ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ● فعقروها فأصبحوا نادمين ● أخذهم العذاب إن

في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[1]. ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين ● إذ قال لهم شعيب ألا تتّقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ● أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ● وزنوا بالقسطاس المستقيم ● ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ● واتّقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين● قالوا إنما أنت من المسحرين ● وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ● فاسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ● قال ربي أعلم بما تعملون ● فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ● إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[2].

فهاتان القصتان جمع بينهما الغرض الذي ذكر في أول هذه السورة سورة الشعراء وهو حرص النبي على هِدايتهم مع موقفهم منه موقف اللدد والخصومة حتى ليبخع نفسه ومن أجل هذا مضت القصة في عرض الحوادث التي تبث الثقة والطمأنينة في قلب النبي عليه السلام والتي ترد نفسه إلى الهدوء حينما يعلم من غيره من الرسل مثل هذا الحرص وبقاء أقوامهم على ما هم عليه من العناد.

ومن أجل هذه المقاصد أيضاً وحّد القرآن بين هاتين القصتين في فن البناء والتركيب حتى لقد جعل العبارات التي تجري بها الألسنة سواء من الأنبياء عليهم السلام أو من أقوامهم الثائرين الساخطين واحدة في كثير من الأحايين.

الوحدة القصصية كما ترى من صنيع القرآن تقوم على المقاصد والأغراض والمشكلات التي تستثيرها القصص وتحاول أن تضع بين يدي القارىء أو النبي عليه السلام لها حلاً ولا تقوم على الأسماء أو الأشخاص بحال من الأحوال.

على أنّا لو تتبّعنا الآيات المختلفة التي يلفت القرآن بها الذهن إلى فوائد القصص

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٤١-١٥٩.

(٢) نفس السورة، الآيات ١٧٦-١٩١.

القرآني في السور التي وردت فيها مجموعات من هذه القصص لوجدنا القرآن نفسه ينطق بهذه الأسس للوحدة القصصية القرآنية، فقد قال تعالى في سورة هود ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾[1]. وقال في سورة الأعراف ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكّرون**﴾[2] وقال في سورة يوسف ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾[3] إلخ وكلها تنطق كما ترى بأن القرآن يجعل القصد الحقيقي للقصص الأغراض الدينية. وإنه لتعطيل لمهمة القرآن الأدبية الإعجازية والدينية الخلقية أن نعرض عن هذه المقاصد التي يرمي إليها القرآن ونشغل عنها بما لم يقصد إليه من بحث في قضايا الأزمنة والأمكنة والأسماء والأشخاص.

(٣) ثم هو الذي يفسّر التكرار في القصص وهو الأمر الذي دعا القدماء إلى القول بفكرة التشابه وإليك البيان.

يروي الطبري نصوصاً في التشابه يلخّصها كما هي العادة بقوله «المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة بإتفاق الألفاظ وإختلاف المعاني وقصة بإختلاف الألفاظ وإتفاق المعاني»[4].

ويقصد الطبري من هذا الحديث التشابه الذي يقع في صور التعبير عندما تختلف المعاني التي تجيء بها القصة أو الإختلاف في التعبيرات عندما يكون المعنى واحداً. وهو يسمي النوع الأول قصة بإتفاق الألفاظ وإختلاف المعاني وهو يدل على النوع الثاني بقوله وقصة بإختلاف الألفاظ وإتفاق المعاني.

وقد ورد هذا الرأي مجملاً في كثير من كتب التفسير وأصول الفقه كتفسير أبي حبان وكإحكام الأحكام للآمدي وكمجمع البيان للطيبرسي وغيرهم.

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٢٠.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٦.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ٣.

(٤) الطبري، جـ ٣، ص ١٠٧.

ولا يسعنا أن نعرض عليك في هذا المقام جميع الصور التي يتحقق بها ما رواه الطبري فهي كثيرة في القرآن ولذا سنكتفي بعرض بعضها ملخَّصاً في مسائل بعينها تدل على ألوان من التشابه كما جمعها صاحب كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز» ونرجو أن ننتهي منها إلى حل موفَّق.

(أ) قال تعالى في سورة الأعراف ﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾[1] وقال في سورة هود ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ● أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾[2] وقال في سورة المؤمنين ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتّقون**﴾[3].

ويعلّق الخطيب الإسكافي على هذه الآيات بعد إيراده لها بقوله: للسائل أن يسأل عن إختلاف المحكيات كقوله بعد ﴿**ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾ و ﴿**إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾ وفي المؤمنين ﴿**ما لكم من إله غيره أفلا تتّقون**﴾ والقصة قصة واحدة.

الجواب أن يقال للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الإعذار والإنذار ويرجع فيهّا عوداً على بدء الوعد والوعيد ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ورفض عبادة ما سوى الله في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغيَّرُ عن حاله بل الواعظ يفتن في مقاله والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه فإذا جاءت المحكيات على إختلافها لم يطالب وقد اختلف في الأصل باتفاقها لأنه قال لهم مرة باللفظ الذي حكى ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم. ومصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه فلا وجه إذاً للإعتراض بهذا ونحوه[4].

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٥٩.

(٢) سورة **هود**، الآية ٢٦.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٢٣.

(٤) **درة التنزيل**، ص ١٢٨.

هذا لون من التشابه يفكِّر فيه الخطيب الإسكافي ويحله على أساس أدبي نستطيع أن نلخِّصه في أنه رأى أن هذا موقف وذاك آخر ومن هنا اختلفت الصور المعبِّرة فكانت هذه صورة وتلك أخرى.

ونعتقد أن هذا الحل الذي يذهب إليه الخطيب الإسكافي يسلم إلى رأي أدبي آخر لا نحجم عن ذكره لأنه الحق الأدبي.

ليس من شك في أنه إذا تعدَّدت المواقف واختلفت الأشخاص وقال النبي أو الرسول من أجل هذا التعدُّد في المواقف ومن أجل هذا الإختلاف في الأشخاص عبارات مختلفة تلائم المقام كانت النتيجة المنطقية لكل هذا إختلاف الصور المعبِّرة أو إختلاف الأقاصيص لإختلاف الصور البيانية والمواد القصصية وإختلاف المقامات.

هذا حل يحسن بنا أن نحرص عليه لنستفيد به فيما يجيء من صور للمتشابه من آي القرآن.

(ب) قال تعالى من سورة طه **﴿وهل أتاك حديث موسى... وما تلك بيمينك يا موسى ● قال هي عصاي﴾**[1] وقال في سورة النمل **﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم... وألقِ عصاك﴾**[2].

للسائل أن يسأل فيقول قال الله تعالى **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً﴾**[3]، وهل الإختلاف إلا هذا الذي جاء في سوره في الإخبار عن قصة واحدة مرة أنه قال لأهله **﴿لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾**[4]. وفي الآية الأخرى **﴿سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾**[5]. وقال

(١) سورة طه، الآيات ٩-١٨.

(٢) سورة النمل، الآيات ٧-١٠.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٢.

(٤) سورة طه، الآية ١٠.

(٥) سورة النمل، الآية ٧.

في سورة القصص ﴿لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار﴾[1].

ثم قوله ﴿فلما أتاها نودي يا موسى ● إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدّس طوى﴾[2] إلى قوله ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[3] فأخبر عن أشياء قيلت لموسى عليه السلام ثم جاء إلى ذِكر العصا فقال ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾. وفي السورة الثانية ﴿فلما جاءها نودي أن بورك مَن في النار ومَن حولها وسبحان الله رب العالمين ● يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ● وألقِ عصاك﴾[4]. وكذلك جاء في سورة القصص ﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ● وأن ألقِ عصاك فلما رآها تهتز...﴾[5].

الجواب أن يقال إن الله تعالى لم يخبر أنه خوطب موسى عليه السلام باللغة العربية بألفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها كان إختلافاً في القرآن قادحاً فيه بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة وأنه تعالى أخبر في بعض السور ببعض ما جرى وفي أخرى بأكثر مما أخبر به في التي قبلها وليس يدفع بعضها بعضاً[6].

ونشعر نحن بأن تلك الإجابة لا تحل المشكلة ما دام الموقف واحداً وما دام القصد هو الإخبار عن هذا الموقف.

إن رأينا في حل هذه المشكلة نستمده مما لمحه الخطيب الإسكافي في بيانه السابق ونقول بأن هذا موقف وذاك آخر وليس من اللازم أن يقوم هذا الإختلاف على أساس الذي وقع فعلاً وإنما يقوم على أساس القصد الذي يرمي إليه القرآن من الصور القصصية فما

(١) سورة القصص، الآية ٢٩.

(٢) سورة طه، الآيتان ١١-١٢.

(٣) نفس السورة، الآية ١٧.

(٤) سورة النمل، الآيات ٨-١٠.

(٥) سورة القصص، الآيتان ٣٠-٣١.

(٦) درة التنزيل، ص ٢٣٢.

دامت هذه القصة قد وردت لغرض ومقصد كالتسلية أو التسرية عن النبي عليه السلام وتلك لغرض آخر فهذه قصة وتلك قصة إذ هذا العرض الأدبي لحادث واحد من جوانب مختلفة إنما يكشف عن موضع العبرة وموطن العظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة وعند ذلك لا تكون هناك مشكلة لأنّا لن نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض أو الإختلاف.

وليس من شك في أنك ستذهب معي إلى أنه إذا اختلفت المقاصد القصصية اختلفت الصور المعبِّرة وأنه إذا اختلفت الصور المعبِّرة كانت هذه قصة وتلك قصة.

وليس من شك في أنك لا تستطيع أن تغلب الإتفاق في الشخصية على بقية العناصر القصصية من إختلاف في المقاصد والأغراض وإختلاف في الصور والألفاظ وإختلاف في النسق والترتيب وإختلاف في فن البناء والتركيب.

وهنا نحس أن الإختلاف القائم على أساس الأحداث أيضاً يزول فكون البشارة بالغلام مرة لسارة وأخرى لإبراهيم عليه السلام لا يُعتبر من الإختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة. وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغاير فيه التعبير.

إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول الخاطىء الذي يقول به المستشرقون من تطوُّر الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطوُّر أغراض النبي عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف. ذلك التطوُّر الذي يمثّلون له بما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام[1] لأن أساس هذا القول أن الوحدة القصصية تقوم على وحدة الشخصية وهو قول باطل يريحنا منه تقرير أن هذه الوحدة إنما هي وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الشخص ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة وتكون أقاصيص صور العرض باختلاف المقصد والغرض.

وقريب من هذا ذلك الإختلاف الذي يلاحظ في شخصية فرعون من أنه ظهر بمظهر المعبود في قوله تعالى ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾[2] وبمظهر العابد في قوله تعالى

(١) راجع مادة إبراهيم في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٣٨.

﴿ويذرك وآلهتك﴾[1] إذ أن القول إنما يقوم على أساس أن الوحدة القصصية تكون بوحدة الشخص لا بوحدة المقصد والغرض وهو ما لا نرتضيه بل نقول كما ترى باختلاف القصة لاختلاف المقصد والمغزى.

(ج) قوله تعالى في قصة نوح من سورة هود: ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم**﴾[2] وقال في قصة صالح عليه السلام في هذه السورة: ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني منه رحمة**﴾[3].

للسائل أن يسأل عن مخاطبة النبيين نوح وصالح عليهما السلام قوميهما باللفظين اللذين تساويا إلا فيما إختلفا فيه من تقديم المفعول الثاني في الآية الأولى على الجار والمجرور وتأخيره عنهما في الآية الثانية[4].

(د) قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام من سورة الشعراء: ﴿**قالوا إنما أنت من المسحرين ● وما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين**﴾[5]. وقال في قصة شعيب عليه السلام: ﴿**واتّقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ● قالوا إنما أنت من المسحرين ● وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنّك لمن الكاذبين**﴾[6].

للسائل أن يسأل عن الواو في قصة شعيب في قوله ﴿**وما أنت إلا بشر مثلنا**﴾ وحذف الواو من مثله في قصة صالح عليه السلام[7].

وهنا نصرّح بأنّا لم ننقل إجابة الخطيب الإسكافي عن اللونين الثالث والرابع وذلك لسبب بسيط هو أنه أقام الإجابة عن أسباب الإختلاف وهو الأمر الذي يسأل عنه في هذا

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٢٧.

(٢) سورة **هود**، الآية ٢٨.

(٣) نفس السورة، الآية ٦٣.

(٤) **درة التنزيل**، ص ١٨٢.

(٥) سورة **الشعراء**، الآيتان ١٥٣-١٥٤.

(٦) نفس السورة، الآيات ١٨٤-١٨٦.

(٧) **درة التنزيل**، ص ٢٦٨.

الموطن لأن القصتين في كل لون مختلفتان فهذه قصة لنوح وتلك قصة لصالح، وهذه قصة لصالح وتلك قصة لشعيب.

إن الأمر الذي يجب أن يسأل عنه في هذا الموطن إنما هو سر التشابه فيما نطق به كل من النبيين في السورة الواحدة إذ هو الأمر الذي يدعو إلى التساؤل في هذا المقام.

إن الإجابة عن هذا التساؤل سهلة يسيرة على أساس ما نذهب إليه من فهم للقصص القرآني ذلك لأن كلاً من اللونين قد اتّحد فيه القصد والغرض ومن هنا كان التشابه في بناء القصة وكان الإتفاق في العبارات.

نزلت قصص سورة هود لتثبيت قلب النبي عليه السلام واختار المولى سبحانه وتعالى من أحداث الأنبياء مع أقوامهم ما يحقق هذا الغرض ومن هنا كان التشابه فيما ينطق به الأنبياء عليهم السلام.

ونزلت قصص الشعراء لتصوير اللدد في الخصومة وتهوين وقع الأمر على نفس النبي عليه السلام ومن هنا كان التوافق في بناء القصة وتركيبها وكان الإتفاق في العبارات التي تنطق بها الأقوام أو التي ينطق بها الأنبياء عليهم السلام.

وأعتقد أنك ستؤمن بهذا الرأي إيماناً جازماً لو رجعت إلى قصة لنبي واحد في سورتين مختلفتين وقصتين لنبيين مختلفين في سورة واحدة.

سبق أن وضعنا بين يديك قصتين من سورة الشعراء هما قصة صالح وقصة شعيب لتلحظ ما بينهما من إتفاق في بناء القصة وتركيبها وما بينهما من تشابه فيما ينطق به القوم من عبارات في الجدل والحوار.

والآن نستطيع أن نفعل العكس فنضع بين يديك إحدى القصتين وقصة للنبي نفسه الذي تدور حوله الأحداث من سورة أخرى لتدرك بنفسك لماذا نذهب إلى أن هذه قصة وتلك قصة ولتقف بنفسك على أسباب الإختلاف.

قال تعالى في سورة الشعراء: **﴿كذبت ثمود المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتّقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن**

أجري إلا على رب العالمين ● أتتركون في ما ههنا آمنين ● في جنات وعيون ● وزروع ونخل طلعها هضيم ● وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● ولا تطيعوا أمر المسرفين ● الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا إنما أنت من المسحرين ● وما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين ● قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ● ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ● فعقروها فأصبحوا نادمين ● فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[1].

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كذبت ثمود بالنذر ● فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنّا إذا لفي ضلال وسعر ● أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ● سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ● إنّا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ● ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ● فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ● فكيف كان عذابي ونذر ● إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾[2].

إن الإختلاف بين القصتين هنا أقوى منه هناك وليس لذلك من سبب إلا أن المقاصد بين قصتي ثمود في كل من سورتي القمر والشعراء قد اختلفت ومن أجل ذلك اختلف فن البناء والتركيب وأصبحت هذه قصة وتلك قصة على الرغم من تشابه المواد واتفاق الأشخاص.

على أنّا لو نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر أخرى وهي أن هذه الأجزاء لا يمكن أن تُعتبر أجزاء قصة واحدة إلا على أساس أن صاحب النص قد أراد هذا وأنه حين أنزله إنما أنزله على أنه جزء من قصة موسى أو إبراهيم أو غيرهما من الأنبياء وذلك ما لم يقل أحد به بل ذلك ما يخالف أسباب النزول التي يذكرها المفسّرون أحياناً عند تفسيرهم هذه الأجزاء وذِكرهم أسباباً ومناسبات لنزولها.

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٤١-١٥٩.

(٢) سورة القمر، الآيات ٢٣-٣٢.

إن هذه الأجزاء نزلت عندما نزلت لا على أنها تكميل لقصة سابقة بل نزلت لأغراض مختلفة باختلاف الظروف والمناسبات ومن هنا بنيت بناية مستقلة لتحقيق القصد من إيرادها.

ثم إن هناك سبباً آخر هو هذا التكرار الكثير لأقاصيص بعض الأنبياء عليهم السلام ونستطيع أن نأخذ قصة لوط مثلاً أو قصة شعيب أو قصة صالح وأن تفكر فيها من حيث توزيع هذه الأجزاء فستجد أن الكلام لا يستقيم لأن الأحداث هي الأحداث والأشخاص هم الأشخاص في كل قصة وفي كل مكان ولن يسلمك هذا إلى القول بتوزيع الأجزاء في هذه المواطن بحال من الأحوال.

إن المنهج السديد فيما نعتقد هو أن ننظر إلى هذه الأقاصيص على أنها أقاصيص مستقلة وليست من قبيل الأجزاء فهي عرض أدبي للحادث تختلف ألوانه باختلاف أغراضه. كما يكون الشخص التاريخي الواحد وأحداث حياته مادة قصص متعددة تُصاغ صوغاً مختلفاً لكشف جوانب مختلفة ومعانٍ متعددة للشخصية وأحداثها وتلك ظاهرة رقي فني كبرى قدم القرآن مثلاً منها صح معها التحدي لهذا التكرار الذي لم يفهم على وجهه حتى لقد كان مما يعاب على القرآن ويلتمس له الوجه ويطلب عنه الرد فيختلف في ذلك القدماء والمحدثون ولا يكادون يتّفقون على الوجه الفني له بل يلتمسون لذلك أشياء وراء الصوغ البلاغي والنظم الأدبي والنسج الفني. ولو جعلوا هذا وجه الرأي في تلك القصص وتنوُّعها لكان وجهاً من الصواب في فهم القرآن الكريم وإعجازه وإنه لوجه نسأل الله له ذيوعاً وبه مثوبة.

وفي ختام هذا الفصل نستطيع أن نقول إن هذا الموقف هو الذي يتّفق والقاعدة الأصولية وهو الذي يجري وصنيع القرآن المنسّق في المجمع بين الأقاصيص المختلفة في السورة الواحدة وفي الجري على طريقة واحدة في بنائها وتركيبها وفاء بما اتّحد فيها من المقاصد والأغراض.

ونعتقد أن المسألة بعد كل هذا أبين من أن تسبّب لبساً وأسمى من أن تكون مبعث إشتباه فلنتركها إلى الحديث عن شيء آخر هو الموضوعات والأغراض.

المقاصد والأغراض

لا ننكر أن في القصص القرآني توجيهات دينية لكل ما جاء به الإسلام من مبادىء وعقائد ولكل ما أنكره الإسلام من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة. لكنا مع كل هذا لا نستطيع أن نعد هذه الأمور أغراضاً حين ندرس أغراض القصص القرآني ذلك لأن هذه الأمور كانت تأتي بين طيات هذا القصص وفي ثناياه. وهي في هذا الوضع أو من هذا الجانب تشبهه تماماً تلك الآراء المنثورة أو هذه الصور المبعثرة التي تجيء أثناء العرض القصصي في كل قصة تكتب أو تلقى فنسمع دينية كانت أو غير دينية. ومن هنا آثرنا جمع هذه الأشياء ودرسها دراسة مستقلة وسجّلنا كل هذا على أنه القيَم التي استطعنا الوقوف عليها فيما درسنا للقرآن من قصص وجعلناها في الباب الأول ولم نبقها إلى هنا لنعدّها من الأغراض الفنية أو الأدبية.

ولعل الذي دفعنا إلى ما تقدم هو أنّا استطعنا أن نميز بين أمرين: الأول مجموعات الآراء والأفكار والصور المعروضة في القصة. والثاني النتيجة التي تنتهي إليها القصة الواحدة أو تنتهي إليها مجموعة من القصص وردت في سورة واحدة وكان لها مقصد واحد له أثره في طريقة البناء والتركيب وفي أسلوب العرض وطريقة توزيع العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وحوار وذلك من أمثال مجموعات القصص في كل من السور الآتية: الأعراف، هود، الشعراء، الصافات.

وإذا كنا قد جعلنا من النوع الأول دراسة القيّم فإننا قد جعلنا من النوع الثاني دراسة المقاصد والأغراض.

ونحدد الوضع فنقول إن الغرض هنا هو المقصد الذي من أجله نزلت القصة القرآنية وهو الذي من أجله بُنيت على صورة خاصة وعرضت بأسلوب خاص.

وإلى جانب هذه الأغراض على هذا الوضع توجد الوظيفة الإجتماعية التي تؤديها القصة في المجتمع وتخدم بها الحياة والأحياء وهي وظيفة تؤديها جميع الفنون من موسيقى ونحت وتصوير... إلخ.

هذه الوظيفة نستطيع أن نعدها غرضاً عاماً للقصة أدته في المجتمع العربي على إختلاف نحله وألوانه وعلى ما فيه من مؤيدين ومعارضين.

هذه الوظيفة التي تؤديها الفنون جميعها ومنها الأدب تنتهي عند عمليتي الإيحاء والإفاضة فتلك وظيفتها الإجتماعية وذلك هو دورها الذي تلعبه في الحياة. ويستوي في هذين - الإيحاء والإفاضة - الخالق المبدع والمشاهد المستمع وإن وقف دور الأول في الغالب عند عملية الإفاضة ذلك لأن الحياة نفسها هي التي تقوم بدور الإيحاء.

وقد يكون من فضل الرازي علينا أن نذكر له هنا صنيعه الحسن في دلالته على وجود هذه الوظيفة الإجتماعية للفنون جميعها في القصة القرآنية. حتى لقد كرر الحديث عن هذه الوظيفة كما هي عادته في كثير من المواقف ونستطيع أن ننقل هنا بعض حديثه الذي ذكره عند تفسيره لقصة نوح من سورة يونس فقد قال رحمه الله «وثانيها ليكون

للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمَن سلف من الأنبياء فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة إذا عمّت خفّت.

وثالثها: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهّال وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم ونصرهم وأيّدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفّار لأمثال هذه القصص سبباً لإنكسار قلوبهم ووقوع الوجل في صدورهم وحينئذٍ يقلّلون من أنواع الإيذاء والسفاهة»[1].

(١) **التفسير الكبير**، جـ ٥، ص ١٥.

وتلك هي عمليات الإفاضة والإيحاء التي يقول بها المحدثون من النفسيين والتي تحدثوا عنها حين تحدثوا عن عمل العقل في الفن وعن الوحي العاطفي والوحي الذي يوحيه الفن. ونستطيع أن ننقل هنا تعريب عبارتين لواحد من هؤلاء لنفهم المسألة الفهم الواضح ولنستعين بها على فهم كل ما نصوِّر في هذا الباب من قيَم فنية.

يقول وردز وورث في كتابه «الحياة العقلية» بصدد حديثه عن الوحي الفني العاطفي ما يلي «إنك إذا مررت صدفة بالقطعة الفنية النفيسة أثناء إجتيازك متحف الفنون الجميلة قد تحرّك عواطفك بل ربما أثارت دموعك. وكذلك يقال عن القطعة الموسيقية الجيدة التي ليس من الضروري أن تكون محزنة».

أما لماذا تُثار هذه العاطفة الخاصة فأمر لم يتقرَّر بعد. وهو أمر لا نستطيع تحليله غير أن وحي الفن للعاطفة في غير هذه الأحوال قابل للتحليل. فإن الشيء المحزن يوحي لباعث الحزن مباشرة والمضحك لباعث الضحك والمؤسف للخوف والهرب. كما أن الدافع الجنسي يستثمر في الرسم والنحت في أحيان كثيرة كما يستثمر في الآداب[1].

كما يقول بصدد الوحي الفني الفكري ما يلي «إن الفن قد يرضينا لأنه يوحي إلينا وحياً فكرياً كما يتضح عندما نتذكَّر أن كثيراً من الأعمال الفنية العظيمة تحتاج إلى جهود فكرية لكي نفهمها ونرتاح إليها فيجب أن تكون منتبهاً كل الإنتباه لتتمكن من متابعة رواية من روايات شكسبير كما أنك تحتاج إلى إيجاد مغزى لصورة زيتية قبل أن تتمكن من التلذُّذ بها جيداً.

وقد لا نفتكر عادة عندما نرى صورة فنية جميلة أو نسمع قطعة موسيقية بديعة أنها مسألة طرحت أمامنا للحل والحقيقة أنها كذلك. ويرجع تأثير القطعة الفنية الفكري إلى أنها مسألة تحتاج إلى حل ولا يخفى أن إدراكنا مغزى قطعة فنية يحتاج إلى جهود وانتباه وإذا كانت المسألة المطروحة أمامنا صعبة جداً كان العمل الفني جافاً وإذ كانت سهلة كان تافهاً»[2].

---

(١) الحياة العقلية، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٢٣.

على أن القرآن الكريم نفسه قد لفت الذهن إلى هذه الوظيفة الإجتماعية حين تحدَّث عن أثر الأقوال في النفوس وكيف تستثير العاطفة ومن هنا حرص القرآن على أن تكون الأقوال بليغة مؤثرة في النفوس ليقوى الإيحاء ويشتد وذلك هو الواضح تماماً من هذه الآيات.

قال تعالى **﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾**[1].

وقال تعالى **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾**[2].

وقال تعالى **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم مَن يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ● وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾**[3].

وقال تعالى **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾**[4].

ولعله من هنا فرض القرآن على المؤمنين نوعاً من الرقابة ففرض عليهم ألا يسبوا آلهة المشركين حتى لا يسب هؤلاء آلهتهم. قال تعالى **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾**[5].

كما فرض على النبي عليه السلام ومَن اتَّبعه أن يعرضوا عن الخائضين في آيات الله

---

(١) سورة الزمر، الآية ٤٥.
(٢) سورة الحج، الآية ٧٢.
(٣) سورة التوبة، الآيتان ١٢٤-١٢٥.
(٤) سورة النساء، الآية ٦٣.
(٥) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

بل جعل الذين يستمعون إلى هؤلاء الخائضين من المنافقين. قال تعالى **﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾**[1]. وقال تعالى **﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾**[2].

ولا يُفهم كل هذا إلا على أساس واحد هو أساس الوظيفة الإجتماعية للفنون جميعها ومنها الأدب وإلا فلماذا فرض القرآن على النبي والمؤمنين هذا النوع من الرقابة؟

المسألة كما ترى في غاية الوضوح. ونعتقد أن من السهل أن ننتهي من كل ما تقدم إلى القول بأن المقصد العام أو الوظيفة الإجتماعية من القصة الأدبية يكون عادة الإفاضة أو التنفيس والإيحاء وهي الأمور التي توجد في القصة القرآنية أيضاً.

وإذا كنا في حالة البحث وبخاصة الجامعي لا نكتفي بأمثال هذه العموميات كان من الواجب علينا أن نفصِّل ما أجملنا وأن نتناول هذه الأشياء بالعرض كما لحظناها في قصص القرآن.

(١) وأول هذه الأغراض وأهمها من وجهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط العاطفي عن النبي عليه السلام وعن المؤمنين ولقد. كان هذا الضغط قوياً عنيفاً وكانت أسبابه واضحة جلية فلقد كانت أقوال المشركين وكانت أعمالهم التي يكيدون بها للنبي عليه السلام والقرآن الكريم والدعوة الإسلامية هي السبب في كل هذا الذي دفع النبي عليه السلام إلى أن يضيق قال تعالى **﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾**[3] وقال تعالى **﴿قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾**[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٨.

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٠.

(٣) سورة الحجر، الآية ٩٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٣٣.

كان أثر هذه الأقوال في نفس النبي قوياً وفعالاً وكانت تلك الخواطر التي أخذت مكانها من قلب النبي عليه السلام أو من قلوب الأتباع. قال تعالى **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾**[1].

على أن هذا الضغط العاطفي لم يقف عند حد البلبلة النفسية بل تجاوزها إلى ما هو أبعد مدى وأنفذ أثراً حتى لنرى النبي عليه السلام يدعو ربه وهو محنق يكظم غيظه ويضغط عواطفه تلك التي أوشكت على الإنفجار. قال تعالى **﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ● لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾**[2] وقال تعالى **﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾**[3] وقال **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾**[4].

كان تخفيف هذا الضغط أو كانت الإفاضة عما بنفس النبي عليه السلام ونفوس الأنصار والأتباع مقصداً من مقاصد القصص القرآني حتى لا تتزلزل النفوس وتترك الدعوة الإسلامية ولو حدث هذا لما قامت لها قائمة.

كانت عملية القص في مثل هذه الظروف من العمليات التي يقصد من ورائها القرآن تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب المؤمنين ورد الثقة إلى أنفسهم وبث الطمأنينة في قلوبهم وإزالة الهم والقلق. وكانت النتيجة التالية لكل هذا هي ذلك الصبر الطويل والثبات الذي وصل بهم في النهاية إلى النصر على الأعداء والمعارضين.

على أن القرآن نفسه قد صرَّح بهذا الغرض حين قال **﴿وكلا نقص عليك من أنباء**

---

(١) سورة يونس، الآية ٩٤.

(٢) سورة القلم، الآيتان ٤٨-٤٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٣.

(٤) سورة هود، الآية ١٢.

الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[1] وحين قال ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ● إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ● ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ● ونمكّن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[2].

وهذا الأمر هو الذي فطن إليه الرازي فيما نقلنا عنه من حديث.

والقصص التي نزلت من أجل هذا كثيرة في القرآن الكريم ومنها مجموعة القصص التي وردت في سورة هود. ولقد لفت القرآن كما هي عادته الذهن إلى المقصود من هذه المجموعة في مواطن كثيرة من السورة. فقد قال في أولها ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى...﴾ إلخ. وقال في آخرها ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل...﴾ إلخ.

ومن هذه القصص أيضاً قصة موسى في سورة طه ولعله من أجل ذلك بدأ المولى سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله ﴿طه ● ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ● إلا تذكرة لمَن يخشى ● تنزيلاً ممَّن خلق الأرض والسموات العلى ● الرحمن على العرش استوى ● له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ● وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ● الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ● وهل أتاك حديث موسى...﴾[3] إلخ. إذ يمضي القرآن في سرد القصة مبيناً العقبات التي لاقاها موسى عليه السلام والصعاب التي وضعها فرعون في طريقه ثم الصعاب والعقوبات التي تعاون في توجيهها إلى موسى كلٌّ من قومه وأخيه والسامري إلى أن ينتهي القص بقوله تعالى ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾[4].

(١) سورة هود، الآية ١٢٠.

(٢) سورة القصص، الآيات ٣-٦.

(٣) سورة طه، الآيات ١-٩.

(٤) نفس السورة، الآية ٩٩.

ومن هذه القصص أيضاً قصة موسى في سورة القصص ومجموعة من قصص سورة الأنبياء وأخرى من قصص سورة الصافات.

وإذا أردنا أن نختار قصة تمثّل نفسية النبي عليه السلام في موقفه من قومه وفي فترة من فترات تاريخية أصدق تمثيل فلن نجد أقوى وأعنف من قصة نوح في سورة نوح. تلك القصة التي تعرض لمشكلات النبي عليه السلام أول عهده بالدعوة الإسلامية مشكلة مشكلة والتي تتمشى فيها حركة الأسلوب مع حركة العاطفة والتي تمثل الضيق الذي ألمَّ به كما تمثل إتجاهه إلى الخالق سبحانه وتعالى ليخفِّف عنه البلاء وينقذ المؤمنين من هذه الجماعة الضالة المضلة وهي جماعة الكافرين.

قال تعالى **﴿إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ● قال يا قوم إني لكم نذير مبين ● أن اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون ● يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجَل مسمًّى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ● قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ● فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ● وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ● ثم إني دعوتهم جهاراً ● ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ● فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ● يرسل السماء عليكم مدراراً ● ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً● ما لكم لا ترجون لله وقاراً ● وقد خلقكم أطواراً ● ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ● وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ● والله أنبتكم من الأرض نباتاً ● ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ● والله جعل لكم الأرض بساطاً ● لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ● قال نوح رب إنهم عصوني واتّبعوا مَن لم يزده ماله وولده إلا خساراً ● ومكروا مكراً كباراً ● وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ● وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ● مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ● وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ● إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ● رب اغفر لي ولوالديَّ ولمَن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾**[1].

---

(١) سورة نوح،

فهنا قصة لها قيمتها الأدبية ولو حاول النبي عليه السلام تصوير حاله في قصة لما صوَّرها بقصة أحسن مما اختار له الخالق سبحانه.

والتشابه هنا تام بين حالة نوح في القصة وحالة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، نلحظه في عناصر الدعوة من عبادة الله وطاعته كما نلحظه في طريقة الدعوة من حيث الجهر والإسرار. وفي مقابلة القوم لنبي الله ودعوته بالنفور والفرار ثم بالإستكبار وجعل الأصابع في الآذان. ثم في الأشياء التي رغب بها في الإيمان من الإمداد بالمال والبنين والأنهار والجنات. ثم في الأشياء التي تلفتهم إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلقهم أطواراً ومَن خلق السموات السبع الطباق ومَن جعل القمر نوراً والشمس سراجاً ومن إنباتهم من الأرض وجعلها بساطاً ليسلكوا فيها سبلاً فجاجاً. ثم في مناجاته لربه تلك المناجاة التي يخبره فيها أنهم اتَّبعوا الأغنياء ومَن لم يزدهم مالهم وولدهم إلا خساراً. ثم في تصويره لمكر هؤلاء الأغنياء أو القادة حين طلبوا من قومهم البقاء على ما هم عليه من عبادة للأوثان.

وهنا لا بد من لفت الذهن إلى أن الأوثان هنا هي بعينها تلك التي كانت تعبد في الجزيرة العربية أول عهد الجزيرة بالبعثة وبمحمد عليه السلام هود، سواع، يغوث، يعوق، نسر.

وأخيراً يكون التشابه أيضاً في إتجاهه نحو ربه ودعائه على الكفرة من قومه وطلبه من المولى سبحانه وتعالى أن يستأصل شأفتهم حتى ينجو العالم من شرورهم وآثامهم وحتى لا يبقى إلا مَن دخل بيته من أهل التقوى والإيمان.

ونعتقد أن هذه القصة من القصص التي كان النبي عليه السلام يجد فيها صدى نفسه وأنها من هذا الجانب كفيلة بأن تزيح عن كاهله بعض الأثقال وأن تزيل عن نفسه بعض الألم وأن ترد إلى نفسه الثقة والطمأنينة حين يرى أنه ليس الواحد الفرد في هذا الميدان.

(٢) ويجري مع عملية تخفيف الضغط العاطفي عملية أخرى لا تقل عنها أثراً في حياة الدعوة الإسلامية تلك هي عملية توجيه العوُاطف القوية الصادقة نحو عقائد الدين

الإسلامي ومبادئه ونحو التضحية بالنفس والنفيس في سبيل كل ما هو حق وكل ما هو خير وكل ما هو جميل.

ولعل هذه العواطف هي التي تدفع إلى النشاط للدعوة كما تجعل الإنسان يستعذب الألم ويتحمَّل الأذى في سبيلها. ومن هنا يكون التوجيه نحو القيَم الجديدة والإيمان بها ثم الدفاع عنها والعمل على حث الناس على الإيمان بها إيماناً قد لا تزعزعه الحوادث وقد لا تذهب به النكبات.

ومثل ذلك ومن صميم العمل الفني أيضاً العمل على تكوين عواطف قوية وصادقة ضد كل ما هو قبيح ودميم من الأشياء والناس. وعند ذلك تتذبذب المبادىء التي شاخت وهرمت وأصبحت لا تسير الحياة والأحياء. وذلك هو الذي قصده القرآن حين قص ما استثار الغرائز وولد عواطف الكراهية والمقت للأوثان وعبادتها وما أحيطت به تلك العبادة من ضروب للتقديس ومن تقاليد وعادات.

والأشياء التي حاول القرآن توجيه عواطف نحوها هي تلك التي سبق أن أشرنا إليها في حديثنا عن القيَم الإجتماعية والقيَم الخلقية والدينية تلك التي كان يختلف حرص القرآن عليها باختلاف نوعها وظروف البيئة والزمان. ولعل أهم هذه الأشياء مشكلات البعث والوحدانية وبشرية الرسل وتأييد بعضهم بالمعجزات... إلخ.

أما الأشياء التي حاول القرآن خلق عواطف ضدها فكثيرة متنوعة نذكر منها على سبيل المثال.

(أ) تلك الأشياء التي سبق أن أشرنا إليها في فصل القيَم الخلقية من أمثال اللواط وبخس الناس أشياءهم وتطفيف المكيال والميزان.

(ب) ومنها إبليس والشيطان. وقصة إبليس مع آدم قصة أدبية بليغة تُعتبر إحدى النماذج الأدبية القصصية في القصص القرآني.

وقصة إبليس مع آدم من القصص الذي يبعث العاطفة وينشِّط الخيال والذي يقف الفكر أمامه حائراً حتى ينتهي إلى الإحساس بالعجز عن فهم تلك الأسرار الخفية التي دارت في الملأ الأعلى في جو تحيط به الظلال وتكتنفه الغيبيات.

هذه الأمور بالذات هي التي دفعت بالرازي إلى الحيرة وجعلته عاجزاً عن فهم الصنيع الأدبي والمقصد القرآني والوقوف على أسرار ما دار هناك وكانت نتيجته إخراج آدم وحواء من الجنان.

يقول رحمه الله عند تفسيره للقصة من سورة الأعراف ما يلي: السؤال الثاني أن آدم عليه السلام كان يعرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله.

والجواب لا يبعد أن يقال إن إبليس لقيَ آدم مراراً كثيرة ورغَّبه في أكل الشجرة بطرق كثيرة فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثَّر كلامه في آدم عليه السلام. إذ نلحظ في هذا الموقف من الرازي أنه لا يطمئن إلى قصة دخول إبليس الجنة بعد طرده منها. كما نلحظ أن عقله لم يقبل أيضاً قصة الحية ولذا نراه رحمه الله يفترض أن إبليس قد لقيَ آدم مراراً وتحدَّث إليه.

على أنّا نجد الرازي في موقف آخر يعجب كثيراً من موقف آدم واستجابته لدعوة إبليس وإهماله لتعاليم ربه وذلك عند تفسيره للقصة من سورة طه إذ نراه يقول: واعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغَّبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله ﴿**فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ● إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ● وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾[1]. ورغَّبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله ﴿**هل أدلّك على شجرة الخلد**﴾[2] وفي إنتظام المعيشة بقوله ﴿**وملك لا يبلى**﴾[3] فكان الشيء الذي رغَّب الله آدم فيه هو الذي رغَّبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الإحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها. ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع عن السجود له وعرض نفسه للَّعنة بسبب عداوته كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عنوانه له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه الناصر والمربي.

---

(١) سورة طه، الآيات ١١٧-١١٩.

(٢) نفس السورة، الآية ١٢٠.

(٣) نفس السورة والآية.

ومَن تأمَّل في هذا الباب طال تعجُّبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدَّره.

ونحن لن يطول تعجُّبنا من هذه القصة كما طال مع الرازي ذلك لأنَّا نعلم أن هذه القصة قصة تصوُّر الصراع بين قوى الخير وقوى الشر. ولعل هذه الحيرة التي لحظناها عند الرازي هي الدليل القوي على أن هذه قصة أدبية بكل ما يحمل معنى هذا اللفظ من صور وهي من هذا الجانب من القصص الأدبي الطليق.

وإذا أردنا أن نختار واحدة من هذه القصص الدائر حول قصة الخروج من الجنة فأمامنا قصة آدم من سورة الأعراف.

قال الله تعالى ﴿ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ● قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ● قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ● قال أنظرني إلى يوم يبعثون ● قال إنك من المنظرين ● قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ● ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ● قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لَمَن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ● ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ● فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ● وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ● فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل نكما إن الشيطان لكما عدو مبين ● قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ● قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ● قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ● يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ● يا

بني آدم لا يفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[1].

فهذه القصة كما ترى تستعرض العداوة بين آدم والشيطان وترينا أن إبليس يرى نفسه أفضل من آدم لأنه خلق من نار وآدم خلق من طين وهذا هو الأمر الذي دفعه إلى الكبر والإستكبار فأبى السجود ومن هنا كان العقاب من الخالق سبحانه وكان العقاب إخراج إبليس من الجنة ذليلاً صاغراً.

وهذه القصة ترينا أن إبليس طلب من الخالق قبل أن يخرج من الجنة أن يأذن له بالخلود ليستطيع أن يلعب دوره في الحياة وهو الإفساد وصد الناس عن إتباع السبيل القويم.

هنا نحس أن إحدى مراحل القصة قد انتهت وهي مرحلة الخلق والسجود وهي المرحلة التي تصوّر فيها نشأة العداوة. وتبدأ بعد ذلك مرحلة ثانية هي آدم وحواء في الجنة وهما شخصيتان تنعمان بالحياة أذن لهما الخالق سبحانه وتعالى أن يطعما كل ما في الجنة إلا شجرة واحدة. وهنا يأتي الدور الحقيقي لبطل القصة وهو إبليس فقد بدأ وسوسته لأول إنسان من البشر هو ذلك الذي من أجله خرج من الجنة.

استجاب آدم لوسوسة الشيطان وأكل من الشجرة وخالف أوامر ربه فكانت عاقبته الخروج من الجنة وخرج إلى حيث ينتظره إبليس.

بعد ذلك يكون العقاب بين الخالق والمخلوق ويكون التوجيه الديني وهو يشبه إلى حد كبير ذلك المغزى الذي يقصد إليه من القصص الخلقي.

تلك هي قصة آدم وإبليس أو قصة النزاع بين الخير والشر أو قصة الغرائز الفاضلة مع الغرائز الشريرة وهي قصة قصد القرآن إليها وبناها بناء أدبياً بليغاً ودفع بها إليها لتثير فينا الحقد والكراهية لإبليس وتدفعنا إلى النفور منه حتى لا نستجيب له ولا نأتمر بأمره أو نستمع إلى نواهيه.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآيات ١١-٢٧.

(ج) ومنها الكبر والإستكبار والإصرار والعناد. ويستوي في ذلك كثير من الأشخاص خاصة الأغنياء والقادة أولئك الذين أخذوا دور العتاة الظالمين الذين يستكبرون على الحق ولا يريدون إتباعه.

ولعل أبرع المواقف القصصية التي تصوِّر هؤلاء القادة وتحرِّك عواطفنا نحوهم موقف فرعون من موسى عليه السلام وموقف المستكبرين من قوم هود وقوم صالح.

وإذا كانت قصة الخروج قد استثارت العواطف وأرخت للخيال العنان فإنّا نجد موقف فرعون يصنع مثل ذلك الصنيع في القارىء لقصصه في القرآن.

وفرعون من الشخصيات القصصية التي تنبض بالحيوية وتتحرك قاسية عنيفة فتشيع الرهبة في النفوس والخشية في القلوب وتخرج منها ألفاظ التهديد والوعيد وهي تقطر دماً.

وإذا أردنا أن نختار قصة تمثل مواقف المستكبرين من الرسل والأنبياء والنتيجة التي انتهت إليها الأمور فلن نجد فيما يخص فرعون أحسن من موقفه من موسى في قصته الواردة في سورة يونس.

قال تعالى ﴿**ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ● فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ● قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ● قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ● وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ● فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ● فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ● ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ● فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين...**﴾[1] إلخ.

ففي هذه القصة التي لم نتم تسجيلها هنا عرض لمواقف فرعون من موسى وقومه

(١) سورة يونس، الآيات ٧٥-٨٣.

ومن السحرة انتهى بالنتيجة التي تنتهي بها القصة الشعبية في كثير من الآداب العالمية من إنتصار البطل والقضاء على الظلم والطاغية.

ونلمس الروح نفسها في موقف عاد من نبيها. قال تعالى **﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا مَن أشد منّا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ● فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾**[1].

وليس من شك في أن نتيجة العرض القصصي لأمثال هذه المواقف يلقي في النفس الخشية والرهبة ويبث فيها الخوف عندما تحس أن النتيجة هي العقاب وليس من نتيجة للخوف سوى الهرب والإبتعاد عن مصدر العقاب وعند ذلك تكون النفرة وتكون الكراهية.

(د) ومنها عبادة غير الله فقد كثُر إستثارة الإنفعالات ضدها وتنفير الناس عنها وكان إبراهيم هو البطل الذي دار حوله أكثر ما نزل من قصص يهدف إلى هذه الغاية ويستعين بالوسائل الفنية للتنفير والإحتقار.

دار بعض هذا القصص حول عبادة النجوم ودار بعضه الآخر حول عبادة الأوثان وكانت وسيلة إبراهيم إلى غايته أن يشكِّك القوم فيها يعبدون ويضع بين أيديهم صوراً لهذه الآلهة وهي عاجزة العجز التام عن أن تنفع أو تضر كما أطلعهم على أنهم يعبدون ما ينحتون فهم الذين يصنعون هذه الآلهة ثم يقومون نحوها بضروب التقديس والإجلال. وإذا أردنا أن نختار إحدى القصص التي تصوِّر هذه الناحية فلن نجد خيراً من قصة إبراهيم في الشعراء **﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم ● إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ● قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ● قال هل يسمعونكم إذ تدعون ● أو ينفعونكم أو يضرون ● قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ● قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ● أنتم وآباؤكم الأقدمون ● فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ● الذي خلقني فهو يهدين ● والذي هو يطعمني ويسقين ● وإذا مرضت فهو يشفين ● والذي يميتني ثم يحيين ● والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم**

---

(١) سورة فصلت، الآيتان ١٥-١٦.

الدين ● رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ● واجعل لي لسان صدق في الآخرين ● واجعلني من ورثة جنة النعيم ● واغفر لأبي إنه كان من الضالين ● ولا تخزني يوم يبعثون ● يوم لا ينفع مال ولا بنون ● إلا من أتى الله بقلب سليم ● وأزلفت الجنة للمتّقين ● وبرزت الجحيم للغاوين ● وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ● من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون● فكبكبوا فيها هم والغاوون ● وجنود إبليس أجمعون ● قالوا وهم فيها يختصمون● تالله إن كنا لفي ضلال مبين ● إذ نسوّيكم برب العالمين ● وما أضلنا إلا المجرمون ● فما لنا من شافعين ● ولا صديق حميم ● فلو أن لنا كَرّةً فنكون من المؤمنين● إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾(١).

إذ في هذه القصة نلحظ موقف إبراهيم من أبيه وقومه وهو يسألهم عما يعبدون وإنهم ليجيبونه بأن معبوداتهم هي الأصنام. لكنه يعود فيسأل عما تقدّمه لهم من خير وما تيسّر لهم من منافع. وإنه ليتجه بالسؤال نحو حاستين ضروريتين للمخلوقات فضلاً عن الخالق هما الوسيلة للإستجابة وهما السمع والبصر. ويعجز القوم عن الإجابة ويعرفون أنه التقليد وأنهم ما عبدوها إلا لأنهم وجدوا آباءهم الأقدمين على هذه الحال يعبدونها ويقومون نحوها بضروب التقديس والإجلال. وهنا تثور نفس إبراهيم ويعلن العداوة إلا لخالقه الذي يطعمه ويسقيه وإذا مرض فهو يشفيه والذي يميته ثم يحييه والذي يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين. وشتان بين الصورتين وبين النوعين من الآلهة: نوع يستجيب فينفع أو يضر ونوع لا يستجيب بل لا يسمع ولا يبصر. وليس هناك من دافع يدفع إلى النفرة والكراهية من الأوثان أفضل من هذا؟

بعد ذلك نلحظ تلك المناجاة التي يتوجه فيها إبراهيم نحو خالقه يدعوه فيها بتلك الدعوات الصالحات **﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ● واجعل لي لسان صدق في الآخرين ● واجعلني من ورثة جنة النعيم ● واغفر لأبي إنه كان من الضالين ● ولا تخزني يوم يبعثون ● يوم لا ينفع مال ولا بنون ● إلا مَن أتى الله بقلب سليم﴾**.

وتنتهي القصة بتصوير مشهد في الآخرة، مشهد يذيب القلوب ويبعث على النفرة من عبادة الأوثان، مشهد يصوّر ذلك الخصام العنيف الذي سيكون بين الأصنام وعابديها

(١) سورة الشعراء، الآيات ٦٩-١٠٤.

ويصوِّر الحسرة والألم على ما أضاعوا من أعمار وما تركوا من خير كما يصوِّر الندم على أتباع المجرمين والإستماع إلى القادة المضلين. **﴿قالوا وهم فيها يختصمون ● تالله إن كنا لفي ضلال مبين ● إذ نسوّيكم برب العالمين ● وما أضلنا إلا المجرمون ● فما لنا من شافعين ● ولا صديق حميم ● فلو أن لنا كرَّةً فنكون من المؤمنين﴾**.

ثم تكون تلك الفقرة التقليدية التي يختم بها القرآن قصصه في هذه السورة وهي **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾**.

وكنا نستطيع أن نمضي في الحديث عن تلك الأشياء التي أثار القصص القرآني النفوس ضدها كصد الناس عن سبيل الله وكالحسد. وكنا نستطيع أن نمثل لذلك ببعض القصص كقصة شعيب ويوسف وابني آدم ولكنا آثرنا أن نكتفي بما تقدَّم لأن القصد كان التدليل على وجود هذا الغرض وضرب الأمثلة التي تثبت وتوضح ونعتقد أن قد بلغنا من ذلك ما نريد.

ثالثاً ـ والقصة كما تقوم بعملية الإفاضة وعملية الإيحاء أو تكوين عواطف قوية وصادقة مع أو ضد القيَم الخلقية والدينية والإجتماعية الموجودة في البيئة أو المراد فرضها عليها تقوم بعملية أخرى لا تقل عن هذه أثراً في حياة الإسلام والمسلمين تلك هي بث الثقة والطمأنينة أو بذر بذور الخوف والقلق والإضطراب النفسي.

والقصة القرآنية لها خطرها من هذه الناحية فهي التي تولِّد هذه الأشياء بعرضها صوراً من الحياة الدينية انتصر فيها الدعاة ومَن آمن بهم وحاق الدمار والهلاك بالقادة المعارضين ومَن اتَّبعهم. وهذه الأمور ملحوظة في مجموعات قصص سور الأعراف والشعراء والقمر.

ونلحظ أن عملية الخلق الفني في هذه المجموعات تقوم على أساس إختيار بعض العناصر المعروفة والمتداولة من أخبار الأمم السابقة ومزجها وإخراجها في الثوب الذي يؤثِّر الأثر المطلوب من إشاعة القلق والإضطراب في قلوب الكفرة والمشركين أو رد الثقة والطمأنينة لنفوس المؤمنين ومن هنا قال شعيب لقومه **﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**[1].

(١) سورة هود، الآية ٨٩.

ونستطيع أن نأخذ بعضاً من قصص سورة القمر ولتكن **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ● فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ● ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ● وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ● وحملناه على ذات ألواح ودسر ● تجري بأعيننا جزاء لمَن كان كفر ● ولقد تركناها آية فهل من مدكر ● فكيف كان عذابي ونذر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ● كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ● إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ● تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ● فكيف كان عذابي ونذر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ● كذبت ثمود بالنذر ● فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ● أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ● سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ● إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ● ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ● فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ● فكيف كان عذابي ونذر ● إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾**[(1)].

إنا نلحظ التشابه التام في بناية القصة في هذه المجموعة كما نلحظ أنها تبتدىء وتنتهي بعبارات تقليدية **﴿كذبت... بالنذر﴾**، **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾** وتوجيهاً تقليدياً **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾**. ثم نلحظ قصر الفقرات وتعاقب الجمل بعبارات مسجوعة ذات رنين قوي وقد كان القصد فيما نعتقد أن تؤثّر هذه الموسيقى على الحس فيتضاعف الأثر النفسي ويقوى. وإذا ما ضممنا إلى ذلك ما تقوم به عملية التكرار القصصي من عرض صور سريعة ومتلاحقة بحيث لا يكاد الإنسان ينتهي من مشاهدة واحدة منها حتى تهجم عليه الأخرى قدرنا مقدار ما تشيعه هذه الصور من إضطراب وفوضى وقلق نفسي خشية أن ينزل بهم الضرر أو ينالهم الأذى.

وكذلك نلحظ العملية نفسها في قوله تعالى **﴿الحاقة ● ما الحاقة ● وما أدراك ما**

---

(١) سورة القمر، الآيات ٩-٣٢.

الحاقة ● كذبت ثمود وعاد بالقارعة ● فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ● وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ● سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ● فهل ترى لهم من باقية﴾[١].

أما قصة شعيب ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ● ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ● بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ● قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ● قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب ● ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ● واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ● قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ● قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ● ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون مَن يأتيه عذاب يخزيه ومَن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ● ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ● كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾[٢].

فهذه قصة تجري هينة لينة ويبقى البطل هادئاً رزيناً واستحق بحق ما أطلقه عليه بعض المفسّرين من لقب خطيب الأنبياء فهو يحاور القوم ويداورهم لكن لا نأمة ولا حركة ولا إنفعالاً قوياً عنيفاً يدفعه إلى العبارات القاسية التي يقطر الدم من ألفاظ التهديد والوعيد فيها. وتمضي القصة حتى تنتهي إلى تلك النهاية السعيدة بالنسبة لشعيب والمؤمنين وتلك النهاية المؤلمة بالنسبة للكفرة والمشركين.

---

(١) سورة الحاقة، الآيات ١-٨.

(٢) سورة هود، الآيات ٨٤-٩٥.

وهكذا أكثر القصص كقصة موسى في القصص وقصة يوسف أيضاً فيها شيء من هذا وقصص الصافات إذ كل هذه القصص تصوِّر النتيجة الأخيرة لكل صراع في سبيل المبدأ والعقيدة وهي إنتصار المؤمنين وخذلان المنكرين المخالفين **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ● يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**(1).

رابعاً: ونستطيع أن ننتهي من هذه الأغراض بغرض أخير هو الإيحاء بأن محمداً عليه السلام رسول حقاً وأن الوحي ينزل عليه ويبلغه أخبار السماء.

وتقوم العملية الفنية في بعض هذه القصص على أن حالة محمد عليه السلام تشبه حال غيره من الأنبياء كموسى وإبراهيم **﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاًشاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ● فعصى فرعون الرسول﴾**(2) **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ● ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليماً ● رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ● لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾**(3).

وعلى أن ما طلب إليه وما أوصاه الله به هو ما أوصى به الأنبياء من قبل **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾**(4).

---

(1) سورة غافر، الآيتان ٥١-٥٢.

(2) سورة المزمل، الآيتان ١٥-١٦.

(3) سورة النساء، الآيات ١٦٣-١٦٦.

(4) سورة الشورى، الآية ١٣.

وفي هذين نستطيع أن نقول إن العرض كان من قبيل عرض الأخبار العادية التي لم يقصد بها إلا لفت الذهن إلى قضية من القضايا.

والقصة التي نستطيع أن نسمِّيها قصة فيما يخص نواحي هذا الغرض هي تلك التي عالجت الأمر الثالث أو الأخير وهو معرفة أخبار السماء وأن الوحي ينزل عليه بها وأنه ما كان يعرفها من قبل.

والقصص التي تمثِّل هذا النوع كثيرة منها قصة موسى في القصص وقصة نوح في هود وإذا حاولنا انتقاء قصة تفي بالغرض وتدل على المراد فلن نجد أفضل من قصة مريم في آل عمران وهي ﴿**إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ● فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سمَّيتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ● فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب ● هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ● فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أن الله يبشِّرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ● قال رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء ● قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلِّم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار ● وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهَّركِ واصطفاكِ على نساء العالمين ● يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾[1].

ففي هذه القصة نلحظ معرض صور فهناك صورة امرأة عمران ونذرها وصورة زكريا ودعائه وصورة عيسى ورسالته وتدخل مريم في كل صورة من هذه الصور ومع كل شخصية من هذه الشخصيات حسب ما يتطلَّبه الموقف من ظهور تام جلي أو ظهور ناقص خفي.

(١) سورة آل عمران، الآيات ٣٥-٤٣.

نلحظ صورة امرأة عمران تلك المرأة المتدينة التي تنذر ما في بطنها لله وفي سبيل الله. ثم نلحظ تلك المسحة الخفيفة من الألم والحسرة التي تطوف بنفسها على أن كانت المولودة أنثى وتلك العاطفة النبيلة أو تلك الرقة وذلك الحنان اللذان يتجليان في توجُّهها إلى الله من أجل مريم وقولها له ﴿**وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾. واستجاب ربها فأنبتها نباتاً حسناً وتقبَّلها بقبول حسن وجعلها في كفالة رجل من رجال المحاريب هو زكريا. وهنا نلمح أثر غير العادي في القصة من حوادث خارقة ومعجزات فمريم يأتيها رزقها من السماء وزكريا ينجب فيولد له يحيى وامرأته عاقر وتلك إرادة الله والله يفعل ما يشاء.

ولقد كان هذا الموقف من زكريا بعد توجُّهه إلى ربه وطلبه منه ذرية طيبة واستجابة ربه له ثم تعجُّبه من تلك الإستجابة محيراً للرازي فيما شرح من تفسير للقصة.

وتمضي القصة بعد ذلك ويكفينا منها هذه التوجيهات الدينية التي تتصل بمرادنا وهي قوله تعالى ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾[1]. وقوله ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**﴾[2]. وقوله ﴿**إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم**﴾[3].

وهكذا نستطيع أن نختم هذا الفصل دون أن يفوتنا لفت الذهن أو تكرير القول بأن أمور الدعوة الإسلامية وشرح عقائدها وتوضيح مبادئها كانت ترد في ثنايا القصة وبين طياتها في كل ما جاء في القرآن من قصص وأنها كانت غرضاً لكنه ليس بالغرض الذي تنتهي عنده القصة ويكوّن منها النهاية أو الختام وإنه من أجل ذلك جعلنا هذه التوجيهات من الموضوعات لا من الأغراض.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٤.

(٢) نفس السورة، الآية ٥٨.

(٣) نفس السورة، الآية ٦٢.

الباب الثالث

مصادر القصص القرآني

البيئة العربية

والبحث عن مصادر القصص القرآني تتمثل فيه خطورتان: الأولى تتمثل في رجال قد تعرفهم بسيماهم هم أصحاب الثقافة الضحلة والعقل الضيق والنظر القصير. هم أولئك الذين ألقت المقادير بمقاليد الثقافة العربية في أيديهم فظنوا أنهم كل شيء وما هم بشيء. وأنهم أحق الناس لأن يبيّنوا للناس ما يصح وما لا يصح وما يجوز وما لا يجوز. ولعله من هنا أخذتهم العزة فتحكّموا في البحوث علمية وأدبية. وراعوا في هذا التحكُّم مصلحتهم وأهواءهم ولم يراعوا مصلحة العلم والمعرفة ولم يراعوا جانب الحق والصواب.

ومن طبع أصحاب العقول الضيقة والنظر القصير إذا خولفوا في أمر من أمورهم أن يستثيروا العامة ويستعينوا بالغوغاء، وهم في ذلك إنما يسيرون على هدى سلف لهم غير صالح هم أولئك الجاهليون الذين كانوا يقولون لقومهم: **﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**[1].

وأصحاب العقول الضيقة حين تأخذهم العزة في هذا الموقف قد يقفون ويقولون لك: إن البحث عن مصادر القصص القرآني أمر يجب ألا يكون وتسألهم عن السر

(١) سورة فصلت، الآية ٢٦.

فيتمشدقون ويقولون: أليس القصص القرآني بعض القرآن؟ وأليس القرآن قد نزل من عند الله؟ وإذن فكيف نبيح لإنسان مهما يكن حظه من العلم والمعرفة، ومهما يكن قدره من العلو والرفعة أن يبحث عن مصادر ما أنزل الله؟ إنها الفتنة فدعوها نائمة ولعن الله مَن أيقظها.

أما الخطورة الثانية فتتمثل في أقوال المستشرقين والمبشِّرين وتدور حول مصادر القصص القرآني. وهؤلاء المبشِّرون يحتفلون للحديث عن هذه المصادر أكثر من إحتفالهم لأية مسألة أخرى من مسائل القرآن وسر هذا الإحتفال أن هذه المسألة هي الباب الذي ينفذون منه إلى الموازنة بين ما جاء في القرآن الكريم من أحداث وأخبار وما جاء منها في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب التاريخ والأخبار.

والمستشرقون والمبشِّرون في موازناتهم ينتهون حتماً إلى القول بأن في القرآن مخالفات تاريخية وأن هذه المخالفات هي الدليل على أنه من عند محمد، لأنه لو كان من عند الله لتنزَّه عن هذه المخالفات ولما كان فيه منها كثير أو قليل. وهم يعللون هذه المخالفات بقولهم لأقوامهم: إن محمداً كان يتعلم هذه الأخبار من العبيد والأرقاء، أولئك الأعاجم الذين كانوا يخدمون السادة من قريش والذين أشار القرآن إلى واحد منهم حين قال **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾**[1]. وهؤلاء ما كانوا يعرفون من التاريخ الديني للرسل والأنبياء إلا شائعات. ذلك لأنهم بحكم رقهم أو بحكم فقرهم ما كانوا يستطيعون الحصول على نسخ من الإنجيل والتوراة وكتب الأخبار، فلم تكن المطبعة قد وجدت بعد، ولم تكن النسخ المخطوطة من الكثرة بحيث تقع في أيدي هؤلاء. لقد كانت نادرة، وكان الحصول عليها يتوقف على مقدار ما يُدفع في سبيلها من نقد ومن هنا كانت وقفاً على الأغنياء[2]. ومن هنا أيضاً كانت معارف الفقراء ومعارف العبيد والأرقاء وقفاً على الشائعات وليس يخفى

---

(١) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٢) راجع هنري سمث، **الكتاب المقدّس والإسلام**، ص ٦٠ ـ٩٧. وراجع ريتشارد بل، **مصادر الإسلام**، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

أن ما كانت وسيلته المشافهة يكون دائماً عرضة للتحريف وعرضة للتغيير والتبديل وعرضة للزيادة والنقصان.

إن أخطاء هؤلاء فيما يقول المستشرقون والمبشِّرون هي التي ظهرت بوضوح في المخالفات التاريخية التي جاءت في قصص القرآن.

والخطورة الأولى لا تلبث أن تزول حين نبيِّن للرجميين والجامدين ومَن على شاكلتهم أننا في هذا الصنيع إنما نجري على سنَن سلف لنا صالح هم العلماء الأجلاء من رجال الفقه والدين.

ما الذي فعله المسلمون حين أرَّخوا للتشريع الإسلامي؟ ألم يبحث الأصوليون عن مصادر هذا التشريع؟ ألم يذكر هؤلاء الأصول الأولى لكثير من الأحكام الشرعية الواردة في القرآن الكريم؟ ألم ينته الأصوليون من بحث صلة الإسلام بغيره من الأديان السماوية إلى القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه؟ ألم يعلل المسلمون سر الإتفاق بين الأديان السماوية الذي تشير إليه الآية الكريمة: **﴿شرَّع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾**[1]. وسر الإختلاف الذي تشير إليه الآية الكريمة **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما ا آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾**[2] بعلل إجتماعية هي من النواميس الثابتة المستقرة؟ ألم يكن من بين هذه العلل ما يربط الأحكام الشرعية بالبيئة ويجعل تغييرها وتبديلها أو نسخها يتبع العقل البشري في تقدُّمه والبيئة الإجتماعية في ترقِّيها؟[3].

فعل المسلمون كل هذا وفعلوا ما هو أخطر من هذا حين ذكروا أن من عناصر الدين الإسلامي ما يرجع إلى العهد الجاهلي وأن رجالاً ذكروهم قد سنوا ما أبقى عليه

---

(١) سورة الشورى، الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٣) راجع إخوان الصفاء، جـ ٤، ص ٢٢.

القرآن الكريم وجعله عنصراً من عناصر الدين الإسلامي ومن ذلك توريث البنات وجعل حظ الذكر مثل حظ الأنثيين وتحريم الخمر والسكر والأزلام وغيرها من أمور ذكرها صاحب كتاب المحبّر في فصل عنوانه «من حكم في الجاهلية حكماً فوافق حكم الإسلام. ومَن صنع صنيعاً في الجاهلية فجعله الله سنَّة في الإسلام»[1].

إن علينا أن نبحث مصادر القصص القرآني كما بحث الأصوليون مصادر التشريع. بل نحن هنا أولى بالرعاية ذلك لأنهم يبحثون عن مصادر العناصر الدينية وهي عناصر لا تتأتى معرفتها لما فيها من غيبية إلا من طريق الرسل والأنبياء. ونحن إنما نبحث عن مصادر العناصر القصصية وهي عناصر من الوقائع البشرية التي يمكن معرفتها والوقوف عليها من غير طريق الرسل والأنبياء. وإن علينا أن نضع بين يدي الرجعيين والجامدين ومَن على شاكلتهم هذه الآية الكريمة التي تشير في صراحة إلى أن القرآن الكريم كان يرد بعض تشبيهاته وأمثاله إلى مصادرها الأولى أو إلى التوراة والإنجيل: **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾**[2]. وإن علينا أن ننشد الحقيقة الدينية وأن نضع بين أيدي الناس نظرية سليمة تقوم أول ما تقوم على ملاحظة الظواهر المختلفة الموجودة في القصص القرآني وتفسيرها تفسيراً صحيحاً وهي نظرية تحل جميع المشكلات التي وقف عندها المفسّرون وتخرج بالقصص القرآني من دائرة التشابه وترد جميع إعتراضات المستشرقين والمبشّرين، أما ما على قومنا فهو أن يفهموا رأينا ومذهبنا، وأن يعرفوا الحق للحق، وأن يعلموا أن الدين الإسلامي يفتح أمام العقل الطريق وينير له السبيل ويمكّنه من أن يضرب في التقدُّم الفكري بسهم وافر، إن علينا ما تقدَّم وإن على قومنا ما تأخر فإن أبوا إلا المضي في العناد وإلا دعاء الأمة الإسلامية إلى ذلك القول الذي كان يقوله الجاهليون من قبل **﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم**

(١) المحبر، لأبي محمد بن المتوفى سنة ٢٤٥، ص ٢٣٦ - ٢٤٣، ط حيدر آباد سنة ١٢٦١ .

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

تغلبون﴾[١] عمدنا إلى الصبر والدفاع عن الحقيقة الدينية والله يرعانا بفضله لأنه القائل: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ● يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**[٢].

والخطورة الثانية لا تلبث أن تزول حين نبيِّن للناس حقيقة ما أنزل الله وحين نؤكد للمبشِّرين والمستشرقين أنهم أقاموا موازناتهم على أساس لم يقصد إليه القرآن الكريم ولم يجعله غرضاً من أغراضه وأنه حين ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه قد تحكَّموا في الوسائل وفي النتائج العلمية لأن المخالفات التاريخية على فرض وجودها لا يمكن أن تكون الدليل على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء.

إن موازنات المستشرقين والمبشِّرين بين ما جاء في القصص القرآني من أخبار وما جاء منها في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأخبار والتاريخ يجب ألا تتم ويجب ألا تكون حتى يثبت قطعاً أن القرآن الكريم قد قصد من عرض هذه الأخبار معانيها التاريخية وأنه اختار ما اختار من الأشخاص والأحداث والحوار على أساس أن هذا هو الحق وأنه الذي يتمشى مع المنطق التاريخي. أما إذا كان قصد القرآن من قصصه ليس نشر الوثائق التاريخية وليس تعليم التاريخ فإن صنيع المستشرقين والمبشِّرين يصبح لا قيمة له ولا خطر منه.

والمسألة الأولى من مسائل هذا الفصل هي أن القرآن الكريم في قصصه لم يسلك مسلك التوراة فلم يقص أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصَّت هي وإنما اختار بعضهم ليقص قصصهم وأعرض عن الباقي **﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾**[٣] وهو حين اختار لم يعمد إلى أخبار هؤلاء جميعها وإنما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوة الإسلامية وموقف النبي من قومه ومن هنا لم يكن ذلك التفصيل الموجود في التوراة. ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساسي في ترتيب هذه القصص كما عمدت التوراة. إن كل ذلك إنما يدل على الفارق الأكبر بين قصص القرآن الكريم وبين قصص التوراة وهو أنها قد قصدت إلى التاريخ أما هو فلم يقصد

(١) سورة فصلت، الآية ٢٦.

(٢) سورة غافر، الآيتان ٥١-٥٢.

(٣) سورة النساء، الآية ١٦٤.

إلا إلى العظة والعبرة وإلى البشارة والإنذار وإلى الهداية والإرشاد وإلى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وإلى تثبيت قلب النبي عليه السلام ومَن اتَّبعه وزلزلة نفوس المشركين والكفرة وإلى غير ذلك من مقاصد وأغراض ليس منها التاريخ على كل حال.

والمسألة الثانية هي أن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقص قصصهم لم يكونوا جميعاً من البيئة العربية وإنما كانت الكثرة الكاثرة منهم من غيرها، من بلاد المصريين والعبريين والسبئيين ومن بلاد اليونان والرومان وأقاموا فيها وأرسلوا إلى أهلها ووقعت أحداثهم في هذه البلاد وجرى الحوار فيما بينهم وبين مَن أرسلوا إليهم بلغات هذه الأقاليم بل جرى الحوار أحياناً بلغات قد لا نعرفها وقد لا يستطيع عقلنا القاصر أن يتصوَّرها وإلا فبأي لغة تحدَّث الخالق جلَّ وعلا إلى كل من الملائكة وإبليس في قصة خلق آدم وبأي لغة تحدَّث إبليس إلى آدم في قصة الخروج من الجنة. إنها الأمور التي لا نعرف منها إلا الفروض الخياليّة[1].

هذه الكثرة الكاثرة من الرسل والأنبياء عليهم السلام من أمثال آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وسليمان وداوود ويوسف وموسى وأيوب ويونس والياس وغيرهم لم يكونوا مجهولين في بيئاتهم الأولى وإنما كانوا معروفين تعرف كلاً منهم بيئته وتقص أخباره على بنيها وتنقل هذه الأخبار إلى الأمم المجاورة ونعتقد أن ليس هناك مَن يدَّعي أن الذي قد حدث غير هذا وأن هذه الأمور من المسائل التي استأثر الله بعلمها وأنها من الغيب الذي لا يعرفه إلا مَن يطلعه الله عليه لأن هذا القول مما يخالف طبائع الأشياء.

كانت هذه الأشياء من الأمور المعروفة في بيئات الرسل عليهم السلام وفي البيئات التي انتقلت إليها هذه الأخبار. والذي نريده الآن هو الوقوف على الصلة التي كانت قائمة بين هذه الأقاصيص وبين البيئة العربية عامة والمكية بصفة خاصة قبل البعثة المحمدية وقبل نزول القرآن فهل كانت البيئة تعرف من أمر هؤلاء الرسل شيئاً أو كانت تجهل من أمرهم كل شيء؟ إن الإجابة عن هذا السؤال من الخطورة بمكان ذلك لأنها التي ستحدد لنا المسائل التالية:

(١) راجع المستصفى، للغزالي، جـ ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(١) المصدر الذي صدرت عنه هذه العناصر القصصية التي استخدمها القرآن الكريم في بناء القصص فهل كانت العقلية العربية أو كانت بيئات أخرى هي بيئات الرسل والأقوام؟ إن هذا هو الذي سيبيِّن لنا مذهب القرآن الكريم في بناء القصة من حيث صلة العناصر بالبيئة فهل كان يذهب إلى بناء القصة على ما هو المألوف من العناصر أو على ما هو الغريب النادر؟

(٢) الصنيع البلاغي الذي قام به القرآن والدور الفني الذي لعبه في تاريخ الحياة الأدبية للأمة العربية وذلك بدوره سيمكِّننا من الوقوف على أسرار الأُعجاز في القصص القرآني ويجعلنا نفهم الحكمة التي من أجلها تحدَّى القرآن العرب بالسور المفتريات.

(٣) الوصول إلى قاعدة أو نظرية يمكننا تطبيقها من حل المشكلات ورد الإعتراضات والخروج بالقصص القرآني من دائرة المتشابه.

والصلة بين هذه الأُقاصيص وبين البيئة العربية تتحدد بما يلي:

(١) نوع نستطيع أن نسلِّم منذ اللحظة الأولى بأنه كان مجهولاً في البيئة المكية جهلاً يكاد يكون تاماً وذلك هو النوع الذي نزل ليثبت نبوة النبي عليه السلام والذي جاء إجابة عن تلك الأسئلة التي يتوجه بها المشركون من أهل مكة إلى النبي ليعرفوا صدق رسالته وصحة نبوَّته، ومن أمثلته قصص أصحاب الكهف وذي القرنين. والظاهرة الجديرة بالتسجيل في هذا الموقف هي أن هذا القصص لم يرد إلا مرة واحدة فهو لم يتكرر تكرُّر غيره ولم يجيء لأغراض كثيرة ومختلفة. والتفسير الذي نرى أنه الصحيح بالنسبة إلى هذه الظاهرة هو أن القرآن الكريم ما كان يذهب مذهب أولئك الذين يبنون أقاصيصهم على ما هو الغريب النادر من العناصر إلا حين تدعو إلى ذلك ضرورة ملحة كأن تكون الغرابة نفسها هي المقصد والغرض كما هو الحال بالنسبة إلى الأُقاصيص السابقة. أما حين لا تدعو إلى ذلك ضرورة من الضرورات فإنه لم يكن ليبعد عن العقلية العربية.

(٢) ونوع نستطيع أن نسلم أيضاً منذ اللحظة الأولى بأنه كان معروفاً في البيئة العربية وذلك من أمثال هذه الأُقاصيص التي وردت إشارات عنها في الشعر الجاهلي كقصص أحمر عاد وأحمر ثمود وقصص الجن مع سليمان أو تلك التي بدأت بالتعبير

القصصي ﴿ألم تر﴾ فيما يذهب إليه المفسّرون[1].

والظاهرة الجديرة بالتسجيل في هذا المقام هي أن أقاصيص هذا النوع قد كرّرت وجاءت في أكثر من موطن ولأكثر من غرض وتشهد بذلك أقاصيص عاد وثمود أو هود وصالح. والتفسير الذي نعتقده صحيحاً في هذا المقام هو أن القرآن الكريم كان يذهب مذهب مَن يبني الأقاصيص على ما هو المألوف أو ما هو المشهور المتداول من مسائل التاريخ وقضاياه.

(٣) نوع ثالث وهو الكثرة قد يشتبه فيه القارىء فلا يدري أهو من النوع الأول أم هو من النوع الثاني وأمثلته أقاصيص آدم مع إبليس وقصة الخلق وقصص لوط ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وداوود وأيوب وغيرهم. وهو نوع نستطيع أن نصل إلى حقيقة الأمر في الصلة بينه وبين البيئة العربية وبخاصة المكية بأمرين الأول طريقة القص والثاني التكرار.

(أ) أما طريقة القص فتشعرنا بأنه كان معروفاً ذلك لأن القرآن كان يجري في القصص أول الأمر على أسلوب موجز فكانت أقاصيصه أشبه بالإشارات إلى ما هو المعروف. أو كانت لفتات إلى أحداث تعرفها البيئة ولا تجهل من أمرها شيئاً وذلك هو الواضح تماماً من مجموعة أقاصيص سورة القمر. ولعل مما يؤكد هذا الذي نذهب إليه أن القصص القرآني كان يقصد منه أول الأمر الإنذار والعظة والعبرة وكلها من المقاصد التي تطلب من الأحداث المعروفة حتى يكون للإنذار خطره وللعبرة أثرها.

(ب) وأما التكرار فإنه يؤدي إلى النتيجة نفسها حين يفيد أن القرآن الكريم كان يجري على مذهب أدبي معين هو بناء القصة القرآنية من مواد معروفة ومشهورة ومتداولة في البيئة ذلك لأنه على فرض أن هذه المواد التاريخية ما كانت معروفة في البيئة العربية قبل البعثة المحمدية ونزول القرآن فإن ما نزل منها أولاً كان يكفي بالتعريف بها وما نزل ثانياً وثالثاً ورابعاً... إلخ يعتبر من قبيل بناء القرآن للقصة على ما هو المعروف أو المشهور المتداول.

---

(١) راجع تفسير سورة الفجر في كل من الرازي والكشاف.

ومما يؤيِّد ما نذهب إليه أن دوران هذه المواد في القرآن كان. يتبع الشهرة فالشخصية التي عرفت واشتهرت والأحداث التي شاعت في البيئة كانت أكثر المواد إستخداماً في بناء القصة القرآنية. وعلى العكس من ذلك الأحداث التي لم تعرف والشخصيات التي لم تشهتر. ولعله من هنا كانت شخصية موسى أكثر دوراناً من شخصية أيوب مثلاً بل أكثر من أي شخصية أخرى. ذلك لأن موسى كان نبي اليهود ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني حتى لقد كان العرب أنفسهم يستشيرونهم في أمر محمد عليه السلام. وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً أخبار موسى وفرعون وقليلاً أخبار غيره من الأنبياء.

إن مذهب القرآن فيما يتضح من الظواهر السابقة هو بناء القصة القرآنية على عناصر يستمدها من البيئة أو من العقلية العربية وليس ذلك إلا ليكون القصص أشد تأثيراً وأقوى سلطاناً وإلا ليمضي القص بين المألوف العادي من الأحداث والأشخاص والغريب النادر من الأفكار والآراء.

مصادر القصص القرآني في الغالب هي العقلية العربية فالقرآن لم يبعد عنها إلا في القليل النادر ومن هنا جاءت فكرة الأقدمين القائلة بأن القرآن ليس إلا أساطير الأولين ذلك لأنهم نظروا فوجدوا الشخصيات القصصية والأحداث القصصية مما يعرفون ومن هنا أيضاً كان كل من الرازي والنيسابوري في غاية اللباقة والدقة في الفهم حين فرّقا بين جسم القصة وهيكل الحكاية وبين ما جاء فيها من توجيهات دينية وحين قالا بأن هذه التوجيهات هي المقصد الأول من القصص القرآني أما الجسم والهيكل فليست له قيمة كبيرة لأنه ليس المقصد والغرض وليس هناك ما يمنع من أن يكون الجسم أو الهيكل من أساطير الأولين. ولعلك لا زلت تذكر نص الرازي الذي وضعناه بين يديك في الفصل الأول من هذا الباب عند حديثنا عن القصة الأسطورية، فإنه النص الذي نشير إليه في هذا المقام.

يأخذ القرآن كما ترى عناصره القصصية من البيئة العربية ويبني من هذه العناصر أقاصيص هي التي نراها في القرآن الكريم وهي التي نريد أن نشرح ما فيها من صنيع بلاغي أو من عمل أدبي لعل هذا الشرح أن يبصرنا بما في هذا القصص من أسرار للإعجاز.

والعملية الفنية أو الصنيع البلاغي في القصص القرآني قد يكون في أسلوب القرآن وطريقته في رسم الأشخاص وفي تصوير الأحداث وفي إقامة الحوار كما قد يكون في توزيع العناصر القصصية وفي تحريكها الحركات التي تجعل كل عنصر قادراً كل القدرة على القيام بالدور الذي قدر له أن يلعبه في القصة بحيث تنتهي كل هذه الأشياء إلى المقاصد المطلوبة والأغراض المرجوة. وهذه الألوان من العمليات الفنية ستجدها مشروحة في الفصلين التاليين: فصل العناصر القصصية وفصل تطوُّر الفن القصصي في القرآن الكريم.

وقد تكون العملية الفنية في أخذ عنصر واحد أو عناصر بأعيانها ورسمها من جوانب عديدة وتصويرها من مواقع مختلفة لتنتج من ذلك رسوم عديدة للشخصية الواحدة وصور كثيرة للحدث الواحد بحيث يكون لكل رسم طابعه الخاص ولكل صورة شخصيتها المميزة ثم في بناء الأقاصيص المختلفة على هذه الرسوم وهذه الصور. إن هذا الصنيع الأدبي هو الذي نراه فيما سماه المفسّرون بتكرار القصص وما هو من التكرار في شيء وأنه الصنيع الذي يدل على هذه القدرة القادرة والقوة الباهرة التي لا يستطيعها إلا خالق مبدع والذي يعجز عن القيام به مَن لا يملك ناصية الفن ومَن لا تجري الأمورْ على يديه في سهولة ويسر. ولعله من هنا تحدى القرآن العرب وتحداهم بالسور المفتريات ذلك لأنه بنى أقاصيصه على ما يعرفون من عناصر وبنى أكثر من قصة على عنصر واحد هو شخصية النبي أو الرسول وجعل لكل قصة غرضها الخاص ومقصدها الذي تصل حتماً بالقارىء إليه وكل ذلك من الأمور التي لا يستطيعها إلا مَن يقول للشيء كن فيكون.

وقد تكون العملية الفنية في شيء غير ما تقدم في تخليص العناصر التاريخية من أشخاص وأحداث من معانيها التاريخية، وفي تحميل هذه العناصر بالعواطف الإنسانية أو البشريْة وبالمعاني الدينية والخلقية والإجتماعية وشرح هذا العمل الفني أو الصنيع الأدبي يضطرنا إلى أن نمس المسألة مساً خفيفاً عند الأصوليين والبلاغيين.

يذهب الأصوليون إلى القول بالحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية وهم يقصدون بالأولى معاني الألفاظ كما هي في اللغة. وبالثانية معانيها التي وضعها لها الشارع.

ويضربون لهذا الصنيع المثل بألفاظ الصلاة والزكاة فلكل منهما معناها في اللغة ومعناها في الشرع. ويذهب الأصوليون في الحديث عن هذا الصنيع إلى أبعد من هذا فيذكرون لنا أن دلالة هذه الألفاظ على المعاني الشرعية لا تحتاج إلى القرائن[١].

ويذهب البلاغيون إلى أن أسرار الإعجاز الأدبي لا تكون في المعاني اللغوية أو النحوية وهي المعاني الأولى وإنما تكون في المعاني الثانية وهي التي يحمّلها الأديب اللفظ أو العواطف البشرية التي تمتلىء بها الألفاظ والتراكيب ومن هنا يجعلون للنظم الفضل والمزية.

يقول ابن الأثير: ... موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحوي يشتركان في أن النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصومة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والإعراب. ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن هنا غلط مفسّرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعاني وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواقع الإعراب منها دون شرح ما تضمَّنته من أسرار الفصاحة والبلاغة[٢].

وواضح أن ابن الأثير يرى الغلط كل الغلط في الوقوف على المعاني الأولىوشرح الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب. ويرى أن الفهم الدقيق للنصوص الأدبية إنما يكون في الوقوف على ما فيها من أسرار للفصاحة والبلاغة أو بعبارة أخرى على ما فيها من فن أدبي جميل.

ويرى النقاد والأدباء أن الفضل والمزية في الأدب إنما يكونان بإيحاءات أدبية وإثارات فنية يحملها اللفظ كما تكون في مقدار ما يعبّر عنه من إنفعالات وما يصوّر من أحاسيس ومن هنا نراهم يقدرون آثار الإستعمال وهي شيء بعد المعاني اللغوية كما نراهم يبحثون عن تلك الروح التي بثّها الأديب في اللفظ ومنحه بها الحيوية.

---

(١) فواتح الزحموت، جـ ١، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) المثل السائر، ص ٣.

يبحثون عن كل ذلك ومن هنا لا يرون الأدب أدباً ولا الفن فناً إلا بما فيهما من صور صادقة التعبير قوية التأثير ولعل هذا أو قريباً منه هو الذي أراده ابن الأثير حين قال:

وبعد هذا فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج[1].

يبحثون إذاً في الأدب والفن عن سر الإعجاز ويرون هذا السر في غير المعاني الأولى يرونه في المعاني الثانية أو فيما تحمل هذه المعاني من عواطف وتستثير من إنفعالات.

والمسألة الآن فيما يخص المواد الأدبية في القصص القرآني هي هذه.

أقصد القرآن من عرضه لهذه المواد، أحداثاً وأشخاصاً، الدلالة الأولى أي فائدة الخبر كما يقول البلاغيون وهي معرفة هذه الأحداث والأشخاص كما يقصد اللغوي معرفة مدلولات الألفاظ الأولى؟ أم قصد شيئاً آخر وراء ذلك وبعده هو المعاني الثانية، هو تلك الآثار الأدبية في النفس عند عرض هذه الأحداث والأشخاص عليها عرضاً أدبياً فنياً لتثير الإنفعال وتوحي بالعبرة والعظة؟

إن دراستنا لما سبق من قيَم تاريخية ومن ألوان قصصية ومن مقاصد وأغراض تدل على أن القرآن لا يقصد بقصصه إلى المعاني الأولى ولا يريد تعليم الناس التاريخ أو شيئاً عن الأحداث وإنما يقصد إلى المعاني الثانية وهي المعاني الأدبية أو البلاغية وهي الإستثارات العاطفية والصور الفنية الأدبية وغيرها مما يعده أصحاب الفنون والآداب ملاك الأدب وغاية البلاغة.

وإذا كانت هذه العواطف والإنفعالات التي تستثيرها المواد الأدبية في القصص القرآني وهذه الأحاسيس التي تصوّرها هذه المواد تختلف في موطن عنها في آخر كان معنى ذلك أن القرآن يصنع في هذه المواد ما يصنعه الأدب والفن دائماً بالألفاظ وأنه يستخرج من هذه المواد الأدبية القصصية معاني أدبية تشبه إستخراجه المعاني المجازية من

(١) المثل السائر، ص ٦٩.

المعاني الحقيقية والصنيع هنا هو بعينه الصنيع هناك وأن هذه المواد وهذه الألفاظ في الصنيع الأدبي القرآني سواء.

كان هذا الصنيع الأدبي من القرآن محيراً للقدماء حين لم يتبيَّنوا الأسرار الخفية للصور المختلفة التي يعرض فيها القرآن هذه المواد الجزئية حين يحدِّث أو يقص عن هذا النبي أو ذاك في هذا الموطن أو ذاك ومن هنا شكوا من التكرار واجتهدوا في تعليله وأخذوا أنفسهم بقاعدة الترادف أو الإتفاق في المعاني وهذا هو الأمر الذي لا نرضاه... وإذا كنا قد ضربنا لك بعض المثل فيما مضى من قصص موسى وغيره فإنا نضع الآن ين يديك هذا المثال.

جاء في كتاب درة التنزيل وغرة التأويل ما يلي قوله تعالى: ﴿**قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ● قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين**﴾[١]. وقال في سورة الحجر: ﴿**قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ● قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ● قال فاخرج منها فإنك رجيم**﴾[٢].

للسائل أن يسأل فيقول إذا كان هذا في قصة واحدة ووقع في كلام الله حكاية عما قال إبليس وعما قيل له عندما كان يظهر من عصيانه فلماذا اختلفت الحكايتان والمحكى شيء واحد؟

والجواب ما قلته فيما قبله وأقوله فيما بعده من أن اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها وإنما المقصود ذكر المعاني فإن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان إختلافها وإتفاقها سواء[٣].

ونعتقد أن الإسكافي قد أحس بأصل المعنى بعد إذ وضع يده على الإشكال ولكنه

---

(١) سورة **الأعراف**، الآيتان ١٢-١٣.

(٢) سورة **الحجر**، الآيات ٣٢-٣٤.

(٣) **درة التنزيل**، ص ١١٩.

لم يتهيأ له من وضوح التفسير الأدبي وسر العمل الفني في دلالة الألفاظ والمواد الأدبية ما يحل به الإشكال ففصل بين اللفظ والمعنى فصلاً تحكمياً.

إن الأساس الذي يفسّر به الخطيب هذه الظاهرة هو الأساس الذي سبق أن نقلناه عنه فيما مضى من أنه لا إختلاف هناك. وواضح أن الإمام الفاضل إنما ينظر حينما ينظر إلى المعاني الأولى في هذه السور وهذه التعبيرات والمعاني الأولى ليست فيما نعتقد من الأمور التي يقصد إليها من قصص القرآن.

إن ما يسميه البيانيون بالمعاني الثانية وما يسميه المحدثون اليوم بإيحاءات الألفاظ ووقعها النفسي والصور الأدبية هو المقصود من الدراسة الفنية لأمثال هذه النصوص وهذا هو المقصد بعينه الذي لا شك في أن القرآن المعجز قد جعله الأساس الأول في بناء القصة وتركيبها وفي جمع الأقاصيص في السورة الواحدة. أي أن ذلك كله من صنيع القرآن ذو مغزى أدبي فني ثم هو سر الإعجاز النظمي.

لنقرأ سوياً هذه الآيات من سورة النمل: قال تعالى ﴿**ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ● قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ● قالوا أطيرنا بك وبمَن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ● وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا تقاسموا بالله لنبيتّه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ● ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ● فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين● فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ● وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون ● ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ● أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ● فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهّرون ● فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدّرناها من الغابرين ● وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ● قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون**﴾[1].

---

(١) سورة النمل، الآيات ٤٥-٥٩.

ولعلك قد لحظت أن هذه القصص لا تقصد إلى تصوير ما حدث بين ثمود ورسولها وبين لوط وقومه فذلك ليس هو الذي يقصد إليه القرآن لأنه ليس إلا المعاني الأولى لهذه القصص.

إن مقصد القرآن ليس إلا جعل هذه الصور مصدراً للإنفعال والتأثير وباعثاً للأمن والخوف والرجاء.

إن الذي نقوله هو الأمر الذي يدل عليه القصد القرآني وهو الذي يتَّضح من تلك التوجيهات الدينية التي تنطق بها الآيات، فقد قال تعالى **﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾**[(١)] وقال تعالى **﴿لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾**[(٢)] حين وجَّه الخطاب لمحمد عليه السلام في الأولى ولموسى عليه السلام في الثانية.

وإني لأعتقد أن هاتين القصتين نزلتا في الوقت الذي كان يأتمر فيه المشركون بالنبي عليه السلام وهذا هو الواضح من مناسبة قصة صالح ومن الحديث عن المدينة وما فيها من تسعة رهط وعن التقاسم والتبييت لكل ما حدث في مكة إذ هذه تكاد تكون صورة لما حدث من قريش ويذكره المؤرّخون وأصحاب السيرة عند حديثهم عن أسباب الهجرة. ثم هذا هو الذي يتَّضح من حديث قوم لوط ومحاولتهم إخراجه من القرية.

إن المقصود من هذه القصص فيما نعتقد ليس إلا بث الثقة والطمأنينة في نفس النبي عليه السلام وأن الله حافظه وناصره ومهلك أعدائه.

هذه المعاني أو هذه العواطف والإنفعالات هي قصد القرآن من القصص وهي الرباط الذي يربط مجموعات القصص وهي الأمور التي يجب أن يقف عندها كل مَن أراد أن يتذوّق أسرار الإعجاز في قصص القرآن وهي الأمور التي يجب أن يبحث عنها فيما لمح الخطيب الإسكافي من معانٍ أدبية وفيما وقف عنده من إشكال.

إن المسألة فيما بيننا وبينه لا تُفهم على أساس الموازنة بين هاتين الجزئيتين في قصتي إبليس وآدم في كل من الأعراف والحجر وإنما تُفهم على أساس الموازنة بين القصتين. ذلك

---

(١) سورة النمل، الآية ٦.

(٢) نفس السورة، الآية ١٠.

لأن القصة لا تُفهم على أساس فهم المعاني الأولى التي تعبِّر عنها الألفاظ والأحداث والأشخاص أو بعبارة أخرى على أساس الفهم الجزئي وإنما تُفهم القصة كما يُفهم كل عمل أدبي وكل أداة للتعبير أو التأثير وهذه الطريقة في الفهم هي التي أشرنا إليها في التمهيد حين فرَّقنا بين نوعين من الفهم فهم حرفي يقوم على الوقوف على المعاني الأولى للألفاظ والأحداث والأشخاص. وفهم أدبي يقوم على الوقوف على ما في النص من قيَم عاطفية وفنية أو باصطلاح القدماء الوقوف على المعاني الثانية بما تسمح له الدراسة الأدبية من تفسير وتوضيح.

لنعد الآن إلى القصتين لنرى الفروق بين المقصدين في كل من سورتي الحجر والأعراف ولنعلِّل بذلك سر الإختلاف بين موقفي إبليس في القصتين.

إن القصة في سورة الأعراف إنما جاءت لتقص مبدأ العداوة بين إبليس وآدم ولتصل من ذلك إلى نتيجة أدبية هي ما قصد إليه القرآن من جميع قصص سورة الأعراف وهو أن يدفع المشركين إلى تعديل موقفهم من النبي عليه السلام ومن هنا كان قوله تعالى في ختام هذه الأقاصيص ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ● ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكَّرون ● ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾[1].

كما قال في ختام قصة إبليس وآدم ﴿**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ● يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾[2].

أما القصة في سورة الحجر فقد قصت هذه العداوة وهي تقصد إلى شيء آخر هو أن تذهب عن نفس النبي عليه السلام الهم والقلق الذي يساوره من أجل الدعوة وعدم

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٧٥-١٧٧.

(٢) نفس السورة، الآيتان ٢٦-٢٧.

نجاحها والذي يدفعه إلى نفسه موقف القوم منه وإستهزاؤهم به. وهذا هو الذي تقصد إليه قصص هذه السورة وهو الذي يتضح من قوله تعالى في ختام السورة **﴿فاصدع بما تؤمَر وأعرض عن المشركين ● إنّا كفيناك المستهزئين ● الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ● ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ● فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين● واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾**[١].

كما يتضح من قوله تعالى في أول السورة **﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ● لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ● ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ● إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ● ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ● وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾**[٢].

وإذا كان القصد من قصص الأعراف تعديل موقف المشركين فقد كان أسلوب القرآن في القصص وطريقته في العرض أن يريهم النتائج ممثَّلة في أحداث ويريهم صنيع الله بالمستكبرين وصنيعه مع المؤمنين المستضعفين وأن يختار من المواد ما يمثل رحمته بقوم وعذابه بآخرين. ومن هنا كان النصح والإرشاد في ختام قصص السورة كلها. ومن هنا أيضاً كانت رحمته سبحانه تظلّل الأشخاص القصصية حتى الكفرة والمشركين وحتى إبليس نفسه فقد كانت المحاورة أقل عنفاً وكان السؤال أقل قسوة وتهكُّماً.

وإذا كان القصد من قصص سورة الحجر هو الإفاضة عما بنفس محمد عليه السلام من قلق ليهدأ أو يستقر وكان هذا القلق مسبَّباً عن موقف قومه منه وإستهزائهم به فقد كانت الصور ناطقة بالقسوة ولعله من هنا لم يعرض القرآن لأحوال المؤمنين ولعله من هنا أيضاً كانت المحاورة قاسية عنيفة مع إبليس فقال الله تعالى **﴿فاخرج منها فإنك رجيم ● وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾**[٣]. وكان هذا التهديد والوعيد في ختام القصة **﴿وإن**

(١) سورة الحجر، الآيات ٩٤-٩٩.

(٢) نفس السورة، الآيات ٦-١١.

(٣) نفس السورة، الآيتان ٣٤-٣٥.

جهنم لموعدهم أجمعين ● لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾[1]. ولم يكن النصح والإرشاد كما هو في ختام قصة الأعراف.

المسألة إذاً في طريقة الفهم وفي محاولة الوقوف على القصد في الوقوف طويلاً عند المعاني الثانية أو عند العواطف والأحاسيس والإنفعالات التي هي مقصد القرآن الأول والأخير من قصصه والتي لم تكن التعريف بالتاريخ أو إملاء الأخبار.

ولعل المسألة تزداد وضوحاً وبياناً بهذا المثال من قصص لوط عليه السلام.

قال تعالى في سورة هود ما يلي **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتّقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ● قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ● قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ● قالوا يا لوط...﴾**[2] إلخ.

وجاء في سورة الحجر ما يلي **﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون ● قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ● واتّقوا الله ولا تخزون ● قالوا أو لم ننهك عن العالمين ● قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ● لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون...﴾**[3] إلخ.

لا أريد هنا أن أتحدث عن ترتيب الأحداث في القصتين فذلك أمر قد درسناه فيما مضى وجعلنا له علاقة باصطلاح القدماء «التقديم والتأخير» وإنما أريد أن أتحدث عن أمرين آخرين يوضحان ما نرمي إليه في هذا الفصل من عناية القرآن بالمعاني الثانية أو العواطف والأحاسيس ذلك لأن قصد القرآن الذي يرمي إليه في كل واحدة من القصتين له دخل كبير في المواد القصصية لا من حيث إختلاف المعاني الثانية في المواد بل من حيث تركيب المواد ذاتها.

الحادثة هنا واحدة وهي موقف قوم لوط من لوط حين جاءته الملائكة لتجعل عالي

(١) سورة الحجر، الآيتان ٤٣-٤٤.

(٢) سورة هود، الآيات ٧٨-٨١.

(٣) سورة الحجر، الآيات ٦٧-٧٢.

القرية سافلها ولتنجّي لوطاً وأهله إلا امرأته. لكن إستعمال القرآن للحادثة وتصويره لها في القصتين يباعد بين الصورتين حتى ليخيَّل للإنسان أن هذه الحادثة غير تلك لا أن هذه الصورة غير تلك وذلك من جراء الزيادة والحذف أولاً ثم من جراء العواطف والأحاسيس ثانياً.

انظر في هذه المواد الواردة في القصتين فتجد في الأولى ﴿**وجاءه قومه**﴾ وفي الثانية ﴿**وجاء أهل المدينة**﴾ ونجد في الأولى ﴿**قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم**﴾ وقال في الثانية ﴿**هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين**﴾ فحذف الحديث عن الطهر وحذف المنادى وهو القوم. وقال في الأولى ﴿**فاتَّقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد**﴾، وقال في الثانية ﴿**إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتَّقوا الله ولا تخزون**﴾ من غير سؤالهم ذلك السؤال الذي يدل على الضيق بهم والأسى والأسف أن وقفوا منه هذا الموقف وهو قوله ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾.

إن الحادثة كما قلت واحدة فلماذا اختلفت الصور واختلفت التعبيرات الفنية والأدبية؟

الإجابة سهلة يسيرة لو جرينا على القاعدة التي نجري عليها في الدرس وهي الإعراض عن المعاني الأولى والبحث عن المعاني الثانية. إن القرآن هنا لا يقص ليعلم التاريخ أو يملي أخباراً وإنما يقص لأمور أخرى هذه الأمور هي التي تلعب دورها في تصوير الحادثة أو المادة القصصية كما تلعب دورها في فن بناء القصة وأسلوب عرضها.

ما الغرض من قصص سورة هود؟

لقد ذكرنا هذا الغرض سابقاً ولا بأس من أن نعيده هنا وهو تثبيت قلب النبي عليه السلام كما حدَّث القرآن في ختام السورة ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾[١] وكان هذا التثبيت مخافة عدم المضي في الدعوة الإسلامية كما حدث القرآن في مبدأ السورة ﴿**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا...**﴾[٢] إلخ.

(١) سورة هود، الآية ١٢٠.

(٢) نفس السورة، الآية ١٢.

كان هذا هو السبب في إنزال قصص سورة هود. وكان أسلوب القرآن في التثبيت هو الأسلوب الفني الذي يعمد إلى الإيحاء والإفاضة وليس ذلك إلا بعرض صور فنية تشبه هذا الموقف الذي يقفه نبي الإسلام عليه السلام. وكان أن اختار الله ما يحدث للرسل ليريه كيف مضت الأمور وكيف وقف هؤلاء الرسل مواقفهم التي تذكر لهم مع شدة حرصهم على هداية قومهم وشدة أسفهم على أن يقف منهم قومهم هذه المواقف.

وأظنك الآن قد فطنت إلى السبب الذي من أجله كانت العبارات هنا من العبارات التي تدل على قوة الصلة بين لوط وقومه فكانت العبارات ﴿**جاءه قومه قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم... أليس منكم رجل رشيد**﴾.

إن هذه العبارات هي التي تحمل من المعاني الثانية ما يتلاءم وحالة النبي عليه السلام وقصد القرآن.

إن هذا الصنيع مؤلم لا سيما من قومه. وإن ﴿**أطهر لكم**﴾ تدل على حرص لوط على إبعاد قومه عن الضلال بترغيبهم في بناته وترغيبهم عن ضيفه وإن ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾ لتدل على متانة هذه الصلة وعلى الحسرة والأسف أن يكون من قومه هذا الذي يحدث له ولضيفه. ولم يكن شيء من ذلك في قصة الحجر لأن قصص هذه السورة نزلت لتشفي قلب النبي عليه السلام بقص القصص التي تطلعه على ألوان العذاب التي تنزل بالمكذبين من أقوام الرسل عليهم السلام. ومن هنا قال ﴿**وجاء أهل المدينة**﴾ فكأن الأمر لا يعنيه وكأنه لن يحزن أو يأسف على ما ينزل بهم من عذاب. وكان ﴿**هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين**﴾ فكأنه قد ضاق بهم إلى الحد الذي يجعله غير مهتم بهم من حيث الترغيب والتنفير ولم يكن في القصة ﴿**يا قوم**﴾ من أجل هذا كما لم يكن ذلك الإستفهام المؤلم ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾.

إن هذه الألفاظ التي تدل على العطف والحنان والتي تدل على حرصه على هِداية قومه لم ترد في القصة الثانية لأنها قصة العذاب.

وهكذا ترى أن المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص وهي الأمور التي يبحث عنها وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصوَّر بصور مختلفة ويعبَّر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات.

وإذا كان الأمر هو ما وصلنا إليه وكانت هذه العواطف والإنفعالات تختلف في موطن عنها في آخر مهما تتحد المواد الأدبية وتتشابه الأُقاصيص القرآنية فإن النتيجة الحتمية لكل هذا هي الإعتراف بأن القرآن الكريم كان يخرج بهذه الأحداث عن أن تكون معبِّرة عن معانيها الأولى وهي المعاني التاريخية أو الإخبارية إلى المعاني الثانية وهي المعاني العاطفية أو الأدبية البلاغية أو الفنية وليس وراء ذلك إلا أن القرآن الكريم لم يقصد من أقاصيصه إلى التاريخ.

ويبقى من العملية الفنية أو من الصنيع البلاغي للقرآن في أقاصيصه أمر لا بد من الحديث عنه ذلك الأمر هو طبيعة هذه العناصر القصصية ومدى صلتها بالحقيقة والواقع. فهل كان القرآن الكريم يستخدم هذه العناصر من أحداث وأشخاص على الصورة التي كانت تعرفها عليها العقلية العربية في زمن النبي عليه السلام أو كان يرجع بها إلى الصورة التي وقعت بها الأحداث وكان عليها الأشخاص في الزمن الذي وجد فيه الرسل ووقعت فيه الأحداث.

هل كان القرآن في حديثه عن أحداث الفراعنة مع اليهود مثلاً وإستخلاصه العظة والعبرة منها يعتمد على صورة فرعون في الذهن العربي أو كان يعتمد على تلك الصورة التي كانت في أزمان فرعون وموسى في أذهان اليهود والمصريين؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا بحث مسألة أخرى هي الأساس الذي كان يقيم عليه القرآن الكريم أسباب اختياره لهذه العناصر. فهل هو أساس المؤرخين الذي يقوم دائماً على إختيار الحق والواقع وما يثبته العقل والمنطق ويقوم عليه الدليل والبرهان أو هو أساس البلاغيين الذي قد لا يعنيه الحق أو الواقع بقدر ما يعنيه أن تكون هذه العناصر مما يستهوي النفوس ويأخذ بمجامع القلوب ويسيطر على الأفئدة والألباب؟

إن القدرة على التأثير هي الأساس الذي كان يلحظه القرآن دائماً في نفوس المعاصرين للنبي عليه السلام حين يستمعون إلى القرآن أو ما يلقى عليهم من كلام. ثم إنهم الأساس الذي كان يعتمد عليه القرآن دائماً حتى في غير القصص من آيات الموعظة والعبرة وآيات الهِداية والإرشاد.

اقرأ معي هذه الآية: قال تعالى ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾[١]. وقال تعالى ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[٢] وقال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكّلون﴾[٣] فترى القرآن يصوِّر نوعين من الناس: نوع تبلَّد منه الحس فعجز عن أن يتأثر بالقرآن الكريم ومن هنا صوَّره القرآن على أنه قد فقد أدوات الحس التي تنتقل إليه المؤثرات. ونوع قد رهف منه الحس ودق الذوق فانفعل وتأثر حين استمع إلى ما يتلى عليه من كلام الله. وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن القرآن الكريم يلفت منا الذهن إلى أن القدرة على التأثُّر أساس قوي من أسس الإستجابة وأن القدرة على التأثير سر قوي من أسرار الإعجاز.

ثم اقرأ معي هذه الآيات. قال تعالى ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم مَن يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ● وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[٤].

وأظن أنك قد لمست أن النفوس التي تأثرت قد ذهبت مذهبين: فقوم زادتهم الآيات إيماناً وقوم زادتهم كفراً وقوم استبشرت نفوسهم وقوم ماتوا وهم كافرون. ومعنى ذلك أن الإستعداد النفسي في الجماعات له دخل كبير لا على التأثُّر فحسب بل على تحويل الإنفعالات التي تُستثار إلى انفعالات سارة أو انفعالات مؤلمة. وكل ذلك حسب الظروف والمناسبات أو حسب الأهواء والشهوات.

ثم اقرأ قوله تعالى ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة

(١) سورة فصلت، الآية ٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٤) سورة التوبة، الآيتان ١٢٤-١٢٥.

وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾[١] فسترى المسألة في غاية الوضوح.

وهذه آية أخرى نحب أن نقف عندها: قال تعالى **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾**[٢]. وواضح أن القرآن هنا يصوّر قوة الإنفعالات المستثارة وأن هذه القوة تشتد حتى تصل إلى حد الخطر أحياناً فهؤلاء يعرف في وجوههم المنكر وهم **﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾**. وليس من شك في أن القرآن يعطينا الصورة القوية الواضحة لتلك القوة الساحرة التي تكمن في الألفاظ والعبارات وفي الصور الأدبية وأن هذه العناصر الأدبية لها قوتها الساحرة في تحريك الأفراد والجماعات وأنها سلاح قوي في يد مَن يجيد إستعماله من هنا ذهب القوم إلى أن القرآن سحر مبين.

ولعلك الآن تستطيع أن تفهم لماذا نهى القرآن المسلمين عن سب آلهة المشركين حتى لا يسب هؤلاء الله عدواً بغير علم. ولعلك تستطيع أن تفهم أيضاً لماذا نهى القرآن النبي عليه السلام أو طلب إليه الإعراض عن الذين يخوضون في آيات الله. بل لعلك قد فهمت لماذا جعل القرآن المسلمين الذين يستمعون إلى الخائضين في آيات الله مثلهم في التهديد بالعقاب.

أعتقد أن السبب واضح بيِّن وهو أن القرآن يعرف للفن الأدبي قدرته القاهرة وقوته الساحرة وأنه من هنا يخشى على المسلمين خطر أحاديث المنافقين والكافرين. قال تعالى **﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾**[٣] وقال تعالى **﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾**[٤] وقال تعالى **﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات**

---

(١) سورة الزمر، الآية ٤٥.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

(٤) نفس السورة، الآية ٦٨.

الله يكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾[1].

أعتقد الآن أنك لن تختلف معي في كل ما تقدم وأنك تتفق معي على أن تأثير المواد الأدبية في النفوس يستمد قوته من علاقة هذه المواد بالبيئة وباستعداد النفوس وأن كل هذا من الأمور التي صوَّرها لنا القرآن الكريم.

على أن المسألة لا تقف عند هذا الحد فالأمر في القرآن أبعد غوراً وأكثر عمقاً ذلك لأن القرآن الكريم كان يلحظ هذه العلاقة التي يفرضها المجتمع ويقيمها بين الألفاظ والنفوس أو بين الصور الأدبية والنفس البشرية عندما يختار هذه المواد ليعبِّر بها عما يريد.

انظر إلى الأساس الذي أقام عليه اختيار هذه المواد الأدبية قال تعالى **﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾**[2] وقال تعالى **﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ● أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ● ألا إنهم من إفكهم ليقولون ● ولد الله وإنهم لكاذبون﴾**[3] اصطفى في التنفير من عبادة الملائكة على ما كان معروفاً في البيئة العربية مما هو من مسلماتها من كراهية للأنثى.

أعتقد أنك تسلم بهذا وأنك تسلم أيضاً بأن هذا الإختيار لمثل هذه المواد الأدبية لا يكون له هذه الجدوى في بيئة ليست للأنثى فيها هذه المنزلة النازلة. تصور أن هذا القول قيل في بيئة تعرف للأنثى حقها وتقدِّرها قدرها وتعتقد أنها أجمل ما خلق الله.

ومثل ذلك تماماً ما صنعه القرآن في اختيار المواد الأدبية المنفرة من جهنم خاصة تلك التي تعتمد على الصفات البشعة لألوان الطعام والشراب.

قال تعالى **﴿خذوه فغلوه ● ثم الجحيم صلّوه ● ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ● إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ● ولا يحض على طعام المسكين ● فليس له اليوم**

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٠.

(٢) نفس السورة، الآية ١١٧.

(٣) سورة الصافات، الآيات ١٤٩-١٥٢.

ههنا حميم ● ولا طعام إلا من غسلين ● لا يأكله إلا الخاطئون﴾[١] وقال تعالى ﴿إن جهنم كانت مرصاداً ● للطاغين مآباً ● لابثين فيها أحقاباً ● لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ● إلا حميماً وغساقاً ● جزاء وفاقاً﴾[٢] وقال تعالى ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ● لآكلون من شجر من زقوم ● فمالئون منها البطون ● فشاربون عليه من الحميم ● فشاربون شرب الهيم﴾[٣] وقال تعالى ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ● إنا جعلناها فتنة للظالمين ● إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ● طلعها كأنه رؤوس الشياطين ● فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ● ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ● ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾[٤].

وأعتقد أنك قد لمحت أن بعض هذه الأدوات الأدبية منفر لا في البيئة العربية فحسب وإنما في غيرها من البيئات. ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كان يختار من الصور الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التي تظل موحية والتي يظل لها فعلها القوي الساحر مهما تختلف البيئات وتتابع الأزمنة.

ولعلك أيضاً قد لمحت أن هذا الأساس يقوم حتى ولو كانت هذه الصلة بين الأدوات الأدبية والنفس البشرية من الصلات التي تقيمها الجماعة على صور يخترعها الوهم ويخلقها الخيال وإلا فما بال القرآن ينفرهم من شجرة الزقوم وبتشبيهه طلعها برؤوس الشياطين. إن هذه الصورة من الصور الخيالية الوهمية باعتراف القدماء من المفسِّرين. جاء في الكشاف ما يلي: وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان. وإذا صوّره المصوِّرون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله. كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه فشبهوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾[٥] وهذا تشبيه

(١) سورة الحاقة، الآيات ٣٠-٣٧.
(٢) سورة النبأ، الآيات ٢١-٢٦.
(٣) سورة الواقعة، الآيات ٥١-٥٥.
(٤) سورة الصافات، الآيات ٦٢-٦٨.
(٥) سورة يوسف، الآية ٣١.

تخييلي[1].

وجاء فيه أيضاً ما يلي: لا يقومون إذا بُعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان. أي المصروع. وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. والخبط الضرب على غير إستواء كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون[2].

وهنا نستطيع أن نضع بين يديك مرة أخرى هذا القول من أقوال الأستاذ الإمام. قال رحمه الله: وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعمَلة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها﴾ كقوله: ﴿**كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾[3] وكقوله: ﴿**بلغ مطلع الشمس**﴾[4] وهذا الأسلوب مألوف فإننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية[5].

وأعتقد الآن أن المسألة قد وضحت في ذهنك وأنها كادت أن تستقر في نفسك وأنك لن تستطيع أن تنكر أن القرآن يجعل الأساس في اختياره للمواد الأدبية من صور وألفاظ القدرة على التأثير كما أنك لن تنكر أن هذه القدرة إنما تستمد قوتها وحيويتها من تلك الصلة التي يربط فيها المجتمع بين هذه الأدوات وبين النفوس وأن هذا هو الأمر الذي فطن إليه القدماء من علماء البلاغة عند حديثهم عن الدلالات. جاء في عروس الأفراج ما يلي: أي لا يشترط اللزوم العقلي الذي لا يتصوَّر إنفكاكه بلى لو اقتضى العرف العام أو الخاص ملازمة أمر لآخر وأطرد ذلك بحيث صار إستحضار أحدهما مستلزماً للآخر كفى ذلك في اللزوم الذهني... وأعلم أن اللزوم العرفي هو إصطلاح البيانيين لإحتياجهم إلى ذلك في

(١) **الكشاف**، جـ ٢، ص ٢٦٤.

(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧٦.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٥.

(٤) سورة **الكهف**، الآية ٩٠.

(٥) **المنار**، جـ ١، ص ٣٩٩.

الإستعارة والكناية والتشبيه أما المنطقيون فإنما يعتبرون اللزوم العقلي[١]. وجاء في كتاب الإيضاح ما يلي: ولا يشترط مما يثبته إعتقاد المخاطب إما لعرف أو لغيره[٢].

وها هم القدماء كما ترى يجعلون لاعتقاد المخاطب أثره في بناء الجمل الأدبية ويقولون في غير تحرُّج إن القرآن كان يجيء على ما يعتقد الجاهليون وما يزعمون. وهو قول يشعرنا بأن ما في الأقاصيص القرآنية من أحداث وأخبار لا يلزم أن يكون هو التاريخ ذلك لأن القرآن الكريم قد يكتفي بما تزعمه العرب وما تعتقده في صوره البيانية المعجزة وليس يخفى أن القصة صورة من صور البيان العربي وأن القرآن الكريم قد اكتفى في قصص أصحاب الكهف وذي القرنين بما كان يعتقده المخاطبون. ومن هنا لا يصح لمعترض أن يعترض على أن في الأقاصيص القرآنية مخالفات للحق والواقع أو مخالفات للتاريخ.

إن إختيار القرآن لبعض الرسل دون بعض، وإطالته الحديث عن بعض الرسل دون بعض، وتأخيره تصوير بعض الأحداث من حياة الرسول وتعجيله بتصوير بعض، واختياره لغة المرسل إليهم لتكون لغة الوحي والرسالة. إن هذا كله هو الدليل على أن القرآن لم يقصد قصصه إلى التاريخ.

وإن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية وجعلها صالحة كل الصلاحية لإستثارة العواطف والإنفعالات حتى تكون العظة والعبرة، وتكون البشارة والإنذار، وتكون الهِداية والإرشاد، ويكون الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتمكين لها حتى في نفوس المعارضة. إن هذا كله لهو الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب منا الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية. ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقِّق وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل، ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن لأن الله لم يرد تعليمنا

---

(١) **شروح التخليص**، جـ ٣، ص ١٧٣.

(٢) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٣٧٢ .

التاريخ ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض.

إن المخالفة هنا لن تكون إلا مخالفة لما تتصوره البيئة ولما تعرفه عن التاريخ ولم يقل قائل بأن ما تعرفه البيئة العربية عن التاريخ هو الحق والصدق. ولم يقل قائل بأن المخالفة لما في أدمغة العرب من صور عن التاريخ هي الكفر والإلحاد بل لعل هذه المخالفة واجبة حتى يكون تصحيح التاريخ وخلوه من الخيالات والأوهام.

أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحل مشكلات المفسّرين وترد إعتراضات المستشرقين والمبشِّرين. وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما في القصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع. كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون.

وهنا قد تقول ما يقوله الكثيرون من أن هذا التفسير يعارض بعض نصوص القرآن. فهو يعارض وصف القصص القرآني بالحق ويعارض آيات الإفتراء. ولذا يجب علينا أن نقف عند هذه الآيات لنريك أنه لا تعارض. ونستطيع أن نبدأ بآيات الإفتراء فنقول: (١) إن آيات الإفتراء لا تتعلق بالمواد الأدبية القصصية ولا بما في هذه القصص من صور للأحداث والأشخاص من حيث هي صور وإنما تتعلق بالقرآن كله من حيث هو كتاب ديني وصلته بالخالق سبحانه وتعالى أو بمحمد عليه السلام، تتعلق بصاحب النص أهو الخالق أنزله على النبي عليه السلام أم هو النبي وهو الذي يفتري حين ينسب هذا القرآن أو هذه القصص إلى الله.

ذلك هو الأمر الذي تدور حوله هذه الآيات وهو الأمر الذي لم يغب عن بال القدماء من المفسّرين ثم هو الأمر الواضح من نصوص القرآن الكريم.

جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فمَن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته...**﴾[1] إلخ، ما يأتي: واعلن أن تعلُّق هذه الآية بما قبلها ظاهر وذلك لأنهم التمسوا

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٣٧ وسورة **يونس**، الآية ١٧.

منه قرآناً يذكره من عند نفسه ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل وأن هذا القرآن ليس إلا بوحي الله تعالى وتنزيله فعند هذا قال **﴿فمَن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً﴾**. والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان في الدنيا أحد أظلم لنفسه مني حيث افتريته على الله ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك بل يوحى من عند الله تعالى وجب أن يقال إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله فوجب أن تكونوا أظلم الناس[١].

ثم هو واضح من نصوص القرآن الكريم الظاهرة فهم مثلاً حين يقولون **﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾**[٢] يرد عليهم بقوله تعالى: **﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾**[٣]. ومعنى ذلك أن القرآن قد نزل على النبي عليه السلام من عند الله فلم يكن إفكاً افتراه وأعانه عليه آخرون.

والقرآن حين يطلب إلى النبي عليه السلام أن يجيب عن شبهات القوم في هذا الإفتراء يقول له **﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾**[٤] ويقول **﴿قل إن افتريته فعليَّ إجرامي﴾**[٥] ومعنى هذا أن القرآن من عند الله ولا يستطيع النبي عليه السلام أن يفتريه لأن العقاب جزاء المفترين ولا يملكون هم له من الله شيئاً.

والقرآن حين يتهدد النبي عليه السلام وخصوم القرآن الكريم يقول **﴿ومَن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء﴾**[٦].

والقرآن يصوِّر قولهم في شأن النبي عليه السلام والآيات على هذا الأساس: **﴿ائتِ**

---

(١) الرازي، جـ ٤، ص ٥٧١.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٤.

(٣) نفس السورة، الآية ٦.

(٤) سورة الأحقاف، الآية ٨.

(٥) سورة هود، الآية ٣٥.

(٦) سورة الأنعام، الآية ٩٣.

بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾[1]، **﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾**[2] **﴿إنما يعلمه بشر﴾**[3]... إلخ.

المسألة كما ترى تتعلق بهذا الجانب في مسألة القصص القرآني وهو جانب إضافة هذه القصص إلى الله مع أنها من عند محمد عليه السلام. ورد القرآن عليهم ينصب على هذا الجانب أيضاً وهو أن هذه القصص من عند الله وليست من عند محمد عليه السلام.

وهنا نستطيع أن نقول إن الواجب العلمي يفرض علينا ألا نعمم في الحكم كما يفرض علينا أن نقف في بحثنا من هذه المسألة في القصص القرآني عند الحد الذي أراده القرآن الكريم وقصد إليه. إن قصة يوسف عليه السلام تكاد تكون القصة الوحيدة التي ختمت بآية يجري فيها الحديث عن الإفتراء. وهذه هي الآية. قال تعالى: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**[4]. ومن البيِّن أن القرآن يدل بهذه القصة وما فيها من أحاديث عن إخوة يوسف عليه السلام على أن القرآن قد نزل من السماء. ويحسن بنا أن نقف بالآيات عند هذا ولا نعدوه إلى القصص وهل ما تصوّره هو الواقع أو صور الأحداث. لا نعدوه إلى هذا لأنه أمر مسكوت عنه وأقل ما يجب هو التوقُّف حتى يأذن الله.

(٢) أما الآيات التي يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة بـ «الحق» من مثل قوله تعالى **﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾**[5]. **﴿وجاءك في هذه الحق﴾**[6]. فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هي الأحداث التاريخية. بل لعل

(١) سورة يونس، الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠٣.

(٣) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٤) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٥) سورة آل عمران، الآية ٦٢.

(٦) سورة هود، الآية ١٢٠.

رأياً آخر هو الراجح وهو أن الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية.

ونعتقد أنه من المستحسن أن نضع بين يديك هذا النص الذي يشرح حال هذه الصفة حينما تجيء مع الأمثال. جاء في المنار ما يلي: ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان

﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾[١]، لأنه ليس نقصاً في حد ذاته وقد جاء في كلامه تعالى فهو ليس نقصاً في جانبه وإنما هو الحق لأنه مبين للحق ومقرّر له وسائق إلى الأخذ به بما له من التأثير في النفس[٢].

وأظنك توافقني على أن وصف المثل بالحق لا يقصد منه بأية حال أن هذه الأمور التي يقصها المثل قد وقعت خارجاً وحدثت فعلاً وأن هذه الصور التي يقصها القرآن الكريم هي الصور التاريخية الكاملة لما يروى في الأمثال. وإنما يقصد بهذه الصفة كما شرحها صاحب المنار أن الأمثال تشرح الحقائق وتقررها في الأذهان.

وهذا هو الذي نريد منك أن تفهمه من الصفة حينما يوصف بها القصص القرآني. جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى **﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾**[٣] ما يلي: والقصص

هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة.

وجاء فيه أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾**[٤] ما يلي: واعلم أن قوله **﴿تلك﴾** إشارة إلى القصص التي ذكرها من حديث

الألوف... إلخ أما قوله **﴿بالحق﴾** ففيه وجوه أحدها أن المراد من ذِكر هذه القصص أن يعتبر بها محمد صلّى الله عليه وسلّم وتعتبر بها أمته في إحتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمين.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦.

(٢) المنار، جـ ١، ص ٢٣٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٢..

وواضح من النصين أن الصفة تتعلق بالتوجيهات الدينية ولا تتعلق بالأحداث وجاء في الرازي أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق﴾**[1] ما يلي «... ثم إنه تعالى بيّن أنه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكر. أما الحق فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة».

ويذهب القاضي عبد الجبار عند حديثه عن قوله تعالى **﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾**[2] إلى أنه يجوز هذا الوصف لا باعتباره وصفاً لجسم القصة وهيكل الحكاية أو ما فيها من عناصر تاريخية وإنما باعتباره وصفاً لما فيها من إنفعالات عاطفية تدفع إلى الإيمان بما هو الحق من مسائل الدين ولذا نراه يعلق على الآية الكريمة بقوله «لأن ما ينذر ويخوّف يوصف بذلك»[3].

ونعتقد أن هذا القول من الوضوح بحيث لا يصعب إدراكه أو التسليم به. فلا يقصد من هذا الوصف إذا ما في القصص من جزئيات للأحداث وإنما يقصد منه وصف التوجيهات الدينية الواردة في القصة أو وصف المقاصد التي من أجلها نزلت الأقاصيص والأمثال.

ونستطيع الآن أن نلخّص لك ما نريد الإتفاق عليه من مسائل هذا الفصل:

(١) المقصود من القصة هو إستخراج الحقيقة الدينية التي يرمي إليها القرآن الكريم من القصة الواحدة أو من مجموعة القصص الواردة في سورة واحدة.

(٢) إن إستخراج هذه الحقائق يحتاج إلى نوع معين من الفهم هو ذلك الذي يجري عليه العمل في تحليل القصص الآن تحليلاً أدبياً. وهو الأمر الذي أشار إليه الزمخشري عند حديثه عن التمثيل وعن القصة التمثيلية وذكرناه أول هذا الباب.

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٢٠.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٦٢.

(٣) **تنزيه القرآن عن المطاعن**، ص ٦٢.

(٣) إن الأحداث والأشخاص في القصص القرآني من المواد التي يكون بها البناء وهي مواد قد تكون تاريخية وقد تكون خيالية وقد تكون صوراً لما في الأذهان أي معتقدات ومسلمات.

(٤) إن هذه المواد كانت موجودة في البيئة غالباً. وأن القرآن كان يعتمد على هذا الموجود كما هو وبحالته التي كان عليها لأن القصص القرآني لم يجيء للتاريخ حتى يصحح الأوضاع وإنما جاء للعظة والعبرة وفي هذه تكفي المعتقدات والمسلمات.

(٥) إن باب التأويل مفتوح لمَن يعوزه مثل هذا التأويل إلى الإطمئنان.

العناصر في القصة القرآنية

وتوزيع العناصر في القصة القرآنية يجري على ما يجري عليه التوزيع في كل قصة أدبية قصيرة أو في كل أقصوصة. وهو يجري في أمثال هذه الأعمال الفنية على أساس إبراز عنصر واحد وإلقاء الضوء القوي عليه حتى يحل مكان الصدارة من القصة أو الأقصوصة وحتى يكاد ما عداه من عناصر أخرى أن يختفي أو يهمَل. ومن هنا لن نجد عناصر الأحداث والأشخاص والحوار مجتمعة في كل قصة قرآنية وموزَّعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفى لاختل التوازن الفني وانهد ركن من أركان البناء القصصي. لأن هذه الأشياء إنما تتطلب في الرواية وفي القصة الطويلة.

نعم قد نجد هذه العناصر مجتمعة وموزَّعة التوزيع الفني في قصة كقصة يوسف عليه السلام ولكن ذلك لم يكن الكثير الغالب لأن القرآن كان يجري في قصصه على أساس الأقصوصة لا القصة الطويلة.

وتوزيع العناصر في القصة القرآنية كان يتطور بتطوُّر الدعوة الإسلامية ويجري معها في مضمار ومن هنا كنا نرى عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار. وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز في الأقاصيص التي

يقصد منها إلى الإفاضة والإيحاء أو إلى تثبيت قلب النبي عليه السلام ومَن اتَّبعه من المؤمنين. وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكذا.

وتطوُّر الفن القصصي في القرآن له فصل خاص به هو الفصل التالي وهناك سنرى هذه المسائل مشروحة بتفصيل ولكنا في هذا الموقف نريد أن نختار أقاصيص قرآنية تدور حول شخص واحد لنرى منها كيف كانت عملية توزيع العناصر في القصة تتبع الدعوة الإسلامية في تقدُّمها وترقِّيها.

والقصص التي وقع عليها الإختيار هي قصة صالح أو ثمود فلنقرأ منها سوياً هذه الأقاصيص: قال تعالى **﴿كذبت ثمود بطغواها ● إذ انبعث أشقاها ● فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ● فكذَّبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ● ولا يخاف عقباها﴾**[1]. وقال **﴿كذبت ثمود بالنذر ● فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ● أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ● سيعلمون غداً مَن الكذاب الأشر ● إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ● ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ● فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ● فكيف كان عذابي ونذر ● إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مَدَّكر﴾**[2].

ففي هاتين القصتين الواردتين في سورتي الشمس والقمر، وهما من أوائل ما نزل من القصص حول ثمود وصالح، نرى أن العنصر القصصي البارز هنا هو تصوير الأحداث، ذلك لأن القصد من القصة تخويف المكذِّبين. وليس أبلغ من تصوير الأحداث التي تلم بالأمم والمصائب التي تنزل بالجماعات، من بث الرعب وإشاعة الخوف ليعدل الإنسان عن موقفه ويترك العناد والتكذيب، ومن هنا برز عنصر الأحداث واختفى ما عداه، واختير لأنه الملائم لحال النبي أول عهده بالدعوة وإعلانه أنه رسول رب العالمين.

وإذا ما انتقلنا خطوة إلى الأمام وقرأنا قصص الأعراف والشعراء.

---

(١) سورة الشمس، الآيات ١١-١٥.

(٢) سورة القمر، الآيات ٢٣-٣٢.

الأولى ـ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ● واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ● قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ● قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ● فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ● فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ● فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾[١].

والثانية ـ ﴿كذبت ثمود المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله واطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين● أتتركون في ما ها هنا آمنين ● في جنات وعيون ● وزروع ونخل طلعها هضيم ● وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● ولا تطيعوا أمر المسرفين ● الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا إنما أنت من المسحرين ● ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ● قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ● ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ● فعقروها فأصبحوا نادمين ● فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[٢]. لحظنا تطوُّراً في فن البناء فنلحظ تعدُّد الشخصية. فهنا صالح وثمود وهناك ثمود فقط، ونلحظ الحوار بين النبي وقومه حيناً، وبين بعضهم وبعضهم الآخر أحياناً، ونلحظ ﴿المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وهم الذين يصدّون الناس عن الإيمان: ونلحظ إلى جانبهم الأحداث وتحدّيهم للنبي بطلب البينات.

نلحظ إذاً تعدُّد العناصر وإن ظل بعضها مهملاً كصور الأشخاص. ونلحظ أن

(١) سورة الأعراف، الآيات ٧٣-٧٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٤١-١٥٩.

العنصر الجديد القوي هو عنصر الحوار. ونلحظ أن موضوع هذا الحوار هو الأمور التي كانت تشغل الذهن العربي وقت إرسال محمد عليه السلام ونزول القرآن الكريم كما نلحظ أن الحالة الموصوفة من فرقة وانقسام وصد الناس عن سبيل الله أو إتباع النبي إنما هي بعينها التي كانت تعانيها الجزيرة العربية في ذلك الوقت بالذات.

وإذا ما انتقلنا إلى قصة النمل وهي: **﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ● قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ● قالوا اطيرنا بك وبمَن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ● وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ● ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ● فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين ● فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ● وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[1] تبيَّن لنا إلى أي حد كان القصص يجاري الدعوة الإسلامية ويتغذى بلبانها، إذ نلحظ هنا عنصراً جديداً هو عنصر الغرائز والعواطف وعنصر القضاء والقدر فقد بلغ الضيق حدَّه بعد إذ تجاوزت الخصومة منتهاها وتطيَّر القوم برسولهم إذ أصبح نذير فرقة وإنقسام وكذب القوم الرسول وتحدّوه، فلم تأتهم البيّنة ولم ينزل بهم العذاب وإذاً فليس هناك سوى طريق واحدة هي طريق الإغتيال، ومن هنا كانت المؤامرة التي يراد بها القضاء على الرسول وكان المتآمرون **﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾**. وهنا يتدخل القدر فينجو النبي عليه السلام ويحل بقومه العذاب.

وهكذا نستطيع المضي في التدليل على الصلة بين الأثر الفني والبيئة أو بين الدعوة الإسلامية وقصص القرآن، وأن توزيع العناصر كان يتبع هذه الظروف في كل قصة. ولكنا نكتفي بهذا القدر ونبدأ فنستعرض العناصر في القصص القرآني كله ونترك الحديث عن توزيعها في القصة الواحدة إلى تحليلنا لقصة يوسف في فصل تطوُّر القصة في القرآن.

ونبدأ فنعترف بأنا سنهمل الحديث عن الموضوعات من أفكار وآراء. فقد سبق أن

(١) سورة النمل، الآيات ٤٥-٥٣.

تحدَّثنا عن كل هذا في حديثنا عن القيّم في الباب الأول من هذا البحث، ولذا نبدأ بالحديث عن الأشخاص.

أولاً ـ الأشخاص

ولن نقصد هنا بالشخصيات الأناسي من عباد الله فنقصر الحديث عليهم، ذلك لأنا إنما نقصد إلى كل شخصية وقعت منها أحداث وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دوراً إيجابياً في القصة وعلى هذا فسيكون من الشخصيات في القصص القرآني الملائكة والجن، وسيكون منها الطيور والحشرات ثم الأناسي من رجال ونساء.

١ ـ الطيور الحشرات:

ونبدأ هنا بالحديث عنها، ونلحظها في قصة واحدة هي قصة سليمان من سورة النمل، فنرى الهدهد ونرى النملة ونلحظ أنهما يقومان بما يقوم به الشخص العادي في القصة.

أما النملة فتحذِّر أخواتها وتخيفهم من أن ينالهم الشر أو يصيبهم الأذى ولذا تطلب إليهم **﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ● فتبسَّم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾**[1].

وأما الهدهد فيقف من سليمان موقف المطلع الذي يعرف من أخبار الممالك الأخرى ما يجهل النبي والذي يعرف من أمر الملكة وقومها ما عُدَّ بالأمر الغريب لدى سليمان، حتى ليعتذر عن تخلُّفه أو غيابه بقوله **﴿أحطت بما لم تحط به﴾** وإليك المنظر من القصة: قال الله تعالى: **﴿وتفقَّد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ● لأعذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ● فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ● إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ● وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم**

(١) سورة النمل، الآيتان ١٨-١٩.

فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ● ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ● الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ● قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ● إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ● قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليَّ كتاب كريم...﴾[1] إلخ.

فالهدهد هنا يقظ متنبّه لكل ما يدور من الملكة وقومها من الناحية الدينية وهو يعجب من عبادتها للشمس وسجودها لها من دون الله ويرى أن الشيطان هو الذي زيَّن لها هذا العمل وصدَّها وقومها عن السبيل، بل يمضي إلى أبعد من هذا فيلفت الذهن إلى الأسباب التي تدفع إلى عبادة الله من إخراجه الخبء ومن علمه بما يخفي الناس وما يعلنون.

وهذا الموقف من الهدهد هو الذي أوقع الرازي وغيره من المفسِّرين في حيرة فقد نالهم العجب من صنع الهدهد الذي يدل على رجاحة عقله ونفاذ بصيرته وفهمه الأمور وفطنته إلى ما لم يفطن إليه سليمان. يقول الرازي في تفسيره للقصة: البحث الأول إن الملحدة طعنت في هذا القصة من وجوه ... وثالثها كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال إن الجن والأنس كانوا في طاعة سليمان وأنه - عليه السلام - كان ملك الدنيا بالكلية... ومن أنه يقال إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام. رابعاً من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكارهم سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه.

ولو أن هؤلاء درسوا المسألة على أساس من الخلق الفني للشخصيات، وأنها ما وُجدت إلا لتؤدي أدوارها في القصة لما وقعوا في تلك الحيرة، ولما كان دفاع وإتهام.

على أن المسألة قد تحتاج، من الجانب الفني، إلى شيء من الإيضاح فنقول نلحظ في القصص الحديث أن بعض الأدوار الرئيسية في القصة تسند إلى الحيوانات ويكون الحيوان في مثل هذا القصص هو الشخصية الرئيسية التي تتوجه نحوها الأنظار وتلتفت إليها القلوب والأسماع. ولعلنا لم ننس بعد شخصية «لاسي» ذلك الكلب الذي يضطلع

(١) سورة النمل، الآيات ٢٠-٢٩.

بالبطولة في قصة «لاسي يعود إلى منزله» وهي بطولة تتجلى فيما يرتسم على وجهه من إنفعالات إنسانية، وفيما يحرّكه من عواطف بشرية، ويتحرك لاسي في القصة كما يتحرك الإنسان النابه الممتاز الذي يملك رقة عواطف البشر ودقة إحساساتهم ويمتاز بما يمتاز به النابهون من ذكاء.

على أن المسألة لا تقتصر على الأدب الحديث، ففي الآداب القديمة ألوان وألوان. ويكفينا من الأدب العربي كتاب «كليلة ودمنة» ففيه المثل الصالحة للدلالة على ما يقوم به الطير والحيوان من عمل، وما ينطقان به من حكم وأمثال.

أعتقد أن السبب فيما وقع فيه هؤلاء المفسّرون من حيرة هو إضطرابهم بين ما يشاهدون ويلمسون، وبين ما يذهب إليه بعضهم من حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات.

٢ ـ الأرواح الخفية: والملائكة ناس من الناس يجيئون في الصورة البشرية ولا يفطن إليهم غيرهم إلا بعد مرحلة من مراحل القصة، كذلك كانوا في قصة إبراهيم ولوط وكذلك كانوا في قصة زكريا ومريم. ونعتقد أن قد كان ذلك في قصة داود عليه السلام.

جاء الملائكة إبراهيم ولوطاً في زي الأضياف وقام كل منهما بما يعتقد أنه الواجب نحو ضيفه. أما إبراهيم فقد قام بواجب الإكرام فقدَّم الطعام. وأما لوط فقد خشيَ المعرة وخاف العاقبة لولا أن هدَّأته الملائكة. وفي كلا الموقفين كان إبراهيم ولوط يجهلان القوم وأنكرهما الأول. وهذه قصة كل منهما مع الملائكة قال الله تعالى ﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ● فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ● وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ● قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ● قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ● فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ● إن إبراهيم لحليم أواه منيب ● يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ● ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم**

عصيب ● وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتّقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ● قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ● قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد● قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ● فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ● مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾[1].

وجاء الملك مريم في زي البشر فاضطربت وخافت واستعاذت بالرحمن ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ● فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً ● قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ● قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ● قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً● قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا﴾[2].

وهكذا يسمع زكريا النداء وهو في المحراب ويدخل الملائكة على داود فيفزع ويقوم الملكان هاروت وماروت بما يقوم به البشر فيعلمان الناس السحر ويقولان لهم ﴿إنما نحن فتنة﴾[3].

وهكذا أيضاً نلحظ أن الملائكة في القصص القرآني لا تأتي بالخوارق ولا تخرج عن حد المعقول في أكثر القصص الذي اضطلعت فيه بدور البطولة، خاصة في مثل ذلك الوقت الذي نزل فيه القرآن والذي كان يمتلىء فيه العالم وخاصة في الجزيرة العربية بجو من الأوهام التي تضفي على الأرواح الخفية من القدرة على الأمور بما يخرج بها عن حد الشخصيات في القصص الواقعي أو المألوف إلى حد آخر ينسجه الخيال فتكون الشخصية خرافيةً أو خيالية.

---

(١) سورة هود، الآيات ٦٩-٨٣.

(٢) سورة مريم، الآيات ١٦-٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٠٢.

وإذا ما تركنا الملائكة إلى الجن وجدنا صوراً مبهمة غامضة لا تتمثل في صورة البشر ولا تأتي في أثواب الرجال. ومن هنا كانوا جديرين بهذا الإطلاق «الأرواح الخفية»: فإنا نلمس حركاتها ونسمع أقوالها ونلاحظ إنفعالاتها وإضطراباتها النفسية فيما نقرأ وما نسمع، ولكنا لا نشاهد صورها الحسية كما هو الحال مع الملائكة.

والجن في ذكرها لآرائها التي تعرضها علينا تتحدث بما يتحدث به العربي في الجزيرة وقت مجيء النبي عليه السلام ونزول القرآن فهي تخاف مما يخاف منه وتطمئن إلى ما إليه يطمئن، وتنصرف عما يريد القرآن للعربي أن ينصرف عنه.

وفي الجن مؤمنون وكافرون كما في العرب، وهم يتجادلون ويتحاورون فيما يتجادل فيه النبي عليه السلام مع قومه أو فيما يتجادل فيه العرب بعضهم مع بعض مما يخص أمور الدعوة الإسلامية.

وسورة الجن تعرض علينا كل هذه الأمور كما يتخيَّلها العربي في حياته إذ ذاك حتى ثواب المؤمنين من النوع البشري نفسه الذي يهم ساكن الصحراء **﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمَن أسلم فأولئك تحروا رشداً ● وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ● وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ● لنفتنهم فيه ومَن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾**[1].

وللجن صور أخرى في قصة سليمان هي الصور التي نجد صداها في الشعر الجاهلي قبل النبي العربي وبخاصة شعر النابغة. والجن هنا ما بين غواص وبناء ومقرن في الأصفاد وصورتهم مبهمة غامضة على كل حال. **﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ● والشياطين كل بناء وغواص ● وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾**[2] **﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه ومَن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ● يعملون له ما**

(١) سورة الجن، الآيات ١٤-١٧.

(٢) سورة ص، الآيات ٣٦-٣٨.

يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ● فلما قضينا عليه الموت ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبيَّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1].

وأظننا نلمس فرقاً بين الصورتين: فالصورة الأولى في سورة الجن أقرب إلى الصورة البشرية فيما تأخذ وما تدع وفيما تقبل وما ترفض من أفكار وآراء وأفعال وأعمال. والصورة الثانية أقرب إلى ما كان يتخيَّله العربي، أو إلى ما كان يسمعه عن الجن والشياطين من حديث.

ولا ننسى هنا إبليس وصوره المعنوية واضحة ومتعددة وموقفه من ربه في قصة الخلق ومن آدم في قصة الخروج من الجنة يطلعاننا على تلك الذهنية الجبارة في الإيقاع بالناس في الشر وحيلتهم في التخلُّص من التبعات كما ترينا الكبر والإستكبار في أعنف موقف وأبرز صورة.

يقول الله تعالى: **﴿ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ● قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ● قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ● قال أنظرني إلى يوم يبعثون ● قال إنك من المنظرين ● قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ● ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ● قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لَمَن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ● ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ● فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ● وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ● فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما**

(١) سورة سبأ، الآيات ١٢-١٤.

سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ● قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ● قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ● قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ● يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ● يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[1]. فإبليس هنا لا يسجد لآدم وهو يحاوره ويداوره وهو يتوعّد الجنس البشري بالإفساد والضلال، وهو يتوجّه أول ما يتوجّه إلى آدم أبي البشر فما يزال به يغريه حتى أكل من الشجرة وخرج من الجنة ولن نجد أبلغ من وصف الرازي في الدلالة على قدرة إبليس وإستعداد آدم في تعليقه على تلك القصة من سورة طه إذ يقول: «واعلم أن واقعة آدم عجيبة

وذلك لأن الله تعالى رغّبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله **﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ● إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ● وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾**[2] ورغّبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله **﴿هل أدلّك على شجرة الخلد﴾**[3]، وفي إنتظام المعيشة بقوله **﴿وملك لا يبلى﴾**[4] فكان الشيء الذي رغّب الله آدم فيه هو الذي رغّبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الإحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم - عليه السلام - مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربّيه وأعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي ومَن تأمّل في هذا الباب طال تعجّبه وعرف آخر الأمر

(١) سورة **الأعراف**، الآيات ١١-٢٧.
(٢) سورة طه، الآيات ١١٧-١١٩.
(٣) نفس السورة، الآية ١٢٠.
(٤) نفس السورة والآية.

أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه وأن الدليل، وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدّره».

وكلام الرازي مستقيم في تصوير موقف آدم من ربه ومن إبليس، وفي تصوير إنتصار إبليس واتباع آدم له، وإن كنا نختلف وإياه في الفقرة الأخيرة. فنحن نريد أن نفهم المسألة على أنها قصة رمزية تصوِّر النزاع بين مَن آمن ومَن استكبر، وكيف يحاول الثاني أن يغلب الأول على أمره فيعده ويمنيه حتى يخرجه عن الطاعة والإيمان وعند ذلك يتخلَّف عنه ويقول له ما قاله الشيطان فيما صوَّره القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾**[1].

ونهاية القصة في القرآن الكريم تدل على ذلك، خاصة بعد أن وجَّه القرآن الخطاب للمعاصرين للنبي عليه السلام.

وعلى كل فشخصية إبليس شخصية جبارة متكبِّرة «يختلف عنفوانها وقسوتها باختلاف القصة التي تجيء فيها والدور الذي تلعبه. وهي ـ كغيرها من الشخصيات ـ تخضع لأثر البيئة والظروف المحيطة والأزمات القائمة بين النبي عليه السلام ومعاصريه».

٣ ـ الرجال: والرجال في القصص القرآني كثيرون منهم رسل وأنبياء كآدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وشعيب ولوط وموسى وزكريا ويحيى وأيوب وغيرهم. ومنهم أفراد عاديون أو ملوك ووزراء كفرعون وهامان وآزر ولقمان والعزيز وابن نوح وإخوة يوسف وأصحابه في السجن. ويشترك هؤلاء جميعاً في أن القرآن لم يقم وزناً لصفاتهم ومميزاتهم الحسية فلا طول ولا عرض ولا لون بشرة ولا ملامح ولا قسمات، من كل تلك الصفات التي تميِّز شخصية عن أخرى والتي يلجأ إليها الباحث ليجعل منها معالم يهتدى بها بين الأجسام والعقول حين يؤثر أحدهما في صاحبه.

نعم نحن لا ننكر أن هناك بعض اللفتات إلى هذا الجانب من مثل قوله تعالى

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

﴿واحلل عقدة من لساني﴾[١] وقوله **﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ● أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾**[٢] ومن حيث دلالتها على لكنة موسى ومن مثل قوله تعالى **﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه مَن يشاء والله واسع عليم﴾**[٣]. من حيث دلالتها على متانة الجسم. لكنها لفتات نادرة، والنادر لا حكم له فيما يقال.

وإذا ما عدونا الصفات الحسية إلى شيء قريب منها وهو الأسماء لاحظنا ما يلي:

(١) يهمل القرآن الأسماء إهمالاً تاماً في القصص الذي يراد به التخويف والذي يبرز فيه عنصر الحوادث ويختفي ما عداه، وذلك كقصص الطور الأول وذلك من أمثال قصص عاد وثمود وقوم شعيب إذ نلحظ إسم الجماعة أو القوم وتختفي شخصية الرسول إختفاء يكاد يكون تاماً، كما تختفي شخصية البطل لو كانت القصة دائرة حول فرد عادي غير نبي أو رسول وذلك من أمثال قوله تعالى **﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة ● فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ● وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ● سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ● فهل ترى لهم من باقية﴾**[٤] وقوله: **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ● ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكّرون﴾**[٥]. وقوله تعالى: **﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها**

---

(١) سورة طه، الآية ٢٧.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان ٥١-٥٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

(٤) سورة الحاقة، الآيات ٤-٨.

(٥) سورة الأعراف، الآيتان ١٧٥-١٧٦.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبيَّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾[1].

ونستطيع أن نذكر حكماً عاماً فنقول: إن القصص الذي يقصد فيه إلى التأثير بالأحداث تبرز فيه الحادثة ويختفي ما عداها ومما يختفي الأسماء وصور الأشخاص.

(٢) في القصص الذي يبرز فيه عنصر الحوار، والذي يقصد فيه القرآن إلى بث الآراء والأفكار وتقرير الدعوة الإسلامية، ثم هدم العقائد الباطلة ومحو أثرها من النفوس، يسلك القرآن طريقين: فهو حيناً يهمل الأسماء إهمالاً تاماً ويكتفي ببعض الصفات المبهمة أو العامة، وذلك من مثل قوله تعالى: **﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون● إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذَّبوهما فعزَّزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ● قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ● قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ● وما علينا إلا البلاغ المبين ● قالوا إنا تطيَّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ● قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ● وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ● اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ● ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ● أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ● إني إذاً لفي ضلال مبين ● إني آمنت بربكم فاسمعون ● قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ● بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ● وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ● إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ● يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾**[2] وقوله: **﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ● فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ● وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما**

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٢) سورة يس، الآيات ١٣-٣٠.

تشربون ● ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ● أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ● هيهات هيهات لما توعدون ● إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ● إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين ● ال رب انصرني بما كذبون ● قال عما قليل ليصبحن نادمين ● فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين﴾[1] وقوله: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ● قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ● قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على مَن يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكّل المؤمنون ● وما لنا ألا نتوكّل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون ● وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملّتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ● ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ● واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ● من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ● يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾[2].

وهو حيناً آخر يذكر الأسماء ولكنها في هذا الوضع تشبه الرموز التي جيء بها ليتمكن القارىء أو السامع من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها. ولذا نلحظ في أمثال هذه القصص ذكر القوم أولاً، ثم ذكر الألفاظ العامة المبهمة كلفظ المرسلين. ثم إسم البطل الرسول. وذلك هو الواضح تماماً في قصص سورة الشعراء، فتراه يقول **﴿كذبت عاد المرسلين﴾**[3] وهكذا. ونستطيع أن نكتفي هنا بمثل واحد لأنا نقلنا في الفصول السابقة

(١) سورة المؤمنون، الآيات ٣١-٤١.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات ٩-١٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١٢٣.

كثيراً من قصص هذه السورة. يقول الله تعالى ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ● قال وما علمي بما كانوا يعملون ● إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ● وما أنا بطارد المؤمنين ● إن أنا إلا نذير مبين ● قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ● قال رب إن قومي كذبون ● فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومَن معي من المؤمنين ● فأنجيناه ومَن معه في الفلك المشحون ● ثم أغرقنا بعد الباقين ● إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾[1].

وعلى الجملة فالذي نستطيع قوله في مثل هذا القصص الذي يقصد فيه إلى الآراء والأفكار، والذي يتخذ فيه الحوار وسيلة إلى ذلك، إن عنصر الشخصية فيه يكاد أن يختفي لولا بعض الأسماء وبعض الصفات، وإن العنصر القوي الذي يسير جنباً إلى جنب مع عنصر الحوار إنما هو عنصر الأحداث وإن يكن العنصر الثانوي.

أما في القصص الذي يقصد فيه إلى التنفيس والإفاضة فإن الأمر يتغيّر تماماً لا فيما يتعلق بالأسماء فقط، بل فيما يتعلق بتوزيع العناصر، إذ تبرز الشخصية بروزاً قوياً وإن تفاوت هذا بتفاوت الظروف والأحداث. ونفصل هذا الأمر فنقول، قلنا في تدليلنا على أثر البيئة في إختيار الأشخاص، وذلك عند حديثنا عن مصادر القصص القرآني، إن القرآن كان واقعياً في إختياره لعنصر الأشخاص، وإنه كان يكثر الحديث عن الأنبياء المعروفين ويدير حولهم القصص، وذلك كموسى وإبراهيم، وإنه كان يهمل الآخرين حتى ليكون الحديث أو القصة بضع جمل، وذلك كقصص أيوب ويونس. وقلنا إن القرآن كان يختار من الأحوال ما كان معروفاً، ولكنه حين ينطق الأشخاص ينطقهم بما يتّفق والدعوة الإسلامية. ومن هنا نستطيع أن نقول إن الأحداث التاريخية المعروفة هي التي تميّز إحدى الشخصيات عن الأخرى وإنه كلما كثرت الأحداث تميّزت الشخصية، ووضحت الصورة، وكلما قلت جرى الأمر على العكس، وجاءت الشخصية مبهمة غامضة حتى ليصح أن يقال إنها

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٠٥-١٢٢.

شخصية كل رسول، وإنها شخصية النبي العربي محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نميّز صور موسى وإبراهيم وعيسى من أحداثهم، وموقفهم من أقوامهم، أو مَن أرسلوا إليهم في سهولة ويسر. ونستطيع أن نميّز شخصية نوح وصالح ولوط أحياناً، ولا نستطيع أن نميّزها أحياناً أخرى. والواقع أنه لولا بعض الأحداث المميّزة، كالطوفان والناقة والعجوز، لأصبحت صور هؤلاء مبهمة غامضة.

أما صور هود وشعيب مثلاً، ومحاورتهم الأقوام فهي الصورة العامة التي تصلح لكل رسول كما قلنا، وهي التي تصلح للنبي العربي عليه السلام.

ويجب ألا ننسى في هذا المقام ما سبق أن ذكرناه عن حرية الفنان في حديثنا عن الصلة بين الأدب والتاريخ، إذ قلنا هناك إن هذه الحرية تتسع كلما أوغلنا في القدم، أو اخترنا من الشخصيات ما كان مجهولاً، إذ عند ذلك لا تتعارض الصور الذهنية مع الصور الفنية، فيكون الإيحاء أقوى، والتأثير أشد، وهذا هو الذي نلاحظه بالضبط في تصوير القرآن لشخصيات الرسل والأنبياء فقد كان يعطي لنفسه الحرية التامة حين تكون المعلومات العامة عن الشخصية معدومة أو في حكمها، فيتحدّث عن الأمور التي يقصد إليها في الدعوة الإسلامية. ومن هنا كان يتجاوز الأسماء والصفات الحسية ويجنح إلى الإجمال والإبهام ليؤثّر الأثر المطلوب.

فإذا كانت تصرّفات الأشخاص حيال الأحداث التي تلم بهم تدلّنا على عقليتهم ومزاجهم، كان من المتوقّع أن نرى فروقاً بين هذه الشخصيات على هذا الأساس وهذا هو الذي حدث عند القدماء، فنلحظ أنهم يقولون عن شعيب وموقفه من قومه في تفسيرهم لسورة هود إنه خطيب الأنبياء، ونلحظ شيئاً مثل هذا من حديثهم في أسباب النزول لآية **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾**[1] عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى حين يقولون: أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري قال أخبرنا حاجب بن أحمد قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعشى عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٧.

أبو بكر: يا رسول الله قومك وأصلك استبقهم واستأن بهم لعل الله عزّ وجل يتوب عليهم، وقال عمر: كذّبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم اضرب عليهم ناراً، فقال العباس: قطعت رحمك، فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يجبهم ثم دخل، فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول عبد الله، ثم خرج عليهم فقال: إن الله عزّ وجل ليلينّ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وإن الله عزّ وجل ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم **﴿قال فمَن تبعني فإنه مني ومَن عصاني فإنك غفور رحيم﴾**[1]. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال **﴿إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾**[2]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال **﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾**[3]، ومثلك يا عمر كمثل نوح **﴿وقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾**[4].

إذ نلحظ وصفهم لإبراهيم وعيسى بالرقة والرحمة، ووصفهم لموسى ونوح بالشدة والقسوة، ولكننا لا نريد أن نسلم بكل هذا إذ هي اللمحات التي تلمح سراعاً ثم يتركها الإنسان دون فحص وتدقيق، إذ الواقع أن المشابهة بين تصرّفاتهم وأقوالهم وقعت كثيراً وفي مواطن مختلفة، حتى لقد لحظ الرازي هذه المشابهة بين شخصيتين قويتين وفي أكثر من موطن قال عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾**[5] ما يأتي: أما قوله **﴿أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولانفعاً﴾** فهذا إستدلال على عدم آلهيتها بأنها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر، وهذا يدل على أن الإله لا بد وأن يكون موصوفاً بهذه الصفات وهو كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام **﴿لم تعبد**

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٨.

(٣) سورة يونس، الآية ٨٨.

(٤) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٥) سورة طه، الآية ٨٩.

ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾[1] وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمر لا يعوّل إلا على دلائل إبراهيم عليه السلام. وقال عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿ولما توجّه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾**[2] ما يأتي: أما قوله **﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾** فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام **﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾**[3]، وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاماً في الإستدلال والجواب والدعاء والتضرّع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام، وهكذا الخلف الصادق للسلف الصالح صلوات الله عليهم.

ولا نريد أن نعلّل المشابهة بما علّلها به الرازي من أن موسى يعوّل على دلائل جده، وأن تلك سنة السلف الصالح، وإنما نذهب إلى شيء آخر هو أن تلك المشابهة قامت لأن تلك الدلائل التي يرمي إليها القرآن لتقرير الدعوة وهدم الأوثان، وإن الظروف المحيطة بالنبي العربي هي التي كانت السبب في أن ينزل القرآن بمثل هذه الآيات. وسنشرح المسألة بتفصيل عند حديثنا عن القصص القرآني ونفسية النبي العربي إن شاء الله.

ونستطيع أن نقول إن شخصيات الرجال في القصص القرآني تتميز بالأحداث التاريخية المعروفة ولا تتميز بالصفات المعنوية من خلق ومزاج، وإنا لو حاولنا فهم ما يعرض لكل منهم من إنفعالات نفسية وتأثّرات عاطفية فلا بد لنا من فهم الظروف المحيطة بالنبي العربي، والعوامل المؤثّرة في الدعوة الإسلامية إذ هي التي تفصح لنا عن المواقف التي توضح لنا شخصية البطل وتجلّي صورته. وهذا هو الذي يتمشى مع القصد العام لهذا اللون من القصص وهو التنفيس وتخفيف الضغط العاطفي وإنه ليتحقق كل هذا ولا بد وأن تتشابه المواقف وتتماثل الظروف.

وإذا أردنا أن نختار إحدى الشخصيات لندرسها ونوضح صورتها فلن نجد خيراً من شخصية يوسف. ذلك لأنها شخصية فنية واضحة الصورة، بارزة المعالم

---

(١) سورة مريم، الآية ٤٢.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٢٢.

(٣) سورة **الصافات**، الآية ٩٩.

والسمات تصلح أن تكون نموذجاً لرسم الشخصيات وتصويرها على أحسن ما جاءت في القرآن.

ونلقى يوسف أول ما نلقاه فتى صغير السن يجلس إلى أبيه ليقص عليه رؤياه ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾(1)؛ ويسمع الوالد ثم يعلّق بما يشاء؛ ونفهم من التعليق أن يوسف محل حسد إخوته وأنه من أجل هذا سيلقى عنتاً وبلاء.

ونرى يوسف وهو في غياهب الجب، وقد التقطه القوم ونراه وقد بيع، وهو في كل هذا يقف موقفاً سلبياً لا يفصح عن عقليته أو عن خلقه ومزاجه. وإن كنا نحس أن الحظ قد التفت إلى ذلك البدوي وأنه في منزل سيد يريد أن يتخذه ولداً وأن عين الإله قد رعته فمكّنت له في الأرض وعلّمته من تأويل الأحاديث.

ثم نلحظ يوسف وقد بلغ أشده وأوتيَ العلم والحكمة وبدأ يتصرف التصرُف الذي يدلنا على الخلق والمزاج.

ويوسف - قبل كل شيء - فتى تغيرت بيئته الإجتماعية فنزل الحضر بعد إذ كان بادياً، ونزل في بيت تظهر فيه النعمة والثراء، نزل في بيت العزيز، وهو من البيوت المرموقة من القوم في ذلك الزمان. وحمل يوسف معه من البادية أخلاق البداة وصفات الرعاة. ولاحظ يوسف - من غير شك - الفروق القائمة بين بيئته الأولى تلك وأحدث له هذا - من غير شك - شيئاً من الإضطراب.

ونلحظ من مقام يوسف في بيت العزيز شيئاً من الصلة بين السادة والأتباع فالعزيز يوصي به خيراً، ويتوقع أن تكون منزلته بينهم منزلة الأبناء من الآباء.

ويوسف فتى مليح الوجه، حلو القسمات، جميل الصورة إلى حد الفتنة والإغراء. تقع في حبه أولاً امرأة العزيز ثم بعدها جمع من كريمات النساء.

ويوسف فتى فاضل، يعرف للبيت حرمته ويحرص على الوفاء لسيده. تراوده التي

---

(1) سورة يوسف، الآية ٤.

هو في بيتها عن نفسه فتتنازعه العواطف، ولكنه يكبت غرائزه ويميت شهواته لينتصر ما في قلبه من حب للخير وصدق في العهد وإيمان بحق البيت وحرمته. ويتكرر الموقف ويحس الفتى بما في نفسه من نزعات بشرية ويخيَّر فيختار. يخيَّر بين السجن أو التورُّط في الإثم فيقول ﴿رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه﴾[1] وإلا كانت الصبوة وكان الجهل والهلاك.

ويوسف رجل متدين، قد أوتيَ العلم والحكمة وتفسير الأحلام، ثم هو رجل محظوظ يدخل السجن فيدخل معه من القصر فتيان، ويطلبان إليه تفسير الرؤى ويحاول أن يفيدهم فيعقد بينه وبينهم عواطف الإلف والمحبة ويدعوهم إلى عبادة الواحد الديان، ويطلب إلى واحد منهم ، بعد تفسيره الرؤيا ، أن يذكره عند ربه ولكن الزمن قد مضى دون ذكر أو إنتباه. ويرى الملك رؤياه، ويسعف الحظ يوسف فتتحول نحوه الأبصار والأسماع، ويحرص يوسف على إزالة ما علق بسمعته من أدران وأقذار، وتعاد المسألة مرة ثانية بين يدي الحاكم، وهو في هذه المرة رب البلاد وينتصر يوسف ويعرفه الملك فيختاره لنفسه، ويطلب منه يوسف أن يجعله على خزائن البلاد، ويستجيب الملك ويتصرف في خزائن الأرض فينقذ البلاد وما جاورها من بلاء وأي بلاء.

ويوسف رجل حريص نهاز للفرص يحضر إليه إخوته فيعرفهم ويذكر ما كان بينهم وبينه من كيد ومكر، ويحاول أن يحتال عليهم ويسعفه من طبعه الفطنة فيطلب إليهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، وبعدئذٍ يتحقق القصد حيث يكيد لهم بأن يجعل السقاية في رحل أخيه، ويبدأ بأوعيتهم قبل وعائه، ويرى القوم الواقعة، ولا يفطنون إلى الحيلة فيذكرون ما كان بينهم وبين أبيهم من عهد وحرص على الوفاء، وينتهي الأمر إلى المصارحة وإلى إستحضار أبويه وأهله من بادية الشام.

ويستقبل يوسف أباه بما في نفسه من عواطف البر والحنان وعواطف التقى والإيمان ويرفع يوسف أبويه على العرش ويتوجه إلى ربه بالدعاء والإبتهال.

(١) سورة يوسف، الآية ٣٣.

وأخيراً فإن شخصية يوسف تمثل شخصية كثيرين من الإسرائيليين الذين يتركون أوطانهم وينتقلون إلى غيرها فينبه شأنهم ويعلو صيتهم، وينهضون نهضات إقتصادية تمكّن لهم وتجعلهم أهلاً لما تطلق عليهم من أنهم ملوك المال.

٤ ـ **شخصيات النساء**: وشخصيات النساء في القصص القرآني يجمعها والرجال صفات، ويفرّقها عنهم صفات، وإن كنا نلحظ أن شخصيات النساء أكثر وضوحاً وتعبيراً من شخصيات الرجال.

(١) والأمر الأول الذي يستوي فيه أولئك وهؤلاءِ وهو العدول عن الصفات الحسية والجثمانية، تلك التي تميز فرداً عن فرد، والتي توضح العلاقة بين المنظر الخارجي والصفات القلبية كالقصر والمكر والطول وعرض الأكتاف مع الغفلة والبله وغير ذلك من علاقات.

(٢) وثاني الأمور هو العدول عن التسمية وإن اختلفت العلة هنا عنها هناك. فقد كنا نرى الأمر بالنسبة للرجال عدم الإهتمام بالشخصية كعنصر رئيسي في القصة ونرى العدول عنها إلى غيرها من العناصر كالأحداث والحوار. ولكنا هنا نجد للمسألة تعليلاً آخر هو سلطان البيئة والحرص على مراعاة التقاليد المعروفة في البيئة العربية إذ ذاك. والذي يدفعنا إلى هذا التعليل هو ما نلاحظه من أن هذه الشخصيات النسائية قد قصد إليها قصداً لتؤدي أدواراً بعينها في القصة، ولم يجىء بها لتكون رموزاً أو كالرمز لتجري على لسانها الأفكار والآراء.

قصد القرآن إلى هذه الشخصيات كما هو الواضح من قصصه لكن البيئة كانت تحرص على تقليدين: الأول أن تكون المرأة تابعة للرجل. والثاني ألا يذكر إسمها عارياً حين تتناول بالحديث في أي موقف وبين قوم كلهم من الرجال.

ويتضح الأمر الأول من موقف القرآن من حواء، فهو لم يذكر إسمها ولا مرة واحدة وهو الأمر الذي قد يدعو إلى العجب، خاصة وهي أم البشرية، وأول امرأة في هذه الحياة. ثم هي التي ساعدت على إخراج آدم من الجنة حين أغوته بالأكل من الشجرة كما تقول التوراة.

وعدول القرآن عن التسمية مقصود من غير شك. وعدوله عن أن تكون البطلة في الغواية والإخراج مقصود كذلك من القرآن. فقد صوَّرها تابعة لآدم في كل شيء، تابعة له في النهي عن الأكل من الشجرة، وتابعة له في الأكل وفي الخروج. وتلك التبعية هي التي كان يحرص عليها في البيئة العربية إذ ذاك.

وتتضح المسألة في الأمرين من إستعراضنا لشخصيات النساء الواردة في قصص القرآن. فنلحظ أنه يعبِّر عنها بالمرأة دائماً، وسواء في ذلك المتزوجات وغير المتزوجات. فهي إن كانت متزوجة امرأة فلان، كامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة إبراهيم وامرأة عمران وامرأة العزيز وامرأة فرعون وإن كانت غير متزوجة أطلقت من هذا القيد فملكة سبأ **﴿امرأة تملكهم﴾**[1] وابنتا الشيخ **﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾**[2]. ومرة واحدة يعدل القرآن عن هذه الطريقة إلى التسمية المباشرة وذلك عند حديثه عن مريم ولم يكن ذلك إلا لظروف خاصة قاهرة. فقد كان القوم يعتقدون أن عيسى ابن الله. وكان القرآن يحاول القضاء على تلك العقيدة الباطلة ويثبت مكانها أمراً آخر هو أنه ابن مريم وأنه وُلد من غير أب، وأن مثله في ذلك كمثل آدم عليه السلام. ومن هنا صرَّح القرآن بالإسم عارياً ومن هنا كرَّره وكرَّره على أنه ابن مريم ومعنى ذلك أنه ليس ابن الله.

وفي غير هذين تختلف المرأة عن الرجل في الدور الذي تلعبه وفي الصورة التي يرسمها لها القرآن. تختلف أولاً في أنها لم تأخذ دوراً رئيسياً في أية قصة من قصص القرآن، فأدوار المرأة دائماً أدوار ثانوية حتى مع مريم وحواء.

وتختلف ثانيا في أن المرأة ولو أنها تلعب دوراً ثانوياً في القصة، إلا أنها واضحة الصورة متميزة المعالم، ولكل منها طابعها الخاص.

فتذهب امرأة فرعون مثلاً بما في المرأة من حرص على الأمومة وما يصاحب هذه الأمومة من بر وحنان، ونلحظ ذلك من موقفها من موسى عليه السلام: **﴿وقالت امرأة**

(١) سورة **النمل**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٢٣.

فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾[1].

وتذهب امرأة العزيز بما في المرأة من أنوثة مكتملة، وما يصاحب هذه الأنوثة من محبة للجمال وحرص على الفتنة والإغراء، ونلحظ ذلك من موقفها من يوسف ذلك الموقف الذي صوَّره القرآن **﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ● ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ● واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء مَن أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾**[2] إلخ. وإن يكن إلى جانب هذه الأنوثة المكتملة التي يحوطها المكر والدهاء وسعة الحيلة حرص على أن يكون عندها شيء من عزة النفس والإعتراف بالأخطاء وبيان أن ما وقعت فيه كان من الأمور التي لم يكن لها إلى دفعها قدرة أو سلطان ونلحظ ذلك من سحر الجمال وفتنته حتى لقد خضع له عواذلها من النساء. **﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين ● فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ● قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننَّ وليكوناً من الصاغرين﴾**[3].

كما نلحظه من حرصها على الفضل وإعترافها بما اقترفت من إثم ومحاولتها تبرئة الفتى يوسف بين يدي المليك حين وجّه إليها السؤال **﴿قال ما خطبكن إذ راودتُنَّ يوسف عن نفسه قلن حاشى لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ● ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد**

(1) سورة القصص، الآية ٩.

(2) سورة يوسف: الآيات ٢٣-٢٥.

(3) نفس السورة، الآية ٣٠.

الخائنين ● وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾[١].

وتذهب ابنتا الشيخ بما في الأنثى من محبة للفتوة وإعجاب بها وبما فيها من خفر وحياء ونلحظ أن هذا الحياء يدفعهن إلى الحيلة فيحتلن على أبيهن وعلى الفتى موسى حتى أقام بينهن وتزوج إحداهن ثم رحل بها إلى حيث أراد الله. ويصوّر القرآن في هذه الآيات **﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم إمرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ● فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ● فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ● قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير مَن استأجرت القوي الأمين ● قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ● قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾**[٢].

وتذهب مريم بما في المرأة من حرص على الشرف والعفاف، فهي تخشى الفضيحة والعار وتخاف من رسول ربها حين يتمثل لها بشراً فتستعيذه بالله إن كان تقياً وهي لا تفهم مطلقاً أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ثم هي ليست بالبغي التي قد يدور بخلدها شيء من ذلك **﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ● فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ● قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ● قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ● قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ● قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ● فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ● فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت**

---

(١) سورة يوسف، الآيات ٥١-٥٣.

(٢) سورة القصص، الآيات ٢٣-٢٨.

يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا﴾[1].

وتذهب ملكة سبأ بما في المرأة من ضعف مستحب، وما فيها من سعة الحيلة وحسن السياسة، تلين إلى درجة تشبه الضعف، وتستسلم إلى حد يكاد يكون خضوعاً، وهي المالكة لناصية الحال، ترسل الهدية إلى الملك لتكتسب بها يداً عنده، لكنه يرفض ويأبى عليها إلا أن تأتي إليه، فتذهب إلى الملك كالمستسلمة وتعلن أمامه أنها قد ظلمت نفسها ثم تعترف بأنها قد أسلمت معه لله رب العالمين.

ولسنا بحاجة إلى الحديث عن امرأة عمران وعاطفتها الدينية ونذرها ما في بطنها محرراً. ولا إلى الحديث عن إمرأة إبراهيم وعجبها من أن يكون لها ولد وبعلها شيخ وهي عجوز عقيم. ولا إلى الحديث عن موقف كل من امرأة نوح وامرأة لوط، لأن كل هذه لفتات وصور واضحة لا تحتاج إلى وقوف طويل.

وننتهي من الحديث عن الشخصيات في القصص القرآني بقولنا:

(١) إن مذهب القرآن في رسمها وتصويرها كان المذهب غير المباشر وهو الذي يذهب فيه القاص إلى عرض الشخوص في تفكيرهم وأعمالهم وحركاتهم، ويترك لنا نحن التعرّف إليها من طرق تفكيرها ونهج أعمالها وسبحات روحها حتى لكأنها الشخص الذي نعاشره منذ زمن، فعرفنا خلقه ومزاجه وطوايا عقله وخبايا فؤاده.

(٢) إن شخصيات النساء كانت تسيّرها الغرائز والعواطف الأولية. أما شخصيات الرجال، من غير الأنبياء، فكانت تسيّرها المصالح الخاصة والعقائد الباطنية والنزعات النفسية والإهواء. ومن هنا كانوا خليطاً تخضع كل مجموعة منها لمؤثر من هذه المؤثرات. أما شخصيات الرسل فكانت تسيّرها المثل العليا والمبادىء الدينية ومن هنا تشابهت صفاتهم العقلية وحركاتهم الفكرية وجرى على ألسنة الكثيرين منهم عبارات بعينها متحدة الصورة أو متقاربتها، وإن كانوا، بين فترة وأخرى، يخضعون لما يخضع له غيرهم من الجنس البشري فيغضبون ويفرحون ويتناولون الأعداء بالذم ويتوجهون إلى الله بالدعاء عليهم،

(١) سورة مريم، الآيات ١٦-٢٣.

حتى لقد يصل الأمر أحياناً إلى درجة مخالفة المبادىء الدينية أو تعاليم العلي العظيم فآدم عصى ربه ونسيَ فلم نجد له عزماً **﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾**[١] . **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾**[٢].

ويوسف يحتال على إخوته ويجعل السقاية في رحل واحد منهم **﴿فلما جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾**[٣].

وسليمان يحتال لتكشف ملكة سبأ عن ساقيها فيقول **﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ● فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ● وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين● قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾**[٤].

(٣) إن تصوير الشخصيات في القصص القرآني، خاصة في عهده الأول، لم يكن بالأمر الذي يعنى به، ولعل القرآن في هذا اللون يمثل المذهب الفني في رسم الأشخاص عند قاصّي العربية فقد كان القوم يهتمون بالحادثة أكثر من إهتمامهم بالبطل، ويهتمون بالفكرة والرأي أكثر من إهتمامهم بالأشخاص، وهذا هو الواضح تماماً فيما روي عن العرب من قصص. فنجد في العقد الفريد بعض هذه النوادر التي وإن تكن إسلامية إلا أنها قد حافظت، إلى حد ما، على الشكل والصورة في لون من ألوان القصص والنوادر.

(٤) إن القرآن في حديثه عن الأشخاص كان يختار من مواقفهم ما يتفق وأحوال النبي العربي ليثبت نفسه ويسرّي عنها ما ألمّ بها من حزن وألم، كما كان يختار من أحوالهم، أو يجري على ألسنتهم ما يشرح عقائد الدعوة الإسلامية ويؤيّد مبادئها. ومن هنا

---

(١) سورة طه، الآية ١٢١.

(٢) نفس السورة، الآية ١١٥.

(٣) سورة يوسف، الآية ٧٠.

(٤) سورة النمل، الآيات ٤١-٤٤.

كانت شخصية النبي عليه السلام هي الأساس أو العامل الأول في الإختيار، ومن هنا أيضاً تقاربت الصورة واتّحدت في كثير من الأجزاء. وهذا يلقي في الروع أن شخصية النبي العربي قد وضحت في هذا القصص أكثر من صورة غيره من الرسل والأنبياء، وذلك هو الذي سنشرحه بتفصيل عند حديثنا عن القصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام.

ثانياً ـ الحوادث

والصلة بين الحوادث والشخصيات في القصة أقوى من أن يدلل عليها أو يلفت الذهن إليها، ذلك لأنهما العنصران الرئيسيان في كل قصة، ثم نحن لا نستطيع أن نتصور شخصاً من غير أحداث تلم به أو تقع عليه. نعم نحن لا ننكر أن القصة في القرآن لقصرها قد تجعل العنصر البارز في تكوينها عنصر الحوادث، وقد تبهم عنصر الأشخاص وتجعله عاماً غامضاً لكن ذلك لا يدفع إلى التسليم بخلو القصة من هذا العنصر مهما يبرز العنصر الآخر ويقف وحده في الميدان.

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة فهناك:

أولاً ـ ذلك النوع من الأحداث الذي يكون نتيجة تدخُّل عنصر القضاء والقدر في القصة، فقد يجيء الرسول فيكذبه القوم ويطلبون إليه أن يأتي بالآيات البيّنات التي تدل على صدق دعوته وصحة رسالته، وتأتيهم الآيات، لكنهم ينصرفون عنها ويظلون عند موقفهم الأول من الكفر والعناد. وقد يصل الأمر أحياناً إلى الحجاج في طلب الآيات والمعجزات، فتتعقد الأمور ويشق على الرسول ما وصل إليه الأمر خاصة إذا كان نصيبه منهم التهديد بالقتل والإغتيال إذ عند ذلك يتقدم الإله الذي تفضل عليه بالإختيار وعلى قومه بإرساله إليهم هادياً وبشيراً، فينزل عليهم غضبه ويصب عليهم نقمته جزاء ما قدمت أيديهم من مكر وكيد. وذلك من أمثال ما تصوّره هذه القصة **﴿كذبت ثمود المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ● أتتركون في ما ها هنا آمنين ● في جنات وعيون ● وزروع ونخل طلعها هضيم ● وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ● فاتقوا الله وأطيعون ● ولا تطيعوا أمر المسرفين ● الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا إنما**

أنت من المسحرين ● ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ● قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ● ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ● فعقروها فأصبحوا نادمين ● فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾(١).

وثانياً ـ ذلك النوع من الأحداث الذي يعتبر من الخوارق أو المعجزات وهي الأمور التي يجريها الله على أيدي الرسل أو يحدثها في الكون إستجابة لدعوة أحدهم حين التحدي وطلب البيّنة وذلك من أمثال الأمور الواردة في هذه القصة **﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ● وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ● إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ● قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ● قال عيسى بن مريم أللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ● قال الله إني منزلها عليكم فمَن يكفر بعد منكم فإني أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين﴾**(٢).

وإيراد هذين النوعين في غير القصص القرآني أو القصص الديني يخرج به عن واقعيته ومألوفه ويجعله قصصاً خيالياً، لكنه هنا يبقى على ما هو عليه من واقعي ومألوف، ذلك لأن القوم كانوا يعتقدون بكل هذا فيطلبون المعجزات للتصديق ويؤمنون بغضب الآلهة حين المخالفة. ومن هنا كانوا يتحدون الأنبياء حين لا يطمئنون إليهم وحين يرونهم غير أهل للتصديق وذلك هو الواضح من قول قوم شعيب له **﴿قالوا إنما أنت من المسحرين**

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٤١-١٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآيات ١١٠-١١٥.

● وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ● فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ● قال ربي أعلم بما تعملون ● فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾[1] ومن قول قوم محمد عليه السلام **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾**[2].

وموقف القرآن من هذين النوعين موقف يدعو إلى الإعجاب، فقد وقف عند الأحداث المعروفة للرسل والأقوام، وكان في هذا الصنيع منه كسب عظيم للحياة العقلية والفكرية في ذلك الزمان وما تلاه، فقد كان القوم يربطون بين تلك الأمور وبين كل دعوة يقصد منها إلى الرقي الفكري والتقدُّم الإجتماعي حتى لكأن كل رسول في عرفهم من الأحداث من خارق أو إنزال عذاب، وكان هذا الربط قليل النفع، عديم الجدوى من حيث الإقناع والإلزام، وإلى هذا قصد القرآن الكريم حين قال **﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾**[3] ولقد كان الأمر يحتاج إلى شيء من المهارة في سوق الجماعة نحو هذا الرأي في ذلك الوقت الذي كان يمتلىء فيه العالم العربي بجو من الخرافات والأوهام ولذا عمد القرآن إلى الوقوف من هذه الأحداث عند هذا الحد أو اكتفى بالإعتماد على الواقع النفسي، ولم يعمد إلى الخلق الفني أو إلى الإختراع والإبتكار، وفصل بين الأمرين فلم يجعل الرسالة متوقفة على المعجزات **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾**[4].

وصرّح بأنه قد منع هذه البيّنات حتى لا يكون تكذيب فعذاب **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل**

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٨٥-١٨٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١١١.

(٤) سورة الرعد، الآية ٧.

بالآيات إلا تخويفا﴾[١].

غير أنّا مع إعجابنا منه بهذا الموقف من هذه الوجهة نلحظ أنه قد حدَّد الحرية وجعل العمل الفني محصوراً في رسم الحادثة وعرض الصورة وهذا بدوره مع إعتماد القرآن على التكرار كوسيلة من وسائل الإقناع دفع إلى شيئين:

(أ) إنطاق الأشخاص المختلفين بعبارات واحدة نحو قوله **﴿إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾**[٢] وقول صالح **﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتّقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾**[٣].

(ب) التفنُّن في العرض والتنويع في الرسم، فيصوِّر الحادثة الواحدة بصور مختلفة ويعبِّر عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة. وكل تلك الظواهر لحظها القدماء وإن لم يوفَّقوا في تعليلها، وقد سبق لنا أن ذكرنا أشياء عنها في حديثنا عن المعاني التاريخية.

ثالثاً ـ أما النوع الثالث والأخير، فهو تلك الأحداث العادية أو المألوفة التي وقعت للأبطال رسلاً كانوا أم غير رسل باعتبارهم أفراداً من الناس يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق والقصص القرآني مليء بهذا النوع من الأحداث، ولعل خير ما يمثّله قصة يوسف عليه السلام.

وهذا النوع لم يقف فيه القرآن عند حد رسم الحادثة وعرض صورتها بل جاوز ذلك إلى عملية الخلق الفني الأدبي. وقد أشرنا إلى شيء من ذلك عند حديثنا عن القصة التمثيلية ويكفي هنا أن نلفت الذهن إلى أمور أخرى من مثل حديث الهدهد والنملة ومن الإلتفات الواقع في ثنايا القصص القرآني نحو أمور لم تقع بعد كالحديث بين عيسى

(١) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٢٤-١٢٧.

(٣) نفس السورة، الآيات ١٤٢-١٤٥.

وخالقه، والحديث بين المستضعفين والمستكبرين مما صوِّر على أنه سيحدث في الآخرة إن شاء الله.

ونتتقل الآن إلى أمر آخر غير طبيعة الأحداث هو الربط بينها أو تسلسلها ولن نعيد هنا مرة ثانية الحديث عن قيد وعدم إهتمام القرآن به بعد أن وضَّحنا القصد القرآني عند حديثنا عن القيَم التاريخية، وبعد إذ وضعنا قصة لوط بين يدي القارىء لتدل على أن الزمان لم يجعل محوراً ترتبط به الأحداث، وإنما سنمضي إلى شيء آخر هو أن القصة القصيرة قد يهتم فيها بالحادثة من حيث تصويرها لتحدث أثرها في النفس وتستثير من الناس الإنفعال وذلك هو الواضح من هذه القصة **﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة ● فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ● وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ● سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾**(1).

وقد تتابع الأحداث على هذا النسق فتجري سراعاً لتستثير الإنفعال وتؤثر الأثر المطلوب من إلفة أو نفور وذلك من مثل قوله تعالى **﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ● فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصباً ومنهم مَن أخذته الصيحة ومنهم مَن خسفنا به الأرض ومنهم مَن أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**(2) وليس معنى هذا أن الأحداث لا ترتبط أصلاً برباط الزمن وإنما معناه أن تسلسل الأحداث في القصة يخضع للغرض أو القصد الذي من أجله نزلت القصة، فإن كان التخويف فإنه يقصد إلى الحادثة من حيث هي ويصوِّرها لتلقي الرعب في القلوب وتبث الخشية في النفوس.

أما إذا كان تخفيف الضغط العاطفي أو تثبيت قلب النبي جعل المحور الذي تدور حوله الأحداث هو الشخص نفسه، وتصوُّر الحادثة علىأنها الحادثة التي وقعت له فلم تضعف نفسه ولم توهن عزمه، وإنما مضى حتى كان النصر من عند الله وقصة إبراهيم، إلى جانب قصة لوط السابقة، تمثل لنا هذا النوع من تسلسل الأحداث. قال الله تعالى **﴿ولقد**

---

(1) سورة الحاقة، الآيات ٤-٧.

(2) سورة العنكبوت، الآيتان ٣٩-٤٠.

جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ● فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ● وامرأته قائمة فضحكت فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ● قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ● قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ● فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ● إن إبراهيم لحليم أواه منيب ● يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾[1].

وقال تعالى ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ● إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ● فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ● فقرَّبه إليهم قال ألا تأكلون ● فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشَّروه بغلام عليم ● فأقبلت امرأته في صرة فصكَّت وجهها وقالت عجوز عقيم ● قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ● قال فما خطبكم أيها المرسلون ● قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ● لنرسل عليهم حجارة من طين ● مسوَّمة عند ربك للمسرفين ● فأخرجنا مَن كان فيها من المؤمنين ● فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين● وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾[2].

وقد لاحظ الرازي الفروق بين القصتين من جوانب كثيرة وذلك عند تفسيره لقصة الذاريات وكان مما قال: المسألة الرابعة قال في سورة هود فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا ﴿قال سلام قوم منكرون﴾ ثم قال تعالى ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ● فقرَّبه إليهم﴾ بعد حصول الإنكار لهم... لكن الحال في سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره ههنا فإن ههنا لم يبيِّن المبشَّر به وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق ولم يقل ههنا إن القوم قوم من وهناك قالوا قوم لوط وفي الجملة مَن يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط فذكر فيها النكتة الزائدة ولم يذكرها هنا... فإن قيل لمَ قال ههنا ﴿الحكيم العليم﴾ وقال في

(١) سورة هود، الآيات ٦٩-٧٦.

(٢) سورة الذاريات، الآيات ٢٦-٣٧.

هود ﴿حميد مجيد﴾ نقول لما بينّا أن الحكاية هناك أبسط...

هذه الحكاية بعينها هي المحكية في هود وهناك قالوا ﴿إنا أرسلنا﴾ بعد ما زال عنه الروع وبشّروه وهنا قالوا ﴿إنا أرسلنا﴾ بعد ما سألهم عن الخطب وأيضاً قالوا هناك ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ وقالوا ههنا ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ والحكاية عن قولهم فإن لو يقولوا ذلك ورد السؤال أيضاً.

والأمر هنا ـ كما ترى ـ واضح كل الوضوح من أن الأحداث لم ترتّب ترتيباً واحداً ولم يجعل الزمن هو المحور الذي تدور حوله ولم تصوّر الأحداث بصورة واحدة وأنطق الملائكة بألفاظ مختلفة وعبارات متفاوتة في الحادثة الواحدة والمنظر الواحد.

والمسألة عندي ترجع إلى القصد الذي من أجله بنيت القصة ففي هود كان القصد التسرية عن نفس محمد صلّى الله عليه وسلّم وتخفيف الضغط العاطفي ومن هنا عني القرآن بالتفضّل على إبراهيم بأمور وساق القصة هذا المساق فكان الحديث عن البشرى وذكر اسمه، وكان الحديث عن قوم لوط لا المجرمين وكان الحديث عن الحميد المجيد.

وفي الذاريات بنيت القصة للتخويف وهنا كان الإنكار سريعاً، ومن هنا وصف قوم لوط بالمجرمين، ومن هنا أسرع إلى الحديث عن قوم لوط لينزل بهم العذاب.

وهنا يجب ألا ننسى أن القرآن قد يعمد إلى التنويع أحياناً حتى لا يمل القارىء أو السامع من التكرار.

كان محور الربط إذاً هو القصد الذي من أجله بنيت القصة وكانت الحبكة الفنية قائمة على أن هذا التسلسل يوصل إلى هذه النتيجة أو تلك وكان إختلاف التسلسل قائماً على هذا الأساس.

وننتقل الآن إلى أسلوب القرآن الكريم في رسم الصورة أو عرض الحادثة. ونلحظ أن القرآن لم يسلك طريقة واحدة وإنما نوّع في قصصه ونلحظ من تنويعه هذه الظاهرات.

(١) كان القرآن يعتمد أحياناً على الألفاظ الفخمة الضخمة ذات الرنين القوي التي تؤثر بمبناها ومعناها، كما تؤثر بموسيقاها. وكان يعمد أحياناً إلى الجمل المسجوعة القصيرة الفقرات ليزيد من قوة الرنين فتملأ موسيقى الألفاظ الأذن نغماً والقلب خشية

ورهبة أو غبطة وسروراً. وذلك من أمثال هذه القصص **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ● فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ● ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ● وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ● وحملناه على ذات ألواح ودسر ● تجري بأعيننا جزاء لِمَن كان كفر ● ولقد تركناها آية فهل من مدكر ● فكيف كان عذابي ونذر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ● كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ● إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ● تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ● فكيف كان عذابي ونذر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾**[1].

(٢) وكان يعتمد أحياناً أخرى على تتابع الأحداث تتابعاً سريعاً لتؤثر في النفس وتهز الفؤاد وذلك من أمثال قوله تعالى **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾**[2] ولعل هذا هو الذي دعا أيضاً إلى أن يجمع ألواناً من القصص في سورة واحدة وذلك من أمثال قصص الأعراف وهود والشعراء والقمر.

(٣) وكان أحياناً أخرى وهو الغالب يعتمد على الألفاظ السهلة اللينة التي تصدر عنه كما تصدر الألفاظ في الأحاديث العادية. يقص وكأنه يخاطب القوم بلغتهم العادية ويتحدث إليهم أحاديثهم المألوفة ويلاحظ في مثل هذا اللون أن حركة الأسلوب كانت تتمشى مع حركة العاطفة ولعل خير ما يمثل هذه الخاصية هذا الجزء من قصص موسى **﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ● فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ● فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ● قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير مَن استأجرت القوي الأمين ● قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن**

---

(١) سورة القمر، الآيات ٩-٢٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ● قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل﴾[1].

فنحن نلحظ في الجزء الأول وهو الخاص بورود موسى ماء مدين إستعمال الفعلين المضارعين **﴿يسقون﴾** و **﴿تذودان﴾** للدلالة على الحركة ولتصوير الأحداث حتى لكأنها حاضرة مشاهدة، وليس ذلك إلا لأنهما الفعلان الدالان في هذا الجزء من الآية على ما سيقع وكأنهما ينبِّهاننا إلى أن هذه الأحداث هي التي تهم موسى ولقد كانت هي التي استثارته فعلاً، فالناس يسقون وهاتان تذودان ولذا تقدَّم إلى الفتاتين قائلاً **﴿ما خطبكما﴾** وأظنك تلحظ معي ما في هذا اللفظ من عنف وجزالة وما فيه من دلالة على تلك الخواطر التي ألمَّت بذهن موسى، وإني لأحسُّ منه الغضب على أولئك الذين يسبقون الفتاتين إلى السقيا.

وتنطق الفتاتان بهذه الجملة التي تدل على ما في الأنثى من ضعف وحياء يدفعانها إلى التخلُّف في مثل هذه المواقف التي يكثر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء بالرجال **﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾** وبهذه الجملة التي تستثير الرحمة وتستمطر الحنان **﴿وأبونا شيخ كبير﴾**. إنها لألفاظ سهلة لينة تداعب رقَّتها الآذان والقلوب وإنها الجمل التي تنطق بها الأنثى والأنثى ليس غير ما في ذلك شك أو جدال.

ويأتي جزء آخر دال على الحركات الخاطفة السريعة التي يأتي بها الإنسان ليصل إلى ما وراءها **﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾** ونلحظ موسى هنا وفي هذا الظل متراخياً منهوك القوى مستسلماً ضارعاً **﴿رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾**. وتمشي الجملة مع هذه الضراعة ويطل الشعور الديني من وراء النداء ومن التصريح بالفقر والحاجة إلى الخير أمام الغني الكبير.

على أن المقام بموسى لن يطول **﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾** ألا ما أعذب هذه الجملة وما أخف وقعها على الأسماع والقلوب، وما أقدرها على تصوير

---

(١) سورة القصص، الآيات ٢٣-٢٨.

الحركة والإنفعال، تمشي وتمشي على إستحياء، ثم ما أجمله من تعبير دال على خير ما في الفتيات من جمال هو جمال الخفر والحياء. جاءته ﴿**قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾، وهل ينتظر موسى حتى يجيب إنه عجل لأنه في حاجة إلى هذا الأجر وهو الغريب الفقير وإذاً فلتطو الإجابة وليطو معها الطريق وليلق موسى الشيخ وليقص عليه القصص وهل يفعل غير هذا الغريب الطريد.

ويفطن الشيخ إلى ما بنفس الفتى المطلوب للثأر فيقف منه موقف الشهم الكريم ويلقي إليه تلك العبارة التي ترد عليه الهدوء والطمأنينة وتشعره بأنه في كنف شجاع كريم. ﴿**لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾. لا تخف هذه ينطق بها الرجل القوي الواثق حين يشمل الناس بعطفه وحنانه، ونجوت هذه التي توحي إلى السامع بإطمئنان النفس وراحة القلب وهدوء الخاطر ومن القوم الظالمين تلك التي تدفع عنه القلق النفسي وتأنيب الضمير.

وتبدأ مرحلة أخرى تصوِّر الإعجاب بالفتى والإحتيال على لقاء الحبيب إذ تتقدم إحداهما إلى أبيها وتطلب إليه أن يستأجره ومَن يستأجر؟ إن خير مَن يستأجر القوي الأمين. وكأن الشيخ قد فطن إلى المراد فأسرع إلى تحقيق رغبة الفتاة وأقدم على الفتى بهذا القول المؤكَّد الذي يقطع على المتردِّد كل سبيل ﴿**إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين...**﴾ ويستجيب الفتى وهو الشريد المقتفى، وهو القاتل المستجير ويجيب بتلك الجملة التي تشعرنا باستسلامه وكأنه الطفل الصغير أمام الشيخ الكبير. ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصالحين**﴾ ويتم الإتفاق ويشهدان الله لأنه على ما يقولان وكيل.

وكان القرآن يعتمد في أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الإنفعالات قوة وضعفاً أو عنفاً وليناً، وذلك من أمثال قوله تعالى: ﴿**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾[١] وقوله: ﴿**فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم**﴾[٢] وقوله:

(١) سورة إبراهيم، الآية ٩.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٢٩.

﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً﴾[1] وقوله: **﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين ● فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾**[2] وقوله: **﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾**[3].

كما كان يستعين أحياناً بالعبارات التصويرية والصيغ الدالة على الإنفعال نحو قوله تعالى: **﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾**[4] وقوله: **﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا﴾**[5] وقوله: **﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ● يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾**[6] وقوله: **﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سمَّيتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾**[7] وقوله: **﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**[8].

وعلى كل فيجب ألا ننسى أن أسلوب القرآن، في الغالب، هو أسلوب التخاطب فقد كان القرآن يلقى على القوم إلقاء، ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحديث والمشافهة خاصة في مبدأ القصة نحو **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم﴾**[9]. **﴿ألم تر إلى**

(١) سورة نوح، الآية ٧.
(٢) سورة يوسف، الآيتان ٣٠-٣١.
(٣) سورة هود، الآية ٧١.
(٤) سورة مريم، الآية ١٨.
(٥) نفس السورة، الآية ٢٣.
(٦) نفس السورة، الآيتان ٤٤-٤٥.
(٧) سورة آل عمران، الآية ٣٦.
(٨) سورة إبراهيم، الآية ٦.
(٩) نفس السورة، الآية ٩.

الذي حاج إبراهيم في ربه﴾[١]. **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾**[٢] إلخ.

ثالثاً ـ الحوار

وليس من الضروري أن يوجد الحوار في كل قصة فقد تخلو منه القصة وتمضي على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة وهذا هو الغالب في القصص القصيرة. ثم هذا هو الأمر الذي مضى عليه القرآن في كثير من قصصه الذي يقصد فيه إلى التخويف، بل مضى القرآن إلى شيء آخر في دعايته للعقائد أو ضدها، فأدار الحوار على أنه الخواطر النفسية التي تلم بالشخص والتي تنقله من طور إلى طور ليتخلص من عقيدة ويدخل في أخرى، وهذا هو الأمر الواضح كل الوضوح في قصة إبراهيم من الأنعام: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ● وكذلك نُرِيَ إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ● فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ● فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ● فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ● إني وجَّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾**[٣].

لكنا، مع كل هذا، نجد كثيراً من القصص القرآني كان الحوار فيه عنصراً مهماً إن لم يكن العنصر البارز. وهو موجود على كل حال في كل قصة تعددت شخصياتها وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى في طه وقصة آدم في الأعراف ثم في مجموعات قصص سورتي هود والشعراء وفي قصة إبراهيم في سورة مريم وفي غيرها من القصص الذي يراد به التثبيت أو شرح مبادىء الدعوة الإسلامية. ونستطيع أن نضرب مثلاً لذلك

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٥.

(٣) سورة الأنعام، الآيات ٧٤-٧٩.

هذا الجزء من قصة موسى في سورة طه ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ● اذهبا إلى فرعون إنه طغى ● فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ● قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ● قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ● فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على مَن اتَّبع الهدى ● إنا قد أُوحيَ إلينا أن العذاب على مَن كذب وتولى ● قال فمن ربكما يا موسى ● قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ● قال فما بال القرون الأولى● قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ● الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ● كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ● منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ● ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ● قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ● فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ● قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ● فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ● قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب مَن افترى ● فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى...﴾[1] إلخ.

وموضوعات الحوار في القصص القرآني هي الموضوعات الدينية في الغالبْ وهي الموضوعات التي بسببها قام بين النبي عليه السلام وقومه جدل عنيف وتلك من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة وإحداث الأمور الخارقة أو المعجزات للدلالة على النبوة وغيرها. وقد سبق أن صوَّرنا كثيراً من هذه الموضوعات في الفصول الأولى عند حديثنا عن القيَم الدينية والإجتماعية فلا داعي لذكرها هنا.

وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية، فيحكي القرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله قال أو قالا أو قالوا.

هذا التصدير يلفت ذهننا إلى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين، فقد يكون بين كثرة. وكل هذه الأمور ملحوظة في

---

(١) سورة طه، الآيات ٤٢-٦٢.

القصص القرآني، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين إبليس وآدم وبين إبراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون. ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر، كما هو الواضح في قصة موسى السابقة، فقد كان موسى وهارون الركن الثاني من أطراف المحاورة. وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع في أكثر القصص القرآني بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ● أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ● فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ● قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ● ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ● ويا قوم مَن ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ● ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين ● قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ● قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ● ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون**﴾[1].

والقضايا التي يعتمد عليها القرآن في حواره ترجع في الغالب إلى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والألم أو المنفعة والمضرة وأنهما بيد الإله المتفضِّل يمن بهما على عباده كل وما يستحق.

والأسلوب الأدبي في الحوار يخضع خضوعاً يكاد يكون تاماً لسمات الأسلوب القرآني كله ولذا نلحظ فيه هذه السمات:

(١) إن لغة الأسلوب تختلف بإختلاف الموضوعات والطور الذي نزلت فيه، ومعنى ذلك أنه أسلوب فني يجري في كل قصة من القصص على وتيرة واحدة، ومعنى

(١) سورة هود، الآيات ٢٥-٣٤.

ذلك أيضاً أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر ما يساير نفسية محمد عليه السلام ونفسية معاصريه، ومن هنا خضع أسلوب القصص لتلك المميِّزات العامة المعروفة عن أسلوب القرآن في عهديه المكي والمدني.

(٢) يلاحظ أنه في القصص الذي نزل أولاً، كان يعتمد على الرنين الصوتي للألفاظ، يعاونه في ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة، وذلك لأن عاطفة النبي عليه السلام كانت في ذلك الطور قوية جياشة مندفعة، ومن هنا كانت الإنتقالات الفجائية السريعة التي تظهر في القصة الواحدة، والتي تظهر في مجموعة القصص الواردة في سورة واحدة، ولذا كان القصص قصيراً جداً في هذه الفترة، ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر.

(٣) يلاحظ في القصص الذي يوضح العقائد الجديدة، ويحاول أن يهدم القديمة أن السخرية بالأفكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فني، وهي سخرية مرة نافذة، إذ تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة أمام كل ذي عينين ليستفيق من غشيته، وليحس إحساساً قوياً بما هو فيه من ضلال، وذلك الأمر يمثله قصص إبراهيم عن عبادة الأوثان، خاصة في سورتي مريم والشعراء.

كما يلاحظ في هذا الجزء شيء من هدوء العاطفة عند الرسول، ونلمس ما تحمل الألفاظ من حنان حتى ليشعر القارىء أو السامع أنه في كنف شخص عظيم يظله برعايته ويحاول أن يصرف عنه القسوة والعذاب، ويمثل هذا اللون قصص هود وصالح وشعيب من سورة الأعراف كما يمثله قصة إبراهيم في سورة مريم.

(٤) في القصص الذي يأتي للتنفيس والإفاضة تكون العواطف جياشة قوية، وإن تكن أميَل إلى الإستسلام، وذلك هو الأمر الذي تدفع إليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام. ومن هنا تأتي الألفاظ هيِّنة مسترسلة لتجري مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام. ومن هنا نلحظ من حين لآخر وجود العنصر الفني الديني الذي أسميناه فيما يأتي بالمناجاة، وهي عبارات أصبحت تقليدية في بعض الأدعية الدينية.

وهنا قد نلاحظ إختلافاً في العاطفة بين المتحاورين، فيبقى المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت، ويمضي الأنبياء بين بين وإن غلبت المسالمة، وذلك لما يكمن في قلوبهم من محبة الأهل والعشيرة، ولما يبلغونه من إنتصار الدين، ولما يرجونه من

إسعاد الأهل والعشيرة، أو إسعاد مَن تحمله الأرض أو تظله السماء.

وعلى الجملة فالأسلوب القرآني في القصص يساير نفسية النبي محمد عليه السلام، وستظهر هذه المسايرة في حديثنا المقبل عن القصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام، وإن كنا نجمل الحكم الأدبي في هذه الجملة، وهو أن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء والمرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع وإنما يمشي على وتيرة واحدة في القصة الواحدة، وهو الأمر الذي يحاول أن يمضي القصص على خلافه في هذه الأيام، إذ نرى الحوار يمثِّل نفسية المتحاورين وأسلوبهما في الحديث والمخاطبة وعقليتهما في التفكير وفي الحركات الذهنية، كما قد يمثِّل الحرف والصناعات.

ومرات قليلة تلك التي نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين وما فيها من قوة وجبروت وما لها من عظمة وكبرياء، وتلك هي المحاورات التي يقصّها القرآن الكريم على لسان فرعون أو على لسان إبليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول الذي قام إلى جانبه في القصة كشخصيات موسى وآدم عليهما السلام. وهي مرات لا تجعلنا نطمئن إليها أكثر من إطمئناننا إلى الأمر الآخر وهو أن الحوار إنما يمثِّل أكثر من كل شيء الدعوة الإسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام.

رابعاً ـ القضاء والقدر

وقريب منهما الحظ وكل تلك عناصر وُجدت وأدت دورها في بعض القصص القرآني وقد ضرَبنا لبعض هذا مثلاً فيما مضى عند حديثنا عن النوع الأول من الأحداث، وشرحنا كيف يدخل عنصر القضاء فينقذ الرسول عليه السلام من القتل والإضطهاد.

والآن نستطيع أن نضرب مثلاً آخر يوضح لنا أهمية هذا العنصر في بعض القصص وكيف يغيِّر مصائر الأشياء. في قصة إبراهيم من سورة الصافات يرى إبراهيم رؤيا تكاد تودي بحياة ابنه لولا قضاء الله وقدره: **﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ● رب هب لي من الصالحين ● فبشّرناه بغلام حليم ● فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ● فلما**

أسلما وتله للجبين ● وناديناه أن يا إبراهيم ● قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ● إن هذا لهو البلاء المبين ● وفديناه بذبح عظيم ● وتركنا عليه في الآخرين﴾[1].

وهو واضح كل الوضوح في قصة يوسف وسنتناولها بالتحليل في القريب العاجل إن شاء الله.

خامساً ـ المناجاة

ومن العناصر الفنية في القصص والتي وجدت قليلاً في القصص القرآني عنصر المناجاة، وهو في القرآن يأتي على صورة مغايرة لتلك التي يأتي بها في أغلب القصص الأدبي، حيث يقوم على مناجاة الشخص لنفسه ليسمعه غيره، ولكنه يأتي في القرآن كما يأتي في بعض القصص المسرحي الغربي كقصة «قلوب سعيدة» مثلاً، إذ ترى البطلة فيها تتوجه إلى صورة العذراء ضارعة داعية ونحس نحن، كما تحس البطلة، بأن هذا الدعاء قد قُبل، وأن الله قد استجاب. كما نحس بأن هذه العبارات تكاد تكون تقليدية بما فيها من ألفاظ قد ألفت في مثل هذه المواطن. وقد حملت بالعواطف الدينية القوية، تلك التي تدفع بسريان الشعور الديني بين النظارة والمتفرّجين.

والمناجاة في القرآن تأتي على هذه الصورة، فيتوجّه النبي عليه السلام إلى خالقه ويتوسّل إليه أن يستجيب لدعائه. وهذا موجود في قصة نوح حين دعا على قومه فقال **﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ● إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ● رب اغفر لي ولوالدي ولِمَن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾**[2]. وفي قصة إبراهيم: **﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ● رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمَن تبعني فإنه مني ومَن عصاني فإنك غفور رحيم ● ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ●**

---

(١) سورة الصافات، الآيات ٩٩-١٠٨.

(٢) سورة نوح، الآيات ٢٦-٢٨.

ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ● الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ● رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبَّل دعاء ● ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[١]. وفي قصة يوسف: **﴿رب قد آتيتني من الملك وعلَّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾**[٢].

هذه هي العناصر الفنية التي تقوم عليها القصة في القرآن قد صوَّرناها كما لحظنا من القصص القرآني المتفرِّق، وسنتناولها بالحديث في تحليلنا لقصة يوسف في نهاية الفصل المقبل إن شاء الله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات ٣٥-٤١.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠١.

تطوُّر الفن القصصي

قد يكون من اليسير على الباحث أن يمضي في مثل هذا الدرس في غير القصص القرآني، فيرتِّب عند الأُدباء الذين يقصد دراسة قصصهم آثارهم الفنية ترتيباً تاريخياً ليلاحظ الظواهر الفنية وتطوُّراتها من حيث الكم ومن حيث الكيف، وقد لا يجد الباحث حرجاً في أن يصل إلى تلك النتائج التي تتوقَّع من أمثال هذه الأبحاث، فيرى مثلاً أن التطوُّر الفني كان يتبع المران والتجربة، كما يتبع الموهبة الفنية والقدرة على الإبتكار والإختراع، ذلك لأنه من المسلَّم به عند النقاد ورجال الأدب أن الفنانين يبدأون حياتهم الأولى بتنمية ما فيهم من مواهب ومدارك فيقرأون أو يشاهدون اللوحات أو يستمعون إلى الموسيقى والغناء، هم على كل حال يلتمسون المتعة واللذة في كل أثر فني يُعرض لهم، ثم يتقدمون خطوة فيتبعون الإستمتاع واللذة بالمحاولات الأولى التي تقوم على التقليد والمحاكاة، ثم يكون التخلُّص شيئاً فشيئاً والدخول في ميدان التجارب الخاصة. وهنا قد يبرز ما في بعضهم من مواهب فيمثِّلون روح العصر ويظهر في فنهم طابع البيئة، وقد تلمس عصا الفن السحرية ما فيهم من عبقرية فتتجلى قدرتهم على الخلق والإبداع، فينسجون على غير منوال سابق، فينشئون المدارس ويصبحون أصحاب مذاهب.

هذه الأمور واضحة كل الوضوح والسبيل إليها لا عوج فيها ولا التواء والنهاية لا

حرج فيها ولا مشقة ما دمنا بصدد دراسة التطوُّر الفني في القصص الأدبي غير القرآن. لكن المسألة حين تنتقل إلى ميداننا هذا تعسر وتشق وتكاد تتغير طبيعة الأمور، ذلك لأن القرآن قد نزل من السماء على أنه معجزة العرب الكبرى وأوحاه خالق مبدع متنزِّه عن كل ما يتصف به البشر من ضعف وقدرة يخضعان للتجربة والمران، وإذاً فلا سبيل إلى الوصول إلى مثل هذه النتيجة، ونحن لا نكاد نلمسها بالخيال حتى نرد عن القصد ونقف مكتوفي الأيدي حتى لا حراك ولا كلام. لكن ما العمل والتطوُّر موجود لا شك فيه؟

أعتقد أن الوصول إلى هذه النتيجة ميسر لو التمسنا الطريق إليها فيما خلف الأولون من رجال الفقه والأصول من حلول لمثل هذه المشكلات.

قال القوم بالنسخ، وقالوا بالتدرُّج في التشريع. ومعنى ذلك أن أحكام القرآن وشرائعه ومبادىء الدين وعقائده لم تنزل دفعة واحدة وإنما نزلت على دفعات وأن الزمن قد طال بها حتى شمل مدة البعثة وزمن الإرسال، وهم يرون في هذين حكمة أرادها الخالق هي أن تستعد النفوس وتتهيَّأ العقول والقلوب لتقبل الدين الجديد، فلم يكن معقولاً أن العربي الذي تسلَّطت عليه العقائد واستبدَّت به التقاليد يتخلى عن كل تراثه الروحي على ما فيه من زيف وبهتان في يوم وليلة، ولا أن يتسلَّل الدين الجديد إلى نفسه فيستقر فيها ويتمكن منها في يوم وليلة كذلك. هكذا رأوا وإلى تلك الحكمة ذهبوا، وهي الأمور التي تتَّفق وطبيعة الدعوات.

ولن نذهب نحن إلى أبعد من قولهم حين ندل على ما في القصص القرآني من تطوُّر داخلي هو بعينه ذلك التدرُّج في التشريع. فنحن نعلم أن القصص القرآني قد نزل لخدمة الدعوة الإسلامية، وشرح مبادئها، وتوضيح عقائدها، والدفاع عن النبي العربي والقرآن الكريم. على هذا جرى الواقع، وبهذا نطق القرآن الكريم. وإذا كانت الدعوة الإسلامية قد نزلت في فترة طويلة وجاء القرآن على قاعدة التدرُّج في التشريع وإذا كان القصص القرآني قد جاء لخدمة هذه الدعوة، كان لا بد من أن تصبح القصة صورة لهذه الدعوة تعبِّر عما يدور في البيئة من آراء وأفكار وتصوِّر ما يجري في البيئة من حركات عدائية أو سلمية وتدافع عن النبي عليه السلام والدعوة، تدعو لهما لتثبت أركانهما وتمكِّن لهما من قلوب الكفرة والمشركين.

كان القصص القرآني إذن يتطوَّر من حيث الموضوعات أو من حيث الأفكار والآراء حسب قاعدة التدرُّج هذه، وهذا هو التطوُّر الداخلي لعنصر من عناصر القصة.

وكان فن البناء كما كان فن توزيع العناصر كماً وكيفاً يتأثر بهذا، وهذا هو الأمر الذي سندل عليه هنا بعد إذ نتناول ظواهره وعلله بالشرح والتفصيل.

نلحظ القصص القرآني أول ما نلحظه خبراً عادياً يصوِّر حالة أو موقفاً أو حادثة فنرى صحف إبراهيم وموسى **﴿إن هذا لفي الصحف الأولى ● صحف إبراهيم وموسى﴾**[1] ونلحظ حديث الجنود فرعون وثمود وما نزل بهم وبقوم عاد من المصائب **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ● إرم ذات العماد ● التي لم يخلق مثلها في البلاد ● وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ● وفرعون ذي الأوتاد ● الذين طغوا في البلاد ● فأكثروا فيها الفساد ● فصب عليهم ربك سوط عذاب ● إن ربك لبالمرصاد﴾**[2].

وقد كان القصد الأول، أول عهد القرآن بالنزول، زلزلة المشركين وزعزعتهم من مواقف العناد. ومن هنا نرى القرآن يعنى بالأقاصيص التي تبرز فيها الحوادث بروزاً قوياً ويهمل ما عداها من عناصر القصة. ومن هنا أيضاً نلحظ أن الرنين الصوتي كان له أثره القوي في تصوير هذه الأحداث وكان ما يُذكر في القصة ليس أسماء الرسل الذين أُرْسلوا وإنما أسماء الأقوام الذين نزلت بهم الكوارث وألَمَّت بهم المصائب **﴿الحاقة ● ما الحاقة ● وما أدراك ما الحاقة ● كذبت ثمود وعاد بالقارعة ● فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ● وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ● سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ● فهل ترى لهم من باقية﴾**[3].

وفي ذلك الوقت أيضاً كان جدلهم عن نبوَّة محمد عليه السلام واتهامهم له بالسحر أو الجنون وأنه كذاب أشر وأنه لا يتلقى الوحي من الله وأنه بشر مثلهم وكيف يتبعون واحداً منهم مع أن الرسول لا يكون من البشر بحال من الأحوال. ويمضي القصص

(١) سورة **الأعلى**، الآيتان ١٨-١٩.

(٢) سورة **الفجر**، الآيات ٦-١٤.

(٣) سورة **الحاقة**، الآيات ١-٨.

القرآني على طريقته من تصوير الأحداث والإستعانة بالرنين الصوتي في أسلوب مسجوع وتظل أسماء الرسل في الغالب مخفية وإن ظهرت ففي الحين بعد الحين. ويمثّل هذا الطور قصص سورتي القمر والذاريات ﴿**اقتربت الساعة وانشقَّ القمر ● وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ● وكذبوا واتَّبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ● ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ● حكمة بالغة فما تغن النذر ● فتول عنهم يوم يدع الداعِ إلى شيء نكر ● خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ● مهطعين إلى الداعِ يقول الكافرون هذا يوم عسر ● كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ● فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ● ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ● وفجَّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ● وحملناه على ذات ألواح ودسر ● تجري بأعيننا جزاء لمَن كان كفر ● ولقد تركناها آية فهل من مدكر ● فكيف كان عذابي ونذر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ● كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ● إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ● تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ● فكيف كان عذابي ونذر ● ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ● كذبت ثمود بالنذر ● فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ● أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ● سيعلمون غداً مَن الكذاب الأشر**﴾(١).

﴿**وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ● فتولَّى بركنه وقال ساحر أو مجنون ● فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ● وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ● ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ● وفي ثمود إذ قيل لهم تمتَّعوا حتى حين ● فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ● فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ● وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ● والسماء بنيناها بأييدٍ وإنا لموسعون ● والأرض فرشناها فنعم الماهدون ● ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ● ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ● ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ● كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ● أتواصوا به بل هم قوم**

(١) سورة القمر، الآيات ١-٢٦.

طاغون ● فتول عنهم فما أنت بملوم ● وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1].

وبعد ذلك بقليل، حين تشتد الخصومة وبعد أن يقبل بعض الناس على الدخول في الدين الجديد، يدخل عنصر الحوار في القصة ويكون موضوعه موضوعات الدعوة الإسلامية من بعث ووحدانية، كما يكون الدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم.

وإذا كان هناك حوار فلا بد من وجود أشخاص يقومون به ويوجِّهون المسائل الوجهة التي يتطلَّبها الدين الجديد. وهنا تظهر أسماء الرسل، ويقف القرآن من هذا العنصر عند هذه الأسماء حتى لكأنها - كما قلنا سابقاً - الرموز التي توجِّه سير الحوار وتعيِّن أغراضه ومراميه.

وأطراف المحاورة هم الرسل وأقوامهم، كما هو الحال في قصص سورة الشعراء، كما قد يكون المستضعفين والمستكبرين، ويمثِّل النوعين قصص سورة الأعراف **﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتَّقون ● قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ● قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ● أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ● أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطةً فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ● قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ● قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ● فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ● وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بيِّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم● واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوَّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً**

(١) سورة الذاريات، الآيات ٣٨-٥٥.

وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ● قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمَن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسَل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ● قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ● فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ● فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ● فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾[(١)].

وهنا نستطيع أن نسجِّل هذه الظواهر:

أولاً ـ تعدَّدت العناصر، فأصبحنا نجد الموضوعات والأحداث والحوار والأشخاص، ولا يزال عنصر الأشخاص أقلها بروزاً، حتى لقد كان القرآن يتخلى عنه في بعض قصص هذه الفترة، كما هو الحال في بعض قصص سورتي إبراهيم والمؤمنين.

ثانياً ـ بدأت هذه العناصر تتميز ويصبح لكل منها طابعه الخاص، فالأحداث الآن تنزل بالمستكبرين أو المكذبين لا بقوم عاد أو قوم ثمود عامة، كما هو الحال في قصص الطور السابق. والرسول هنا يحاور القوم ليقنعهم وليست سبيله التهديد والوعيد كما هو الحال في القصص السابق، بل الأسباب الموجبة للعبادة والإستجابة لرسول الواحد القهار الذي ينعم عليهم. وموضوعات الدعوة التي يكفر بها القوم هنا معلومة، وزاد عليها جديد هو تكذيبهم بما يتهددهم به من مصائب الدنيا وويلاتها. والبيئة التي يحيا فيها الأبطال واضحة كما هو الحال في قصة عاد، فهم يتخذون من السهول قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً، ثم إن تقدُّم الدعوة واضح، فقد استجاب لها قوم وإن يكونوا من الفقراء، ونفر منها آخرون وإن يكونوا من الأغنياء المستكبرين، وقام بينهما حوار.

ثالثاً ـ أخذ الأسلوب يبتعد عن السجع قليلاً قليلاً، فهو في الشعراء يشبه أن يكون سجعاً، وهو في غيرها، كالأعراف، بدأ يسترسل ويقترب من الأسلوب القصصي الذي يشبه أساليب الأحاديث والتخاطب.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ٦٥-٧٩.

رابعاً ـ يكاد قارىء القصة في هذا الطور يشعر بأن هناك شخصية مختفية وراء هذه الأسماء المبهمة العامة، وأن الموضوعات التي يدور حولها الحوار هي الموضوعات التي تعنى بها هذه الشخصية. وذلك أمر سنشرحه في الفصل التالي عند حديثنا عن القصص ونفسية الرسول.

بعد ذلك أو في أثنائه يألم النبي عليه السلام، ويحس بضيق شديد من جراء تلك العداوة التي قد تؤدي إلى التهديد بالنفي والإخراج من الأرض أو الإغتيال والتقتيل، وينزل القرآن ليصوِّر هذه الأحوال ويذهب عن نفس النبي ما ألمَّ بها من ضيق، ويمثِّل هذا اللون من القصص قصص سور هود وطه والقصص والأنبياء ويوسف.

ويلاحظ في هذا الطور أن الشخصية القصصية بدأت تتميز بعواطفها الخاصة وأحداثها التاريخية، وأن البناء القصصي قد بدأ يتكامل، وأن الحوار قد استقر وظهرت آثاره الفنية لا في توضيح الفكرة فحسب، بل بما تستثيره الأفكار من عواطف وانفعالات تؤثر في مجرى الأحداث وحياة الأشخاص. وأعتقد أن خير قصة يجب أن نقف عندها لنحلِّلها، ونبيِّن ما فيها من عناصر قصصية وظواهر فنية هي قصة يوسف.

وقصة يوسف قصة إنسانية، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الأول فتؤثر في سير الأشخاص وتوجِّههم نحو الخير أو نحو الشر في حياتهم، ثم هي قصة رحبة واسعة تتعدَّد فيها الشخصيات وتتلوَّن الأحداث، ويجري فيها الحوار هيناً ليناً رقيقاً، وتتوزَّع فيها العناصر التوزيع الذي يتطلَّبه الفن القصصي، فهي موزَّعة بمقدار، تظهر وتختفي حسب الظروف الطبيعية وحسب ما يحيط بالأبطال من أحداث.

ثم هي، من حيث البناء القصصي، أجود قصة في القرآن. ولعله من أجل هذا عدَّها القرآن من أحسن القصص حين قال: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾**[1].

تبدأ القصة بتمهيد هو رؤيا يوسف: **﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد**

---

(١) سورة يوسف، الآية ٣.

عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ● قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ● وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم﴾[1]. ونفهم نحن من هذا التمهيد ما سيدور في القصة من أحداث تلم بيوسف فنعلم أنه سيُكاد له، ونعلم أن هذا الكيد لن يقضي عليه فسينجّيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ويجعله نبياً كما أتمها على أبويه من قبل.

والتمهيدات تظهر بكثرة في هذا الطور من القصص فنلحظها في قصة موسى في القصص: **﴿نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ● إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ● ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ● ونمكّن لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾**[2]. كما نلحظها في قصص عيسى في سورتي مريم و آل عمران، والتمهيدات هنا قصص بأكملها، فقصة يحيى أو زكريا في سورة مريم تمهّد لقصة عيسى وتهيّىء لها الأذهان. وقصة مريم في سورة آل عمران توحي بقصة ولادة يحيى، وهي بدورها أيضاً تمهّد لقصة عيسى عليه السلام.

تبدأ القصة بعد هذا التمهيد في شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به يدفع إليها الحسد والغيرة، ونسمع حديث القوم حول الطريقة التي يريدون سلوكها، ونراهم وهم يردّدون الأمر بين جانبين: جانب القتل، وجانب الإلقاء في الجب، ونفهم أن قد رجّح الأمر الأخير. ثم نلحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملي، فهم يحتالون على أبيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب وهم يؤكّدون له أن هذا لن يكون، وكيف يقع وهم عصبة وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم غافلون إنهم إذاً لخاسرون. وأخيراً يمضون بأخيهم إلى حيث أرادوا ويجيئون أباهم عشاء وهم يبكون.

(١) سورة **يوسف**، الآيات ٤-٦.

(٢) سورة **القصص**، الآيات ٣-٦.

ونلحظ هنا نوعاً من السذاجة يلائم العقل العربي أو العقل البدوي، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل إخبار أبيهم أن قد أكله الذئب، والتجاوب بين الخوف والإعتذار سذاجة في البناء القصصي تلائم طبيعة البداوة فيما أعتقد.

ونلحظ بعد ذلك تلك السحابة الرقيقة من الحزن التي تغشى نفس يعقوب وتسمع حديثه إليهم وإيمانه القلبي بأن أنفسهم قد سوَّلت لهم أمراً ونرى استسلامه للقدر فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون.

ثم نمضي مع يوسف حين يلتقط من الجب وحين يُشرى بثمن بخس فنترك أرض فلسطين إلى أرض مصر ونترك البادية إلى المدينة، ونستقر في بيت من أعظم بيوتها هو بيت العزيز، ونستمع إليه يوصي به خيراً لعله أن ينفعه أو يتخذه ولداً. وهنا نحس أن يد العناية قد لمسته فمكَّنت له في الأرض وعلَّمته من تأويل الأحاديث، ثم أخذت تدفع به إلى الأمام لينتصر على الكيد والحسد ويفوز على مَن أرادوا التخلُّص منه لتستقيم لهم الأمور وتستقر في نفوسهم أسباب المودة والسعادة ويكونوا من بعده قوماً صالحين.

وفي بيت العزيز تتعقَّد الأمور، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل، وتحس المرأة بالهزيمة فيملأها ذلك حقداً وغيظاً، ويبدأ،بالنسبة إلى يوسف، كيد جديد وتتَّهمه امرأة العزيز بأنه قد أراد بها السوء وأن جزاءه يجب أن يكون السجن أو العذاب الأليم. وهنا يدخل القصة عنصر جديد هو عنصر الكشف عن حقيقة الجريمة، ويستدل العزيز على أن فتاه لم يخنه من أن قميصه قد من دبر.

وتتوالى الأحداث وهي طبيعية متساوقة إذ يسمع النسوة بالمدينة عن الحادث فيأخذنه، كما هي عادتهن، بإكثار الحديث عنه، وتسمع امرأة العزيز بما يدور حولها وتفكِّر في مخرج من هذا المأزق، فتهديها فطرتها إلى ذلك الإجتماع الذي ينقلب فيه العاذلات عواذر، إذ يؤخذن بجمال الفتى ويرين أنه ليس من البشر وأنه ليس إلا الملك الكريم. وتحس امرأة العزيز أن قد ملكت ناصية الموقف فيعاودها حرصها على إشباع رغبتها الجنسية وتعلن أمامهن أنها قد راودته عن نفسه فاستعصم، وأنه إن لم يفعل ما تأمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين. ويختار يوسف الفاضل السجن ويرى أنه أحب إليه مما يدعونه إليه ويخشى

أنه إن لم ينصرف عنهم أن تتغلب فيه النزعات البشرية والعواطف الجنسية فيصبو إليهن ويفعل ما يفعله الجاهلون. وهنا تلمس يوسف يد العناية فتستجيب لدعائه وتصرف عنه كيد النساء.

وندخل مع يوسف السجن ونلحظ ما أفادته العناية الإلهية، كما نلحظ ما فيه من شعور ديني، فهو يعبِّر الرؤيا لصاحبيه، وهو يدفعهم إلى التوحيد وعبادة الواحد القهار، وهو ينهاهم عن عبادة الأوثان، وهو يطلعهم على أن ذلك من فضل الله عليه.

ثم يُحَمِّل الناجي من صاحبيه أمانة ويطلب إليه أن يذكره عند ربه وإن يكن الشيطان قد أنساه. ويعاود الحظ يوسف وتلمسه يد العناية حين يرى الملك رؤياه وحين يعجز الملأ عن تعبير تلك الرؤيا، إذ عند ذلك يذكر الناجي من صاحبي يوسف يوسف ويذهب إليه مستفتياً ويجيبه يوسف إلى ما طلب ويعبِّر له الرؤيا ويدل على القصد من البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات.

ويطلب الملك يوسف ويأبى هذا حتى يحقِّق الملك مبتغاه وحتى يرسل إلى النسوة ويقف منهن على الحقيقة فيما كان من أمره مع امرأة العزيز، وتأتي هذه وتعلن أنها هي التي راودته، وأنه صادق في كل ما قال، ويأتي يوسف ويطلب إلى الملك أن يجعله على خزائن الأرض ويستجيب الملك وينال يوسف مبتغاه.

وفي مدة السجن هذه نلحظ أثر العنصر النبوئي أو الغيبي والدور الذي لعبه في القصة. نلحظه كما لحظنا من قبل أثر العنصر الجنسي في توجيه حياة يوسف من الكيد له في أثناء مقامه في بيت العزيز إلى أن انتهى به ذلك الكيد إلى إلقائه في السجن حتى أنقذته يد العناية وخرج من السجن بسبب رؤية الملك.

وتعود بنا القصة إلى بعض الذكريات السابقة فتجمع بين يوسف وإخوته مرة ثانية فيعرفهم وهم له منكرون، ويحتال عليهم حتى يأتوه بأخ لهم من أبيهم ويحتالون هم بدورهم على أبيهم ليرسل معهم ذلك الأخ، ويحتاط والدهم كما احتاط أولاً، ولكن القدر الذي يوجِّه القصة يدفعه إلى القبول ويذهب الأخ إلى أرض مصر حيث يقيم يوسف. فآواه إليه وقال إني أنا أخوك فلا تبتئس.

واحتال يوسف عليهم مرة ثانية حين جعل السقاية في رحل أخيه وحين أذَّن المؤذِّن بأنهم سارقون، وحين سألهم عن جزاء السارق، فقد كان هذا الجزاء هو كل ما يطلب يوسف وما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله. ويحاول هؤلاء الإخوة دفع أحدهم مكان السارق ويأبى يوسف ويستعيذ بالله أن يكون من الظالمين ويرحل الإخوة ويبقى كبيرهم فلن يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله. ويطلب إليهم أن يخبروا أباهم بكل ما حدث، وأن يدفعوه إلى السؤال عن صحة الحادثة بسؤاله أهل القرية التي كانوا فيها، أو العير التي أقبلوا فيها، وهنا تعاود الرجل أفكاره السابقة ويخبرهم بأن قد سوَّلت لهم أنفسهم أمراً؛ ويستسلم للقدر كما استسلم له أولاً ويصبر ذلك الصبر الجميل الذي يحوطه الأمل بأن الله سيأتيه بهم جميعاً.

وتغشى الرجل سحابة حزن قاتمة حتى ليكاد أن يكون من الهالكين. وتطوف بنفسه خواطر ملهمة فيدفع أبناءه إلى الذهاب للتحسُّس من يوسف وأخيه ويطلب إليهم ألا ييأسوا من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. ويذهب هؤلاء ويلتقون بيوسف للمرة الثالثة وهنا يعيد إلى أذهانهم ما ألمَّ به من حيَل المكر والكيد، ويسألهم عن فعلتهم التي فعلوها وهم جاهلون. ويعرف القوم الحقيقة ويسألونه عن نفسه فيقدِّم لهم نفسه وأخاه وينبئهم بأن ذلك جزاء الصبر والتقوى وأن الله لا يضيع أجر المحسنين ويعترفون بالخطيئة ويعترفون له بالفضل وإيثار الله له عليهم. ويحس يوسف بما في أنفسهم من إحساس باللوم والتعنيف فيخفِّف وقع ذلك عليهم فلا تثريب عليهم. اليوم يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين.

ويعود الإخوة بقميص يوسف ويلقونه على وجه أبيهم فيرتد إليه البصر ويقبل الأب والأبناء ويستقبلهم يوسف إستقبال الإبن البار والأخ العطوف ويفيض الحنان من قلبه، وتجري عبارات الشكر على لسانه ويذكِّر أباه بما كان بينه وبينه من حديث ﴿**فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ● ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي**

لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾[1].

فأنت ترى هذه القصة بُنيَت بناء محكماً من حيث فن البناء القصصي. ففيها وحدة الموضوع، وإحكام التصميم وفيها جودة الحبكة، وفيها الإنفتاح بالحوادث الإستطرادية.

وشخصية يوسف هي الشخصية الرئيسية التي تدور حولها الحوادث. أما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفي كلما دعت الحوادث. فيظهر الإخوة في أرض فلسطين حيث كان يقيم معهم ويختفون حيث رحل. وتظهر السيارة كوسيلة لانتقال يوسف من البدو إلى الحضر. ويمضون إلى غير رجعة حين باعوه للعزيز. ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها ونسوة المدينة، كل يؤدي دوره المنوط به حين يكون مسرح الحوادث بيت العزيز. ثم يختفون حين ينقل يوسف إلى السجن. وهنا يظهر صاحباه ويتركه أحدهما إلى غير رجعة حين يصلَب، ويعود إليه الثاني مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه. ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين نسمع رؤياه ويبقى حتى يسلِّم خزائن الأرض ليوسف بعد إذ يبرئه من دعواه، ويحضر النسوة ليعترفن بما قدَّمت أيديهن من شر لهذا الفتى. ويختفي الملك والنسوة ويظهر إخوة يوسف مرة ثانية ويبقون على المسرح حتى ينقلوا إلى مصر ومعهم أبوهم ومَن شاء.

فأنت ترى أن الشخصية الرئيسية هي شخصية يوسف وأن الشخصيات الأخرى شخصيات ثانوية تظهر وتختفي حسب الخطوط أو حسب ما يؤدون من أدوار. وقد حلَّلنا فيما مضى شخصيتين من هذه الشخصيات هما يوسف وشخصية امرأة العزيز.

والأحداث في هذه الشخصية أحداث عادية تقع لكل شخص وفي كل زمان ومكان فليس يبعد أن يرحل إسرائيلي من بلد إلى آخر وهو فقير معدم فتصير إليه مقاليد بيت المال، وليس يبعد أن تقع كل هذه الأحداث لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف حتى حادث المراودة، ولا تستغرب إلا حالة إلقاء القميص على وجه أبيه وإرتداده بصيراً فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء.

(١) سورة يوسف، الآيتان ٩٩-١٠٠.

وأمكنة الأحداث هنا متميزة بعض التميُّز، فهي حيناً أرض فلسطين التي كان يسكنها يعقوب، وهي حيناً أرض مصر، بيت العزيز أو السجن أو بيت المال.

والآراء والأفكار عادية، وكذا ما كان يمضي بين الشخصيات من حوار.

والإنفعالات القوية والغرائز المؤثِّرة في مجرى الحوادث من الأمور التي تترك أثرها في كل لحظة من لحظاتنا في الحياة، فالحقد والحسد والحب أقوى العواطف والغرائز في القصة، وهي الأمور التي تلمس في كل مجتمع منذ خلق الله الأرض والسماء.

وعنصر الرؤى هو الذي يجري قليلاً مع الإتجاهات الدينية حيث تفسَّر على أنها الأمور القريبة من أمور الوحي، وإذاً فلا بد من أن تصدّق وتقع في الحياة. وتفاوت الحظوظ موجود واختلافها على يوسف واضح حتى لا يحتاج إلى تفسير أو إيضاح.

وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفني المحكم البناء. وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التي توزَّعتها القصص المختلفة في القرآن.

وأخيراً نصل إلى الطور المدني ونحس أن القصة فيه قد بدأت تكون في الغالب معرض صور أو آراء، فلا مقدمات ولا نتائج، وإنما الأحداث تصوَّر لتهز النفوس وتستثير العواطف، والآراء تُذكر لتأخذ مكانها من القلب وتستقر في طوايا الفؤاد.

والقصة في هذا الطور تمثِّل أيضاً الصراع القائم بين النبي عليه السلام وأهل الكتاب، ومن هنا كانت موضوعاتها دائرة في الغالب حول ما نزل باليهود من مكر وكيد وكيف سامهم فرعون سوء العذاب.

كذلك كانت تدور حول عيسى وما دار حوله من جدل بين أهل الكتاب والنبي عليه السلام في قتله وصلبه، وأنه ابن أو ليس إبناً لله. وخير ما يمثِّل هذه الألوان من القصص قصة موسى عليه السلام في سورة البقرة وعيسى في سورة آل عمران.

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أننا نلاحظ وجود قصص في هذا الطور تصوِّر أحداثاً لكنها لا تصوِّرها بقصد إستثارة الإنفعالات والعواطف، خاصة تلك التي تخيف

وترعب . وإنما التي تصوِّر الإحداث وكأنها التجارب البشرية التي أخذت مكانها في الحياة وكان القصد هو إستقرار الفكرة في النفوس، وإزالة تلك الغرابة التي تحسها العقول. وأكثر ما كان يدور القصص في هذا الطور من تلك الناحية حول مسألة البعث وخير ما يمثّله قصة إبراهيم والطير وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها وهما من قصص سورة البقرة، وسبق أن نقلناهما في غير هذا المكان.

الباب الرابع

نفسية الرسول وقصص القرآن

ومما تقدَّم، ومن نصوص القرآن الصريحة نستطيع أن نسجِّل بعض الحقائق لتكون العون والسند في الحديث عن نفسية الرسول عليه السلام.

(١) وأول تلك الحقائق تلك الوحدة، أو ذلك التشابه التام القائم بين الأديان كلها في الكثير من عناصر الدعوات، لا سيما ذلك الجزء الخاص بالوحدانية ومحاربة الأوثان، أو بعبارة أعم في الجزء الخاص بالمعتقدات وذلك هو الأمر الواضح من قوله تعالى **﴿شرَّع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾**[١].

(٢) وثاني تلك الحقائق ذلك التشابه التام القوي بين حالة النبي عليه السلام وأحوال غيره من الرسل من حيث الإختيار والإصطفاء ونزول الوحي، ومن حيث عمومية الإرسال في كل أمة سبقت الإسلام، **﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾**[٢].

(٣) وثالثها ذلك التشابه التام الواضح من عمومية النص في الآيات الكثيرة المصوِّرة لمواقف الأمم المختلفة من رسلها العديدين. وذلك من مثل قوله تعالى **﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾**[٣]. ومن مثل قوله **﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ● أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾**[٤].

(١) سورة الشورى، الآية ١٣.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٣) سورة يس، الآية ٣٠.

(٤) سورة الذاريات، الآيتان ٥٢-٥٣.

إلى غيرها من الأشياء التي سجّلناها في حديثنا عن المعاني الإجتماعية في القصص القرآني.

ومعنى ما تقدَّم أن الجو القصصي الذي يمثِّل هذه الحقائق يمثل إلى جانبها نفسية كل رسول في كل عصر من حيث الجانب الفكري الواضح مما يدعو إليه من آراء ومعتقدات، كما يمثِّلها من حيث الجانب الإجتماعي من وجود القادة والنذر أو الرسل والعظماء.

ومحمد عليه السلام لم يكن إلا واحداً من هؤلاء، وإذاً فهذا الجو الفكري والإجتماعي في القصص القرآني يمثِّله كما يمثِّل غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وإذا تركنا هذا الجانب الذي توجد فيه الوحدة، ويقوم فيه التشابه بين الدعوات والرسل إلى غيره من الجوانب التي لا تقوم فيها أو عليها هذه الأشياء التفت ذهننا إلى أمر آخر هو السبب الذي من أجله اختيرت أحداث بعينها من حياة بعض الرسل في القصص القرآني دون أحداث. والقرآن نفسه يدلّنا على هذه الأسباب حين يقول **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق...﴾**[1] وحين يقول **﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾**[2] وحين يقول **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن...﴾**[3].

ومعنى كل هذا أن إختيار أحداث بعينها من تاريخ هؤلاء الرسل أو قصصهم كان مقصوداً، وأن هذا القصد لم يكن إلا التنفيس والإفاضة عن النبي عليه السلام والمسلمين وإلا خدمة الدعوة الإسلامية. وإذاً فالقصص القرآني من هذا الجانب الذي تتفاوت فيه حيوات الرسل ويمضي فيه كل منهم إلى نوع من الأحداث تلائم ظروفه وتتفق وطبيعة الدعوة وأحوال البيئة يمثِّل نفسية النبي عليه السلام من حيث أنها العامل الأول في الاختيار.

(١) سورة **هود**، الآية ١٢٠.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٦.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ٣.

غير أننا يجب أن نأخذ حذرنا ونحتاط وأن نتذكر ما قلناه سابقاً من أن الفروق المميزة لشخصيات الرسل في القرآن تقوم أول ما تقوم على هذه الأحداث المعروضة لكل واحد من هؤلاء. فتقوم مثلاً على حادثة إلقاء إبراهيم في النار أو إلتقام الحوت ليونس، أو إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى عليه السلام كما تقوم على فرق البحر بالنسبة لموسى وحادث الطوفان بالنسبة لنوح والناقة بالنسبة لصالح ومعنى ذلك أيضاً أنه يجب علينا أن نعرّي هذا القصص القرآني من تلك الوقائع الخاصة إذا أردنا أن تبقى لنا الوقائع العامة التي قد تتكرّر في أكثر من قصة ولأكثر من مناسبة لأنها التي اختيرت أكثر من مرة، ومن هذا الباقي نستطيع أن نلمس صورة تلك النفسية التي عقدنا من أجلها لهذا الفصل وهي نفسية محمد عليه السلام، ولكن ليس معنى هذا أن تلك الوقائع الخاصة لا قيمة لها فذلك أمر لا أستطيع القول به، ذلك لأني لا أستطيع أن أنكر قيمة هذه الأحداث من حيث عملية الإفاضة أو الإيحاء، ثم هي تدل على ما كان يعانيه الواحد من الرسل من ألم أو شقاء. لكن هذه القيمة تقف عند هذه الدلالة وعند عرض الصورة التي قد تسري عن نفس النبي عليه السلام ولا تعدوها إلى ما يجري خلفها من آراء وأفكار أو عواطف وانفعالات تستفيد منها في هذا الميدان بالذات.

والذي نستطيع أن نلحظه بعد عمليات التعرية هذه، وبعد إستبعاد الأجزاء العامة التي تمثّل نفسية كل رسول لما فيها من وحدة أو تشابه تام هو ما يأتي:

أولاً ـ نلحظ أن بعض عناصر الدعوة الإسلامية قد توزّعته القصص المختلفة فثبت بعضه عند رسل بأعيانهم، ومضى غيره إلى أكثر من رسول وإن تميز هذا الرسول دون ذلك. فنلحظ مثلاً أن قصص شعيب تلتزم الحديث عن بخس الناس أشياءهم، وتطفيف الكيل في كل موطن وردت فيه من القرآن. ونلحظ أن قصة لوط قد التزمت الحديث عن إتيان الذكران من العالمين. وسبق أن سجّلنا بعضاً من قصص لوط وشعيب فلا داعي لذكرها في هذا المكان. ونلحظ أن قصة صالح في النمل تصوّر فكرة إغتيال النبي محمد عليه السلام. قال الله تعالى **﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ● قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ● قالوا اطيرنا بك وبمَن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ● وكان في**

المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ● قالوا تقاسموا بالله لنبيّته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ● مكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون● فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين ● فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآيةً لقوم يعلمون ● وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾[1] ثم هي التي تتمشى مع هذه الآيات المصوّرة لنفسية النبي عليه السلام وأحواله مع قومه. قال تعالى **﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ● سنة مَن قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾**[2] وقال **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾**[3].

ولعل من متمّمات هذه الصورة التي تؤذن بما كان في مكة من حرص على الإنتقام والإغتيال والتي نعتقد أن قصة صالح تمثّله أن نذكر هنا أطرافاً من قصص موسى تلقي ضوءاً على ما نحس أنه قد وقع في البيئة المكية في ذلك الزمان.

وأول هذه الأطراف محاولة بعض الناس الدفاع عنه وصرف الناس عن قتله واغتياله، وتلك يمثّلها جزء من قصة موسى في سورة غافر. قال تعالى **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ● وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب ● وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي مَن هو مسرف كذاب﴾**[4] **﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ● يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ● من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب**

---

(١) سورة النمل، الآيات ٤٥-٥٣.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان ٧٦-٧٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٤) سورة غافر، الآيات ٢٦-٢٨.

● ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ● تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ● لاجرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ● فستذكرون ما أقول لكم وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ● فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ● النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾(1) إذ ليس من شك عندي في أن الجزء الأخير يحمل في طياته خصائص من الدعوة الإسلامية في مكة، خاصة الحديث عن عبادة الأوثان وعبادة ما ليس لهم به علم وعبادة مَن **﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾**.

وثاني هذه الأطراف ذلك الذي جاءه يسعى ليخبره عن تلك المؤامرة التي تدبَّر لقتله واغتياله إذ هي في هذا الوضع تشبه حال النبي عليه السلام وليس من شك في أن النبي قد علم بمؤامرة قتله واغتياله، وأنه من أجل هذا هاجر إلى ديار أخواله بني النجار، هاجر إلى المدينة. وهذا الجزء من قصة موسى هو المذكور في سورة القصص. قال تعالى **﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ● فخرج منها خائفاً يترقَّب قال رب نجِّني من القوم الظالمين﴾**(2).

ونص القرآن صريح في أن النبي عليه السلام قد علم بما يضمرون له من مكر وكيد. وذلك هو الواضح من الآيات التي ذكرناها هنا بعد قصة صالح فهي آيات مكية حتى الأخيرة الواردة في سورة الأنفال وهي من السورة المدنية إذ نص على أنها من الآيات المكية.

وإذاً فهذه القصص لصالح وموسى تفسّر هذه المؤامرة التي حيكت لاغتيال النبي عليه السلام ,وتكشف عما كان يدور في مكة بين الأعداء والأصدقاء وكيف عاونه منهم الآخرون بالعمل على إحباط هذه المؤامرة.

(1) سورة غافر، الآيات ٣٨-٤٦.

(2) سورة القصص، الآيتان ٢٠-٢١.

أما الأمور التي تمضي في أكثر من قصة وإن تميَّز بها رسول بالذات فهي من أمثال:

(١) عبادة غير الله وسواء في ذلك الكواكب والأوثان وعبادة الأرواح الخفية وأفراد من بني الإنسان، فهذه تمضي في أكثر من قصة وتكرَّر في غير آية ولكن إبراهيم وحده يتميَّز من بين سائر الرسل بنفيه عبادة الكواكب وتحطيم الآلهة من الأصنام، وتتميز شخصيته كل التميُّز في موقفه من عبادة الكواكب والقمر والشمس في سورة الأنعام، وتحطيم الآلهة في سورة الأنبياء. وهو في هذه المواقف يكاد يخفي شخصية غيره من الأنبياء.

(٢) يتكرَّر عرض مواقف المستكبرين من الرسل والأنبياء أو من المستضعفين والفقراء ونجد آثارهم في قصص كل من شعيب وصالح مثلاً. ولكن بطلين يكادان ينفردان بالموقف في هذا الميدان، أولهما إبليس في بعض قصص آدم، وثانيهما فرعون المتعالي الجبار. وما ظنك بشخص يدعي الألوهية ويخاف من طغيانه وجبروته الرسل والأنبياء **﴿إن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾**(١).

ثانياً - وهذا الأمر هو الذي يعنينا أكثر من غيره في هذا الفصل من الكتاب وهو أن الشخصيات تتساوى فيما عدا ما تقدَّم في تمثيل نفسية النبي عليه السلام.

نلحظ الصورة المعروضة للواحد من الرسل فنحس لساعتنا كأنها صورة محمد عليه السلام وكأن الحوار القائم وكأن الأحداث البارزة هي التي تلم به أو تقع بينه وبين مَن يدعوهم إلى الدين الجديد من مشركين وأهل كتاب.

ولن أعمد هنا إلى عرض شخصيات الرسل واحداً واحداً لأبيِّن لك القصد وأوضح لك المراد فذلك أمر قد يكفي فيه المثال أو الشاهد، يستغني بهما عن كل شاهد ومثال. ولذا سأختار إحدى الشخصيات أتتبَّعها في جميع مراحلها وسنلحظ سوياً أن هذه المراحل هي التي مرَّت بالدعوة الجديدة وبنبي الإسلام.

ولن أختار موسى وإبراهيم فقد تحدَّث الناس كثيراً عما بينهما وبين النبي عليه السلام

(١) سورة يونس، الآية ٨٣.

من صلات، وإنما سأعمد إلى شخصية أخرى أعتقد أنها شخصية فذة فريدة في هذا المقام.

سأختار شخصية نوح وأعتقد أنك ستطالبني بتعليل هذاالإختيار.

ولقد كان من الممكن أن أصبر عليك أو أطلب منك الصبر حتى أعرض عليك الصورة النفسية لنوح، ثم أدلّك على وجه الموافقة أو التشابه التام بينها وبين نفسية نبيّنا عليهما السلام. ولكنني لا أريد أن أفوّت عليك قصداً رمى إليه القرآن.

لنقرأ سوياً هذه الآيات من القرآن: يقول الله تعالى: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾**[1]. ويقول تعالى: **﴿شرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾**[2].

أو لست ترى أن هذه هي الشخصية التي أراد القرآن أن يعقد بينها وبين النبي محمد صلات؟ وأفلا تعتقد أن ذلك هو الأمر المتوقّع ما دمنا نعتقد أن نوحاً هو الأب الثاني للبشرية، وما دام القرآن يرمي إلى أنه لا فضل لقوم على قوم ولا رعاية لجماعة دون أخرى من حيث النبوة والرسالة وإيتاء الحكمة وإنزال الكتاب ف **﴿الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾**.

ونبدأ فنقرأ قصص نوح على أساس هذه المجموعات:

المجموعة الأولى: قصص القمر ونوح والشعراء والأعراف ويونس والمؤمنون وهي القصص التي تمثّل بدء الدعوة، كما تصوّر موقف المكذبين، وهي القصص التي غلب عليها التخويف أو شرح مبادىء الدعوة، وما يتبع كل ذلك من حوار وتصوير أحداث.

المجموعة الثانية: قصص هود والصافات والأنبياء، وهي القصص التي تمثّل القلق النفسي والإتجاه إلى المولى القدير، والقصص الذي يقصد به إلى التنفيس والتطهير.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣.

(٢) سورة الشورى، الآية ١٣.

أما المجموعة الثانية فنستطيع الإعراض عنها لأنها من الأمور العامة التي يجمع القرآن في الحديث عنها بين نوح وبين غيره من الأنبياء.

ونعود إلى المجموعة الأولى فنقول قال الله تعالى في سورة القمر ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ● فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ● ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر...**﴾[1]. وذلك بعينه هو الذي حدث من قوم محمد عليه السلام. ولعل هذه القصة لا توضح الوضوح الكافي صورة محمد عليه السلام من الجانب النفسي، ولذلك ننتقل إلى غيرها، وهي قصة نوح في سورة نوح. ولن أنقل إليك هذه القصة، فقد سبق أن وضعتها بين يديك فيما مضى ولذا سأكتفي بلفت الذهن إلى هذه الأشياء:

(أ) الدعوة في السر والعلن وفي الليل والنهار وتصوير موقف المعارضة من الدعوة إذ هو بعينه موقف النبي عليه السلام ﴿**قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ● فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ● وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ● ثم إني دعوتهم جهاراً ● ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً**﴾[2].

(ب) إن عوامل الترغيب في الدخول في الدعوة هي بعينها تلك العوامل التي صوَّرها القرآن من حيث ترغيب النبي عليه السلام لقومه ثم هي هي التي تلائم البيئة العربية في الجزيرة. قال تعالى ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ● يرسل السماء عليكم مدراراً● ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ● ما لكم لا ترجون لله وقاراً ● وقد خلقكم أطواراً ● ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ● وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ● والله أنبتكم من الأرض نباتاً ● ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ● والله جعل لكم الأرض بساطاً ● لتسلكوا منها سبلا فجاجاً**﴾[3].

(ج) موقف المعارضة هو هو بعينه إذ يطلبون إليه البقاء على دين الآباء والأجداد،

(١) سورة القمر، الآيات ٩-١١.

(٢) سورة نوح، الآيات ٥-٩.

(٣) نفس السورة، الآيات ١٠-٢٠.

دين الوثنية، ويذكرون الأصنام العربية بأسمائها. والمعارضون هم الأغنياء الذين ينفقون أموالهم لصد الناس عن سبيل الله وإتباع الدين الجديد. قال تعالى: ﴿**قال نوح رب إنهم عصوني واتّبعوا مَن لم يزده ماله وولده إلا خساراً ● ومكروا مكراً كباراً ● وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ● وقد أضلّوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً**﴾[1].

(د) الأمر من حيث النفسية يجري بين الضيق بالقوم والاستسلام لله وهو بعينه الذي يلحظ عند النبي عليه السلام، ونتبيَّن هذا الضيق من الدعاء عليهم بقوله: ﴿**وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ● إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً**﴾[2]. كما نتبيَّن الاستسلام من قوله: ﴿**رب إني دعوت قومي...**﴾[3] ﴿**رب إنهم عصوني...**﴾[4] ﴿**رب اغفر لي ولوالدي ولمَن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً**﴾[5].

ونمضي بعد هذه القصة إلى قصص نوح في سورتي المؤمنين والأعراف فنلحظ نفسية النبي عليه السلام هي الواضحة، كما نلحظ أنا لا نزال في الطور الأول من أطوار الدعوة الإسلامية. يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ● قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ● قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ● أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ● أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ● فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين**﴾[6]. ويقول في سورة المؤمنين

---

(١) سورة نوح، الآيات ٢١-٢٤.

(٢) نفس السورة، الآيتان ٢٦-٢٧.

(٣) نفس السورة، الآية ٥.

(٤) نفس السورة، الآية ٢١.

(٥) نفس السورة، الآية ٢٨.

(٦) سورة الأعراف، الآيات ٥٩-٦٤.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ● فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ● إن هو إلا رجل به جنة فتربَّصوا به حتى حين ● قال رب انصرني بما كذبون﴾[1].

فنحن نلحظ من هاتين القصتين أن عناصرهما تصوِّر الحياة العربية المعاصرة للنبي عليه السلام ونزول القرآن. فهم يرونه في ضلال ويرون به جنة ويعتقدون أن لو شاء الله لأنزل ملكاً فما سمعوا من قبل بأن الرسول يكون من البشر وليست المسألة إلا أنه واحد منهم يريد أن يتفضل عليهم. وكل هذه الأشياء هي التي حدثت في البيئة العربية بين العرب وبين النبي عليه السلام.

والذي يصح أن نلفت إليه الذهن في هذا المقام هو أن الضيق بالرسول قد بدأ يستقر في نفس الجماعة، وأن الرغبة في التخلُّص منه قد أفصحت عن نفسها ولكنها رغبة لينة لم تستكمل عناصر القوة بعد، ولذا فهي تكتفي بالتربُّص. وليس ذلك إلا ما ذكره القرآن عن نبيّنا عليه السلام. قال الله تعالى **﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون● أم يقولون شاعر نتربَّص به ريب المنون ● قل تربَّصوا فإني معكم من المتربِّصين﴾**[2].

وننتقل بعد ذلك إلى القصة في سورة يونس فنرى الضيق قد بدأ يشتد؛ والرغبة في التخلُّص منه قد أخذت تقوى، وهو لا يزال قوي العاطفة رابط الجأش يعتمد على ربه في الصغيرة والكبيرة من أمره. ثم هو في الوقت نفسه حريص عليهم شديد الرغبة في هدايتهم يظهر شيئاً من الحنان نحوهم. يقول الله تعالى **﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكَّلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون ● فإن تولَّيتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾**[3].

(١) سورة المؤمنون، الآيات ٢٣-٢٦.

(٢) سورة الطور، الآيات ٢٩-٣١.

(٣) سورة يونس، الآيتان ٧١-٧٢.

على أننا نلحظ هنا عناصر أخرى غير السابقة هي عدم سؤالهم الأجر ثم إعلانه لهم بأنه أمر أن يكون من المسلمين. وليس من شك عندي في أن هذه إلتفاتة من القرآن واضحة صريحة نحو الدعوة الإسلامية وأن إبراهيم قد جاء بعد نوح في الترتيب الزمني حتى في القرآن.

ولم يبق من هذه المجموعة غير قصة نوح في سورة الشعراء، وهي تمثّل عناصر مختلفة من الدعوة الإسلامية. يقول الله تعالى **﴿كذبت قوم نوح المرسلين ● إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ● إني لكم رسول أمين ● فاتَّقوا الله وأطيعون ● وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ● فاتقوا الله وأطيعون ● قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ● قال وما علمي بما كانوا يعملون ● إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ● وما أنا بطارد المؤمنين ● إن أنا إلا نذير مبين ● قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ● قال رب إن قومي كذبون ● فافتح بيني وبينهم فتحا ونجِّني ومَن معي من المؤمنين﴾**[1].

فهنا نلحظ غير ما تقدَّم في القصص السابقة التهديد والوعيد وأنهم سيرجمونه إن لم ينته عما يقول أو عن دعوتهم للدين الجديد كما نلحظ عنصراً آخر هو الحديث عن الأراذل، وعن أنهم العقبة الوحيدة في سبيل دخولهم إلى الدين الجديد، وأنهم من أجل ذلك يطلبون إليه أن يطردهم ولكن أنى له أن يبعد عنه الأنصار والأعوان، وليس من عمله إلا الإنذار أما ما عدا ذلك من ثواب أو عقاب فأمر يملكه الواحد القهار.

وأظنك لست في حاجة إلى أن أدلّك على أن هذا الصنيع بعينه هو الذي كان من الأغنياء ومن مشركي قريش، وأنه الذي من أجله نزلت بعض آيات القرآن **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾**[2].

وننتقل إلى قصص المجموعة الثانية، وهي القصص التي يراد بها إلى التنفيس فنجد

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٠٥-١١٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٥٢.

قصة هود، وهي القصة التي سبقها الحديث عن الحالة النفسية للنبي عليه السلام وكيف كان يضيق صدراً بالمعارضة حتى ليهم بترك الدعوة من جراء حديثهم عنه من أنه يفتري على الله كذباً ويجيء بالقرآن يقول الله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل● أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1].

وهذه الأمور هي التي نلحظها في قصة نوح من هذه السورة، كما نلحظ إلى جانبها عناصر قصصية من القديم والجديد. يقول الله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ● أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ● فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ● قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ● ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ● ويا قوم مَن ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ● ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين ● قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ● قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ● ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون● أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون ● وأُوحيَ إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا مَن قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون... ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ● فسوف تعلمون مَن يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم... ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ● قال يا نوح إنه ليس من أهلك

(١) سورة هود، الآيتان ١٢-١٣.

إنه عمل غير صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ● قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ● قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممَّن معك وأمم سنمتّعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم﴾[1].

فهنا كما ترى بعد حذفنا للعنصر القصصي الخاص بأحداث الطوفان تجد العناصر القصصية الباقية تصوِّر الحالة العربية في زمن النبي عليه السلام وموقفه منها. ونستطيع أن نهمل شرح كونه نذيراً وأنه بشر وأن الذين اتَّبعوه هم الأراذل، وأنه لن يطردهم، وأن أجره على الله، وأنه لا يطلب منهم مالاً فتلك عناصر قد تكررت. وتبقى بعد ذلك أمور دالة، منها البيِّنة، تلك التي عميت عليهم والتي لا يريد أن يلزمهم بها وهم كارهون. أليست هذه هي الحال المشابهة تماماً لحال النبي عليه السلام حين طلبوا منه الآيات البيِّنة على صدق الرسالة وصحة الدعوة، والتي كان يجيب القرآن عليها بمختلَف الإجابات. ولقد كان من أوضح إجاباته تلك التي وردت في سورة العنكبوت من قوله تعالى **﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ● أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾**[2]. ومنها أنه لا يدَّعي أنه يملك خزائن الله أو يدَّعي علم الغيب أو يقول إنه ملك. ومنها ذلك التحدي القائم على تكذيبه بأن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً فيما يذهب إليه. ومنها مسألة الإفتراء، وهي من غير شك إلتفاتة إلى الأمور المعاصرة فما تعلم أن نوحاً قد نزل عليه كتاب. ولعل هذا هو الذي دفع بعض المفسِّرين إلى القول بأن هذه الآية ليست من قصة نوح وأنها خاصة بمحمد عليه السلام. ومنها تلك السخرية التي يقومون بها حين يمرون عليه وهو يصنع الفلك.

ونستطيع أن نضيف إلى الأمور السابقة موقف ابنه منه، وما كان من فرقة دينية بينهما كما نستطيع أن نضم إلى ذلك موقف زوجته منه فهي الأمور التي تمثل الوضع العربي، وإن مثَّلته على أنه القاعدة العامة أو الناموس النفسي الذي لا يتخلَّف. وقد أشرنا

(١) سورة هود، الآيات ٢٥-٤٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٥٠-٥١.

إلى هذه النصوص عند حديثنا عن الأسس النفسية والإجتماعية في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث.

ويبقى بعد ذلك قصص الصافات والأنبياء، وهي جميعها تمثِّل الحديث عن النصر الذي يمن الله به على الأنبياء. وتلك أيضاً قاعدة عامة، أو ناموس نفسي يحدث لكل نبي وفي كل زمان.

ونستطيع أن نفعل ذلك في قصص كل نبي نحذف منه الوقائع المعروفة ولن نجد بعد كل هذا إلا نفسية محمد عليه السلام.

على أن أمراً آخر يبيِّن الصلة بين هذا القصص ونفسية النبي عليه السلام هو أن النبي هو الذي كان يلقيه. وليس من شك في أنه كان يعبِّر بصوته عما يصوِّره النص من معانٍ، وعما يحمله اللفظ من أحاسيس وعواطف. فالقصص القرآني يمثِّل نفسية النبي ويمثِّلها في أدق مراحلها وفي أعنف صورها وليس بنا من ناحية بعد ما تقدَّم من شرح إلى إقامة أي دليل أو برهان.

الخاتمة

هذه هي رسالة الفن القصصي في القرآن الكريم، وهي رسالة تلقي بالقارىء إلى هدفين رئيسيين: الأول منهما درس أدبي أو بلاغي فني للقصة القرآنية، وهو درس يكشف عن بعض أسرار الإعجاز، لأنه يبيِّن لنا مذهب القرآن الكريم في بناء القصة، فيبيِّن الألوان القصصية من تاريخية وتمثيلية وأسطورية، وكيف كان القدماء يفهمون كل لون ويفسّرونه، وإلى أين انتهى بهم هذا الفهم وهذا التفسير. ويبيِّن أيضاً طريقة القرآن الكريم في توزيع العناصر القصصية أي في هندسة القصة، وكيف كان هذا التوزيع للعناصر يتبع الظروف والمناسبات، ويتأثر إلى حد كبير بالدعوة الإسلامية في تدرُّجها وترقّيها. ثم يبيِّن مذهب القرآن الكريم في رسم الأشخاص وتصوير الأحداث وإقامة الحوار، وكيف كان يجعل العنصر الواحد من الأحداث والأشخاص محوراً تدور حوله أكثر من قصة. وأخيراً هو درس أدبي بلاغي يكشف عن مذهب القرآن القصصي، وعن العوامل النفسية التي كان يقيم عليها القرآن أسس الإستهواء، وعن النواميس الإجتماعية التي كان يرد إليها القرآن السبب في قوة الدعوة الإسلامية وفي صحتها وسلامتها.

أما الهدف الثاني فقد كان الإنتهاء من هذا الدرس إلى قاعدة أو نظرية تفسّر لنا مواقف الكفرة والمشركين من القصص القرآني، وتحل لنا هذه المشكلات الكثيرة التي وقف

عندها المفسّرون، ثم تعمد في النهاية إلى رد جميع الإعتراضات التي يتقدم بها المستشرقون والمبشّرون، ومن لف لفهم أو نحا نحوهم من الزنادقة والملاحدة، وكل طاعن على النبي، أو في القرآن الكريم.

وتفسير موقف المشركين يقوم على ذلك الأساس الذي قال به الرازي ثم النيسابوري عند تفسير كل منهم للآية الكريمة **﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾**[1] من سورة يونس، وهو الأساس الذي يقول بأن هؤلاء الكفرة قد نظروا من القصة إلى هيكلها، ومن الحكاية إلى جسمها، ولم ينظروا منها إلى الجوهر: إلى التوجيهات الدينية والخلقية وإلى الأسس النفسية والنواميس الإجتماعية. ولو أنهم نظروا هذه النظرة الأخيرة، لما وقفوا عند الأحداث والأخبار من حيث هي تاريخ، ولما دفعت بهم هذه الوقفة إلى القول بأن القرآن أساطير الأولين، ولما عارضوا القرآن حين عارضوه بالقصص التاريخي، قصص رستم واسفنديار وملوك الفرس، ولعرفوا في النهاية أن القصص القرآني لا يقصد إلا إلى التوجيهات الدينية والخلقية، وإلى تقرير الدعوة الإسلامية، وإقامة هذا التقرير على الأسس النفسية والنواميس الإجتماعية، وعند ذلك كانوا يعترفون حتماً بأنه وحي وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

وحل مشكلات المفسّرين يقوم على ذلك المذهب الذي لفت الأستاذ الإمام إليه الذهن عند تفسيره لقصص آدم وهاروت وماروت من سورة البقرة، وهو المذهب الذي يقرر بأن القصص القرآني يصح أن يفهم فهماً أدبياً بلاغياً، وأنه لا يجوز أن يفهم فهماً تاريخياً، ولقد كان المفسّرون يذهبون هذا المذهب في كثير من المواقف، وكانت المشكلات تحل عندهم في هذا الأساس، ومن ذلك تفسيرهم لقصة داود والملكين من سورة ص، وتفسيرهم لقول اليهود عن عيسى إنه رسول الله، وغير هذين مما سبق أن ذكرناه.

أما الرد على الملاحدة والزنادقة، وعلى المستشرقين والمبشّرين فيقوم على أساس أن القرآن الكريم كان يقيم بناء القصة على ما يعتقده المخاطب، وعلى ما تتصوّره الجماعة من

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

مسائل التاريخ، وليس ذلك إلا لأنه يريد الهِداية والإرشاد، ويقصد إلى العظة والعبرة، ولا يقصد إلى تعليم التاريخ أو نشر وثائقه بحال من الأحوال.

والمذهب الذي جرى عليه القرآن الكريم مذهب أدبي مقرَّر، تعرفه جميع اللغات ويجري عليه العمل عند جميع الأدباء، ثم هو مذهب التفت إليه كثير من المفسّرين، فقال به بعض القدماء ممَّن روى الطبري أقوالهم عند تفسيره لقصة أصحاب الكهف، وقال به الأستاذ الإمام عند حديثه عن قصة هاروت وماروت، وقال به علماء البلاغة من المسلمين حين اكتفوا باللزوم العرفي أي بالعرف والعادة، واعتقاد المخاطب في مسائل البيان، ولم يتطلَّبوا اللزوم العقلي أي الحق والواقع.

ذلك هو مذهب القرآن القصصي، وهو مذهب يرد على هؤلاء جميعاً إعتراضاتهم، ذلك لأنهم ينون هذه الإعتراضات على أساس المخالفات التاريخية، مخالفات القصص القرآني لما أثبته الكشف التاريخي وقال به المؤرخون من غير المسلمين، وهو بناء لا يستقيم مع هذا العرف الأدبي الذي قرَّرناه، ذلك لأن الذي يعاب على القاصّين هو المخالفة التاريخية الصادرة عن جهل بمسائل التاريخ وقضاياه. أما تلك التي تصدر عن مذهب أدبي هو تصوير إعتقاد المخاطب ليتَّخذ وسيلة إلى ما وراءه فأمر لا يعاب، وبخاصة إذا كان هذا الكشف التاريخي قد جاء بعد قرون وقرون. إن المخالفات مع فرض ثبوتها وإقامة الدليل عليها، إنما هي مخالفات لما كانت تعرفه البيئة من تاريخ، وأمثال هذه المخالفات لا تضير القرآن في شيء، لأنه لم يدل على أنه قد قصد إلى التاريخ وإلى تعليمه للناس ونشر وثائقه بينهم. هذا هو رأينا، لك أن تخالف فيه ولك أن تقرّه، وليس بيني وبينك إلا هذه الآية الكريمة: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتَّبعني وسبحان الله...**﴾[1].

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

الجزء الثاني

الفن القصصي في القرآن الكريم

عرض وتحليل

خليل عبد الكريم

مقدمة تحليلية

عندما طلبت مني دار سينا مقدمة لـ (الفن القصصي في القرآن الكريم) تردَّدت كثيراً إذ شعرت بهيبة عميقة فَالكتاب أولاً يُعتبر من علامات الطريق في الفكر الإسلامي الحديث فمن بعد (في الشعر الجاهلي) لطه حسين و (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرزاق لم يُحدث مصنف ثورة ولا أقول ضجة مثلما فعل (الفن القصصي) شارك فيها عدد من رموز الثقافة والسياسة.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الفكرة التي يتمحور عليها الكتاب فكرة اتَّسمت بالجرأة والأصالة معاً.

أما عن الأولى فالذي لا شك فيه أنها صدمت المؤمنين خاصتهم وعامَّتهم، الذين شبّوا وشابوا على أن قصص القرآن حقائق تاريخية أو أنها تموضعت على أرض الواقع فإذا بالمؤلف ينحو منحى مغايراً ويقول بوجهها الفني وأنه قصد بها تحقيق أغراض، وترتيب نتائج، وأنها لا تعني بحال من الأحوال المعاني التاريخية وهو لم يطرح رأيه هذا طرحاً سهلاً مجانياً ولم يرسله إرسالاً بل بناه على منهج علمي صارم والتزم الموضوعية الرصينة وهذا في رأينا من أخطر البواعث التي حرَّكت المناوئين والمعارضين لخلف الله فلو أنه طلع

على الناس بفكرة هشة لم يدعمها بمنهج علمي محبوك أو حتى بمنهج فطير (غير ناضج) لما حرَّك لهم ساكناً بل ربما دفعهم ذلك إلى السخرية والإستهزاء وبضاعتهم في هذين الضربين وفيرة وزادهم منهما كبير، يشهد على ذلك تاريخهم الفكري هذا إن صحَّ تسمية ما يدلقونه من آراء فكراً.

لو أن خلف الله قدَّم ما قدَّم في كتابه هذا الرائع المعجب بعبارات إنشائية وجمل خطابية لما شاهدنا خصومه في الرأي آنذاك، بل وحتى الآن يلفون حول أنفسهم ويكلِّمونها شأن المتخبِّط المفروس... ولكن لأنه قدَّم الدليل إثر الدليل والحجة بعد الحجة والبرهان عقب البرهان مما ألقمهم حجراً وراء حجر فقد فقدوا صوابهم وطاشت أحلامهم وخفَّت عقولهم وسلكوا مسالك لا تليق.

أما عن الصفة الأخرى وهي الأصالة فلقد أثبت خلف الله أن فكرته ليست مبتدعة وأن عدداً من علماء اللغة أشار إليها وألمح إلى فحواها. ولكنهم توقَّفوا في أول الطريق فجاء هو وأكمل المسيرة وأتمَّ الشوط إنما بطريقة تقطع بالأستاذية والتمكُّن والتعمُّق والثراء الفكري والخصوبة الثقافية. وهذا جميعه يجعل تقويم هذا المؤلَّف (بفتح اللام) للقارىء مهمة عسرة أشد ما يكون العسر ثقيلة أوعر ما يجيء الثقل، فادحة أوفر ما تغدو الفداحة.

أما عن الجانب الثالث أو الأخير: فهو المؤلِّف.

الذي أثبت منذ (الفن القصصي) وهو رسالته للدكتوراه أنه مفكِّر عميق جمع من العلوم الإسلامية أشتاتاً بمقدرة ومهارة وفي مقدّمها علوم اللغة وتفسير القرآن وتتَّضح إحاطته بهما إحاطة نادرة في كل صفحة من صفحاته.

ولم تكن أطروحة (الفن القصصي) بالنسبة له هي بيضة الديك شأن سواه بل ظلَّ يواصِل العطاء أكثر، ومثل هذا المصنِّف (بكسر النون) من أصعب الأمور أن تتحدَّث عنه ـ دعك من أن توفيه حقَّه من التقدير ـ ومما يضاعف الصعوبة أنه لم ينل ما هو جدير به من مكانة حتى بعد وفاته إلى رحمة الله ـ فلم تشرع أقلام في تقييم فكره أو عرض مؤلفاته ورفع الحجاب عما فيها من أصالة وجدَّة معاً ومما يؤسَف له أن من هم أقصر قامة من خلف

الله نالوا أضعاف ما يستحقون، والذي لا شك فيه أن الغبار الذي أثير حول الرسالة كان له أثره الفعّال في الإحجام عن الكتابة عنه ومن العجيب أن يستمر عقوداً عديدة (حتى الآن نصف قرن)...

ولعل هذا يعطينا دليلاً على أن الدين ـ في منطقتنا ـ كان ولا زال من (المحرَّمات) التي يحظر الإقتراب منها أو معالجتها إلا بالطريقة التقليدية أو على الأقل الإتباعية أما الخوض فيه بموضوعية ومن منطلق منهج علمي فهذا ممنوع منعاً تاماً، ولا يعني سلوك الطريقة الموضوعية أو المنهج العلمي نقد الدين ـ فهذه مرحلة متقدِّمة لم يأتِ أوانها بعد ـ أو المساس به إنما يعني الكتابة في علومه المتنوعة من مناظير مغايرة لما درج عليه السلف وعرضه من وجهات نظر مباينة لما ساروا عليه، حتى ولو كان في ذلك كشف عن جوانب مضيئة للدين أو إبراز قسمات وسيمة له أو تقديم أدلة تؤكده وبراهين توثقه وحجج تدعمه كما فعل خلف الله في (الفن القصصي) إذ قدَّم مرافعة علمية ممتازة تدحض ما يثيره بعض المستشرقين وأضرابهم من شبهات حول قصص القرآن وبعدها عن الحقيقة التاريخية. ثم نؤوب إلى سياقة القول:

إن الهدف الذي نتغياه من هذه المقدِّمة، ليس هو تقييم خلف الله أو إيضاح وزنه الفكري وثقله الثقافي... فهذا ما لا طاقة لنا به ولا قدرة لباحث فرد على إنجازه، إنما القصد منها (المقدِّمة) إلقاء حزمة من الضوء وإذا شئنا الدقة بصيصاً منه على محتوى الرسالة... إذ ربما (ولقد تعمَّدنا إختيار صيغة التعريض هذه) يعين القارىء على التعرُّف إليها والتفرُّس في جوانبها والتمعُّن في خوافيها والأهم من ذلك كله هو: التبصُّر في ما بين سطورها وقراءة المسكوت عنه فيها ذلك أننا نرجِّح ـ والعهدة علينا في ذلك ـ أن خلف الله كتب بين سطور كتابه سطوراً عديدة ليطالعها القارىء لا بباصرته إنما ببصيرته وفطانته ولقانته... وسكت عن الكثير الكثير لأن الوقت لم يحن أيامها ولا حتى الآن وربما لنصف قرن قادم (وهذا منتهى التفاؤل). نقول سكت عن البوح به والإفصاح عنه ولكنه ترك للقارىء أن يدركه ويتفهَّمه... بذكائه ولماحيَّته.

يتكوَّن (الفن القصصي في القرآن الكريم) من مقدَّمة وتمهيد ثماربعة ابواب ينتهي بخاتمة شديدة القصر.

ويبيِّن من عرض محتوى الكتاب بمجرَّد إلقاء نظرة عجلى على المكوّنات مدى الجهد الذي بذله خلف الله فيه وإصراره على الإحاطة بالموضوع من أقطاره كافة ومدى الظلم الذي وقع عليه عندما قيل عنها إن أقل ما تستحقه هو الرفض التام، الأمر الذي ترك على نفسيته ندوباً واضحة بل جروحاً عميقة غائرة ظلت تلازمه طوال عمره يحسّها كل مَن قابله وقد لمست ذلك شخصياً عندما سعدت بلقائه بعد أكثر من ثلاثين عاماً.

ـ التمهيد

في التمهيد كشف خلف الله النقاب عن:

أ ـ الأسباب التي دفعته لاختيار (القصص الفني) موضوعاً لرسالة الدكتوراه.

ب ـ المنهج الذي سلكه في دراسته.

عن الأسباب فقد ذكر أن لدروس أستاذه الشيخ أمين الخولي عن المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره كان لها القدح المعلى بالإضافة إلى تربيته الدينية التي أُنشىء عليها وعوامل أخرى كلها هي التي وجَّهته إلى إختيار (جدل القرآن الكريم) مادة لرسالة الماجستير... ولما واصل بحثه وقراءته تبيَّن له إعتماد القرآن على ذات ما اعتمد عليه أصحاب الدعوات من عوامل. واستقر في نفسه على أن ما ذهب إليه المفسّرون وأصحاب الفِرَق الدينية المختلفة على غير أساس وأنهم لم يفهموا قصد القرآن من إستعمال الألفاظ ومن ثم فهي قد أرادت أن تفرض آراءها ومعتقداتها هي على القرآن وضرب لذلك مثلاً على ذلك بما جاء في سورة (يس) فقد استخدمه أصحاب الفِرَق وعدد من المفسّرين على خلاف ما رمى إليه القرآن وجادلوا فيه جدالاً عقيماً بينما القرآن كان يهدف شرح ظاهرة إجتماعية تواجه كل دعوة إما بالرفض أو بالقبول. والقصد هو تصوير إستعدادات النفوس تسرية عن النبي ـ ص ـ وإزالة ما يعتوره منهم رغم الموقف المعاند أو التنفير من ذلك الموقف.

ولاحظ أن موقف الفِرَق وبعض المفسِّرين يرجِّح إلى الموقف الذي يصفه بالإنحراف وهو دراسة القصص القرآني كما تُدرس الوثائق التاريخية.

في حين أن القرآن ـ برأي خلف الله ـ لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلا في النادر الذي لا حكم له وبذلك يكونون قد عكسوا القضية وشغلوا أنفسهم عن المقاصد الحقة التي تغيّاها القرآن والجوانب الإجتماعية والدينية الهدف الرئيس من القص في القرآن.

وهكذا بدأ المنهج الأدبي يستقر في نفس الباحث ومن ثم ازداد تعلُّقاً بالقرآن وبالتالي اتَّجه ذهنه إلى القصص القرآني ـ حتى انتهى به الأمر إلى أن يصبح (الفن القصصي في القرآن الكريم) هو موضوع أطروحته التالية أي الدكتوراه.

وهناك أسباب أخرى أولها أن أئمة الدين والتفسير يعدّون القصص القرآني من المتشابه وأن الملاحدة والمبشِّرين والمستشرقين وجدوا فيه ثغرة للطعن على النبي والقرآن الكريم.

وأرجع ذلك إلى أنهم درسوا القصص القرآني دراسة وثائق التاريخ الأمر الذي دفعه إلى دراسته على منهج الأصوليين واللغويين والأدباء.

وأكَّد أن المستشرقين عجزوا عن فهم أسلوب القرآن الكريم وطريقته في بناء القصة وتركيبها ووحدتها ومن ثم ذهبوا إلى أن القرآن أخطأ التاريخ وأرجعوا ذلك إلى أن بشراً هو الذي كان يعلّم محمداً وهو رأي سبقهم إليه مشركو مكة (وسجّله القرآن في إحدى الآيات)...

تلك هي العوامل التي دفعت خلف الله إلى إختيار موضوعه.

وقبل أن نغادر الأسباب ونتطرّق إلى المنهج نلاحظ أن بعضها ذاتي مثل نشأته في أسرة وبيئة دينية وتأثُّره بأستاذه الشيخ الخولي، بيد أن الذي يتعيَّن علينا ألا نمر عليه مرور الكرام هو الأسباب الموضوعية منها وهو دراسة القصص القرآني دراسة أدبية تفاصل بينها

وبين الدراسة التاريخية بمعنى عدم النظر إليها بحسبان أنها حقائق تاريخية. ولا نكون مغالين إذا قلنا إن هذا هو لُبّ الرسالة وهو (خلف الله) بذلك يدحض قالة عدد من المفسِّرين إن القصص من المتشابه ومعلوم أن هذا المتشابه استأثر الله بعلمه وأطلع عليه الراسخين في العلم... كما يدفع عن القرآن شبهة الملاحدة والمبشِّرين والمستشرقين أن القرآن فيه تناقض وفيه مخالفة لما هو ثابت في وثائق التاريخ فيما يتعلق بما يرويه من قصص وانتهوا إلى أنه ليس منزلاً من السماء من عند الله ولكن بشراً كان يعلِّم محمداً إياه وعزا الباحث ذلك إلى عجز المستشرقين عن فهم أسلوب القرآن.

ولكن هذه القالة من قبل خلف الله تثير مشكلة وهي:

إذا كان المستشرقون (كان الأصح أن يقول؛ بعض المستشرقين) قد ذهبوا إلى ذلك لعجزهم عن فهم أسرار القرآن فإن مشركي مكة ذهبوا المذهب عينه ولم يدَّعِ أحد ولا يجرؤ أحد أن يدَّعي أنهم لم يفهموا أسرار القرآن.

أما عن المنهج فهو يذكر أن الخطوات التي سار عليها إبان دراسته موضوعه جديدة وقديمة وليس في هذا تعارض أو تلاعب بالألفاظ. فهي جديدة من حيث أنها دراسة للقصص القرآني على أساس أدبي وقديمة لأنه استقاها من كتب المناهج أو من الواقع العملي لما يفعله النقّاد وكبار رجال الأدب. وأولى تلك الخطوات جمع النصوص وهو يعترف بأنه لم يجد أدنى صعوبة فيها لأنه اعتمد على المصحف.

ويشكِّل الترتيب التاريخي للقصص الخطوة الثانية وهو يقر بأن عمدته في ذلك على المصحف الملكي (وكان أصوَب لو أنه قال المصحف العثماني أ.هـ.) رغم أنه يعلم ـ وهذا ما سجَّله ـ بقلمه أنه ليس بالترتيب التاريخي القويم ويعلِّل ذلك قائلاً (ولكن ليس في الإمكان أبدع مما كان) وهذه ذريعة إنشائية وليست موضوعية وفي إعتقادنا أنها تنبو عن الرسالة العلمية والذي نرجِّحه أن خلف الله وقد بذل هذا الجهد المشكور في الرسالة لم يكن يفوته أن محاولات عديدة قام بها مستشرقون أكابر وأعلام لترتيب آيات القرآن وسوره وكان حرياً بالباحث أن يلقي نظرة عليها.

ونرجّح أن خلف الله قد غضَّ الطرف عنها لدافعين:

أ ـ سوء ظنّه بالمستشرقين (جميعهم إذ كان يذكرهم بألف لام الإستغراق أ.هـ.) الذي بدا واضحاً من الصفحات الأولى من الرسالة، وهذا أمر كنا نأمل أن يربأ بنفسه عنه.

ب ـ كان خلف الله ـ وكما صرَّح في مواضع من أطروحته ـ يوقن تماماً أنها سوف تثير عليه الثائرات ولو أنه اعتمد في الترتيب التاريخي على ما ذهب إليه ذلك البعض من المستشرقين لأضاف إلى وقود النار حطباً يؤجّجها ويزيدها إشتعالاً.

ورداً على إعتماد المؤلّف على المصحف في الترتيب التاريخي نذكر ما ذهب إليه د. عبد الرحمان بدوي في أحدث كتبه الذي أنشأه باللغة الفرنسية ثم نُقل إلى اللسان العربي وهو دفاع عن القرآن ضد منتقديه إلى أنه لم يصح حتى الآن أي رأي في الترتيب التاريخي لسور آيات القرآن.

أما الخطوة الثالثة فهي فهم النصوص حيث أكَّد الباحث على ضرورة التفرقة بين الفهم الحرفي والفهم الأدبي وعرف كلاً من الفهمين. ولما كان هو ينحو منحى الفهم الأخير فهو يقرر أن هذا الصنيع في الفهم جديد بالنسبة لموضوعه وأن ما في القصص القرآني من ظواهر أدبية وفنية لم يُدرس ولم يُعرض بالصورة التي عرضها وهو محق في ذلك ومحق أيضاً فيما ذكره عن معاناته في ذلك.

والخطوة الرابعة تحمل عنوان التقسيم والتبويب وفيها شرح الباحث الدوافع التي حثّته على القيام بالتبويب الذي حملته الأطروحة.

ويختم خلف الله خطواته بما أطلق عليه (الأصالة والتجديد)... ويصفها بأنها مسألة من أهم المسائل لدى دارسي حياة العلوم والفنون وكل مَن يبتغي فهماً دقيقاً عميقاً للمسائل العلمية والأدبية... والذي أراه في هذه الخطوة أن الباحث عمد فيها إلى عبارات إنشائية أو أنه لم يوفها حقّها من التوضيح وأياً كان الأمر فلا شك أن المنهج وخطواته كانا من الرصانة بمكان وثيق إذ أنهما طرحا هذا الكتاب القيّم الذي لاقى فيه خلف الله عُسراً ومشقّة قوبلا للأسف بالجحود والنكران...

الباب الأول: المعاني والقيَم التاريخية والإجتماعية والخلقية والدينية.

بدأه بالفصل الأول وخصَّصه للمعاني التاريخية وفيه يفصح خلف الله عن أن الهدف هو البحث عن قيمة الأحداث القصصية في المجالات التاريخية ويطرح تساؤلاً مهماً: هل هي من الوقائع التاريخية أو من الأحداث القصصية التي لم يقصد منها إلى التاريخ؟

ويخبرنا أن لهذه المسألة جذراً تاريخياً يرجع إلى ما قبل البعثة المحمدية بقليل وهو المقياس اليهودي في التفرقة بين النبي والمتنبّي فالأول يعلم الغيب ومنه أخبار السابقين من رسل وأنبياء... وضرب مثلاً لذلك وهو إرسال قريش إثنين من رجالها لأحبار يهود ليسألاهم عن محمد فطلبوا منهما أن يسألاه عن ثلاثة أشياء وهي التي وردت في سورة الكهف ـ أصحاب الكهف، ذي القرنين، والروح ـ فإن أجاب عنها فهو نبي وإلا فهو متقول ويرى الباحث أن القرآن والسنَّة اعتمدا هذا المقياس في الإيحاء بنبوَّة محمد وصِدق رسالته واستدلَّ على ذلك بما جاء في سور آل عمران ويوسف والقصص.

وطلب الإلتفات إلى أن القرآن حين فعل ذلك (أي العلم بهذه الأخبار من علامات النبوَّة) أضاف إليها شرطاً آخر هو أن تكون مطابقة إما لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب. والإنتباه إلى هذا الملحظ ذو قيمة كبيرة كما سيبيّن فيما يأتي.

بيد أن إعتماد القرآن على هذا المقياس خلّف في الجو الإسلامي سواء في عصر النبوة أو ما تلاه رأيين:

أولهما: هو أن الوقوف على هذه الأخبار لا يعسر على محمد فهو إما اكتتبها من كتب الأقدمين أو علَّمه إياها بشر فهي إذن ليست وحياً ولا تدل على نبوَّة.

هذا هو رأي المشركين والكفّار من أهل مكة الذين تمادوا فذهبوا إلى أبعد من هذا: وصفها أنها أساطير وأنهم يستطيعون الإتيان بها ولقد سجّل القرآن كل هذا في بعض آياته.

ثم سار الملاحدة أو اليهود أو النصارى و المستشرقون أو المبشّرون في طريق الطعن في النبي ـ ص ـ وفي القرآن الكريم. ساروا شوطاً وذلك بإتخاذ التاريخ مقياساً تُقاس به الأخبار وكشْف الحجاب عن مخالفة قصص القرآن للتاريخ الذي يعرفونه. وهذه الفقرة أو الفاصلة أو المقطع من أخطر المقاطع التي أوردها خلف الله في مؤلّفه حتى الآن وهي التي تنضوي على الأمثال التي ضُربت تأكيداً لوجهة النظر تلك ـ بداهة من منظور قائليها ـ والتي أفردها عدد من سادة المفسّرين وهي بإيجاز شديد:

ـ ما جاء في القرآن أن عيسى تكلّم في المهد ولم يثبت ذلك من قبل.

ـ لم يكن في زمن فرعون موسى وزير يسمّى هامان ولا دليل عليه لدى مَن سبق.

ـ لو كانت بلقيس موجودة وقت سليمان لما خفيَ عليه أمرها ولما انتظر هدهداً يخبره بشأنها.

ـ أن مريم ليست أخت هارون (يا أخت هارون) وأن بينهما قروناً عديدة (تزيد المدة على ألف وخمسمائة وسبعين عاماً) فكيف تكون أخته.

هذه الأمثال وغيرها كثير ساقها المبشّرون والملاحدة لإثبات أن محمداً هو مؤلّف القرآن وليس وحياً من عند الله ويؤكّد خلف الله أن المسلمين أو بعبارة أدق العقل الإسلامي هو الذي أعطاهم الفرصة لهذه المطاعن كيف؟

لأن العقل الإسلامي فهم قصص القرآن على أساس من التاريخ ولو فهمه على أساس من الفهم الأدبي... أو البياني البلاغي لصكّ الملاحدة على وجوههم وقطع عليهم طريق القدح والطعن في القرآن ومحمد.

ثانيهما: أي ثاني الرأيين هو رأي المسلمين الذين يؤمنون بهذا المقياس ويعتقدون بصحّته ويذهبون إلى أن ورود هذه الأخبار في قصص القرآن حجة دامغة على صحة نبوّة محمد ورسالته لأنه أمّي لا يقرأ ولا يكتب ولم يُتلمَذ على مَن قرأ في كتاب ولم يقرأ هو كتاباً.

واستتبع ذلك إقدام المفسّرين على تفسير القرآن وفهمه عن ثقافة تاريخية لا ثقافة فنية أدبية... وكان من البديهي أن تنتصب في وجوههم عقبات كؤود وقفوا طويلاً أمامها ولم ينقذهم منها إلا رجوعهم للحق ويقصد به خلف الله فهم قصص القرآن على أسس البلاغة العربية والفن القصصي.

وقبل أن نتناول بإيجاز ما اتّخذوه سبيلاً لذلك نشير إلى أن خلف الله بتبنّيه هذا الأساس (الأدبي واللغوي والبلاغي) ودعوته إليه أسدى خدمة جليلة للقرآن ومحمد ولكن مناوئيه لم يقدّروا له هذا الصنيع وليس لُغزاً في حاجة إلى حل هو أن مبعث غضبهم ـ وهذا أمر ضروري لجأ إليه القرآن ذاته ـ هو ذكر حجج المعارضين وأدلّة المناوئين وبراهين المخاصمين فهم يرون أنه ما كان يحق له أن يذكر في رسالته:

أن هامان لم يكن وزيراً لفرعون موسى ـ وأن مريم ليست أخت هارون لأن بينهما ما يقرب من ألفي عام ـ وأن عيسى لم يتكلّم في المهد وأن سليمان وله ملك لا ينبغي لأحد من بعده ما كان له أن يجهل وجود بلقيس ومملكتها في حين اكتشفها هدهد على مسافة قريبة.

والرد على ذلك أن إيراد هذه المطاعن أمر لازم للرد عليها وإلا فكيف يتسنّى تنفيذها دونه. فضلاً عن أن الأقدمين أو السلف الصالحين ألّفوا كتباً في تنزيه القرآن عن المطاعن فعلوه وأكثر منه ـ ولقد تأكّد لي من مقارنة كتب سيرة محمد التراثية بالحديثة أو المحدثة أن الأولى كانت تتّسم بالأمانة العلمية فذكرت وقائع السيرة بأكملها دون حذف أو تزويق بخلاف الأخيرة فإنها عمدت إلى الحذف والتزيين والبرقشة... وبداهة أن هذا منهج فسيد ـ ومن ثم في رأينا أن مسلك الدكتور خلف الله في إبراز المطاعن سواء الخاصة بالأخطاء التاريخية أو التناقض والتعارض مما سوف يأتي بعد كان أحد أهم أسباب الثورة التي قوبلت بها الرسالة، ولا يهم أن يصرّح الغاضبون بذلك وسوف يأتي الكثير فيما يلي ويستجد.

نرجع بعد ذلك إلى عدد من المواقف التي، وقف عندها المفسّرون ليصح فهمهم ويستقيم تفسيرهم لقصص القرآن.

أولاها: الإشارات التاريخية

هي مادة بناء القصص القرآني والتي تعمَّد القرآن إبهامها أو إبهام مقوّماتها التاريخية وقد فعل ذلك لأن أول من خُوطب به (أهل مكة) كانوا يعرفون الثقافة التاريخية القابعة خلفه، أو لأنه هدف إلى أن يتَّجه إلى بشر بعقولهم إلى ما فيها (القصص) من مواعظ وهِداية وإنذار وبشير... إلخ. ومن بين مقوّمات الإبهام وأبرزها: إبهام الزمان والمكان وما يميّز الأشخاص من صفات وأخرى هي عملية إنتقاء لبعض الأحداث دون بعض. ومن ذلك أحسَّ المفسّرون أن فهمهم التاريخي للقصص لا يستقيم مع هذا الإبهام فعمدوا إلى الإستعانة بالإسرائيليات أو الفروض النظرية.

ولوقفات المفسّرين عند هذه الإشارات ظواهر منها رضاهم وقناعاتهم بالأساس التاريخي دون سواه بل إنهم لشدة الفهم له أنكروا ما عداه ولو أن خلف الله يلحظ بوادر إلتفاتهم إلى المذهب الأدبي ويضرب أمثلة بالغة السرعة والإيجاز مثل تفسير الزمخشري لنبأ الخصم الذين تسوَّروا المحراب وتفسير الطبري لقصة آدم في كل من سورتي البقرة وص.

إن كل ما ذكرناه ـ مع تمسُّكهم بالأساس التاريخي ـ لم يوصلهم إلا إلى متاهات ولا يرسل خلف الله كلامه على عواهنه بل يقدِّم البراهين فعلى سبيل المثال لا الحصر: الذي مرَّ على قرية... تخبَّطوا فمرة هو عزير وأخرى أرمياء أو الخضر وثالثة رجل كافر أو إسرائيلي أو من قوم لوط... إلخ أما القرية فالتضارب بشأنها أشد فهي: بيت المقدس... أو قرية العنب أو المؤتفكة أو دير هرقل إلخ.

وكذلك في مسألة وسوسة إبليس لآدم هل دخل في جوف الحيَّة أو في صورة دابة أو كان آدم يخرج إلى باب الجنة وإبليس يقترب منه فتتم الوسوسة.

وهكذا فإن الأساس التاريخي أفضى إلى هذا التيه.

وثانيها: التكرار

ويعني تكرار القصة في عدة سور فقصص آدم ونوح ولوط وموسى وصالح وشعيب تكرَّر ذكرها في مواطن من القرآن وضرب المؤلف أبرز الأمثلة: قصة موسى فقد

وردت بصور مختلفة فحسب المنظور التاريخي لا يستقيم الوضع إذ كيف أن قصة واحدة تختلف روايتها وتتباين أشكالها...

إنما الذي ينجي من ذلك كله هو الفهم الأدبي البلاغي واختلاف المقصد من كل صورة لأن إختلاف المقاصد يؤدي إلى إختلاف الصور. وترتيباً على ذلك فإن المقصد في قصة موسى وفي طه غيره في النمل وهكذا.

وثالثها: المادة القصصية والحقيقة.

يجيء في بعض القصص مقطع أو صورة تنافي الحقيقة المعروفة مثل غروب الشمس في عين حمئة وهي حقيقة طبيعية أو يصادم حقيقة تاريخية مثل بقاء الأصنام الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر بعد طوفان نوح إذ العقل يحيل نقل نوح لها معه في سفينته المعروفة.

ومثل قول الله لعيسى **﴿أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾**[1] مع أن الثابت أن عيسى لم يقل ذلك ولم يحدث أن رسولاً طلب من أتباعه تأليهه.

ومثل وصف عيسى بأنه رسول الله على لسان اليهود كما حكاه القرآن في حين أنهم لو كانوا يؤمنون برسوليته لما ناصبوه العداء ولأصبحوا مسيحيين، ومثل قتال الملائكة مع المسلمين في وقعة بدر الكبرى لأن ملكاً واحداً يكفي في إهلاك أهل الأرض أجمعين ولو كانوا أجساماً كثيفة لرآهم المسلمون والكافرون وهذا ما لم يحدث وإن كانوا أجساماً لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول!

من هذا كله إستبيان للعقل الإسلامي أن هذه الأشياء ـ المنافية للحقائق الطبيعية أو التاريخية أو العقلية من المحال أن تُفهم على أنها الحق التاريخي أو الواقع.

هنا أعاد العقل الإسلامي التفكير في عد هذه الأخبار من المعجزات ذلك أن بعضاً منها كان معروفاً لعرب الجزيرة مثل أخبار عاد وثمود والبعض الآخر كانوا يسمعونه من

(١) سورة المائدة، الآية ١١٦.

أهل الكتاب مثل أخبار موسى مع فرعون. إذن لا يجوز أن يكون العلم بها دليل ثبوت على نبوَّة محمد ولا دليل إعجاز... وهنا ينتصب رد على هذا النفي أن محمداً لم يخالط مَن كانوا يعلمون تلك الأخبار مخالطة تمكِّنه من معرفة التفصيلات الدقيقة التي وردت عنها في القرآن... أي أن ذِكرها دليل على النبوَّة والإعجاز ولو أنه لا يصلح رداً على ما قال مشركو العرب بأن محمداً اكتتبها من كتب الأولين... التي لا بد أن تحوي التفصيلات الدقيقة وغير الدقيقة بيد أن إكتتاب محمد لها من تلك الكتب يهدمه أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

فعاد العقل الإسلامي مرة أخرى وفكَّر أن الإعجاز ليس في الأخبار ولا في تفاصيلها بل في قوة التأثير وسحر البيان وفصاحة الألفاظ وجزالة القول وبلاغة السرد ومتانة التركيب ومن هنا كان التحدي بالإتيان بعشر سور مثلها أو حتى بسورة واحدة.

ويرى خلف الله أن إحتواء القصص على الأخبار مع ذلك أفاد كثيراً في الإيحاء بنبوَّة النبي عليه السلام وعلى صِدق رسالته، لكن على أساس أن قوة هذا الإيحاء تقوم على الرأي الديني اليهودي والذي لا يلزم حتماً أن تكون من التاريخ بل مما يعرفه اليهود أو العرب.

تلك الوقفات إذن دفعت العقل الإسلامي لأن يسلم أن التاريخ في ذاته كان هدفاً ومقصداً وغاية وأن التمسُّك بهذا الرأي يشكِّل خطراً على القرآن ومحمد معاً بل إنه يمهِّد الطريق أمام الناس للكفر بالقرآن كما كفروا بالتوراة.

لذا نرى مفسِّراً مثل الرازي يقول (إن المقصود ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها). والنيسابوري يذهب إلى أنهم (مشركو مكة) لم يعرفوا المقصود منها أي من قصص القرآن فقالوا: أساطير الأولين وخفيَ عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرُّف في هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل... إلخ.

وأخيراً وصل تفسير المنار إلى أن التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة. وهكذا بعد

طول مكابدة بدأ العقل الإسلامي يلتفت إلىأن المذهب التاريخي ليس هو الأساس ولا من مقصود القرآن حين يقص أن يؤرخ أو يضبط وقائع لها أمكنة محددة وأزمنة معينة... ومن ثم فإنه قد حقَّ لخلف الله أن يقرّر أن العقل الإسلامي حينما انتهى إلى هذه المرحلة وصل إلى خير كثير ولكنه قطع في ذلك شوطاً طويلاً وأياً كان العناء الذي كابده أو الوقت الذي أهدره فإنه حقَّق العديد من الفوائد:

١ـ التحرُّر من الإسرائيليات والتخلُّص من الكثير من الفروض النظرية... ونحن نختلف مع المؤلِّف فيما ذهب إليه عن التحرُّر من الإسرائيليات بل نراه غير صحيح فقد وقع في أسرها صحابة أكابر مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة وغيرهم... كما أن العديد من كتب التفسير محشوَّة بها.

٢ـ لفت الإنتباه إلى أن المعاني الدينية والإجتماعية من أهم مقاصد القصص الإسلامي.

٣ـ لم يعد لازماً الإيمان برأي معيَّن بشأن الأخبار التاريخية الواردة في القصص القرآني إذ عمَّ الإعتقاد أنها بهذه المثابة ليست ديناً يتبع إنما الهدف منها ضرب الأمثال واستخراج العبَر واستنباط المواعظ ـ وأصبح من حق العقل إهمالها أو حتى إنكارها (باعتبار أنها تاريخ) وينهي خلف الله هذا الجزء (الأول) من الفصل الأول بأن القضية ما كانت لتحيل اللجاج والعناد وأن مبعث ذلك هو تجاهلهم لما بين التاريخ والأدب من علاقات ولصنيع الأدب حين يستغل التاريخ وهو يؤدي رسالته في الحياة.

في الجزء الثاني من الفصل الأول (الأدب والتاريخ) تحدَّث المؤلِّف عن صلة كل منهما بالآخر ولكن الذي يعنيه إعتماد القصة على التاريخ وحرية القصاص (الأصح أن يقال القاص والقصاص هو مَن يتتبَّع الأثر أ.هـ.) وميدانها وحدودها... وأفاض في علاقة التاريخ بالقصة وكيفية تصرُّف المبدِع في الأحداث التاريخية والأشخاص والمواقف ومدى حريته في ذلك...

ولكننا لاحظنا أنه عند ضرب الأمثلة تأييداً لمذهبه يذكر شكسبير وبرنارد شو

وشوقي وهؤلاء لم يكونوا قاصّين أو قصّاصين حسب تعبيره إنما هم مسرحيون كما أورد إسم والتر سكوت وأنه من (القصاص الذين استغلّوا التاريخ) ومعلوم أن سكوت هذا روائي وإذ أن هذا طُرح ضمن رسالة جامعية فقد كان حرياً بالمؤلف عدم الخلط بين المؤلف المسرحي والروائي والقاص... وأن يفرّق بين الرواية والقصة والمسرحية...

بعد ذلك العرض الجيد ـ رغم ما فيه من هِنات ـ ينتقل خلف الله إلى القصص القرآني ومدى إنطباق تلك القواعد عليه خاصة في حرية التصرُّف في الواقعة التاريخية: أحداثها، شخوصها، زمنها، مكانها. وانتهى إلى القول أنه لن يقرِّر ما في القرآن من قيّم إلا مذهب أدبي التزمه القرآن نفسه. هذا قول وجيه وبالتالي يلزمنا أن نبحث طريقة القرآن من واقعه العملي... ثم يتساءل هل وُجدت فيه تلك الحرية، حرية تصرُّف القاص في الأحداث والأشخاص والمواقف والأزمنة والأمكنة... أم التزم طريقة الصدق وتحرّي الحقيقة وحدها؟

ويجيب عن هذا السؤال بوجود ظاهرات كثيرة للحرية الفنية في قصص القرآن منها:

ـ إهمال الزمان والمكان من مقوّمات الحدث التاريخي وإهمال المكان هو الأغلب.

ـ إختيار بعض الأحداث دون البعض الآخر.

ـ إغفال الترتيب الزمني أو الطبيعي عند إيراد أو تصوير الأحداث وضرب لذلك قصة لوط مع قومه بشأن الملائكة الذين زاروه فقد جاءت في سورة الحجر بصورة مغايرة عما تضمَّنته سورة هود.

ـ إسناده بعض الأحداث لأناس بأعيانهم في بعض ثم إسنادها هي ذاتها لآخرين مثل قول ملأ قوم فرعون عن موسى إنه ساحر عظيم وفي سورة الشعراء ورد هذا القول بنصّه وفصّه على لسان فرعون، وفي سورة هود البشرى بالغلام بعد العقم الطويل وُجّهت لسارة في حين أن إبراهيم نفسه الذي تلقّى البشارة كما جاء في سورتي الحجر والذاريات.

ـ ورود عبارات مختلفة على لسان شخص واحد حين تكرار القصة مثل موقف الإله من موسى فقد جاء في سورة النمل بصورة وفي سورة القصص بهيئة مغايرة...

وتصوير خوف موسى وانفجار الماء وإنبجاسها وهكذا...

وهذه وأمثالها دفعت المفسّرين إلى القول بأن القصص القرآني من المتشابه.

ـ إضافة مواقف للقصة لم تحدث فيها حتى انتهت وتكاملت ففي سياقة تصوير موسى واختياره إلى سبعين رجلاً وذهابه إلى الله جاء ذِكر الذين يتّبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل وقول اليهود المنكرون لرسولية عيسى إنكاراً مطلقاً أنهم قتلوا المسيح بن مريم رسول الله، وبداهة هم لم يقولوا ذلك لأنهم لو اعترفوا به رسولاً لآمنوا به واتّبعوه لا قتلوه، ومثل سؤال الله لعيسى عما إذا قال لأتباعه أن يؤلّهوه من دون الله، وما كان ينبغي أن يفعل ذلك وما فعلها رسول قبله ولو أقدم عليها لما استحقّ أن يكون رسولاً.

هذه بعض لا كل الظواهر التي تقطع بأن الحرية التي منحها القاصّين لأنفسهم إزاء الوقائع التاريخية قد وُجدت في القرآن، بل إنه قصد إليها قصداً.

وقبل أن نمضي في عرض وجهة نظر خلف الله في هذه المسألة (علاقة الأدب بالتاريخ) وحرية القاص في التصرُّف في أحداث التاريخ وشخوصه وزمنه وأماكنه نضع تحت عيني القارىء الجرأة الفكرية التي اتّسم بها خلف الله من بين البُحّاث المحدثين فلم يسبقه أحد منهم في القول بهذه الصراحة في القصص القرآني مثل إسناد بعض الأحداث لشخص بعينه في سورة وإسنادها هي ذاتها لآخر في سورة أخرى أو تصوير موقف محدد في سورة ثم تصويره في سورة أخرى بهيئة مغايرة أو إيراد عبارات على لسان شخص في موقف ثم وضع الشخص ذاته في الموقف نفسه دون تغيير أو تحوير ثم إنطاقه بعبارات مغايرة وجمل معاينة. أو جعل شخص معين أو أشخاص كثيرين يقولون ما يستحيل عقلاً وديناً أن يقولوه مثل نسبة التأليه لعيسى بل ومطالبة تبعه إتّخاذه ومعه أمه إلهين وقول اليهود عن المسيح أنه رسول الله وهم الذين كفروا به ورموه وأمه الصديقة بأبشع الصفات وأشنع النعوت.

لم يسبق أحد من المُحدَثين خلف الله في هذه الجرأة ولعله قد راعى أنها رسالة جامعية وأطروحة أكاديمية حرية البحث والتعبير فيها مكفولة. بيد أن مما يؤسف أن العاصفة التي واكبتها والزوابع التي قابلت كتابيّ طه حسين وعلي عبد الرازق أرعبت مَن جاء بعد ذلك من الباحثين وبذلك افتقدت جامعاتنا حرية البحث العلمي العمود الفقري لأي جامعة والتي بدونها لا يصح أن تسمَّى جامعة... كما خسرت مصر باحثاً واعداً، كان يُنتظر منه الكثير من العطاء الكثير العميق.

لأمر ما كان فإن لسورة الكهف مكانة خاصة عند المؤلف فهو بعد أن ذكر الظواهر التي أوجزناها بعاليه فإنه يأخذ منها مثلين للتدليل على صحة هذه الظواهر التي كان له هو نفسه فضل إكتشافها أو التعرُّف إليها:

المثل الأول: الفتية أصحاب الكهف فهو يرى أن القرآن أبهم عددهم وعدد السنين التي لبثوها وطلب من محمد أن يوكل ذلك كله إلى علم الله وحده. مع أن الله يعلم الأمرين: عدد الفتية وعدد السنين التي لبثوها ومكثوها. فلماذا فعل ذلك؟ أي لماذا جاء العددان مبهمين، مع أن هذه الواقعة إحدى ثلاث وقائع تحدَّى بها أحبار يهود محمداً بعد لجوء صناديد قريش إليهم لمعرفة هل هو نبي يأتيه الوحي من السماء أو متنبِّيء متقوِّل؟

في رأي المؤلِّف أن الإبهام كان مقصوداً لأن اليهود أنفسهم كانوا مختلفين في عدد الفتية وعدد سني اللبث فإذا جاء القرآن وقصَّ هذا الإختلاف فإنه إنما جاء مطابقاً لرأي اليهود وبحسب المقياس اليهودي السابق ذكره يكون محمد نبياً رسولاً (ولو ذكر القرآن العدد الحقيقي وأعرض عن أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمداً لم يعرف عدد الفتية، وليس هذا إلا أن الوحي لا ينزل عليه من السماء).

والمثل الآخر (الثاني): قصة ذي القرنين وما جاء فيها عن غروب الشمس في عين حمئة لأن القرآن بذلك يكون قد صوَّر مسموعات القوم لا مبصراتهم أي ما سمعوه عن هذا الأمر، لا ما يشاهدونه كل يوم في الغروب ويميل الباحث إلى أن القرآن كان يقيم تشبيهاته وإستعاراته كما كانت تقيِّمها العرب ويورد تدليلاً على ذلك ما جاء في بعض

كتب المفسّرين مثل وصف طعام الجهنميين وشرابهم وتشبيه شجرة أصل الجحيم برؤوس الشياطين لاعتقاد الناس المعاصرين لمحمد أن الشياطين ذوو خلقة مشوّهة بعكس الملائكة فهم أصحاب هيئات حسينة قسيمة. ولاعتقاد كفار قريش بمس الشيطان عند إختلاط عقل أحدهم فقد جاء القرآن وقال **﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ﴾**[1] عند النشور من القبور.

وهنا يتطرّق خلف الله لمسألة على قدر وفير من الخطر وهي إعتقاد الكفار أن محمداً من الكهان وأن الذي يطلعه على الغيب هم الشياطين وليس وحي السماء.

عندما تطالع كتب السيرة (حصراً وتحديداً التراثية) تجد أن محمداً كان ينفر أشد النفور من الكهّان والكهانة ويصرّح في بدي أمره أنه لم يكره شيئاً قدر كرهه لهما. وعندما مرَّ بـ (تجربة غار حراء) وذهب إلى خديجة يرجف فؤاده وتهتز بوادره كان مما قاله إنه يخشى أن يكون ما حدث له ضرب من الكهانة فستنفي له ذلك الطاهرة أم هند (زوجته) وتؤكّد له أنه نبي هذه الأمة. فإذا جاء المشركون بعد ذلك وإثر أن صدع بدعوته وأدرجوه ضمن الكهّان الذين يتولى الشياطين إبلاغهم أنباء الغيب وأخبار السماء توافرت الدواعي لتبيين سخافة إستراق الشياطين السمع ونقل ما يتيسّر من أخبار سماوية يتداولها الملائكة.في ما بينهم أي نقلها إلى الكهّان الذين يتظاهرون بمعرفة الغيب ثم من البديهي أن تتضاعف الدوافع بعد أن أعلن محمد للملأ أنه نبي يُوحى إليه من السماء بيد أن المفسّرين كانوا حتى ذاك الوقت يعتنقون مذهب فهم القرآن وتفسيره على الأساس التاريخي أو الواقع العملي توقّفوا مشدوهين أمام هذا الأمر. إذ كيف أن هؤلاء الجن الذين يفعلون ذلك ثم يتبعهم شهاب ثاقب يحرقهم لا يتّعظون بمَن احترق منهم مرة أو عشر مرات فيكفّوا عن إستراق السمع. وإذا كان الجن من نار فكيف تحرقهم الشهب وهي من نار إذ من المعلوم أن النار لا تحرق النار بل تزيدها إشتعالاً وتوهُجاً؟

كما أن الفلاسفة فسّروا الشهب تفسيراً علمياً وثبت أنها ليست مرسَلة من

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

السماء. والملائكة وقد علموا أن الشياطين تسترق السمع مرة ومرات فلماذا لم يكفّوا عن تداول الأخبار بينهم بالحديث ليفوّتوا على الشياطين غرضهم؟ وما دام قذف الشياطين بالشهب كان لحماية النبوَّة فلماذا استمرّت الشهب بعد إنتقال محمد للرفيق الأعلى راضياً مرضياً؟

وأخيراً: ألم يكن من الأسهل منع الشياطين من الصعود إلى السماء أصلاً بدلاً من الإنتظار حتى إقترابهم منها ثم رميهم بالشهب بعد ذلك. ويرى خلف الله أن القرآن قد اختار أن يحارب هذه العقيدة (إستراق السمع والرمي بالشهب) بأسلوبه الخاص القائم على فكرة التدرُّج كما حدث في محاربة الخمر كما أن القرآن يأخذ الناس بتصوُّراتهم وأنه سلَّم بهذه العقيدة ليهدمها بالتدريج.

ونحن لا نوافق المؤلِّف في هذه الخصوصية ولا نسلِّم بمسألة التدرُّج وذلك لعدة أسباب منها أن منهج القرآن لم يكن الأصل فيه التدرُّج وهناك عقائد كثيرة نهى عنها مرة واحدة وبحسم ومسألة الخمر تكاد تكون إستثناء لا يقاس عليه. ومنها أن هذه العقيدة مرتبطة بعقيدة وجود الجن أو الإعتراف بوجوده فإذا كان الجن موجوداً أصلاً فإن صعوده لاستراق السمع فرع منه إذن ليس الأمر الأخذ بالتصوُّرات والإيجاز والقول إن الإقرار بالجن أو بمعنى أدق الإيمان بوجوده أخذ بتصوُّرات الناس وهذا ما لا يسلِّم به أحد، ومن ناحية أخرى لو كانت مسألة التدرُّج صحيحة لانسحب التدرُّج إلى فكرة الجن نفسها.

ولأن عقيدة الجن معترَف بها في الديانتين الإبراهيميتين الساميتين (اليهودية والمسيحية) ونرجِّح أنهما ورثتاه من الديانات السامية القديمة التي كانت مهيمنة على المنطقة قبل ظهورهما ثم جاء الإسلام وأقرَّ عقيدة وجود الجن مع الوضع في الحسبان تمكُّنها من عقيدة عرب الجزيرة وقت ظهور محمد. ولا ندري لماذا ترك خلف الله في هذه الخصوصية فكرة التفسير الأدبي وتبنى فكرة الأخذ بتصوُّرات أهل مكة والقول بها. فالأقرب إلى المنطق أن يقول إن قصة إستراق الشياطين للسمع وإحراقهم بالشهب الثواقب يمكن تفسيرها بأنها صورة أدبية مُعجِبة لتصوير مناعة السماء وما فيها من غيوب وأن مَن يدفعه غروره من البشر لمحاولة إختراقها أو الإقتراب منها يحترق...

يختم خلف الله هذا الجزء من الفصل الأول بأن القارىء إذ وضح لديه أن القصة القرآنية قد قُصد منها إلى التاريخ فعليه أن يؤمن بما جاء فيها على أنه التاريخ مثل أن إبراهيم لم يكن نصرانياً أو يهودياً، أما المقصود منها إلى العبرة والعظة والهِداية والإرشاد فلا يلزم أن يكون تاريخاً بل معارف تاريخية شاعت لدى اليهود والعرب ولا يشترط مطابقتها للحق والواقع، والقرآن إذ فعل ذلك فهو أمر أجازه النقد الأدبي والبلاغة العربية وجرى عليه كبار الكتّاب ويخلص إلى أنه لا يصح بذلك توجيه إعتراض على النبي عليه السلام ولا على القرآن الكريم. وواضح أن هذا دفاع مجيد عن القرآن ومحمد ولا غرو في ذلك فإن الكتاب في مجمله هو دفاع عنهما يستحق المؤلِّف عليه الثناء والحمد.

الفصل الثاني:

في الفصل الثاني تناول خلف الله القيَم الإجتماعية والنفسية التي تغيّاها قصص القرآن فذهب إلى أنه يحق لكل مسلم أن يفخر بها وأن يطمئن كل باحث وُهب ذوقاً رفيعاً أنها من أكبر مواطن الإعجاز (في القرآن).

وذكر أنه سيقتصر على دراسة القيَم الإجتماعية العامة كالنواميس الإجتماعية والنفسية التي تثبت وتستقر ولا تتغير بتغيُّر الظروف والأحوال ويعني بها النظريات التي أشار إليها القرآن أو لفت الذهن إليها وهو يصوِّر العوامل المؤثرة في رقي الأمم وحياة الشعوب التي لا تتخلَّف في زمان أو مكان.

وضرب على ذلك أمثلة شارحة منها ما جاء في سورة البيِّنة عن حاجة الأمم والجماعات إلى قادة وأبطال ينيرون أمامها الطريق وينقذونها من إسار التقاليد البالية. وإلى إختلاف الناس بشأنهم ما بين مؤيد ومعارض. وبما جاء في سورة الإسراء من أن الأمة التي تستعصي على التجديد تهلك. ويشرح النواميس النفسية وما يقصده بشأنها فهي العواطف والإنفعالات أو الأسس النفسية التي تصاحب سلطان مبدأ أو سيطرة زعيم والتي تمكّن للمبادىء أو تزعزع سلطانها أو تحد من قدرتها أو التي تظهر في الأفراد أو في الجماعات حين تلم بها الأحداث أو تزعجها صروف الزمان ومثل التضحية في سبيل المعتقَد بالنفس والنفيس ويوضح لنا المؤلّف أنه جمع بين القيَم الإجتماعية والنفسية تأسياً بالقصص القرآني

الذي وحّد بينهما في كثير من الأحيان فضلاً عن أن النواميس الإجتماعية لا تُفهم إلا على أسس نفسية.

وقبل أن نمضي مع خلف الله في تسجيله لتلك الظواهر يهمّنا أن نبدي ملاحظة وهي أنه لم يبيِّن لقارئه ما هو الإعجاز الذي يستشعره الباحث والذي يفخر به المسلم وهو يطَّلع على هذه القيَم الإجتماعية والنفسية التي امتلأ بها قصص القرآن فإن كان الإعجاز في إيراد هذه القيَم بنوعيها ففي رأينا أن ذلك ليس إعجازاً لأن فلسفات ومذاهب قديمة عرفتها ونادت بها وقال بها ودونها حكماء وفلاسفة منذ قرون طويلة سابقة على ظهور الإسلام.

أما إذا كان الإعجاز في طريقة السرد... إلخ فهذا ما لا يجادل فيه أحد... وكان حرياً بالمؤلِّف أن يحدِّد مبعث إطمئنان الباحث صاحب الذوق الرفيع والحس المترف عند إطلاعه على موطن الإعجاز وأن يعيِّن لنا أسباب فخر المسلمين جميعهم وعلى بكرة أبيهم بهذه القيَم هل لذاتها أم لطريقة عرضها.

بداية تلك الظواهر هي:

أ ـ الأنبياء والبيئة:

من نافلة القول أن نسطر أن الأنبياء لهم دور متميِّز في أي ديانة حتى يمكن أن يقال إنه الدور الأول ومن هنا اهتم القرآن بتسليط الأضواء الكواشف عليهم وصوَّر نفسياتهم حيال مبادىء الإصلاح وسلطانهم عليها وحيال كل من مؤيِّديهم ومعارضيهم؛ وهم رغم أنهم كانوا أثراً من آثار بيئاتهم ومن نتاجها إلا أنهم أثَّروا فيها فهم الذين يجدِّدون بناء المجتمعات بما يبثّونه فيها من أفكار وآراء وفي بدّي الشأن آمن بعضهم بما كانت مجتمعاتهم تدين به من عقائد فلما استبان لهم فسادها باينوها وفاصلوها ودعوا إلى العقائد الصحيحة التي أوحى الله لهم بها وفي كثير من الأحيان كانت البيئات أو المجتمعات تصل إلى حال من الفساد والتفسُّخ حتى إن حكماءها وعقلاءها كانوا يعلِّقون آمالهم على ظهور مخلِّص لها ومصلح لأحوالها ويستجيب الله لهم فيرسل النبي. والواضح أن المؤلِّف يتبنَّى نظرية إمكانية الفرد، أي فرد، في تغيير مجتمعه إما بتأثيره الذاتي بما يتمتَّع من شخصية كارزمية أو

بما يدعو إليه من أفكار ومبادىء ومُثُل وهي نظرية تجد معارضة شديدة فالفرد أي فرد ـ من المستحيل أو من العسير أن يتيسَّر له ذلك إلا إذا كانت أبعاد عصره التاريخية وأحوال مجتمعه المادية والمعنوية وظروف بيئته التحتية والفوقية تعينه على ذلك ولا يتوفَّق له ذلك ولا يُكتب له النجاح إلا بتبديل الظروف المادية على وجه التخصيص ولنضرب لذلك مثلاً من المسيحية فرغم سمو المبادىء التي نادى بها عيسى بن مريم فقد ظل المؤمنون بدعوته على هيئتهم رغم ثمانة الرأسمال الرمزي الذي كان بين أيديهم ولم تتبدَّل أحوال المسيحيين والمسيحية إلا بعد إعتناق الأباطرة الرومان لها وانتقالها إلى مجتمعات وبيئات ذات أحوال مادية مختلفة تمام الإختلاف عن أحوال البيئة والمجتمع اللذين بشَّر بها فيهما ابن مريم.

ب ـ إنقسام الجماعات:

ما إن يدعو رسول إلى عقيدته أو مصلح إلى دعوته حتى ينقسم الناس حياله إلى فرقتين: الذين هداهم الله فاتَّبعوه والذين لم يهتدوا فعارضوه. ويقرِّر القرآن أن هذا ناموس عام من النواميس الإجتماعية وأنه انطبق على أمم جميع الأنبياء ويطلق القرآن على المناوئين وصف ﴿**عدواً من المجرمين**﴾[1] وأن ذلك حدث ﴿**لكل نبي**﴾[2] بل إن ناموس الفُرقة والإختلاف ينطبق على الأسرة الواحدة وفي البيت الواحد وأمثلته: فرعون وزوجته ونوح وابنه وإبراهيم وأبوه.

ولتلك الفُرقة أسباب منها الأحوال المعيشية فالأغنياء يشكِّلون على الدوام حزب المعارضة وينفقون الأموال الجسيمة في صد الناس عن الإستماع لداعي الإصلاح في حين أن الفقراء هم الذين يسارعون إلى الإستجابة للأنبياء ويقفون معهم ويشدّون أزرهم.

ويسمِّي القرآن الفُرقة الأولى: المستكبرين أو الملأ ويفسِّره الراغب الأصفهاني في المفردات بأنهم الذين يملأون العين مهابة. ويطلق على الفرقة الأخرى: المستضعفين أو الأراذل وبداهة تتعارض توجُّهات الفرقتين حتى تستعر بينهما الخصومة ويبلغ الصلف بالمستكبرين مداه حين يدَّعون أن من أسباب رفضهم الإنضواء تحت راية النبي هو إنضمام

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٣١.

(٢) نفس السورة والآية.

الأراذل أو المستضعفين إليه ويسألون النبي نبذهم وإبعادهم ويذهب المؤلِّف إلى أن علة معارضة الأغنياء أو الملأ هو حرصهم على عدم إحداث أي تبديل في أحوالهم الميسرة التي ألفوها... وهذا سر تخويف القرآن لهم وقصده إلى زعزعة تلك الأسس في نفوسهم.

أما الفقراء فقد ألهتهم ضرورات الحياة وطالما تمنّوا تغيير أحوالهم فما إن سمعوا الداعي حتى سارعوا إلى تلبيته. والغنى والكبر والإستكبار والعناد قرناء ومن هنا ينبع الطغيان. والفقر والذل توأمان ومن هنا يغدو الفقير أسهل إنقياداً. والغني يندفع إلى حب الحياة والحرص عليها والتمسُّك بما خلَّف الآباء والنفور بل المقت الشديد لترك ما ألفه إرثاً من السلف. والفقير ليس بيده ما يحرص عليه فلا مال ولا جاه ولا ميراث من الآباء والجدود. ومن هنا نجد الغني شديد المناوأة والفقير سريع الإستجابة لدعوات الأنبياء.

لقبول دعوة النبي شرط على درجة من الأهمية والخطر وهو تهيئة الأذهان لقبولها والإقتناع بها وهو (هذا الشرط) من أول مهام النبي ويتوقَّف نجاح دعوته على توفيقه في القيام به وهو يفعل ذلك مرة بالتبشير وأخرى بالإنذار أي بالترغيب والترهيب ولما كان الإنسان يفسِّر ظواهر الوجود بما يعتنقه من أفكار وآراء فهذا الملحظ النفسي يجعل الذين تتقارب تفسيراتهم متحدين في الأفكار والآراء والعكس أيضاً صحيح. والهداية التي يقوم بها الأنبياء هي توحيد الآراء والأفكار بين تبعهم مما يستتبع توحيد تفاسير ظواهر الوجود ـ ولكي تغدو الثقافة ـ التي يذيعها النبي في أتباعه مفيدة لدعوته يتعيَّن ألا تكون الصلة بينها وبين الثقافة القديمة منبتَّة ـ وكلما كانت العلاقة بينهما حميمة خلقت جواً عاطفياً يمكِّن لدعوة النبي ويوثِّقها والعكس صحيح إذ كلما ضعفت الصلة قوبل الجديد بفتور وإعراض وكره.

وضرب خلف الله لذلك ـ مثلاً من السيرة النبوية وهو سرعة إستجابة اليثاربة (أهل يثرب/المدينة) للدعوة الإسلامية في حين نفر منها المكّيون. لماذا؟

لأن اليثاربة وقد جاوروا واختلطوا بل وتناكحوا باليهود كانت ثقافة (الكتاب) لديهم معروفة أما أهل مكة فقد كانت ثقافتهم وثنية. ولذا فعندما رفض أهل الكتاب دعوة محمد عاب عليهم هذا الموقف.

وينهي خلف الله حديثه عن الإنقسام والفُرقة بتناول سلطة التقاليد وما لها من قيمة إجتماعية إنما هي عُملة ذات وجهين فمن ناحية تفيد المجتمع بالتماسك والترابط ومن ناحية أخرى تثقله وتكبّله وتجعله يخلد إلى الأرض ولا يقبل أي دعوة إلى التقدُّم ويرى الباحث أن خير الأمم الواقفة في الوسط فلها من التقاليد ما يحفظ عليها تماسكها وفي الوقت نفسه لا يمنعها من النهوض.

ويذهب إلى أن الأمم الصناعية والتجارية أقل إنقياداً للتقاليد من الأمم الراعية والزارعة... وإلى أن النظام الرعوي أشد إنصياعاً للتقاليد وقد اتّضح ذلك في القرآن في عدة مواضع وهذا ما أفقد العرب عن الإستجابة لدعوة محمد ومنع المجتمعات الرعوية عن الإستجابة لسابقيه من الرسل: إبراهيم، هود، موسى.

وقبل أن نختم هذه الفقرة نتساءل لماذا لم يوضِّح لنا خلف الله العلة في وراء ظهور الأنبياء والنبوات في المجتمعات الرعوية وعدم ظهورها في المجتمعات الصناعية والتجارية وكذلك ظهورها في المجتمعات المتبدِّية أو التي حظّها قليل من الحضارة والمدنية؟

ألم يكن هذا لازماً وهو يتناول الأنبياء والبيئة والتقاليد وسلطانها وكيف أنها في مجتمعات الرعاة لها القِدْح المعلّى ونصيب الأسد من التمكُّن... وكيف إنعكس ذلك أثره في (القصص القرآني).

ج ـ نفس المؤمن لا تطيق المخالف:

يخلق الإيمان في نفوس المؤمنين جواً عاطفياً نحو الآراء والأشياء معاً وهو ذاته الذي يحدِّد مواقفهم من المخالفين فهم بداية ينفرون بل يكرهون مَن يقترب من عقائدهم (بنقد) أو يمسّها مساً ولو خفيفاً بسوء وبداهة أن هذا ينطبق على المؤمنين بأي عقيدة أو ملة ومن هذا المنطلق تكره الجماعة مَن يشذ عن عقيدتها ويخرج عن دينها وتعدّ ذلك من علاقات تفسُّخ وإنحلال الجماعة وساق خلف الله أمثلة من القرآن مثل موقف الثموديين من صالح وقوم هود منه وقوم فرعون من موسى. وهذا ناموس إجتماعي عام ينطبق على الناس جميعهم بلا تفرقة.

وفي المقابل يعتقد المؤمن بأنه على حق والطرف الآخر على ضلال وأنه يملك

الحقيقة المطلقة ومخالفه على الباطل فاليهود تعتقد أن النصارى ليست على شيء وقالت النصارى عنهم القالة نفسها وقوم نوح اعتقدوا فيه الضلالة وأكّد قوم شعيب على أن مَن يتبعه فهم الخاسرون وهكذا.

والإيمان بعقيدة يوحد مشاعر المؤمنين بها ويخلق بينهم نوعاً من الترابط ويؤسّس عليها تقاليد وعادات تحرص عليها الجماعة الحرص كله وتعدّ الخروج على العقيدة والأعراف والتقاليد المنبثقة منها مروقاً وفتنة. إنما المخالف للعقيدة قد يأتي بعقيدة جديدة وهذه هي حال الأنبياء فيصيبه الأذى الذي يبدأ بالسخرية والإستهزاء والتحقير والتهوين ثم الوعيد والتهديد مرة بالرجم وأخرى بالنفي والتغريب وثالثة بالتصفية الجسدية وفي عدد من الأحوال يتحول التهديد إلى دائرة التنفيذ مثل محاولة إغتيال صالح ورمي إبراهيم في النار والتآمر ضد محمد حتى اضطر إلى الهجرة إلى أثرب وكذلك أتباعه من المهاجرين وقتل زكريا ويحيى.

ويوحي هذا الناموس بأن الدعوات بهذه المثابة محكوم عليها بالإخفاق لأن المناوئين والمعارضين أقوى من الداعية الجديد وتبعه الذين وضح من ناموس سابق أنهم من الضعفاء والأراذل والفقراء بيد أن هناك عوامل تبطل مفعول هذا الناموس منها أن التمسُّك بالقديم والتعصُّب له عند مخالفيه بمضي الزمن يخفت أوارهما وتبرد نارهما ويضرب خلف الله مثلاً من مسيرة الدعوة الإسلامية فالعقيدة أو الثقافة الوثنية تراخت مفاصلها ووهنت قبضتها وهزل سلطانها على النفوس (بفعل اليهودية وغيرها فتهوَّدوا وتنصَّروا وتحنَّفوا وتركوا عبادة الآباء والأجداد بل هفَّت نفوسهم إلى الرسالة والكتاب). وثاني تلك العوامل أن هناك صلة ما تربط على الدوام بين الجديد والقديم من الأديان ومن ثم فلا يكون الأمل (أعني الجديد) غريباً على البيئة وأهلها وهو ما أكّده القرآن حينما ذكر أنه شرَّع لمحمد ما وصَّى به نوحاً ومَن جاء بعده من الأنبياء وأن الكتب يصدق بعضها البعض وأن القرآن (الكتاب) نزل بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه...

وآخر تلك العوامل صلة الرسول وقومه والبطل وأمته التي تجعل كلاً منهما يستعذب الألم ويستمرىء العذاب ويستملح الأذى في سبيل هِداية قومه الذين يقفون منه

موقف العداء فيعتب عليهم ذلك لأنهم لم يدركوا أن مقصده سامٍ وهو إخراجهم من الظلمات إلى النور وأن هدفه الإصلاح ما استطاع... ويأتي خلف الله بالأمثلة على ذلك من سيَر الرسل كما نصَّ عليها القرآن. هذا الموقف المتسامح الصادر من النبي حيال قومه بالضرورة يترك أثره على الجماعة نفسها فلا تعجّل بعقوبته وهي تعزو خروجه عما ألفته من عقيدة إلى أنه قد ألمَّ به مس من الجنون أو أن آلهتهم التي جاء هو لإلغائها قد اعترته بسوء إنتقاماً وقد تعمد إلى سبيل آخر وهو الرجوع إلى رهطه وعشيرته تقديراً منها لهم. وألمع المؤلِّف إلى ما جاء بالقرآن عند ذِكره لقصة شعيب ﴿**ولولا رهطك لرجمناك**﴾[1]. ونضيف مثلاً آخر من سيرة محمد وهو ذهاب بعض صناديد قريش إلى عمه وكافله وراعيه أبي طالب وكبير قريش آنذاك أن يكفّه عن التعرُّض إلى آلهتهم.

إذن الصلة بين البطل والبيئة قد تكون سبباً في نجاح الدعوة وقد تكون عقبة في سبيلها ومن هنا ينبع سر محاربة القرآن لها وإعلاء شأن العاطفة الدينية عليها وحث المسلمين على نبذ المودة القرابية إذا كانت على حساب الدين وضرب لهم إبراهيم مثلاً في الأسوة الحسنة إذ تبرأ من أبيه وأقربائه الأدنين عندما خالفوه في العقيدة.

ويختم خلف الله هذه الفاصلة أو الفقرة (نفس المؤمن لا تطيق المخالف)... بقوله إن البطل (المخالف) لما يناله من أذى هو الطرف الضعيف فاقد الحول والقوة الذي لا يملك إلا الإلتجاء لربه بالدعاء بالتمكين له ولأتباعه وبهلكة مناوئيه وأنه يلجأ إلى طريق أو وسيلة أخرى هي تهديدهم بالمصائب تنهال عليهم في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ويضرب أمثلة مما جاء في القرآن تأييداً لوجهة نظره مثل إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم على آل فرعون... وما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب...

ولكن البطل لا يظل ضعيفاً بل يتكاثر حوله الأعوان والأنصار ويستشعر القوة فيبدأ في مواجهة المناوئين وإجبارهم قهراً على إتباع تعاليمه وهذا هو الذي نلحظه من موقف النبي العربي من المشركين. وفي تلك اللحظة يتحقق النصر للدعوة.

(١) سورة هود، الآية ٩١.

وهنا نعيد القول في جرأة خلف الله فيما يسطره في أطروحته غير عابىء بما قد تسببه كتاباته من غضب التقليديين فهو هنا يؤكد أن النبي العربي قد أجبر المشركين من العرب بالقوة على الدخول في الدين الذي كان يفشوه ورغم وجود نصوص صريحة من القرآن والسنَّة (أقوال وأفعال وتقريرات محمد) تؤكد ذلك فإن التقليديين يحاولون قدر المستطاع التضبيب على هذه المسألة وإلقائها في مربع الظلام مع أن وقائع السيرة المحمدية تثبت إنتشار الإسلام بالسيف وأن شعار السرايا والبعوث التي كانت تُرسل إلى القبائل والبطون والأفخاذ، أسْلِم تسلم، أي اعتنق الديانة الإسلامية تحقن دمك وتحفظ أولادك ونساءك من السبي وأموالك من إغتنامها... فعندما يجيء المؤلف ويؤكد هذه الحقيقة التي يشيح بوجهه عنها المحدثون من البحّاث والكتّاب الإسلاميين فإنه يستحق منا أن نسجِّل له هذا الموقف بالإمتنان خاصة وأن ذلك كان منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان، ولسنا في حاجة إلى تكرير القول بأن هذه النقطة كانت من أسباب العاصفة التي ثارت حول الرسالة سواء صرَّح بذلك أصحابها أم جمجموا. إذ كيف يفتقرون لخلف الله أن يبعث من بطون الكتب وتلافيف المؤلفات حقيقة قسْر عرب الجزيرة على دخول الإسلام بحد السيف مع أن ذلك ثابت من آيات القرآن الصريحة وأقوال وأفعال محمد الواضحة التي لا لبس فيها المدوَّنة في كل الكتب التراثية.

ويكفي أن نشير إلى ما جاء في صحيح مسلم: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله وأورد حديث محمد أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمَن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله. أورد الحديث بعدة روايات مما يؤكد ثبوته... ومما هو معلوم أن صحيح مسلم هو من كتب الصحاح الستة وأنه التالي في المرتبة لصحيح البخاري الذي يقال عنه أنه أصح كتاب بعد القرآن ولو أن هناك من الباحثين مَن يفضِّله على البخاري.

وأياً كان الأمر فإن نشر الإسلام بالسيف حقيقة نصوصية وتاريخية ثابتة وأن خلف الله عندما أكَّدها إنما أكَّد حقيقة علمية وليغضب المناوئون ما شاء لهم الغضب وليسخط المخالفون ما استطاعوا من السخط فإن الحقائق الثابتة لا يزيلها الغضب ولا يرفعها من أماكن ثبوتها السخط.

ولقد أحسن خلف الله أيما إحسان عندما ضرب مثلاً على أن النبي ـ أي نبي ـ عندما يكثُر أنصاره ويغزر معاضدوه ويتضاعف أتباعه يقضي على مخالفيه بالقوة ويقهرهم على إتباع تعاليمه والإيمان بدعوته نقول عندما ضرب مثلاً «بموقف النبي العربي من المشركين وأضرابهم» ورغم ضآلة هذه الفكرة في سياق الرسالة وهامشيتها بالقياس إلى متنها فإنها ولا جدال تعدُّ نقطة ضئيلة ولا يمنع صغر حجمها من أنها أضافت إلى الأطروحة قدراً مهماً كان حجمه من الأصالة والصدق والإصرار على تحرّي إيراد الحقائق العلمية مهما كانت شائكة.

د ـ الرسول لا يشك في مستقبله:

وفي رأي خلف الله أن الناموس السابق يفرز نتيجتين:

الأولى: ذهاب الرسول ضحية المبدأ والعقيدة بالقتل أو بالهجرة والقرآن لم يقص ذلك إلا نادراً أو لجأ إلى الإبهام وممَّن قُتل يحيى وممَّن هاجر إبراهيم بعد أن أجمع قومه على قتله أو حرقه فأنجاه الله من النار. بيد أن الهجرة في حقيقتها نصر للنبي وللدين الداعي إليه وتأييداً لوجهة نظره ضرب مثلاً بموسى ومحمد عليهما السلام.

والأخرى: إنتصار الرسول وسيادة الدين الجديد وذيوع مبادئه ولقد أكثر القرآن من ذِكر هذه النتيجة. ولم يبيِّن لنا خلف الله لماذا أبهم القرآن وأجمل الأولى والعكس بالنسبة للأخرى.

ولعل من الأسباب التي تُطرح شرحاً لذلك هو أن منهج القرآن في ذلك كان حكيماً ففي الإبهام والإيجاز حيال الأولى والإكثار بالنسبة للأخرى حفز لهمة النبي وتشجيع له ولأتباعه على مواصلة المسيرة وبالمقابل تثبيط عزائم المناوئين له من المشركين والمنافقين ومَن على شاكلتهم، والعكس صحيح.

إنما هناك عقبات متعددة تقف في سبيل إنتصار النبي عليه تجاوزها وأطلق عليها الباحث (العقبات الداخلية):

يأتي في مقدَّمها طبيعة الشخص ذاته مثل كونه ضعيف الإرادة لا طاقة له بالسيطرة عليها ومثّل الباحث لذلك بآدم عندما عصى ربه إذ نهاه عن الأكل من الشجرة فلم يمتثل

ووصفه القرآن بـ ﴿**لم نجد له عزماً**﴾[1]. وقد تكون عقيدة نفسية تقبع في لا شعوره ولكنها تتخايل له وتسيطر عليه وضرب على ذلك بمثل من قصة موسى وهو قتله للمصري فلما اصطفاه ربه واختاره لأداء رسالته طلب منه أن يرسل معه أخاه هارون ليغدو له ردءاً فاستجاب له.

والرغبات المكبوتة إحدى صورها (العقبات الداخلية) مثل حرص محمد عليه السلام على تحسين علاقاته حرصاً شديداً بينه وبين قومه وأشار القرآن إلى ذلك ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت أن تركن إليهم شيئاً قليلاً**﴾[2].

ثم يتناول ما يسميه (العقبات الخارجية) ويذهب إلى أن صورها في القصص القرآني متنوعة وكثيرة منها تكذيب الرسول أو النبي ووصفه بنعوت بشعة ونزول الشيطان عليه أو أن آلهتهم اعترته بسوء أو تحدّيه أن يأتي بمعجزة وضرب لها مثلاً بمجابهات ملإ عاد للنبي هود.

هذه العقبات الخارجية قد تكون لها آثار أو عواقب تختلف من رسول لآخر فقد تؤثّر على أحدهم فتخرجه عن حد الإعتدال والقصد وأبرز مثل لها هو ذو النون عليه السلام ﴿**إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه**﴾[3] وقد تؤثّر على إتجاهه العام حتى ليُهمّ بترك دعواه مثل ما جاء في القرآن ﴿**فلعلك تارك بعض ما يُوحى إليك وضائق به صدرك**﴾[4].

وقد يتألم النبي ألماً عنيفاً لحد أنه يبعث الشك في نفسه ويبذر اليأس في قلبه والأولى صوَّرها القرآن بـ ﴿**فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك**﴾[5] والأخرى في قوله ﴿**حتى**

(١) سورة طه، الآية ١١٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

(٤) سورة هود، الآية ١٢.

(٥) سورة يونس، الآية ٩٤.

إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾[1].

وقبل أن نغادر هذه النقطة من البحث نبادر بالتعقيب عليها:

فقد كنا نفضل أن يسمي الأولى (العقبات الذاتية) بدلاً من (العقبات الداخلية) لأنها تنبع من الذات كما أن توصيف داخلية وخارجية أدخل في ميدان السياسة. كذلك فإن الفصل بين الداخلية والخارجية في بعض الحالات فصل تعسُّفي إذ ما هو الحد الفاصل بين ضعف الإرادة والعقدة النفسية والرغبات المكبوتة وبين الإستجابة لدواعي الألم (النفسي) وإنبعاث الشك في النفس واليأس في القلب، فهي إما غرائز مثل غريزة الخوف أو عواطف مثل إنبعاث اليأس في القلب أو محاولة التحبُّب أو التقرُّب من القوم أو الرهط أو العشيرة وجميعها عقبات ذاتية أو داخلية حسب تعبير المؤلِّف. والحالة الوحيدة التي صحَّ وصفها بـ (الخارجية) هي موقف المعارضين والمناوئين للنبي أو الرسول إما بالأقوال أو الأفعال.

وفي النهاية ورغم جميع المعوقات والعقبات ينتصر الرسل لأن الله كتب لنفسه ولرسله الغلبة والفلح وتلك العقبات تزيدهم صلابة وقوة ويرجع نصرهم إلى أمرين:

١ـ العقيدة الدينية التي تملأ صدور المؤمنين ويحسبون أن الله معهم يكلأهم برعايته والمثل على ذلك ما وصَّى به موسى قومه من الإستعانة بالله مع الصبر وعاقبة ذلك وراثة الأرض.

٢ـ فن القص الذي يفيض أثراً نفسياً عميقاً على المعاصرين وهم يطالعون أخبار السابقين الذين كان النصر حليفهم في نهاية الأمر.

ولما كان خلف الله يتكلم عن نواميس عامة تنطبق على كافة النبوات وسائر المرسلين فإن العامل الأخير وهو فن القصص وأثره على النفوس لا ينطبق على جُلّ الأنبياء فأتباع نوح وهود وصالح وشعيب وذي النون إلخ. لم يكن بين يديهم قصص يترك أثراً نفسياً عميقاً أو غير عميق عليهم.

في الفصل الثالث الذي يحمل عنوان (القيَم الدينية والخلقية) يعترف خلف الله بأنه

(١) سورة يوسف، الآية ١١٠.

لم يقم فيه بأي إبداع وإنما تنظيم وعرض ويرجع ذلك إلى سبق معالجته لموضوعاته في أطروحة (الماجستير) ولا ينسحب ذلك على أمرين:

الأول: الخروج من الأمور الخاصة إلى الأمور العامة الخاصة بمحمد عليه السلام وبغيره من المرسلين.

الآخر: أي الثاني هو تناوُل المعاني الخُلقية واللمحات الخاطفة التي صوَّر بها القرآن بعض العادات.

بعد هذا التمهيد السريع يذهب إلى أنه فيما يتعلق بالمعاني الدينية الواردة في قصص القرآن هي الخاصة بالآلهة ثم الرسل والمعجزات، وهو ما يمشي مع طبيعة الدعوة الإسلامية ومع طبائع الأشياء... ويقرِّر الباحث أن أكثر القصص القرآني مكي وفي تلك المرحلة اتَّجهت الدعوة إلى المسائل الكبرى التي تشغل كل دين وهي الوحدة التي تنظِّم كافة الأديان وعرضها القرآن **﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى...﴾**[1].

بيد أن القصص القرآني كان يعتني بأمور مخالفي الدعوة ومعارضي النبي ـ ص ـ كيف؟ إذ أن في هذه العبارة قدر من عدم الإلتئام!

القصص عندما يشرح تلك (المسائل الكبرى) ويكون الخطاب للمخالف والمناوىء فإن في هذا إعتناء به فعندما يجادلهم في الوحدانية والرسالة والبعث... إلخ. فكأنما أو هو بالفعل أعطاهم قدراً من الإلتفات. في الوقت الذي يرى فيه خلف الله أن معتنق الديانة الإسلامية والداخل في حظيرتها لا يقيم صعوبة ولا يثير جدلاً، إنما يستثني بعض العادات الأخلاقية التي استقرَّت في نفسه من أثر النشأة الأولى مثل بخس الناس أشياءهم وتطفيف المكيال والميزان... إلخ.

في عنوان هذا الفصل قدَّم المؤلِّف القيَم الدينية على الخُلقية وربما مرجع ذلك قدسية الدين وأول ما بدأ به في هذا المجال هو التديُّن الذي هو في حسّ القرآن غريزة

(١) سورة الشورى، الآية ١٣.

إنسانية وبتعبيره الراقي ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[1]. ويشرحها بأنها تلك التي تسند قدرة عظيمة وقوى قاهرة إلى موجودات وكائنات مثل الأصنام التي يصنعها القوم بأيديهم تُعبد إتقاءً لغضبها ورجاءً لخيرها ومن هنا فالمجرمون أعداء كل نبي كانوا يخوِّفونه بها أن تلحق به أذى أو تمسّه بسوء.

وتنشأ عاطفة تزداد وتضعف بين العابد والوثن فيحبه ربما أشد مما يحب الله ولكن في نهاية الأمر يقرر القرآن أن حب المؤمنين لله يفوق كل حب.

ولفت القرآن النظر لتناقض عقلية عبدة الأوثان بين الصورة النفسية للآلهة في وجدانهم وبين واقعها العملي. وجسّم ذلك ليدرك عبدة الأوثان غفلتهم وضلالهم وهم يؤلّهون ما صنعت أيديهم وساق على ذلك مثلاً بما جاء في سورة الشعراء عن نبأ إبراهيم وجدال أبيه وقومه دفاعاً عن أصنامهم. وأيضاً ما ورد في سورة الأنبياء في هذا الأمر وإصرار عُبّاد التماثيل على عبادتهم إياهما وتعليلهم ذلك بإلف الآباء ومحاولة إبراهيم إقناعهم بالحسنى بخطئهم وفساد عقيدتهم... إلخ.

ثم سطّر الباحث ما قاله القرآن في حق المعاصرين للنبي – عليه السلام ـ والذي تغياه القرآن من هذه الصور هو إفهامهم ضلال الإنسان وهو يتّخذ معبوداً سوى الله.

وردَّ القرآن غريزة التديُّن أو الفطرة التي فطر الناس عليها إلى إله واحد هو الله الذي دعا جميع الرسل بلا استثناء إلى عبادته وحده. فهو المستحق للعبادة الحقة لأنه منزَّه عن كل نقص وعن الشريك أو الشريكة أو الولد ويسوق الباحث سورة الإخلاص ـ والتي قال محمد إنها تعدل ثلث القرآن ـ على أنها الصورة المثلى لله الواحد الأُحد.

وإذ أن الإنسان كان يعبد الآلهة لدفع الضر وجلب المنفعة ومن ثم غدا أمر تنظيم علاقة العابد بمعبوده أمراً محتوماً بتقديم فروض الطاعة والمحبة الذي يتّخذ هيئة الفرائض الدينية وتقديم القرابين والضحايا.

ويلاحظ خلف الله أن القرآن (أهمل هذا الجزء الأخير إلا في النادر القليل) ولذا

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

قصر حديثه عن الصلات التي بموجبها يعرف العابد الأوامر والنواهي التي تؤدي بطريق الحتم واللزوم إلى مرضاته ليدفع النقم ويجلب النعم وييسّر العسير، وقد تتّخذ صوراً حسية بالغة الجلافة مثل إجالة الأقداح والإستقسام بالأزلام وهذا ما كان يفعله معاصرو محمد ـ ووسيلة أخرى تتّخذ صورة وسائطية أي غير مباشرة مثل إتصال الكهّان والعرّافين بالأرواح الخفية لكي تطلعهم على أخبار السماء وقد حارب القرآن هذا المسلك.

بيد أن أسمى طرائق الذي ينظّم علاقة العبد بالرب أو العابد بالمعبود هو إختيار واحد من البشر ليكون هو الرسول، والباحث هنا لا يتناول بشرية الرسول من الوجهة الإجتماعية بل تلقّيه الدين ليوصله إلى الخلق ودعوتهم إلى الإيمان، فالله يستأثر بعلم الغيب ولا يطلعه على أحد إلا مَن ارتضى من رسول وهو يصطفي الرسول ليُطلع البشر على ما بلّغه الله إياه من غيب ويرسم لهم طريق المستقبل السعيد، وإلقاء ذلك في نفس الرسول له طرق متنوعة مثل الرؤيا الصادقة وهذا ما حدث مع كل من إبراهيم ويوسف عليهما السلام فبالنسبة إلى الأول رؤيا إبراهيم ذبح ابنه أما يوسف فقد رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له ونضيف أنه في سيرة محمد في بدّي رسالته كان يرى الرؤيا الصادقة فتأتي كفلق الفجر.

وقد يأتي إلقاء المعرفة عن طريق التكلّم وقد حدث ذلك مع موسى **﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾**[1] أو يرسل إليه ملكاً تمثّل في صورة البشر مثلما حدث مع مريم ومع إبراهيم... ونضيف أن هذه الهيئة كانت الغالبة مع محمد وكان جبريل يأتيه في العديد من المرات في صورة دحية الكلبي وهو صحابي كان يتمتع بقسامة ووسامة غير عادية حتى أنه كان يضع على وجهه قناعاً خشية أن تفتتن به الاثريبات ويرى خلف الله أن طريقة إلقاء المعاني المرادة في ذهن الرسول وهي الطريقة الأخيرة حدثت مع كل الرسل (هكذا بلا إستثناء) وأن القرآن قد جمع كل هذه الطرائق في قوله تعالى **﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾**[2] وإذ

(١) سورة النساء، الآية ١٦٤.

(٢) سورة الشورى، الآية ٥١.

أن الغالبية العظمى من الباحثين تطلق على (إلقاء المعرفة من الإله في نفس الرسول) وحياً فإن خلف الله لم يفعل ذلك واختار التوصيف أو العبارة المذكورة والذي نراه أن التوفيق حالفه في ذلك من وراء الوحي بحسب الآية التي سطّرناها آنفاً ضرب من ضروب الإلقاء في نفس الرسول ﴿... إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً...﴾ لأن (أو) تفيد المغايرة والإختلاف هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن الوحي ـ بحسب نص القرآن ـ قد يأتي إلى بشر عادي مثل أم موسى أو حتى إلى غير البشر مثل النحل.

ويعود الباحث إلى الحديث عن الأرواح الخفية فيذهب إلى أنها كانت تختلط في ذهن العربي وآثارها تدل عليها فإن أتت بالخير فهي ملائكة وإن جاءت بالسوء والشر فهي شياطين والأخيرة هي التي كانت تنزل على محمد في زعم أهل مكة وهذه علة خروجه على الجماعة وسبه لآلهتهم. وسبق أن ذكر الباحث أن الشياطين كانت تسمع أخبار السماء ومُنعت من أجل النبي عليه الصلاة والسلام. بيد أن هناك أمرين يلزم ذِكرهما:

الأول: أن الشياطين مُنعت بعد بعث النبي ويرى مفسّرون أنها تمنع في حياة كل نبي وليس المنع من خصوصيات محمد.

الآخر (الثاني): أن الرسول الذي يأتيه الوحي وتتنزل عليه الملائكة لا بُد له من معجزة تدل على صدق رسالته وصحة نبوّته. وهنا نذكر ملحظاً سريعاً وهو أن خلف الله قرن بين الوحي وتنزل الملائكة مما يدل على أنه اعتبرهما شيئاً واحداً فهل هذا يدل على رجوعه إلى رأي غالبية البَحّاث من أن الإلقاء في نفس النبي هو الوحي الذي يشمل كافة الصور السابق ذِكرها.

الشعب الذي يمن الله بفضل إختيار أحد أبنائه رسولاً يعتقد بنفسه الفضل وأنه محل الرعاية والعناية وقد آمن الإسرائيليون بذلك وأشاعوه في جزيرة العرب وترك ذلك أثره في حياتهم في الجزيرة وفي حياة الإسلام ونبيه والقرآن حكى عنهم قولتهم أنهم أبناء الله وأحبّاؤه في معرض حربه عليها (تلك العقيدة) وقرّر في حسم أن الرسالة لا تخص شعباً بعينه ولا أمة مخصوصة والله صاحب الفضل العظيم يؤتيه مَن يشاء. ويخلص خلف الله إلى أن القرآن يجعل الرسالة ظاهرة دينية وإجتماعية لا تختص بها أمة ولا شعب إلخ. ثم

يبدأ في دراسة المعجزات ونرجِّح أن ذلك مردَّه أنها ترتبط في الأذهان بأنبياء الله ورسله. والقرآن عندما جاء كان هناك مذهبان:

الأول: استقر إلى أن الرسول بطريق الحتم واللزوم يكون من الملائكة وقد رفضه القرآن وانتهى إلى أنه لا بد أن يكون من الجماعة التي عاش فيها وعرف آمالها وأحسَّ بآلامها.

الآخر (الثاني): يكون الرسول من البشر لكنه يؤيِّد بالمعجزات ومن هنا تنبع المطالبة الدائمة بإتيان المعجزة أو المعجزات على يديه... ولكن القرآن لا ينكر المعجزات إنما ينكر توقُّف الإيمان عليها أو حتى تعلُّقه بها ورغم أنه ذكر معجزات مَن سبق محمداً من المرسلين وفي المقدمة: موسى وعيسى فإنه يرى أنها جاءت للإنذار والتخويف وسمّاها آيات.

والقرآن يصرِّح أن الآيات قد تتوالى ومع ذلك فلا تثمر الإيمان لأن أكثرهم يجهلون. ويفسِّرها شيخ المفسِّرين ـ الطبري ـ أي أنهم يحسبون أن الإيمان موكول إليهم والكفر بأيديهم فإن شاءوا آمنوا وإن أرادوا كفروا. وعند هذا الحد يرى خلف الله أنه استوفى معالجة المعاني الدينية.

ثم ينتقل إلى المعاني الأخلاقية ومنهج القرآن في تصويرها فيقول إن له طرقاً خاصة في تصوير الأشياء الخلقية أولها النهي خاصة عن العادات الإجتماعية المرذولة وأمثلتها: تطفيف الكيل والميزان والصد عن سبيل الله والقعود لذلك بكل صراط وأورد الآيات التي تؤكِّده (النهي). وبعده يأتي التعجُّب أو الإستفهام الإستنكاري وكلاهما عن العادات القبيحة المرذولة التي بلغ من إستقرارها أن تحوَّلت إلى خُلُق عام وأبرز مثَل عليها اللواط الذي ابتدعه آل لوط ﴿**إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾[1].

وثالثها هو عرض أخلاق جماعات معينة أو بيئة ما من خلال السرد وفي حنايا السياق العام وكثُر ذلك في قصة موسى عليه السلام التي صوَّر فيها مقاطع من أخلاق اليهود وقوم فرعون. وتطرّق الباحث إلى نقطة على غاية الأهمية في هذا المجال الخُلقي أو

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٢٨.

الأخلاقي وهو الدور الذي يلعبه التعبير الأدبي في تصوير المعاني وذكَّرنا بالحرية الفنية التي يملكها الأديب أو القاص والتي تناولها وهو يتحدَّث عن المعاني التاريخية. ويُلمع إلى أن المسألة قد تكون حرب أعصاب لا أكثر ولا أقل وضرب على ذلك مثلاً: هو الهجوم العنيف الذي شنَّه القرآن على اليهود في العهد المدني.

وهنا نرى أن الدقة قد أعوزت الباحث وكان حريّاً به أن يسطر (في أواخر العهد المدني) لأن محمداً حاول في بادىء الأمر إستمالة اليهود وإدخالهم في دينه فلما استعصوا عليه انتهت بهم العلاقة إلى الإجلاء ثم القتل وفي هذه المرحلة المتأخرة كان الهجوم العنيف الذي حمله القرآن وأشار إليه خلف الله.

أول ما أُخذ على اليهود هو عدم الوفاء بالعهود وخُلْف الوعود ونقض الإيمان المؤكدة وعدم الأمانة (المالية) والكذب الصريح. ثم يضيف خلف الله أن هذا ما صنعه القرآن عن المصريين مع إضافة الإستكبار والخفة والطيش. وهنا يحق لنا أن نسلِّط الضوء على خطأ وقع فيه خلف الله كنا نتمنى أن يربأ بنفسه عن التردِّي فيه وهو الخلط بين فرعون وملئه من جانب والمصريين من جانب آخر فالقرآن عندما تحدَّث أو صوَّر إنما تحدَّث أو صوَّر أخلاق الأولين فقط ولو أن الباحث كلَّف نفسه عناء (إن كان في ذلك عناء) قراءة تاريخ مصر القديمة وعادات وأخلاق المصريين القدماء لما انزلق إلى هذه السقطة ولبرأ المصريين ـ وهو أحد أبناء مصر ـ من تلك المثالب والعيوب ولعلم أن المصريين القدامى هم الذين علموا الدنيا الضمير والأخلاق كما يقول برستيد في كتابه الرائع (فجر الضمير) وغيره من علماء المصرلوجي أو الإيجيبتولوجي خاصة وأن ما هو ثابت في القرآن لا يعين خلف الله على إثبات صدق ما انزلق إليه.

ويختم المؤلِّف حديثه في المعاني الخلقية بقوله إن الإقتصاد له أثره في بعضها مثل الإستكبار والعناد بالنسبة للأغنياء والذل والخنوع بالنسبة للفقراء وهو يرى أن الجوانب الخُلقية في قصص القرآن قليلة، وهو رأي يخالفه فيه العديدون.

الفن في القصة القرآنية

وأول فصوله القصة القرآنية وألوانها ,ومن البديهي أن يبدأ بتعريف القصة ثم بعده يتساءل هل في القرآن قصة فنية؟

يؤكد خلف الله أن الأقدمين من علماء البلاغة لم يلتفتوا إلى أن القصة لون من ألوان الفنون والآداب بيد أنه يعترف أن هناك من مسائل البيان ما يُعتمد عليه في شرح عناصر القصة الفنية وكذلك في تفسير الحوار والأحداث وصلة كل هذا بالحق والواقع أو بالعرف والخيال وكذا في بيان إستخراج القيَم العقلية والتيارات الفكرية منها (القصة) وأن الممثَّل به لا يلزم أن يكون من الحقائق بل من المشهورات المتداولة والفرضيات المتخيّلة.

والمؤلِّف يعترف أنه من الممكن إستقاؤه مما خلَّفه علماء اللغة الأقدمين من بحوث بل إنه اعتمد عليه، إنما لا يعني ذلك أنه يندرج تحت الثقافة الأدبية للقصة الفنية ولكن نحا ذلك المنحى بالإلتفات إلى مسائل البيان العربي القديم ـ لترضى عنه العقلية الأزهرية التي تجهل الثقافة القصصية ولا يعجبها إلا ما اتصل بالقديم بسبب ـ والحق أنها عبارة بالغة الغرابة من قبَل خلف الله ـ وكان الأجدر به أن يحرص على إرضاء روح العلم سواء رضيت العقلية الأزهرية أم سخطت، ومع ذلك فلم ترضَ عنه تلك العقلية فهي التي قادت الثورة عليه ونخرج من ذلك أنه بذلك خاصم روح العلم أو المنهج العلمي وأغضب العقلية الأزهرية.

ويُرجع المؤلِّف الإهمال الشنيع الذي لقيته القصة الفنية في بيئاتنا الرسمية ولدى أساتذة اللغة العربية في معاهدنا وجامعاتنا إلى عدم وقوف القدامى من البيانيين وعلماء اللغة عليه.

ويذهب إلى أن بعض المفسّرين وعلماء اللغة لهم وقفات على أعتاب القصة أما الأخيرون (علماء اللغة) فقد اكتفوا بتحديدات مبهمة وتعريفات ناقصة وما يثيره لفظ القصة نفسه من معنى في الذهن وهذا جرياً على منهجهم في الكشف عن معاني الألفاظ وما قد تضمّه من مصطلحات علمية وفنية.

أما المفسّرون فقد خطوا إلى الأمام خطوة لأنهم نظروا إلى المسألة بإعتبارين: الأول لغوي وفيه شاركوا اللغويين والآخر ديني وهو القصد الذي تغيّاه القرآن الكريم من قصصه أو ما هدف إليه وفي نظر خلف الله أن الرازي هو أبرز ممثّل لهذا الإتجاه وأتى بمقاطع من تفسيره تؤيِّد وجهة نظره.

ويصرِّح المؤلِّف أنه يحترم الفريقين إنما لن يقف عند الحدود التي وقفوا عندها. وأن لفظة قصة عنده تعني شيئاً أعمق مما كانوا يذهبون إليه وهو متابعة الخبر أو الحديث، إنما هو ذلك العمل الأدبي الذي هو نتيجة لتخيُّل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الأحداث وقعت أم لم تقع للبطل إنما نظِّمت على أساس فني بلاغي ولا مانع من المبالغة التي تخرج الشخصية التاريخية من مستوى الحقائق العادية والمألوفة إلى الشخصية الخيالية... هذا ما قصد إليه خلف الله وهو يدرس القصص الفني في القرآن الكريم ـ وهنا يطرح سؤالاً وجيهاً: هل قصد القرآن من قصصه مقصد الأدباء في التأثير في الوجدان وإستثارة العاطفة والخيال أو أنه قصد إلى التأثير العقلي وإقامة الدليل والبرهان؟

وقبل أن يجيب المؤلِّف على هذا السؤال يطرح تنويهاً يقطع أو يشي بما يتسم به من روح علمية وهي أنه لا يريد أن يفرض رأيه وإنما يدعه يكتشف الإجابة عليه (على السؤال) وأنه سوف يصحب القرّاء أو القارىء في رحلة عرض لهذه القصص علَّ ذلك يعينه على معرفة الجواب الصحيح.

ولهذا العرض يكتفي بألوان ثلاثة:

أ ـ التاريخي: وهو الذي يدور حول الشخصيات التاريخية مثل الأنبياء والمرسلين وهو الذي اعتقد الأقدمون أن الأحداث القصصية فيه هي الأحداث التاريخية.

ب ـ التمثيلي: وهو الذي يهدف إلى البيان والإيضاح والشرح والتفسير وإلى ذلك ذهب بعض الأقدمين ولا يلزم أن تكون أحداثه من الحقائق فتكفي فيه الفرضيات والمتخيَّلات.

ج ـ الأسطوري: تبنى فيه القصة على إحدى الأساطير يكون القصد من إيرادها تحقيق غاية علمية أو تفسير ظاهرة وجودية أو شرح مسألة مستعصية على العقل.

وبعد هذا التعريف السريع للألوان الثلاثة يأخذ في شرح تفصيلي لكل منها.

القصة التاريخية، ما زال خلف الله يتساءل: هل صياغة القرآن للأحداث

والأشخاص في هذا اللون من القصة قصد به إلى العظة والعبرة أم إلى الحقيقة والتاريخ؟

ثم يضرب أمثلة حتى يمكن إستخلاص هدف القص القرآني. أولها العذاب أو العقاب الذي أرسله الله إلى عاد جزاء تكذيبهم للرسول الذي أُرسل إليهم وبعد تفكير يسير يمكن أن يصل إلى أن القرآن تخلى عن كثير من التفصيلات مثل عدم ذِكر أي شيء عن حال عاد قبل التكذيب ولا عن الحوار الذي دار بينهم وبين نبيّهم هود إنما صور العذاب تصويراً فنياً رائعاً لأن القصد هو تخويف مناوئي محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يكن ذلك في هذه السورة فحسب بل فعل ذلك في العديد من السور المماثلة لأنها (لم تنزل إلا للإنذار والتخويف من العذاب) وبذلك يمكن أن يقال أن القرآن يختار من المواد القصصية ما يحقق غرضه ويوفي بقصده. ويؤوب إلى قصة عاد فينتهي إلى أن قصده (القصص القرآني) لم يكن التعريف بالتاريخ ولا تعليم الوقائع إنما هي قصة أدبية نزلت للتخويف والإنذار.

وأورد مقتطفات من ابن الأثير تومىء إلى أنه فطن إلى هذا الصنيع القصصي من القرآن وعلَّله تعليلاً فنياً بلاغياً وانتهى إلى أن المقصود من القصة إلزام الحجة ببعثة الرسل وإستحقاق التدمير لمكذِّبيهم ثم عرَّج إلى ما جاء في القرآن عن قصة الطوفان من سورة هود أيضاً وأنها لم تأتِ به إلا لما فيه من العبرة والموعظة وهي المقصودة بالذات ـ ويقرِّر في مختتم هذه الفقرة إلى أن قصص القرآن قصص أدبي تاريخي يأخذ مادته من أحداث التاريخ ووقائعه ولكنه يعرضها عرضاً أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً يبيِّن المعاني ويؤيِّد الأغراض للتأثير على النفوس ويجعل وقعها عليها وقعاً إستهوائياً خطابياً يستثير منها العاطفة والوجدان.

هنا نذكِّر بما قلناه في مفتتح هذه المقدمة من أن خلف الله لم يطرح فكرته طرحاً مرسلاً بل كان يقدِّم بين يديها الأسانيد العقلية والنقلية.

والمثل الثاني من قصة آل لوط فقد وردت في سورة الحجر بصورة وفي سورة هود بصورة أخرى مغايرة فمجيء الملائكة إلى لوط وإضطرابه النفسي وقدوم قومه إليه وموقفه منهم وعرضه بناته عليهم وموقف الملائكة وإخبارهم إياه أنهم رسل ربه ثم نصحهم له

بالسرى وأن العذاب نازل بالقوم صبحاً في سورة هود يشعر بأن الزمن هو المحور الذي ربط الوقائع وكذا المحاورة مع القوم تدل على عدم معرفته بالذين قدموا وأنهم رسل ربه وكذلك الضيق الذي انتابه خوفاً على ضيوفه. ولذا ينتهي المؤلِّف إلى أن السبب في قصص سورة هود إنما هو لتثبيت فؤاده أما القصد من القصة ذاتها في الحجر فهو بيان ما ينزل بالمكذِّبين وهذا يتَّضح من حرص القرآن على إعلان الملائكة عن نفسها وإخبار لوط بالعذاب الذي سينزل على قومه ويذهب خلف الله إلى أن ذلك كان ملائماً لحال النبي محمد عليه السلام وقد استقى ذلك مما ورد في ختام السورة وأن ترتيب أحداثها ينبني على أساس غايته تحريك العاطفة وهز العقول والأفهام وبالتعبير المعاصر: منطق العاطفة والوجدان.

ويؤكِّد المؤلِّف أن إختلاف أسلوب القرآن في بناء القصص والذي اتضح في المثلين اللذين ضربهما من سورتي الحجر وهود أشكل على القدماء ومن ثم قالوا أن هذه الحادثة في موطن غير التي وردت في موطن آخر ودلَّل على مذهب القدماء بما أورده النيسابوري. ويعقب على ذلك بقوله أن مقاصد القرآن هي التي تملي عليه الأسلوب والطريقة وتسلسل الأحداث والربط بينها وبين العاطفة والوجدان.

وهنا يتعيَّن علينا أن نسجِّل هذا الكشف الفني الذي توصَّل إليه خلف الله... والذي يضاف إلى رصيده في الدفاع عن القرآن وتجلية ما فيه ورفع ما تبادر إلى أذهان المفسِّرين القدامى من وجود إشكاليات فيه. وقد دفعت الأمانة العلمية المؤلِّف إلى أن يقرر أن الأستاذ الإمام محمد عبده قد سبق إلى كشف قاعدة القرآن في ترتيب الأحداث وضرب مثلاً بما جاء في تفسير المنار وينتهي إلى أن الأستاذ الإمام يرى أن ترتيب الأحداث يرجع إلى إعتبار بلاغي خاص من أجله يقوم العرض على أساس عاطفي يخالف الأساس الذي يقوم عليه ترتيب الأحداث عند المؤرِّخين.

وواضح أن الأستاذ الإمام قد اهتدى إلى جزئية خاصة مما اكتشفه خلف الله ولا يفهم من هذا غض من قيمته أو تهوين من شأنه أو تقصير من قامته لحساب خلف الله فهذا ما لا يقول به عاقل. وينهي المؤلِّف هذه الفقرة أو هذا المثل بأن أحداث التاريخ التي وردت في القصص القرآني رُتِّبت ترتيباً عاطفياً قصد تحريك الهمم والنفوس وبعبارة أوضح هي لون من القصص التاريخي الفني وترتيباً على ذلك فإنها تُوزَن بميزان الفن القولي لا بموازين المؤرِّخين.

والمثل الثالث من سورة الشعراء الآيات ١٦٠ إلى ١٧٥ وهي تتناول قصة عاد وهود والآيات ١٢٣ إلى ١٤٠ وهي تتحدث عن قصة لوط، فرغم إختلاف مواد البناء في كل فإن وحدة التصميم وإتفاق البناء لا تخفى عن عين الناظر المتوسم. وقد لاحظ المؤلف أن المطالع في الأولى والثانية متَّفقة بل إن الإتفاق شمل الألفاظ والتراكيب وكذا الخواتيم إتَّفقت أيضاً فيها.

والجو العاطفي الذي يسود القصتين واحد مثل حرص الرسل على هِداية أقوامهم، والذي يدفعهم إلى ما يرقِّق العواطف ويذيب القلوب وكذا الإتفاق بين المناوئين وإتخاذهم موقفاً موحَّداً وهو التكذيب وعدم الإستجابة.

وأساس هذا الإتفاق في القصتين واحد سواء في البناء أو الروح مع إختلاف العناصر مثل الأحداث والأشخاص والحوارات وسر هذه الوحدة هو القصد الذي يرمي إليه القرآن وهو حرص محمد عليه السلام على هِداية قومه ثم موقفهم منه. وينتهي الباحث إلى أن المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والبناء والتصميم إذ هو قصص أدبي في المقام الأول ومعجزة بلاغية قولية تُفهم بأضواء الدرس الفني.

يذهب خلف الله إلى أنه في الفقرات السابقة ما يدل على أن القصة التاريخية ليست عرضاً تاريخياً تطلب فيه المطابقة الواقعية المحققة للصدق العقلي إنما هي عرض أدبي يقصد منه ما لا يُقصَد من التاريخ وذلك يلاحظ في إختيار المواد دون بعضها الآخر وترتيب المواد والصوغ والتركيب وكل هذه الأمور توجَّه لتحقيق القصد والغرض.

وينتقل بعد ذلك إلى موقف القرآن من العنصر القصصي الواحد فمثلاً توجيه الخطاب إلى بني إسرائيل بتذكيرهم بأنه نجَّاهم من آل فرعون وما كانوا يفعلون بهم (الآية ٤٩ من سورة البقرة) والمخاطَب هنا هم اليهود المعاصرون للنبي عليه السلام ومع ذلك لم يأتِ الخطاب بصيغة الماضي بل بصيغة الحضور والمشاهدة أي كأنه وقع لهم لا لأجدادهم وتفسيره أنه من العناية الأدبية التي هي من أسرار إعجازه وللتأثير على النفوس وهو ما

يسمى بمنطق العاطفة والوجدان أي بهدف ترقيق قلوبهم وصرفهم إلى الإيمان بمحمد عليه السلام وهذا المذهب الفني والأدبي يُعرف في الأدب بالتصوير بالحركات والإشارات وهي صورة قادرة على تحريك القلوب وإستثارة العاطفة والوجدان.

والصورة الثانية وهي ما قاله الضعفاء للمستكبرين من أنهم كانوا لهم تبعاً فهل يغنون عنهم شيئاً من عذاب الله وردّهم عليه بأنهم لو هداهم الله لدلوهم على الهدى وتدخّل الشيطان بأنه وعدهم وعداً باطلاً ثم أخلفهم الوعد وتركوا وعد الله الحق وكل ما فعله أنه دعاهم فاستجابوا له دون أن يكون له عليهم سلطان (الآيتان ٢١، ٢٢ من سورة إبراهيم).

ويرى المؤلّف أن هذه الصورة ـ زمانياً لم تقع ـ والمنطق العقلي يوجب تصويرها بصيغة المستقبل لا الماضي كما فعل القرآن والهدف من ذلك هو إصلاح نفوس الناس وهدايتهم بتبصيرهم بما ينتظرهم من مساءلة ومؤاخذة، وبث الخوف في نفوس معاصري النبي عليه السلام وتذكير المستضعفين منهم بأن إتباعهم للمستكبرين سوف يودي بهم إلى العذاب الأليم وتعريف المستكبرين بأن جريهم مع الهوى وإتباع الشيطان سيهوي بهم إلى قاع الجحيم وليعلم منكري البعث من المعاصرين لمحمد عليه السلام أنه حق لا ريب فيه وصيغة الماضي هي الصيغة المثلى للتعبير عن ذلك كله فهي التي تدل عقلياً على الوقوع وعاطفياً أو بلاغياً على أن الحدث حق لا ريب فيه.

ويستدل المؤلّف على مذهبه هذا بالآيتين التاسعة عشرة والعشرين من ذات السورة (إبراهيم) وفيهما يوجّه الخطاب إلى معاصري النبي عليه السلام بأن الله خلق السموات والأرض بالحق وهو قادر على أن يُذهبهم ويأتي بخلق جديد وما ذلك عليه بعزيز، فهذا المنطق هو المنطق الأدبي منطق العاطفة والوجدان ويضيف خلف الله أن القدامى من علماء البلاغة تنبّهوا إلى العلاقة بين الصورة والصيغة وبين أثرهما النفسي والعاطفي ثم ساق فقرة كاملة مما جاء في (المثل السائر) وأن ابن الأثير صاحبه ينتهي إلى أن المنطق الذي يسيّر هذه الصيغة هو المنطق النفسي أي البلاغي الأدبي الفني لا المنطق العقلي ومع ذلك كله فقد حيّر هذا الصنيع القرآني أولئك القدماء لتمسّكهم بالمنطق التاريخي مما أوقعهم في كثير من

المآزق والمشكلات وضرب المؤلِّف لذلك مثلاً طالما ردَّده وهو خطاب الله لعيسى ابن مريم وسؤاله إياه عما إذا كان قد قال للناس أن يؤلِّهوه هو وأمه مريم فقد وقفوا عندها ملياً وإذ نظروا إليها من المنطق التاريخي تساءلوا متى وقع ذلك الحوار؟

البعض ذهب إلى أنه وقع عند رفع عيسى عليه السلام إلى السماء واستدلّوا على ذلك أنها جاءت بصيغة الماضي. والبعض يرى أنها لم تقع وإنما سوف تقع يوم القيامة وحجَّته في ذلك قوله تعالى بعدها هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فهو وصف ليوم القيامة وممَّن قال به النيسابوري ويعلِّل الباحث ذلك أنهم جعلوها من المنطق العقلي ولو أنهم انطلقوا من المنطق الأدبي الفني منطق العاطفة والوجدان وبحثوا عن قصد القرآن وأنه توبيخ لنصارى عصر محمد عليه السلام لتمسُّكهم بتأليه وعبادة عيسى عليه السلام لما وجدوا في ذلك مشكلة. وينتهي إلى أن هذه المحاورة تشبه تلك التي دارت بين المستضعفين والمستكبرين وبين هؤلاء والشيطان. ويضيف إلى أن ما ورد في القرآن من مشاهد القيامة بصيغ دلَّت على الوقوع هدفه القضاء على ما في نفس العربي من شك وإنكار مثل: ﴿**اقتربت الساعة وانشقَّ القمر**﴾[1] و ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾[2] ويخلص إلى أن أسلوب القرآن في عرض المواد القصصية الجزئية كان أسلوباً أدبياً يخضع لمنطق العاطفة والوجدان.

وإذا كان بعض الأقدمين ذهب إلى أن الإستعارة أو التخيُّل كذب والكذب لا يجوز وقوعه في القرآن فقد مضى ذلك الزمن واعترف علماء البيان أن الإستعارة والتشبيه والكتابة أبلغ من غيرها وأن المجاز أبلغ من الحقيقة ويعيب على الزمخشري حين أدخل قوله تعالى ﴿**فإذا هي ثعبان مبين**﴾[3] في الموضوع فهذا عنصر آخر لأن الآية تصوِّر موقفاً مغايراً للموقفين السابقين وهما: حوار المستضعفين والمستكبرين والشيطان وقول الله تعالى لعيسى

(١) سورة **القمر**، الآية ١.

(٢) سورة **النحل**، الآية ١.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ١٠٧ وسورة **الشعراء**، الآية ٣٢.

﴿أأنت قلت للناس...﴾[1] لأن إنقلاب العصا إلى ثعبان مبين لا يقوم على إعتبار بلاغي عاطفي إنما أراد القرآن منه تقديم صورة يشيع فيها الخوف من كل جانب ثم ينتقل إلى القصة التي وردت في سورة طه التي نزلت تسلية للنبي عليه السلام ومن هنا جاء عرض القصة فيها عرضاً هيناً يدفع إلى النفس الثقة والإطمئنان ويدفع عنها الهم والحزن ومن هنا كان إختيار الحية أليَق بالمقام بخلاف ما جاء في سورة الشعراء من أنها ثعبان مبين لأن الموقف فيها موقف تحيُّر وتحدٍّ وطلب بيِّنة.

والنتيجة التي ينتهي إليها هي أن العنصر القصصي الواحد يُعرض في صور مختلفة تناسب السياق ويُلحظ فيها القصد والغرض تحقيقاً للمنطق العاطفي وأن القرآن يعمد إلى التصوير الأدبي الفني لا التعليمي التاريخي (وليس بعد ذلك دلالة على أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية).

ثم يورد المؤلِّف الآيات ٢١ وما بعدها من سورة الكهف وهي الأجزاء القصصية الخاصة بأصحاب الكهف للدلالة على أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية تصوِّر الأحداث كما يعتقدها المخاطَبون وهو ما أجازه بعض الأقدمين ورأى البعض الآخر أنه لازم ليسلم القرآن من المطاعن ويستقيم أسلوبه الأدبي في القص وكذلك الآيات من ٨٣ إلى ٩٨ من السورة ذاتها وهي التي تحكي قصة ذي القرنين ثم يعقبه بما أطلق عليه (صنيع الأقدمين):

البعض فيما رواه الطبري يرى أن القرآن الكريم صوَّر قصة أصحاب الكهف طبقاً لآراء أهل الكتاب وهذا يتضح من جهة عددهم في قوله عزَّ ذِكره **﴿ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾**[2] أي لا تستفت في عدَّتهم من أهل الكتاب أحداً لأنهم لا يعلمونها وإنما قولهم فيهم رجماً بالغيب لا يقيناً من القول وعن المدة فإن ما ورد في السورة بشأنها (٣٠٩ سنة) هو خبر من الله تعالى عن أهل الكتاب ومَن ذهب إلى ذلك كما جاء في الطبري استشهد

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١١٦.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٢٢.

على صحة قوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾[1] ولو كان خبراً منه عن المدة لما كان لهذا القول وجه مفهوم.

ويخلص الباحث في هذه الجزئية إلى أن هناك من بين القدامى مَن أجاز كون الصورة التاريخية صورة لما يعرفه أهل الكتاب ودلالته أن القرآن الكريم صوَّر في عدد من قصصه إعتقاد المعاصرين أو المخاطبين.

وعندما ردَّ فضيلة الشيخ عبد الوهاب النجّار على المستشرقين فيما كتبوه عن سورة الكهف في دائرة المعارف الإسلامية استند على هذا المذهب أو هذا الرأي. ويكرِّر خلف الله ما كرَّره من قبل من أن آراء اليهود كانت المقياس الذي به يقيسون صدق النبي عليه السلام فلو نزل القرآن بغيرها أي بما يخالف المقياس المذكور لكذبوا النبي ولما آمنوا به أو بالقرآن الذي جاء به أي أن إخبار القرآن بما أخبر سواء عن العدد أو المدة هو الدليل على أن الوحي ينزل على النبي محمد عليه السلام من السماء.

والحق أن في النفس أشياء من هذا التفسير الذي يتبنّاه خلف الله في العديد من المواضع بل ويتحمَّس له والذي أخذ به فضيلة الشيخ عبد الوهاب النجّار وأوجه ما حاك في النفس بشأنه عديدة منها:

هل آمن اليهود برسولية محمد وصدَّقوه واتَّبعوه بعد أن جاء القرآن (صورة لما يعرفه أهل الكتاب)؟

من نوافل الكلام أن تقول إن الجواب معروف أليس القول بأن مجيء القرآن مطابقاً للصورة التي يعلمها أهل الكتاب في خصوصية العدة والمدة وذلك للتدليل على صدق نبوَّة محمد، أليس لهذا القول دلالته الصريحة أن معلومات أو معارف أهل الكتاب وحصراً وتحديداً اليهود حاكم على القران وبعبارة أوضح أن القرآن رضخ لمقياس اليهود حتى تثبت نبوَّة محمد ورسوليته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

هل ما قاله البعض من القدامى ووافقه عليه خلف الله ومن قبله النجّار يتفق مع

(١) سورة **الكهف**، الآية ٢٦.

رأي القرآن في اليهود؟ وكيف يلائم ما جاء في القرآن إن بشأن عدة الفتية أو مدة مكثهم بالكهف تصوير معارف اليهود وقد رماهم القرآن بكل خسيسة ودمغهم بكل نقيصة وأوعر من هذا جميعه أن تكون المطابقة لهذه المعارف هي مقياس صدق محمد وأنه رسول يُوحى إليه من السماء؟

إن المنطق والعقل لا يقبلان ذلك ويرفضانه فالشخص العادي يشمئز من إتخاذ قالة الكذوب ميزاناً لصحة كلامه فما بالك بالله تعالى جل جلاله! إن الذي لا شك فيه أن رغبة خلف الله العارمة في إثبات أن المذهب الأدبي الفني هو المدخل الصحيح لتفسير ما أطلق عليه (القصص التاريخي) والذي سوف نتناوله بالتعقيب في مغلاق هذه الفاصلة، هذه الرغبة هي التي دفعته لهذا القول.

بعد ذلك يورد خلف الله (صنيع) الرازي فيما يتعلق بغروب الشمس في عين حمئة (ماء وطين) فذكر أن بعض أصحاب القراءات السبع كانوا يقرأونها في عين حامية وأن جندب بن جنادة المشهور بأبي ذر الغفاري روى عن النبي حديثاً جاء فيه أن الشمس تغرب في عين حامية وأن معاوية ـ وهو في نظرنا من الصحابة الذين امتازوا بقدر لا بأس به من العقلانية كان يقرأ حامية بألف ـ وأيَّده في ذلك عبد الله بن عمر ـ ولكن عبد الله بن العباس ـ ترجمان القرآن ـ قال أنها حمئة وأن كعب الأخبار ـ وهو أحد المنسوب إليهم الولوغ في الإسرائيليات ـ عندما سُئل:

كيف تجد الشمس تغرب؟

أجاب: في ماء وطين كذلك نجده في التوراة.

بيد أنه لما ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها وأن الشمس في الفلك فكيف يُعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟ فإن تأويل غروبها في عين حمئة له عدة وجوه:

الأول: أن ذا القرنين بلغ أقصى (المعمور) فكأنما وجد الشمس تغرب في عين مظلمة ـ كما أن راكب البحر يراها كأنها تغيب فيه ـ والذي نراه أن هذا التأويل نوع من التحمُّل فلو كان ذلك لجاء: تغرب في ظلام.

الثاني: أن للجانب الغربي مساكن يحيط بها البحر ذي المياه الساخنة للغاية فهي حامية وحمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء. وهذا التأويل في رأينا لا يقل عن سابقه تعسُّفاً فما الذي كان يمنع من القول: تغرب في بحر ساخن كما أن إشتمال البحور الغربية على حمأة سوداء مسألة فيها نظر.

الثالث: قول أهل الأخبار أن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء. والرازي نفسه كشف عن فساده بقوله (وهذا في غاية البعد) ويرى أن الشمس طالعة وظاهرة في كل الأوقات لأن الذين عندهم ليل في نصف الكرة يكون هناك نهار طالعة فيه الشمس عند مَن هم في النصف الآخر ومن ثم يغدو القول بغيابها في عين حمئة على خلاف اليقين ولما كان كلام الله مبرأ من ذلك لزم التأويل (الذي ذكرناه) مع أننا رأينا أن هذا التأويل أو التأويلات (ليست بشيء)!

ويخلص خلف الله إلى أن كلاً من النيسابوري والرازي وأبي حيان ذهبوا إلى ضرورة التأويل في هذه المسألة (ليبرأ كلام الله من أن يكون على خلاف اليقين) ويضيف أنه إذ يتّفق معهم في أن هذا ليس تصويرا لحقيقة تاريخية ويحترم تأويلاتهم فإنه يختلف معهم لأن المسألة ليست في حاجة إليها إذ أن القرآن سواء في هذه القصة أم تلك التي سبقتها إنما كان يصوّر معرفة أهل الكتاب عن الإسكندر ولما أخبروا به وفد قريش الذين حضروا من مكة ليسألوهم عن محمد وهل هو نبي حقاً.

ثم يقارن بين الطبري والزمخشري صاحب الكشّاف من جانب وبين الرازي من جانب آخر ويُرجع العلّة في ذلك إلى أن الأخير (الثالث) عرف ما لم يعرفه الأول والثاني عن حقيقة الشمس والأرض وسائر الكواكب ومن ثم فلم يضطرا هما إلى التأويل، إذن الكشوف العلمية هي التي دفعت الرازي إلى طرح تلك التأويلات.

ويوضح لنا خلف الله السبب في إضطراره إلى القول بأن هذه القصة تصوّر المعارف التاريخية والكونية عند أهل الكتاب والمشركين المعاصرين للنبي عليه السلام. السبب هو تاريخ المسألة في حياة النبي وموقف المشركين واليهود منه وتوجيههم الأسئلة إليه بشرط أن تكون الإجابة (عليها) كما يعرفون. وفي رأينا أن تعليل خلف الله يشوبه

الإضطراب الذي يؤدي إلى عدم الإقناع فهل المقصود هو تأريخ المسألة في حياة محمد وموقف المشركين واليهود منه أم هو تأريخها كما يعرفه اليهود فعلاً أي التأريخين يؤم وهما مختلفان:

فالوفد الذي أرسله بنو قريش لليهود في يثرب لمعرفة حقيقة محمد وهل هو نبي أو متقوّل ثم رد أحبار اليهود على الوفد بسؤاله عن مسائل ثلاثة حدَّدوها فإن عرف إجاباتها فهو نبي وإلا فهو مدَّعٍ للنبوَّة، هذا تأريخ أو هذه واقعة تاريخية.

ثم معلومات علماء اليهود أو معارفهم عن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين (السؤال الثالث كان عن الروح ولا يدخل في نطاق البحث). وهذا تأريخ أو على الأقل هو كذلك من وجهة نظر أحبار اليهود.

فإن كان الثاني (الأخير) يصدق عليه ما قاله خلف الله (القصة تصوِّر المعارف التاريخية والكونية عند أهل الكتاب) فهل الأول يصوِّرها كذلك؟

إذن الجمع بين الأمرين وإن شئت الدقة قلت بين التاريخين أحدث تشويشاً نتج عنه نزع المنطقية أو المصداقية عن العِلَّة التي طرحها المؤلِّف ولعل هذه الفقرة تؤكِّد ما سوف نطرحه من رأي في مذهب المؤلِّف عن تاريخية القصة، أو القصة التاريخية.

وربما استشعر خلف الله ما في رأيه من وهن ومن ثم فقد جاء في نهاية هذه الفقرة السادسة وقال إن القرآن يعرض الأمور التاريخية أحياناً مطابقة لإعتقاد المخاطَب (بفتح الطاء) وهو الأمر الذي يخرجنا من الميدان التاريخي ويدخلنا ميدان البلاغة والأدب لأن القصد هو إستثارة العاطفة والوجدان. فهنا بصريح العبارة: عرض القرآن للوقائع حسب عقيدة المخاطَب عنها خارج عن ميدان التاريخ وداخل في ميدان الأدب والبلاغة والفن والبيان... إلخ. إذن فما هو الداعي لإدراج هذه النوعية من القصص تحت عنوان (القصص أو القصة التاريخية)؟

يأخذ المؤلِّف بعد ذلك في الفقرة السابعة والأخيرة من هذا الجزء الثاني من الفصل الأول (القصة التاريخية) في تقديم مزيد من الأمثلة أو الأدلة على الفكرة التي سيطرت عليه وملكت عليه كل تفكيره وهي أن صنيع القرآن في قصصه التاريخي ليس إلا الصنيع

الأدبي وحسب. ويأتي على رأسها الجمع بين العناصر المتباعدة زمنياً في حياة الأمة بل في حياة البشر. ويمثل للأولى بما ورد في حق بني إسرائيل أنهم يجدون نعت محمد في التوراة والإنجيل فإن كان المقصود هم الأسلاف فكيف يعتقدون نبوّته وهو لم يُبعث بعد كما أنه في ذاك الزمان لم يكن الإنجيل قد أنزل؟

وإن كان المراد المعاصرين فلا يفوز بها (هذه الرحمة) إلا مَن اتَّقى من بني إسرائيل وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى واتَّبع آخر نبي الزمان في شرائعه

غاية القول أن القرآن جمع بين عناصر متباعدة في حياة بني إسرائيل.

أما هذا (الصنيع) في حياة البشرية فقد جاء بصدد الحديث عن قصة هابيل وقابيل ابني آدم ففي البحر المحيط أنهما لم يكونا كذلك وإنما هما أخوان من بني إسرائيل لأن القربان شُرِّع في بني إسرائيل وفي رأينا أنها ملاحظة غاية في الدقة والذكاء لأن تاريخ الأديان يخبرنا أن تقديم القرابين جاء متأخراً كثيراً عن فجر البشرية وأنها تفاوتت ما بين قرابين بشرية وحيوانية مما يجعل أنه من أعسر العسر تقديم قابيل وهابيل ابني آدم قرابين لعدم معرفتهما بهذا الطقس العبادي. والذين دفعوا ملاحظة صاحب البحر قالوا إنه من المستحيل عقلاً أن يجهل بنو إسرائيل طريقة الدفن حتى يعلّمهم إياها غراب؟ ويفهم من سياقة قول خلف الله أنه أخذ بهذا الإعتراض إنما في رأينا أنه إعتراض غير سديد لأن الجمع بين تقديم القربان والقتل غير لازم إذ قد يرجع القتل إلى فوز الأخ بالأخت أو الزوجة الجميلة ثم بعد ذلك جهل طريقة مواراة الجثة في الثرى أما تقديم القربان فهو طقس متأخر لم تعرفه البشرية وتضمنه عباداتها إلا بعد حين إما إسترضاء للآلهة أو إتقاء لغضبها!

وينتهي خلف الله إلى أن المخرج من هذه البلبلة كلها في القصتين أن القرآن ما قصد إلا التصوير والتمثيل على أساس أدبي عاطفي ولو باعد الزمان بين أحداث القصة الواحدة.

والصنيع الثاني هو إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به مراعاة لأمور إعتبارية وهو ما أجازه كثير من المفسّرين والمثل على ذلك ـ وقد كرَّره خلف الله كثيرا - **﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾**[1] ومعلوم أن اليهود لم يعترفوا برسوليته ولكن الرد يأتي

(١) سورة النساء، الآية ١٥٧.

على أن ذلك إنما جاء للإستهزاء كما ورد على لسان فرعون عن موسى ﴿إن رسولكم...﴾[1] وقد أجاز هذا التأويل بالإضافة إلى الرازي كل من النيسابوري وأبي حيان. ويعقِّب المؤلِّف قائلاً إن إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به لإعتبارات يراها الخالق جل وعلا دليل على أن القصص القرآني عرض الأحداث والأقوال عرضاً أدبياً لا تاريخياً.

وثالثها إسناد الأحداث لأشخاص بأعيانهم في موطن ثم إسنادها بذواتها لغيرهم في موطن آخر وضرب لذلك مثلاً سبق له أن ضربه وهو عبارة ﴿لساحر عليم﴾[2] عن موسى، فهي مرة نطق بها فرعون ومرة جاءت على لسان الملأ من قومه وكذلك البشارة بالخلف بعد العُقم المديد مرة وُجِّهت إلى الزوج إبراهيم ومرة أخرى خُوطبت بها الزوجة سارة. وهذه كلها تُراكم الأدلة على أن القرآن في سرده يعرض عن الأساليب التاريخية ويعتمدُ على الأساليب الأدبية والوسائل الفنية أو البلاغية. ويطلب منا المؤلِّف أن نتَّفق جميعاً ولا يشذ واحد منا على وجود القصة التاريخية الأدبية في القرآن وأن المنطق الأدبي هو الذي يسودها وإلى هنا يختم كلامه عن هذا النوع من القصص.

بيد أننا قبل أن ننتقل مع خلف الله إلى القصص التمثيلي نقف معه ملياً عند القصص التاريخي إذ لم يحدِّد لنا المؤلِّف المعيار الذي انطلق منه لتحديد تاريخيّة القصة:

هل هو ثبوتها في مدوَّنات التاريخ المعتمدة؟

أم هل هو إحتفاظ الشعوب في ذاكراتها لوقائعها؟

وهل مجرد ورودها في التوراة يُضفي عليها صفة التاريخية؟

لقد كان حرياً به وهو بصدد كتابة بحث أكاديمي أن يفعل ذلك ولعل إغفاله ذِكر هذا المعيار هو الذي دفع به إلى إضفاء الصفة التاريخية على قصص ووقائع وأحداث في حين أنها ليست كذلك. فنزاع ابنى آدم وقتل أحدهما الآخر وجهل القاتل بكيفية دفن جثة أخيه المقتول هذا ليس تاريخاً وإنما هو أدخل في باب الميثولوجيا ولهذه الأحدوثة (العامة في

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٢٧.

(٢) نفس السورة، الآية ٣٤ وسورة **الأعراف**، الآية ١٠٩.

مصر تقول: الحدوتة أ.هـ.) مثيلات في عقائد العديد من الشعوب القديمة والبدائية الحالية مثل أحدوثة الطوفان والسفينة المُعجبة التي أنقذت البشرية من الإنقراض!

وكذلك حكاية عاد وهود وهلاك القوم بالريح التي تحمل العذاب الأليم فهي من الفولكلور العربي القديم وحتى الآن يُضرب مثل للرسول (الوافد أو المندوب) المشؤوم بـ (وافد عاد).

وتلحق بها قصة صالح وثمود والناقة المدهشة التي تشرب يوماً وكل سكان القرية يوماً وسدوم التي ضربها أحد الزلازل فنُسب إلى لعنة أحاقت بهم من جراء شذوذهم الجنسي تنفيراً من دعاة الإصلاح لهذا العمل الخبيث وكذلك قصة أهل الكهف الذين لبثوا فيه أكثر من ثلاثة قرون وهم يغطّون في نوم عميق وينعمون بأحلام وردية دون أن يصابوا بجوع أو ظمأ ولا تتغير أجسامهم بمضي القرون فلما استيقظوا ظنوا أنهم ناموا بضع ساعات.

وكذا قصة ذي القرنين الذي غزا البلاد ودوّخ السلاطين والملوك والأقيال وسار إلى الشرق حتى وصل إلى حدود بلاد يأجوج ومأجوج فبنى سداً منيعاً بينه وبينهم. ومن ضمن ما رآه في رحلاته تلك: الشمس وهي تغرب في عين حمئة.

والبعض بكل جرأة على الحق يؤكد أن ذي القرنين هذا هو الإسكندر الأكبر الذي تعلّم الفلسفة وسائر (علوم الأقدمين) على كبير الفلاسفة في كل العصور: أرسطو. ثم بعد ذلك يقال إنه رأى الشمس تغرب في عين حمئة أي ماء ساخن وطين من عيون الأرض التي تعلم من أستاذه أنها تدور حول الشمس.

ومع ذلك يذهب خلف الله إلى أن هاتين الحكايتين من صلب التاريخ فكل هذا من قصص الفولكلور الشعبي الذي كان يتناقله عرب الجزيرة أو اليهود وكان معروفاً ومحفوظاً في عهد محمد ويردّده الجميع. فكيف يعتبره خلف الله تاريخاً وكيف يعد حكاياه اللطيفة حيناً والمرعبة حيناً آخر تاريخاً.

أما الأوعر من ذلك فإنه يعتبر حكاية موسى وفرعون وخروج بني إسرائيل من مصر وضرب ملإ فرعون بالجراد والضفادع والقمل والدم وتحدي موسى للسحرة وإنقلاب

العصى إلى حية أو ثعبان أو جان... إلخ. نقول أنه يعتبر كل هذه الحكايا تاريخاً مع أنه لا يوجد في العالم بلد حرص على تدوين تاريخه كتابة كمصر وليس في التاريخ المصري شيء منها ومع ذلك عدَّها المؤلِّف قصصاً تاريخياً.

والأشد إثارة للدهش أن يضفي صفة التاريخية على المحاورة التي دارت بين المستضعفين والمستكبرين ثم بين هؤلاء الآخرين وبين الشيطان أو على سؤال الله تقدَّست أسماؤه عيسى عما إذا كان قد طلب مِن تبعه أن يعبدوه هو وأمه؟

ويلحق به ما جاء على لسان اليهود أنهم قتلوا المسيح رسول الله فبأي مقياس يُعد هذا تاريخاً؟

وهل يمكن للقصص التي أوردنا أمثلة منها أن تنضوي تحت صفة التاريخية. وبقدر ما أخفق المؤلِّف في إضفاء صفة التاريخية على هذه القصص بقدر ما حالفه التوفيق في القول بأنها حقيقية بحسب إعتقاد المخاطَبين بالقرآن المعاصرين لمحمد.

فعرب الجزيرة آنذاك كانوا يؤمنون بصحة وقائع قصص عاد وهود وثمود وصالح والناقة وآيات العذاب الأليم إلخ.

واليهود يؤمنون بصدق قصة موسى وفرعون وملئه والضفادع والقمل والدم والآيات المفصّلات وموسى وشعيب وإنقلاب العُصي إلى حيّات وثعابين... إلخ وخروج بني إسرائيل وإنشقاق البحر... إلخ وقبلها بقصة ابنيّ آدم وبالطوفان وبالسفينة الرائعة التي حفظت ذرية آدم من الغرق... إلخ.

إذن كان الأولى أن يصف هذه القصص بأنها (القصص الشعبية والقصص الدينية) ولا يغض هذا من قيمتها أو يقلِّل من قدرها أو يهوِّن من مصداقيتها أو ينال من حقيقتها خاصة وأنه جعل النوع الأخير (ما أسميناه القصص الدينية) هو المقياس لصدق نبوَّة محمد وصحة رسوليته ولو أننا فنَّدنا هذا الزعم في ما سبق.

خلاصة القول إن الكسوة التاريخية التي حاول المؤلِّف أن يدثر بها تلك القصص ليست ملائمة لها.

النوع الثاني من القصص هو القصة التمثيلية وهي قصة فنية وهي التي تضرب مثلاً أو تجيء تمثيلاً وهي موجودة في القرآن، ولدى المفسّرين هي تدخل في باب الفن والأدب، والتمثيل ضرب من ضروب البلاغة وفن من فنون البيان ومن ثم ليس بلازم وقوع الأشخاص والأحداث والحوارات ولا مانع أن يكون منشأها الخيال أو العرف إذن هي عندهم من القصص الفني وهي تحتاج فيما يرى الزمخشري إلى نوع من الدُربة والمران وإلا زلَّت الأقدام وضلَّت الأفهام ويرجع عَدّ هذه التمثيليات لدى البعض من المتشابه إلى العجز عن فهم صحيح التمثيل. ويخلص خلف الله إلى أن القصة التمثيلية قصة فنية وهو ما ذهب إليه الأقدمون وما يشهد به الواقع ثم يضرب أمثلة لهذا النوع من القص:

نبأ الخصم الذين تسوَّروا المحراب ودخلوا على داوود وكيف أن أحدهم له تسع وتسعون نعجة والآخر له نعجة واحدة فأراد أن يغتصبها منه بذلاقة لسانه فظن داوود إنما فتناه فركع واستغفر وأناب.

واختلف أصحاب التفاسير القدامى ـ الزمخشري والرازي والنيسابوري وأبو السعود- في شأن هذه القصة إختلافاً واضحاً ويُرجع المؤلِّف ذلك إلى نظريتهم في الصدق والكذب وإلى إيمانهم بمنطق العقل وحده وإهمالهم لما عداه حتى المنطق الأدبي منطق العاطفة والوجدان ولا صلة لهذا الإختلاف بالتمثيل وأثره النفسي في العاطفة والوجدان.

ونحن نرى قدراً ملحوظاً من التناقض بين هذا التعليل الذي علَّل به خلف الله هذا الإختلاف وبين ما ذكره في بدّي القول من أن هؤلاء القدامى عرفوا أن القصة التمثيلية قصة فنية تتأسس على العِرف والخيال. ولعل مرد هذا التناقض الذي وقع فيه المؤلِّف هو موقف الأقدمين أنفسهم حين عرَّفوا الصدق في كتب البلاغة واختلفوا حول التعريف ووقفوا عند الصدق المنطقي وهو مطابقة القول للواقع وأدى هذا التعريف إلى إنكار وجود القياس الشعري والحقيقة الفنية في القرآن وكلام الأنبياء.

ويصرِّح خلف الله بأنه لا يقول أن كل مواد القصص التمثيلي وليدة الخيال ذلك لأن بعضها قد يجيء وليد الأحداث الواقعية وهذا واضح من قصة الملكين (الخصم الذين تسوَّروا المحراب) ولا ندري كيف عدَّها المؤلِّف ذات أحداث واقعية وهو يدرجها في باب

القصص التمثيلي ومن أين جزم بأن المتسوِّرين ملَكان مع أن هذا قول بعض المفسّرين وليس إجماعاً منهم إذ أن بعضهم ذهب إلى أنهم من البشر.

ولما كان الباحث قد ذهب إلى أن بعض قصص القرآن التمثيلي وليد خيال فإنه درءاً لكل معارضة لجوجة يبادر إلى القول بأن الله منزّه عن الخيال ولا حاجة له به وإنما جاء لحاجة بني آدم إليه فهو أحد الأساليب التي يجرون عليها تعبيراً عن أحاسيسهم بل وعن أفكارهم.

٢ـ حمل الإنسان الظلوم الجهول الأمانة بعد أن رفض حملها كل من السموات والجبال والأرض ومعلوم أن عرض الأمانة على هذه الجمادات محال ولكن الزمخشري صاحب الكشّاف يرى أن هذا ما جرى عليه العرب في أسلوبهم فهم يقولون:

لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوِّي العوج، وبداهة الشحم لا يعقل ولا ينطق ولكن الغرض هو تبيان أن السمن في الحيوان يحسّن قبيحه.

٣ـ الأرض في قبضة الله يوم القيامة والسموات مطوية بيمينه سبحانه وتعالى، ومن نافلة القول إن الله جلَّ جلاله منزَّه عن القبضة واليمين إلا عند المجسِّمة والمقصود هو تصوير عظمته والتوقيف على كُنه جلاله مثل الحديث النبوي إن الله يمسك على كل إصبع من أصابعه عنصراً من عناصر الكون: السماء، الأرض، الجبال، الشجر... إلخ.

الزمخشري صاحب الكشّاف يدلّنا على أن المعاني قد تجيء في صورة التمثيل فيفهم سامعها أنها لذات ألفاظها غير مقصودة (كما هي في الكلام المتعارَف عليه) إنما هي من صنيع الخيال. وهذا موجود في كتاب الله وحتى تستخرج المعاني منه تحتاج إلى دُربة ومقدرة في علوم البيان. ومن جانبه يضيف المؤلِّف أن للتمثيل مظهرين:

الأول: يجيء في أعقاب المعاني ليزيدها قوة وجلاءً.

الآخر (الثاني): أن يأتي المعنى ابتداءً في التمثيل.

وأتى بمثال لكل منهما بالنسبة للأول من سورة ياسين والآخر (الثاني) بقصة الملَكين مع داوود.

وقرَّر المؤلف أنه سوف يقصر حديثه على المظهر الثاني ولم يفصح عن العلَّة في ذلك إنما يبدو أنه النوع الغالب من التمثيل في القصص القرآني.

١ـ طلب الحواريين من عيسى بن مريم أن ينزل ربه عليهم مائدة من السماء لكي يعلموا أنه قد صدَّقهم وليشهدوا هم بذلك عليها ودعاء عيسى ربه أن يستجيب لتكون المائدة لهم عيداً فاستجاب له ربه بشرط أن مَن يكفر منهم بعدها يعذِّبه عذاباً لا يناله أحد من العالمين (الآيات ١١٢/١١٥ من سورة المائدة). وقال الطبري إن البعض ذهب إلى أن الله لم ينزل على بني إسرائيل مائدة إنما هو مثل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم عن مسألة نبي الله الآيات.

٢ـ ما ورد في سورة البقرة الآية ٢٤٣ عن الألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم والله ذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون. وفي رأي بعض المفسِّرين أن هذه ليست قصة واقعية إنما هي مثَل وممَّن ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

٣ـ قصة الرجل الذي مرَّ على قرية خاوية على عروشها فتساءل أنَّى يحييها الله فأماته مئة عام ثم بعثه ثم سُئل عن مدة لبثه فأجاب: يوماً أو بعض يوم فقيل له بل مائة عام وانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغيَّر وإلى حمارك وإلى العظام كيف ينشزها الله ثم يكسوها لحماً فلما تبيَّن له ذلك آمن وصدَّق بقدرة الله التي لا حدود لها (الآية ٢٥٩ من سورة البقرة). وفي تفسير المنار أن هناك إحتمالاً أن هذه القصة من قبيل التمثيل.

٤ـ سؤال إبراهيم ربه كيف يحيي الموتى فسأله: أوَ لم تؤمن فأجاب ﴿**بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾ فطلب منه ربه اخذ اربعة طيور وتقطيعها وخلطها ببعض ووضع كل جزء منها على جبل ثم يدعوها فتسعى إليه كل ذلك ليعلم أن الله عزيز حكيم (سورة البقرة الآية ٢٦٠). وذهب الرازي إلى أن هذا مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد بغاية السهولة ووافقه عليه صاحب المنار. أما المتأخرون فقد رأوا أنها من خصائص الأنبياء في الخوارق الكونية وإن كان المقام مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور وهو أكبر الآيات.

٥ـ قصة ابني آدم وتقديم القرابين وقتل أحدهما الآخر وعجزه جهلاً أن يواري سوأة أخيه وتعليم الغراب له ذلك (الآيات ٢٧ـ٣١ من سورة المائدة). ويورد المؤلِّف ما جاء في تفسير المنار بشأنها وأنها بيان لتنازُع غرائز الفطرة لبني البشر فهنا حدث تعارض بين عاطفة وشيجة الرحم مع حب العلو والحسد وأن غريزة الدين هي التي تتولى تهذيب الفطرة البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر.

وسبق للمؤلِّف أن أورد هذه القصة ذاتها ضمن (القصص التاريخي) وقد اعترضنا على ذلك ولعل نظمها في سلك القصص التمثيلي يؤكد إعتراضنا ما قررناه وأن خلف الله لم يطرح لنا المقياس الذي قاس به القصة التاريخية وانطلق منه مما أوقعه في الإضطراب عند سرده إياها إذ من غير المنطقي أن تكون القصة تاريخية وتمثيلية لأن الأولى تطرح وقائع تحققت وتشيَّأت فعلاً أما الأخرى فعمادها كما ذكر المؤلِّف الخيال والتمثيل والفن وضروب البلاغة وفنون البيان... إلخ.

ونحن نعرف أن القصة التاريخية من الجائز أن توحي بقصة تمثيلية فالقاص المتمكن من فنه من الميسور له إبداع قصة تمثيلية يستمد موضوعها أو فكرتها من قصة تاريخية حدثت في زمان غابر أو سابق وذلك على سبيل المثال لنقد أوضاع سياسية أو إقتصادية أو إجتماعية معاصرة لزمنه ولا يستطيع أن يجهر بهذا النقد وهذا ما يسمى بـ (الإسقاط). بيد أن هذا لا يخرج هذه القصة التمثيلية من نطاق (القصص التمثيلي) ويدرجها في مجال (القصص التاريخي) لأن عمودها الفقري التخيُّل والفن والإبداع... إلخ. وهذا غير (صنيع) خلف الله فهو قد اعتبر القصة الواحدة بقضها وقضيضها مرة (تاريخية) وأخرى (تمثيلية) وهذا ما نأخذه عليه.

٥ـ الآيتان ١٨٩، ١٩٠ من سورة الأعراف وفيهما أن الله تعالى خلق الخلق جميعاً من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها وظهر لهما حَمْلها دعوا الله ربهما إذا رزقهما ولداً صالحاً سوياً يشكرانه على ذلك فلما حقق لهما ذلك جعلا له شركاء فيه فتعالى الله عما يشركون. وذهب الرازي إلى أن لهما أكثر من تأويل فالقفال من مذهبه إلى أنها تمثيل أي ضرب مثل لبيان جهالة المشركين ذلك أن الله بعد أن رزقهما

الولد الصالح السوي نسباه تارة إلى الطبيعة وأخرى إلى الكواكب وثالثة إلى الأصنام وكل هذا شرك والله منزَّه عما يشركون.

٦ـ يرى الطبري أن ما جاء في سورة البقرة في قصة آدم عن إستكبار إبليس عن السجود لآدم لأنه مخلوق من طين وهو خلق من نار وهذه أشرف كما أنه حسد منه لآدم على هذا الفضل الذي تفضَّل به ربه عليه حتى أنه أمر بالسجود له يرى الطبري أنه مثل مضروب لليهود المعاصرين لإستكبارهم وحسدهم لمحمد أن أتاه الله النبوَّة. وفي موضع آخر ذهب الطبري أنها قصة تمثيلية ضربها الله في سورة صاد لمشركي مكة الذين استكبروا أن يختص الله تعالى واحداً من دونهم بالنبوَّة والرسالة.

وختم المؤلِّف هذا العرض من أقوال المفسِّرين برأي للأستاذ الإمام محمد عبده في القصة التمثيلية (أورده كاملاً) ثم ينتهي إلى أن القصة التمثيلية أو الخيالية موجودة بإعتراف أئمة التفسير قدامى ومحدثين وهي قصة أدبية. ويأمل ـ خلف الله ـ بعد كل ما قدَّمه من براهين على وجودها في قصص القرآن الكريم ألا يجد معارضاً.

وينتقل خلف الله إلى (القصة الأسطورية) التي يقول عنها أنها تختلف عن (التاريخية) و (التمثيلية) إن من حيث مادتها أو تناولها فمن الناحية الأولى فهي قصة بأكملها أما من الناحية الأخرى فهي مخالفة عن النوعين الأولين.

وهناك إجماع من المفسِّرين وغيرهم من العلماء المسلمين القدامى على وجود القصة التاريخية وبعضهم أجاز القول بوجود القصة التمثيلية أو غير الواقعية أو الفرضية بتعبير عدد منهم كذا هناك إجماع يمكن أن نسميه مضاداً على إستبعاد القصة الأسطورية في القرآن.

ويضيف المؤلِّف أن بعض المفسِّرين من أصحاب اللمحات فتح الباب وأجاز وجودها وذلك عن طريق تأصيل أصول على قدر من الأهمية للفكرة مثل التقرير بأن هناك جسماً أو هيكلاً للقصة بيد أنه غير مقصود بل المقصود ما فيها من توجيهات دينية أو خلقية ومن أبرز هؤلاء من غير القدامى الإمام الشيخ محمد عبده حين تحدث عن التعبيرات البيانية وأنها تقوم على شيء من الخرافات الوثنية ومن القدامى الرازي فعندما تناول بالتفسير

قوله تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[1] من سورة يونس فرّق بين أمرين:

الأول: هيكل القصة.

الآخر (الثاني): ما انضوت عليه من توجيهات دينية.

والأول : هو الذي أشكل على عقول المشركين فقالوا عن القرآن أنه أساطير الأولين، في حين أن الهيكل أو الجسم ليس هو الهدف المبتغى. وهو ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده في المنار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة وموطن الهِداية ومثّل بالذي يتخبّطه الشيطان من المس والذي بلغ مطلع الشمس مثلما يفعل كتّاب عرب وفرنجة عندما يذكرون آلهة الخير والشر عن قدماء المصريين أو الإغريق في حين أن أحداً منهم لا إعتقاد لديه في تلك الخرافات الوثنية. بيد أن كلاً من الرازي وعبده اكتفيا بفتح الباب في هذه الخصوصية ثم توقفا إذ كل ما صنعاه هو التأكيد على عدم إستهداف الجسم أو الهيكل ولو كان أسطورة وهذا غير قادح في القرآن الكريم.

يأخذ خلف الله إستقصاء الآيات التي عرضت لذكر الأساطير لكي يتسنى له بعد ذلك أن ينظر إليها النظرة العلمية التي تؤدي إلى الحق وهي تسع آيات: الأنعام ٢٥، الأنفال ٣١/٣٠، النحل ٨٣/٢٤، الفرقان ٦/٥، النمل ٦٨/٦٧، الأحقاف ١٧، القلم ١٥/١٠، المطففين ١٣/١٠.

وأول الحقائق عنها أنها جميعها من القرآن المكي حتى ما وضع منها في سورة مدنية مثل الآيات ٣٦/٣٠ من سورة الأنفال لأن الأحاديث عن أساطير القرآن جاءت من جمهرة مشركي مكة ولم يقل بذلك أحد من أهل يثرب لا من اليهود ولا من بني قَيْلَة. وهي ملاحظة مكية تحسب لخلف الله وتضاف لرصيده وتعوّض ما فاته من تعليل إجماع المفسّرين على نفي القصة الأسطورية في القرآن فهؤلاء فعلوا ذلك لأنهم لو قالوا بخلافه أي بوجود قصة أسطورية في القرآن لأيّدوا بذلك مذهب مشركي مكة وهي أن القرآن ما هو

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

إلا أساطير الأولين.

والحقيقة العلمية الثانية أن القائلين بذلك هم المنكرون للبعث ولا يؤمنون بالحياة الأخرى.

وثالث ما يُفهم من النظر إلى هذه الآيات التسع إعتقاد المشركين الجازم بصدق ما يقولون لدرجة أنهم كما نقلت لنا إحدى آيات الأنفال يدعون الله أنه إن لم يكن هذا أساطير وحق من عنده فليرسل عذاباً كما فعل بالأمم السوابق.

ويرى خلف الله رأياً في غاية من الأهمية وهي أن هذه العقيدة الراسخة بوجود أساطير في القرآن لدى كفار مكة لا بد أن لها سنداً يبرِّرها. ويضرب لذلك مثلاً بولد أبي بكر الصدِّيق الذي رفض دخول الإسلام لأن ما في القرآن ما هو إلا أساطير الأولين ويستدل على ذلك بأن القرون الأولى التي هلكت لم يعد منها أحد. ومما هو جدير بالذكر أن السيدة عائشة بنت أبي بكر حاولت نفي نسبة ما جاء بالآية المذكورة لواحد من إخوتها ولكن هذا النفي في نظرنا لا يُعتد به لأنها عندما نكحها محمد كانت بنت ست سنوات وعندما بنى بها بالمدينة كانت قد بلغت الثامنة أي أن هذه الواقعة التي حملتها تلك الآية قد حدثت إما قبل ولادتها أو هي طفلة صغيرة لا تعي ولكن...

لماذا نذكر ذلك؟

لكي لا يعترض أحدهم ويزعم أن الحادثة لم تقع في بيت ابن أبي قحافة وإنما هي غابرة وبذلك يوهن أو يهزل الدليل الذي ساقه المؤلِّف.

ويطرح خلف الله سؤالاً:

هل تلك العقيدة المتمكِّنة من نفوس مشركي مكة من أخطائهم التي تُحسب عليهم أو هو شيء من حال القرآن ولَّده في نفوسهم؟ بيد أنه لا يسوق إجابة فورية ويطلب من قارئه الإنتظار.

أما رابع ما يُفهم من النظر في التسع آيات التي ضمَّت كل ما جاء في القرآن عن الأساطير هو أن القرآن ذاته لم يكن حريصاً على نفي وجود الأساطير فيه إنما حرص على

نفي أن تغدو هذه الأساطير هي الدليل على كونه من محمد وكعادته فإنه يقدِّم بين يدي قارئه الحجج الدوامغ:

١ـ في آيات سور الأنفال / المؤمنون / النحل / الأحقاف وصف صنيع المشركين دون أي تعقيب.

٢ـ في آيات سورتي الأنعام / المطففين هدَّدهم القرآن لإنكارهم البعث وصدّهم الناس عن إتباع النبي إنما لم يهدِّدهم لنعتهم القرآن بأنه أساطير الأولين.

٣ـ المرة الوحيدة التي ردَّ فيها القرآن على زعم المشركين بوجود أساطير فيه هي تلك التي وردت في سورة الفرقان.

ولكن هل الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن؟

أو ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد وينسبها إلى الله؟

ويجيب المؤلِّف لعل الثاني أوضح، ويستشهد على ذلك بما أورده الرازي في مناقشته لرد القرآن على المشركين، ولو أنه يخالف الرازي في نقطة مؤثرة وهي شرح أو تفسير قوله تعالى: ﴿**قل أنزله الذي يعلم السر**﴾[1] إجابة على قولهم: ﴿**وقالوا أساطير الأولين**﴾[2]، لأن المتبادر أن الرد الذي كان يتوقعه الرازي هو نفي الأساطير ومن هنا حاول أن يجعل إجابة القرآن ملاقية للشبهة وهنا يقول خلف الله إنه لا يوافق الرازي على ذلك وإن إجابة القرآن هي الإجابة الطبيعية والتي لا محيد عنها وفي محلها ويعني إثبات أن القرآن من عند الله لا نفي الأساطير ويستدل (المؤلِّف) على رأيه بما جاء في القرآن في آية ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾[3] لأنهم كانوا يستبعدون صدور هذا القصص الأسطوري من عند الله ولذا وقفوا ذلك الموقف من النبي عليه السلام ومن القرآن.

وينتهي المؤلِّف إلى أنه إذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير وإنما نفى ورودها من

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦.

(٢) نفس السورة، الآية ٥.

(٣) سورة **النحل**، الآية ٢٤.

عند محمد لا من عند الله ومن جهة أخرى كان إحساس مشركي مكة إحساساً قوياً عنيفاً وعقيدتهم قوية راسخة بوجود أساطير في القرآن إذا كان ذلك كله فإنا ـ وهذا على لسان خلف الله ـ لا نتحرَّج من القول بأن في القرآن أساطير وهذا القول لا يعارض أي نص في القرآن.

والحق أن خلف الله في تقريره هذا بلغ قمة الجرأة الفكرية وأننا لم نقرأ لمفكر لا في القديم ولا في الحديث ـ ينطق من أرضية إيمانية إسلامية ـ هذا الرأي.

وكما ذكرنا فيما سبق أن المؤلف لا يرسل كلامه إرسالاً بل يقدِّم عليه البراهين العلمية الصحيحة. ولعل ما ذكره خلف الله في بداية تناوله لهذا النوع من القصص (القصة الأسطورية) هو من إجماع المفسِّرين وسائر العلماء على نفي وجود القصة الأسطورية في القرآن يؤكد ما قلناه من أن الرأي بوجود أساطير في القرآن الذي طرحه المؤلف رأي غير مسبوق وغير ملحوق، والذي نرجِّحه أن هذا الرأي هو أحد أسباب الثورة التي واجهت الرسالة أو الكتاب، لأن المعاصرين مثل القدامى يهوِّلهم هذا الرأي فمن ناحية هو يشكِّل خروجاً على إجماع علماء المسلمين ومن ناحية أخرى ـ وهذا هو السبب أو العلة في هذا الإجماع الذي استمر قروناً طويلة ـ أنه يذكِّر برأي مشركي مكة أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها محمد. أي أن القائل بوجود أساطير في القرآن يلحق بأولئك المشركين وهذا غير صحيح لأن خلف الله عندما قال بذلك أي عندما طرح هذا الرأي إنما طرحه في نقطة محصورة أو مجال محدود وهو القصة وأنه فرَّق بين جسم أو هيكل الأسطورة أو القصة الأسطورية وأنه ليس هدفاً أو قصداً أو غرضاً أو غاية... وبين التوجيهات الدينية والخلقية والمعاني الكامنة وهي القصد والهدف والغاية ولعل توصُّل كل من الرازي ومحمد عبده إلى لمحات من ذلك يؤكد أن رأي خلف الله لم يكن شططاً وليس بقادح في القرآن من أي وجه فضلاً عن عدم إصطدامه بآية آية من آيات القرآن.

بعد ذلك يتبقى من شرح الظواهر السابقة أمران:

الأول: لماذا صدر هذا القول من منكري البعث؟

الآخر (الثاني): لماذا صدر من المكيين دون غيرهم؟

قبل أن يجيب المؤلِّف على هذين السؤالين يبدأ بإستعراض بعض القصص القرآني الذي عالج القرآن فيه مشكلة البعث.

أولاً: الرجل الذي مرَّ على قرية خاوية على عروشها وتساءل متى وكيف يحييها الله.

والأخرى: سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ـ وقد سبق تناولهما ـ ويقول خلف الله أنهما تفسّران وتجسّمان عملية الإحياء بعد الإماتة التي ينكرها مشركو مكة إنكاراً تاماً. ويضيف أن وقفة بعض المفسّرين إزاءهما تقطع بأنهما لم تحدثا وفي تفسير المنار أن القصة الأولى من قبيل التمثيل وأورد الرازي رأي أبي مسلم الذي ينكر وقوع الأخرى بحزم وأنها من قبيل التمثيل لا غير.

فإذا إنضاف إليهما رأي بعض المستشرقين أن قصة أهل الكهف قصة أسطورية تبيَّن السر في أن القائلين بالأسطورية هم منكرو البعث إذ لم يستطيعوا تصديقها لأنها تجسّم عملية الإحياء بعد الإماتة وجروا على أنها أساطير الأولين.

وينهي خلف الله الإجابة على السؤال الأول بأن الشبهة التي دخلت على المشركين من أمثال هذه الأقاصيص دخلت على المفسّرين من نفس الباب ومن هنا لم يستطيعوا القول بوقوع تلك الأحداث وفسّروا هذا اللون من القصص بأن المراد به التمثيل فحسب.

يتساءل خلف الله: لماذا انقطع القول بالأساطير بعد إنتقال النبي إلى المدينة؟

ويجيب: في المدينة كانت البيئة ذات ثقافة كتابية من أثر اليهود الذين في كتبهم وردت الأساطير لشرح فكرة أو تجسيم عقيدة وهم (اليهود) يعرفون ذلك فانتقل إلى اليثاربة العرب بعكس البيئة المكية التي كانت مليطة من الثقافة الكتابية وهذه علة وسْم مشركي مكة للقرآن بالأسطورية.

وإذاً إن القصص الأسطوري يعتبر تجديداً في الحياة الأدبية في مكة أتى به القرآن الكريم ومن ثم فهو يعد من جوانب إعجازه وأنه جعل الأدب العربي يسبق غيره من الآداب العالمية في فتح هذا الباب وجعل القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب الرفيع.

ونحن نعتقد أن خلف الله في عبارته الأخيرة قد شطح شطحاً ظاهراً وكان من

الأفضل ألا تضمّها رسالة جامعية أو كتاب علمي رصين فعدد من الشعوب عرفت الأساطير وضمّنتها آدابها الرفيعة ولعل أبرز مثَل يرد على الذهن سريعاً هو الإلياذة والأوديسة ولعل العاطفة الإيمانية لديه هي التي دفعته إلى تسطير هذا الرأي الفطير وقد ذكّرني صنيعه هذا بما يفعله البعض في هذه الأيام عندما يسمع عن إكتشاف علمي أو نظرية في الإقتصاد أو الإجتماع أو السياسة أو التعليم أو الإعلام أو الإسكان أو في أي فرع من فروع العلم التجريبي أو الإنساني فيبادر ويدَّعي أن القرآن قد سبق ولا مانع من أن يتمحّل آية يؤكد بها زعمه المفضوح ولطالما سألناهم:

إذا كان الأمر كذلك وأن القرآن يحتوي على كل النظريات العلمية التجريبية والإنسانية والمعادلات التي تؤدي إلى الكشوف والإختراعات والتكنولوجيات بأنواعها فلماذا لم يتوصل إليها المسلمون وانتظروا حتى اهتدى إليها الفرنجة الملعونون ثم ينسبونها إلى القرآن!

وقلنا لهم أن القرآن كتاب دين وهِداية وأخلاق وقيَم ومُثُل وكفى بذلك فخراً وشرفاً له وأنه ليس كتابَ علوم (تجريبية) وهندسة وطب وإقتصاد وإجتماع... إلخ. وأن نسبة هذه النظريات إليه يسيء إليه لأنها متطورة ومتغيرة في حين أن القرآن ثابت ومطلق... إلخ. وكيف في ميزان العقل والمنطق أن يحتوي القرآن على نظريات علمية تجريبية في حين أن المجتمع الذي انبثق منه لم يكن لديه أي علوم من أي نوع بل كل ما كان لديه مجرد معارف ساذجة أشد ما تكون السذاجة بسيطة أبلغ ما تكون البساطة.

ولما لم يذكره خلف الله في خصوصية إنطواء القرآن على أساطير، أن البيئة التي ظهر فيها كانت بيئة أساطير فهي تؤمن بالجن والعفاريت ووادي عبقر وأن لكل وادٍ سيد من الجن يتعيَّن أن يتعوَّذ به مَن يريد أن يبيت فيه وبالغيلات والرُّقي والتعاويذ والعين والحسد والسحر الأسود الذي يحمله الخصم لخصمه ليؤذيه ويضرّه (تسميه العامة في مصر العمل وفي سيرة محمد أن يهوديا هو لبيد بن الأعصم سحره ودفن العمل في أحد الأبيار وأن السماء أرسلت ملاكا دلَّ محمدا عليه فأخرجه منه وفك العمل وزال السحر وبطل كيد الساحر الملعون وعاد محمد إلى حالته الطبيعية أ.هـ.)، وذلك وصف شديد الإيجاز لحالة

ذلك المجتمع الذي كان معجوناً بالأساطير فكان من المحتَّم وقد ظهر القرآن فيه بأن تكون فيه أساطير حسبما ذهب إليه خلف الله.

ومن ثم فنحن لا نأخذ عليه القول بوجود أساطير في القرآن بل نؤيِّده فيه وقدَّمنا العلة لذلك تلك العلة التي غفل عنها أو أغفلها (خلف الله). إنما الذي عارضناه فيه هو تقريره سبْق القرآن في إنضوائه على القصة الأسطورية وفي سبْقه الآداب العالمية في جعل هذا اللون من القص من ألوان الأدب الرفيع وبيننا وبين المؤلِّف تاريخ الآداب العالمية أو الأدب المقارن بيد أن الذي يغفر له هذه الكبوة هو العاطفة الدينية المشبوبة في جوانحه والتي لم يلتفت إليها الذين أثاروا تلك العاصفة الهوجاء عليه وعلى كتابه أو رسالته (أطروحته).

ويختم الفصل الأول بقوله إنه قام بالتدليل على وجود الألوان الثلاثة من القصص الأدبي ثم يتحفَّظ - شأن العلماء الذين يصرِّحون أن ما يطرحونه مجرد رأي وليس هو الحقيقة المطلقة التي لا تقبل نقاشاً أو جدلاً ـ فيقول أو على إحتمال الوجود وإجازته وكلها يُثبت أن القصة في القرآن الكريم عمل أدبي وظَّفه القرآن لتحقيق مقاصده وأغراضه.

الوحدة القصصية

وضع خلف الله عنواناً للفصل الثاني هو (الوحدة القصصية) ونظراً لسيطرة النزعة التاريخية على عقلية القدامى فإنهم عجزوا عن الإهتداء إليها إذ لم يفرِّقوا بين عمل الأديب وعمل المؤرِّخ ثم شرح الفرق أو الفروق الدقيقة بينهما وهذا ما أدى بهم إلى تفسير ظاهرة تلوين صورة الشخصية الواحدة طبقاً لإختلاف المواقف وضرب مثلاً لذلك في رسم صورة فرعون مرة في مسوح العابد وأخرى في عزة المعبود، وعدم التفرقة بين الصنيعين جعلهم يعتقدون أنه لا شخصية قصصية في القرآن إلا الشخصية التاريخية.

في مضمار الحديث عن الوحدة القصصية يبدأ بتناول الأساس الذي يتعيَّن أن نميِّز بهَ قصة عن أخرى ويضيف أن الأساس كان لدى مَن سبقه من الدارسين هو الشخصية التاريخية وإليه يُعزى تسمية أقاصيص القرآن بأسماء المرسلين وغيرهم وكذا بالصفات التي أطلقها القرآن الكريم على الشخصيات مثل الذي مرَّ على القرية الخاوية على عروشها

وأصحاب الكهف وأصحاب الجنة والألوف الخارجين من ديارهم حذر الموت إلخ.

ولكن ماذا كانت نتيجة هذا الصنيع؟

جُمعت كل الأقاصيص التي ذُكرت حول نبي أو شخصية أخرى واعتُبرت كلها هي قصة هذا النبي أو هذه الشخصية. ومن هنا حجبوا أنفسهم عن إدراك أسرار القرآن البلاغية والأدبية والفنية المعجزة في: التكرار، الحذف، الذكر، الزيادة، النقص، التقديم، التأخير إلخ. وترتيباً على ذلك وجدوا أنفسهم أنهم كانوا يسيرون في طريق مسدود ومن هنا لم يجدوا مخرجاً إلا عد القصص القرآني من المتشابهات.

هل يمكن شرح المقصود بـ (الوحدة القصصية)؟

هي المشكلة التي تعالجها القصة ويقوم عليها فن التركيب والبناء.

ويتّفق هذا مع قواعد الأصوليين لأن مدار بحثهم في الآية القرآنية هو ما تصوّره من حكم شرعي أو عقيدة دينية دون الأشخاص الذين تدور حولهم هذه الأحكام والمثل عليه هو أنه عند الحديث على الأزواج توزّع الحديث عنهم في مواضع كثيرة مثل النكاح والطلاق والخلع والإبراء واللعان والظهار والنفقات... إلخ. ولما كان من المحال الجمع بين آيات هذه المواقف إذ لكل منها باب فإنه يستحسن العمل بهذا المنهج في فضاء القصة القرآنية بأن تغدو هذه القصة للعظة وهذه لتثبيت قلب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وثالثة للتخويف إلخ.

وعوّدنا خلف الله على ترسيخ رأيه بضرب الأمثلة التي هي بمثابة الحجج والبراهين فيقول إنا لا نستطيع الجمع بين قصة البعث أي الإحياء بعد الإماتة كقصة إبراهيم مع الطير التي وردت في سورة البقرة وقصة شن الغارة على الأصنام التي يعبدها الوثنيون كقصة إبراهيم في سورة الأنبياء لمجرد أن البطل في كليهما هو نبي الله إبراهيم عليه السلام.

هذا الصنيع يتّفق وصنيع القرآن لم؟

لأنه الأساس الذي قام عليه الجمع في الأقاصيص من حيث الأسماء الواردة في سورة واحدة من سور القرآن ومن ناحية أخرى فلأنه الأساس الذي قام عليه التشابه

والإتفاق في بناء القصة وتركيبها في كل من السور مهما تتغير الأسماء.

ثم يقوم المؤلّف بعرض بعض من الأقاصيص القرآنية التي جمعت في سورة واحدة بالإضافة إلى وحدة البناء والتركيب كل ذلك مع إختلاف الأسماء:

أولها الجمع بين قصة صالح وأخوهم هود وأصحاب الأيكة وشعيب. فلوِحدة المقاصد في كل منهما وحّد القرآن بينهما إذن الوحدة تقوم على المقاصد والأغراض والمشكلات لا على الأسماء والأشخاص ولقد صرَّح القرآن بما يؤكد هذه الوحدة في العديد من الآيات. والذي يلتفت عن هذه الوحدة فهو بدوره التفت عن القصد الحقيقي للقصص وهو الأغراض الدينية وهو (الذي يفعل ذلك) سواء عن إدراك أو غفلة يعطِّل المهمة الأدبية للإعجازية بل والدينية الخُلُقية التي يتغياها القرآن. والوحدة القصصية هي التي تفسّر لنا ظاهرة التكرار التي دعت القدامى إلى القول بالتشابه الذي هو بتعريف الطبري: هو ما اشتبهت الألفاظ به عند التكرار فهناك قصة بإتفاق الألفاظ وإختلاف المعاني وأخرى بإختلاف الألفاظ وإتفاق المعاني. والصور التي تحقق فيها رأي الطبري كثيرة في القرآن وإيرادها عسر ومن ثم فإنه (خلف الله) سوف يكتفي بالبعض الذي يؤكد رأيه ويوثّقه:

١ـ في سورة الأعراف قصة إرسال نوح لقومه يدعوهم لعبادة الله وأنه يخاف عليهم عذاب يوم عظيم وفي سورة هود: نوح نذير مبين يخاف عليهم عذاب يوم أليم وفي المؤمنين: مالكم من إله غيره أفلا تتّقون ثم يورد خلف الله رأي الخطيب الإسكافي صاحب «درة التنزيل وغرة التأويل» ويعقّب عليه أنه حلّه حلاً أدبياً وأنه بدوره يسلم إلى رأي أدبي آخر إذ أنه من البديهي أنه عندما تتعدد المواقف وتختلف الأشخاص فلا بد أن يكون هناك في العبارات ما يلائم المقام ومن هنا تجيء النتيجة المنطقية وهي إختلاف الصور أو إختلاف الأقاصيص لإختلاف الصور البيانية والمواد القصصية وإختلاف المقامات.

٢ـ في سورة طه سؤال موسى عما بيمينه فأجاب أنها عصاه وفي سورة النمل أخبر موسى أهله أنه آنس ناراً ﴿أَلْقِ عصاك﴾[1].

(١) سورة النمل، الآية ١٠.

والله نفى الإختلاف عن القرآن وأنه لو كان من عند غيره لكان مليئاً بالإختلاف.

وهنا قد يسأل سائل ألا يوجد الإختلاف الذي جاء في سوره بشأن الإخبار عن قصة واحدة فمرة قال موسى لأهله ﴿**لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى**﴾[1] وفي أخرى ﴿**سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبسٍ لعلكم تصطلون**﴾[2] وفي سورة القصص ﴿**لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار**﴾[3]. وفي موضع: أخبره أنه ربه وأمره بخلع نعليه وأنه بوادي طُوى المقدس وسأله عما بيمينه وفي آخر... ﴿**فلما جاءها نودي أن بُورك مَن في النار ومَن حولها...**﴾[4] ثم أعلمه أنه الله العزيز الحكيم وأمره بإلقاء عصاه. وفي القصص: ﴿**نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة**﴾[5] وأخبره أنه الله رب العالمين وأمره بإلقاء العصا فلما رآها تهتز أجاب الخطيب الإسكافي في (درة التنزيل) هذا السائل بما يلي:

أن الله تعالى لم يخبر أن موسى خوطب باللغة العربية فإذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها كان إختلافاً في القرآن قادحاً فيه بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة ويعقّب خلف الله أنه جواب غير مقنع لا يحل المشكلة ما دام الموقف واحداً والقصد هو الإخبار عن هذا الموقف. والحل في رأيه ـ وقد لمحه الخطيب الإسكافي ـ بأن هذا موقف وذاك آخر والإختلاف يرجع إلى القصد الذي تغياه القرآن من الصورة القصصية فقصة وردت للتسلية أو التسرية عن النبي عليه السلام وأخرى لغرض آخر والغرض الأدبي لحادث واحد من جوانب مختلفة يكشف عن موضع العبرة والعظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه فإذا اختلفت المقاصد تباينت الصورة المعبّرة عنها. والإتفاق في الشخصية لا يصح أن يطغى على بقية عناصرها من إختلاف في المقاصد والأغراض والصور والألفاظ والنسق

---

(١) سورة طه، الآية ١٠.

(٢) سورة النمل، الآية ٧.

(٣) سورة القصص، الآية ٢٩.

(٤) سورة النمل، الآية ٨.

(٥) سورة القصص، الآية ٣٠.

والتركيب والبناء وهذا الوجه يبطل قول المستشرقين الخاطىء من تطوُّر الشخصية القصصية في القرآن بتطوُّر أغراض النبي عليه السلام ودوافعه والظروف التي أحاطت والمناسبات التي دعته إلى إتخاذ بعض المواقف. والمستشرقون يمثّلون لذلك بما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام لأن أساس قولهم إن الوحدة القصصية تقوم على وحدة الشخصية وهو قول باطل والصحيح أن هذه الوحدة هي وحدة الغرض ومن ثم فلا مانع مع وحدة الشخصية أن تكون هناك أقاصيص متعددة لها عن موقف واحد لتعدُّد الأغراض وتباين صور العرض بإختلاف المقاصد والأغراض.

وقريب من هذا الإختلاف في شخصية فرعون فمرة هو معبود وأخرى هو عابد لأن الوحدة القصصية تكون بوحدة الشخص لا الغرض أو المقصد ويرفض الباحث أيضاً هذا الإعتراض ويكرّر رأيه: بإختلاف القصة لإختلاف المقصد والمغزى.

ونحن نرى أن خلف الله لم يعطِ الرأي القائل ـ من قبل المستشرقين (هكذا بألف لام الإستغراق وهذا تجاوز كما سبق أن ألمعنا. أ.هـ.) - من أن تطوُّر أغراض محمد ودوافعه والظروف التي أحاطت به والمناسبات التي دعته إلى إتخاذ بعض المواقف وإنعكاس ذلك على القرآن كله لا على قصصه فحسب نقول إنه لم يعطه حقه من البحث والفحص والتمحيص بل تعامل معه بقدر من العجلة والسرعة لا يناسبان الأطروحة أو الكتاب... علماً بأن هذا ليس هو رأي المستشرقين فقط بل هو يمثِّل وجهة نظر أو قناعة عدد لا بأس به من البحّاث المعاصرين.

والصحيح أن هذا رأي ولكنه حقيقة ثابتة وظاهرة لكل مَن يقرأ سيرة محمد والقرآن بإمعان وبعقل مفتوح وفكر يقظ متحرِّر من إسار عاطفة القداسة التي لا شك أنها تمنع من النفاذ أو التوصل إلى الحقيقة، حقيقة أن تاريخ سور وآيات القرآن معضلة من أعقد المعضلات في تأريخ العلوم الإسلامية ولكن هناك سوراً بأكملها وآيات تحدثت هي ذاتها عن وقائع تاريخية مثل غزوات بدر وأحد والخندق وحُنين ومثل حادث الإفك الأثيم... إلخ فضلاً عن أن كثيراً من البُحّاث استطاع أن يؤرِّخ لعديد من الآيات نخص منهم علماء (أسباب النزول).

وبمقارنة هذه السور والآيات بمسيرة محمد سوف يتكشّف للقارىء الواعي أن هناك علاقة حميمة بين الإثنين وسوف ينتهي إلى أن أغراض النبي وما تُعرض له من ظروف ومناسبات كان له تأثير وأي تأثير ولقد تناولنا بالدراسة هذه النقطة في خصوصية لهجة آيات القرآن في مخاطبة اليهود والمسيحيين (يسميهم النصارى) والمنافقين وعرب الجزيرة عموماً قبل عام الوفود وفتح مكة (فتح الفتوح أو الفتح الأعظم) وبعدهما وكيف أن تلك اللهجة تطوّرت وذلك في كتابنا (دولة يثرب، بصائر في عام الوفود وفي أخباره) دار سينا، مصر ومؤسسة الإنتشار العربي بيروت/لبنان.

في سورة الشعراء بصدد قصة صالح عليه السلام أخبره قومه أنه من المسحُرين وأنه بشر مثلهم وإن كان صادقاً فليأتهم بآية وفي قصة شعيب عليه السلام طلب من قومه أن يتّقوا الله الذي خلقهم ومَن سبقهم فردّوا عليه أنه من المسحُرين ومجرَّد بشر مثلهم وأغلب الظن أنه كاذب. وإذ أن في الإثنين تشابه في الصياغة فما سر ذلك؟

يجيب خلف الله أن في كلتيهما أتى القصد والغرض ومن ثمة جاء التشابه في البناء والإتفاق في العبارات.

ودائماً يختار القرآن الأحداث والشخصيات والمواقف التي تحقق الهدف الذي يتغيّاه، ففي قصص سورة هود الغرض منها هو تثبيت قلب النبي عليه السلام فاختار المولى سبحانه وتعالى من أحداث الأنبياء مع أقوامهم ما يحقّق هذا الغرض.

أما قصص سورة الشعراء فقد نزلت لتصوير اللدد في الخصومة وتهوين وقع الأمر على النبي ـ ص ـ وهذا هو أساس التوافق في البناء والتركيب بل والعبارات. وكان ذلك واضحاً وملحوظاً في قصتي صالح وشعيب اللتين جاءتا في سورة الشعراء سواء من ناحية البناء والتركيب أو ما نطق به أبطالها من عبارات في الجدل والحوارات.

وإذ أن خلف الله متمكّن من رأيه أو نظريته فإنه يعرض من الأدلة ما يؤيّدها طرداً وعكساً، مثل قصة لنفس الشخص الذي تدور حوله الأحداث أي أن البطل واحد ولكن هناك إختلاف يترك لفطانة القارىء إدراكه على ضوء الرأي الذي طرحه... ففي سورة الشعراء قصة ثمود وصالح والناقة التي لها شرب ولهم شرب يوم معلوم وتحذيره إياهم من مسها وإلا حاق بهم عذاب يوم عظيم ولكنهم عقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب،

وفي سورة القمر بدأ سرد القصة أن ثمود كذبت بالنذر ووصفوا النذير بالكذب واستبعدوا نزول الذكر عليه من دونهم وأن الله أرسل الناقة فتنة لهم وأن واحداً منهم تعاطى وعقرها فأرسل عليهم صيحة فغدوا كهشيم المحتظر.

ويعقّب الباحث أن الإختلاف في القصتين قوي وليس ثمة سبب لذلك إلا إختلاف المقاصد ومن ثم اختلاف البناء والتركيب. أي كما يؤدي التشابه في المقاصد إلى التشابه في البناء والتركيب... إلخ كذلك الإختلاف في البناء والتركيب... إلخ. إذن هي نظرية صحيحة أو رأي صحيح لا يتخلّف أثره في الحالين.

ويلفت المؤلّف إلى أن أجزاء أي قصة لا يمكن أن تعتبر كذلك إلا على أساس أن صاحب النص قد أراد هذا وأنه حين أنزله إنما أنزله على أنه جزء من قصة هذا النبي أو ذاك وهذا ما لم يقل به أحد فضلاً عن أنه يخالف أسباب النزول.

ومن ثم يذهب خلف الله إلى أن هذه الأجزاء نزلت لا لتكملة قصة سابقة بل لتحقيق أغراض مغايرة مختلفة بإختلاف الظروف والمناسبات. وسبب آخر هو التكرار الكثير الذي حظيت به بعض أقاصيص عدد من الأنبياء مثل لوط، شعيب، صالح وأن نُمعن الفكر في مسألة توزيع أجزائها فسوف نتأكد على الفور أن الكلام لا يستقيم... لماذا؟

لأن الأحداث والأشخاص واحدة في ذات القصة فكيف يتأتّى توزيع الأجزاء؟ إن ذلك لن يستقيم بحال من الأحوال. ويقرّر خلف الله إعتقاده بوجوب النظر إلى هذه الأقاصيص بإعتبار أن كلاً منها مستقلة وليست أجزاء يكمّل بعضها البعض، فهي عرض أدبي للحادث تختلف ألوانه بإختلاف أغراضه ويضرب مثلاً لشخصية تاريخية تُصاغ من أحداث حياتها قصص متعددة لكشف جوانب مختلفة فيها، ويعدّها ظاهرة رُقي فني قدّم القرآن مثلاً منها صح معها التحدي لهذا التكرار الذي لم يفهم على وجهه.

وهكذا استطاع خلف الله أن يعلّل تعليلاً علمياً وفنياً هذه الظاهرة التي لم تُفهم الفهم السديد، وأضاف نقطة هامة لرصيد القرآن في الإعجاز ـ وكان حرياً بمَن ناوأ خلف الله أن يدرك ذلك الصنيع ويقدّره له حق قدره ويحمده عليه - كما أنه كشف من ناحية أخرى عن غيرة المؤلّف على القرآن وتنزيهه عن المطاعن بمنهج علمي رصين لا يخلو من قدر وفير من الأدب والفن.

وبذلك يصل المؤلِّف إلى ختام الفصل الثاني (الوحدة القصصية) ولا مشاحة أن خلف الله أتى في ثناياه بمنهج جديد أو على الأقل قد طوَّر الملامح الأولية أو اللمحات الخاطفة التي ألمع إليها بعض القدامى وواحد أو إثنان من المحدِّثين حتى أنه يمكننا أن نقول أنه أبدع هذا المنهج إبداعاً وأنشأه من جديد.

ولا ينال من الجهد الذي بذله بعض الملاحظات التي أوردناها في ثنايا العرض والتحليل وكلما تقدَّمنا في قراءة الكتاب ودراسته وتحليله استبان أن المؤلِّف يطوي بين جوانحه عاطفة متأججة نحو القرآن دفعته لأن يبذل كل ما لديه من ثقافة وفكر للدفاع عنه دفاعاً حاراً بل أنها حملته في أكثر من موضع للتجاوز والشطط وهذا من بين ما أخذناه عليه.

المقاصد والأغراض

في هذا الفصل يعالج المؤلِّف (المقاصد والأغراض) ويبدأه بضرورة التمييز بين أمرين:

١ـ الآراء والأفكار والصور المعروضة في القصة.

٢ـ النتيجة التي تنتهي إليها القصة الواحدة أو مجموعة قصص وردت في سورة واحدة ذات مقصد واحد له في كافة العناصر: البناء، التركيب، أسلوب العرض، الأحداث، الحوار، الأشخاص... إلخ. ولكن ما هو الغرض؟

هو المقصد الذي من أجله نزلت القصة القرآنية وبُنيت على صورة خاصة وبأسلوب خاص ولنا هنا وقفة:

يعرِّف المؤلِّف المقصد بأنه هو الغرض أي أنهما شيء واحد وعنوان الفصل (المقاصد والأغراض) ومعروف أن الواو تعني المغايرة: أقبل زيد وعبيد فهما شخصان وفي القرآن: فاكهة وأبّا فهما صنفان مختلفان إذن كان حرياً به أن يجعل عنوان الفصل (المقاصد) أو (الأغراض)، ولا يجمع بينهما ـ ويستطرد المؤلِّف فيقول إنه بجانب الأغراض

تنتصب الوظيفة الإجتماعية التي تضطلع بها سائر الفنون الجميلة. ويخبرنا الباحث أن الرازي استدل على هذه الوظيفة الإجتماعية في القصة القرآنية، ويضيف أن عمليات الإفاضة والإيحاء التي قال بها النفسيون المحدثون... وردت في القصص القرآني في ثنايا تلك الوظيفة وتأدية لها.

والقرآن الكريم لفت الذهن إلى الوظيفة الإجتماعية عندما تحدث عن أثر الأقوال في النفوس وأنها تستثير العاطفة وهذا يفسّر لنا ضرورة بلاغة الأقوال لتؤثّر في النفوس وليقوى الإيحاء ويشتد وأورد الباحث عدداً من الآيات تأكيداً لرأيه. ويختم ما يمكن أن نسميه تمهيد هذا الفصل أنه من السهل أن ننتهي أن المقصد العام أو الوظيفة الإجتماعية من القصة الأدبية يكون عادة الإفاضة أو التنفيس والإيحاء وهي الأمور المتحققة في قصص القرآن.

ونبادر إلى القول بأن خلف الله إذن يسوّي بين الغرض والقصد والوظيفة الإجتماعية وسبق أن تحدَّثنا عن الغرض والقصد وكيف أنه كان عليه أن يختار أحدهما لأن الجمع بينهما إنما يعني المغايرة والإختلاف والمفاصلة.

أما عن الوظيفة الإجتماعية فسيتحدَّد كُنهها فيما نستقبله من المؤلّف من أفكار ومن جميعه نُبدي ما يعن لنا من ملاحظات.

يشير المؤلّف أنه بصدد بحث جامعي ولذا فهو لا يكتفي بالعموميات ويتعين عليه أن يفصّل ما أجمل وأن يورد المقاصد والأغراض بشيء من التفصيل:

أولها من وجهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط العاطفي عن النبي عليه السلام وعن المؤمنين والذي يرى أنه كان عنيفاً وأسبابه جلية واضحة ومنشؤها أقوال وأفعال المشركين الذين كانوا يكيدون بها له وللقرآن وللدعوة الإسلامية وكانت تدفع به إلى الضيق وقد سجّلها القرآن في أكثر من آية وأحدثت تلك الممارسات أو ولَّدت ضغوطاً تموضعت في قلب النبي عليه السلام وقلوب تبعه وأيضاً ورد ذلك في القرآن. ولم تقم تلك الضغوط العاطفية عند حد البلبلة النفسية بل تجاوزتها إلى ما هو أبعد حتى لنرى النبي عليه السلام يدعو ربه وهو في حال من الغيظ يوشك على الإنفجار... ويسوق الباحث بعدها الآيات التي تؤكّد ذلك. فكان تخفيف ذلك الضغط أو الإفاضة عما بنفس النبي وأتباعه

من مقاصد القصص القرآني حتى لا تزلزل النفوس وتترك الدعوة الإسلامية فلا تقوم لها قائمة وقام القص بدور تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب المؤمنين ورد الثقة إليهم وبث الطمأنينة وإزالة القلق وإزاحة الهم ونتج عن ذلك الصبر والثبات اللذين أفرخا النصر على الأعداء.

والقرآن صرَّح بهذا الغرض في الكثير من آياته وقد فطن الرازي إلى ذلك ومن تلك القصص قصة موسى في سورتي طه والقصص بيد أن قصة نوح في السورة التي تحمل إسمه ـ هي في رأي خلف الله ـ التي تمثِّل نفسية النبي عليه السلام في موقفه من قومه وفي فترة من فترات سيرته أصدق تمثيل خاصة في أول عهده بالدعوة والضيق الذي ألمَّ به وتوجُّهه إلى الله سبحانه وتعالى ليخفِّف عنه وينقذ المؤمنين من كيد فئة الكافرين الضالة المضلة.

ومن الأشياء التي حاول القرآن توجيه العواطف نحوها تلك التي سبق أن أشار إليها الباحث في حديثه عن القيَم الخلقية الدينية والإجتماعية والتي يحرص القرآن عليها مع إختلاف هذا الحرص بإختلاف ظروف البيئة والزمان. ويجيء في مقدِّمها مشكلات البعث والوجدانية وبشرية الرسل.

وهناك أشياء حاول القرآن خلق العواطف ضدها منها ما أشار إليه في فصل القيَم الخلقية مثل اللواط وبخس الناس أشياءهم وتطفيف المكيال والميزان ومنها إبليس والشيطان وقصة إبليس وآدم ويرى الباحث أنها قصة أدبية بليغة تُعتبر نموذجاً أدبياً لقص القرآن وهي تبعث العاطفة وتنشِّط الخيال ويقف الفكر حيالها حائراً بل يعجز عن فهم أسرارها الخفية خاصة تلك التي دارت في الملأ الأعلى محاطة بالظلال والغيبيات حتى أنها دفعت الرازي إلى العجز عن فهم الصنيع الأدبي والوقوف على أسرار ما دار هناك وهو الذي أدَّى إلى إخراج آدم وحواء من الجنة وأورد خلف الله مقاطع من تفسير الرازي تؤكد حيرته وعجزه عن الوقوف على تلك الأسرار ثم يعقب على ذلك أن تعجّبنا من هذه القصة لن يطول كما طال مع الرازي... لماذا؟ لأننا نعلم أنها قصة بليغة تصوِّر الصراع بين قوى الخير وقوى الشر وتؤكِّد حيرة الرازي ـ وهو من أكبر المفسِّرين – أنها قصة أدبية بكل ما تحمل من معنى هذا اللفظ من صور وهي من هذا الجانب من القصص الأدبي الطليق. ثم سطَّر آيات

تحكي قصة خروج آدم من الجنة وردت في سورة الأعراف وفيها إستعراض للعداوة بين آدم والشيطان ورؤية الأخير أنه أفضل من الأول لخلقه من نار وخلق ذا من طين مما دفعه إلى الإستكبار ورفض السجود وإستحقاق العقاب وهو إخراجه من الجنة ذليلاً صاغراً.

والقصة ترينا أن إبليس طلب من الخالق قبل خروجه من الجنة الإذن له بالخلود لكي يلعب دوره في الحياة والذي يتمثل في الإفساد وصد الناس عن إتباع الطريق المستقيم.

عند هذا الحد تنتهي مرحلة من مراحل القصة وهي: نشأة العداوة لتبدأ أخرى هي قصة آدم وحواء في الجنة وفيها يبرز الدور الحقيقي لبطل القصة إبليس ليوسوس من أجل الإخراج من الجنة فقد استجاب آدم لها (للوسوسة) وخالف نهي ربه فعوقب بالخروج حيث ينتظره إبليس ثم العتاب من الخالق للمخلوق والتوجيه الديني الذي هو أشبه بمغزى القصص الديني. *

قصة آدم وإبليس هي قصة النزاع بين الخير والشر أو بين الغرائز الفاضلة والغرائز الشريرة قصد القرآن منها أن يثير فينا الحقد والكراهية لإبليس والنفور منه وعدم الإستجابة إليه.

ومن تلك الأشياء التي قصد القرآن توجيه العواطف نحوها الكبر والإستكبار والإصرار والعناد التي تصدر عادة من الأغنياء والقادة الذين يأخذون دور العتاة الظالمين الذين يستكبرون على الحق ويأنفون من اتباعه وأبرع المواقف القصصية في هذا المجال موقف فرعون من موسى وملأ قوم هود وملأ قوم صالح. ويرى المؤلِّف أن فرعون من الشخصيات القصصية النابضة بالحيوية ذات الحركة القاسية العنيفة التي تشيع الرهبة في النفوس والخشية في القلوب بألفاظ الوعيد والتهديد التي تقطر دماً. وهي مثل فريد لتمثيل مواقف المستكبرين من رسل الله ويبرز ذلك جلياً في سورة يونس إذ تعرض لمواقف فرعون من موسى وقومه ومن السحرة وموسى وتنتهي بإنتصار البطل والقضاء على الظالم مثلما يحدث في القصة الشعبية. وشبيهاً بها موقف عاد من نبيها ويؤكد الباحث أن نتيجة العرض القصصي لهذه المواقف وأضرابها يلقي في النفس الخشية والرهبة ويبعث فيها الخوف عندما تدرك أن نتيجة ذلك هي العقاب.

ومنها عبادة غير الله فقد كثُر إستثارة الإنفعالات ضدها والتنفير منها وكان إبراهيم بطل القصص في هذا المضمار وبعضها بشأن عبادة النجوم والآخر حول عبادة الأوثان ولجأ إبراهيم للوصول إلى مبتغاه بتشكيك القوم في آلهتهم بأن يصوِّرها عاجزة عن النفع أو الضرر وأنهم يعبدون ما ينحتون فكيف يقدِّسون ما صنعت أيديهم وأبلغ مثَل على تصوير ذلك القصة التي حملتها سورة الشعراء. فهي صوَّرت موقف إبراهيم من أبيه وقومه والحوار البليغ الذي دار بين الطرفين ويلاحظ المؤلِّف أن إبراهيم اتَّجه إلى حاستين ضروريتين لدى المخلوقات للإستجابة هما السمع والبصر حتى يُعجِز المخاطَبين (بفتح الطاء) عن المجادلة ولا يجدوا مفراً من الإعتراف بأنهم عبدوها تقليداً لآبائهم وهنا تثور نفس النبي ويعلن العداوة إلا للذي خلقه فهو الذي يطعمه ويسقيه وعند مرضه يشفيه ويميته ويحييه والذي يطمع أن يغفر خطيئته يوم الدين. بعدها يناجي ربه بدعوات صالحات ثم ينتهي بتصوير مشهد في الآخرة يذيب القلوب ويبعث النفور من عبادة الأوثان، مشهد يصوِّر خصام الأصنام وعبدتها ثم تأتي الفقرة التقليدية التي يختم بها القرآن قصصه وهي أن في ذلك لآية وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

أما الغرض الثالث الذي تقوم به القصة فهو عمليتا الإفاضة والإيحاء ويفسِّرهما خلف الله بتكوين عواطف قوية مع أو ضد القيَم الخلقية والدينية والإجتماعية الموجودة في البيئة أو المراد فرضها عليها وتقوم أيضاً بعملية أخرى لا تقل عنها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين هي: بث الثقة والطمأنينة أو بذر الخوف والقلق والإضطراب النفسي.

هي (القصة القرآنية) تفعل ذلك بعرض صور من الحياة الدينية التي انتصر فيها الدعاة وتبعهم وفي المقابل نزل الهلاك بالقادة المعارضين وجنودهم ولعل أبرزها قصص سور: الأعراف والشعراء والقمر.

أما الأسلوب الذي اتَّبعه القرآن في ذلك فهو إختيار عناصر معروفة ومتداولة من أخبار الأمم السوابق ومزجها وإخراجها في الثوب الذي يؤدي الأثر المطلوب من إشاعة القلق والإضطراب في قلوب الكفرة والمشركين ورد الثقة والطمأنينة لنفوس المؤمنين. ثم أورد الباحث بعضاً من قصص سورتي القمر والحاقّة لتأكيد رأيه. فعباراتها تحفل بالعذاب

والنذر وجعلها مسجوعة ذات رنين قوي للتأثير على الحواس فيتضاعف ويقوى أثرها النفسي وقد اتَّسم عرضها بالسرعة والتلاحق حتى تؤتي ثمرتها من إشاعة الإضطراب والقلق النفسي فيخشى مَن يقرأها أو يسمعها نزول الضرر عليه ثم يأتي بمقابل لهذه القصص وهي قصة شعيب مع مدين ويرى أنها هيّنة وليّنة وبطلها هادىء رزين وأنه يستحق اللقب الذي أطلقه عليه بعض المفسّرين (خطيب الأنبياء) فهو يحاور قومه دون إنفعال ولا يستعمل العبارات العنيفة القاسية التي يقطر منها الدم أو يشيع منها التهديد والوعيد وتنتهي بالنهاية التقليدية السعيدة بالنسبة لشعيب والمؤمنين والمؤلمة بالنسبة للكفرة والمشركين. وقد حدث هذا ـ أي بالنسبة للنهاية التي يلقاها كل طرف ـ في قصة موسى وقصة يوسف.

والغرض أو القصد الرابع هو الإيحاء برسولية محمد عليه السلام وأن الوحي ينزل عليه ويبلغه أخبار السماء وتتأسس العملية في بعض القصص على المشابهة بين حالة محمد عليه السلام وحالة غيره من الأنبياء مثل موسى وغيره وعلى أن ما طُلب إليه أو أوصاه الله به هو ما أوصى به الأنبياء من قبل إنما كان العرض فيهما يدخل تحت الأخبار العادية التي لم يقصد بها إلا لفت الذهن إلى قضية من القضايا. أما ما يمكن أن نعدّه قصة وقد عالجت الناحية الثالثة من هذا الغرض هي التي تناولت معرفة أخبار السماء وأن الوحي ينزل عليه بها وما كان يعرضها قبل ذلك.

ومن هذا النوع قصة موسى في سورة القصص وقصة نوح في سورة هود إنما ما يمكن أن نسميه نموذجاً في هذا المجال هو قصة مريم في سورة آل عمران ويرى أنه يمكن أن تكون معرض صور ومريم تدخل في كل صورة منها ومع كل شخصية فيها. ويأخذ من ذلك العرض لقطات أو لمحات تفي بالغرض وينتهي إلى أنه يكفي منها التوجيهات التي تتصل بالمراد أي المطلوب منها قوله تعالى ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**﴾[١] و ﴿**وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾[٢] و ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾[٣].

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٤.

(٢) نفس السورة والآية.

(٣) نفس السورة، الآية ٦٢.

ويختم المؤلِّف هذا الفصل الثالث بتكرير القول شرح عقائد الإسلام وتوضيح مبادئه التي كانت ترد في ثنايا القصة وبين طياتها وفي كل القصص وأنها كانت غرضاً إنما ليس الذي تنتهي به أو عنده القصة ومن هنا ـ حسب عبارة الباحث ـ جعلنا هذه التوجيهات من الموضوعات لا من الأغراض.

إن التفرقة بين التوجيهات الدينية لمبادىء الدعوة الإسلامية ولما أنكره الإسلام من خُلُق وعادات وآراء زيوف وعقائد فاسدة وعبادات باطلة وبين أغراض القصة القرآنية لفتة ذكية من خلف الله تؤكد أصالة رسالته (أطروحته) أو كتابه بيد أننا نجده بعد قليل يجعل من أغراض القص القرآني خلق عواطف ضد الأشياء التي سبق له (خلف الله) أن عالجها في فصل القيَم الخلقية من أمثال: اللواط، بخس الناس أشياءهم، تطفيف المكيال والميزان.

ألا تندرج هذه الأفعال تحت بند الأخلاق السيئة والعادات الذميمة التي أنكرها الإسلام والتي وصفها المؤلِّف في إفتتاحية الفصل: توجيهات دينية وفرّق بينها وبين أغراض القصة القرآنية تفرقة حاسمة لا تدع مجالاً لأي إلتباس.

هذه واحدة.

أما الأخرى: فقد أدرج من ضمن أغراض القصة: الكبر والإستكبار والإصرار والعناد أي محاربة هذه (الأشياء) وفق عبارته وعدَّها من أغراض أو مقاصد القصة.

ومن حقنا وحق أي قارىء أن يسأل أليست هذه (الأشياء) أخلاقاً دنيئة ومن ثم ففضحها وتعرية أصحابها والكشف عنها أدخل في باب التوجيهات.

أما الثالثة: فقد حشر ضمن مقاصد القص القرآني التنفير من عبادة غير الله: الأصنام... الكواكب. فإذا رجعنا إلى التوجيهات الدينية للإسلام أو للدعوة الإسلامية نجد ضمنها إنكار:

أ ـ العقائد الفاسدة.

ب ـ العبادات الباطلة مع أمور أخرى.

ألا تشكّل عبادة غير الله مثل الأصنام والكواكب الأمرين معاً: العقائد الفاسدة والعبادات الباطلة.

نخلص من ذلك إلى أن خلف الله ـ وهذا ما سبق أن شدَّدنا الإنتباه إليه ـ كانت تعوزه الدقة في صياغة التعريفات وأن ملكة وضع الحدود للأفكار والآراء التي يطرحها كانت ضعيفة ونحن نُرجع ذلك إلى حداثة سنه نسبياً عند كتابة هذه الأطروحة أو تأليف هذا الكتاب، لأننا لاحظنا أنه قد تلافى ذلك في المؤلفات التي كتبها عندما تقدَّم به العمر وغزر فكره وتعمَّقت ثقافته وتراكمت تجاربه.

بقيت كلمة سريعة عن ما أسماه الباحث (الوظيفة الإجتماعية) التي أضافها إلى مقاصد القصة ووضعها إلى جانبها أو بجوارها مما يعني أنها شيء مستقل عنها وذكر أن الفنون جميعها تؤديها وفي مقدّمها الأدب وذكر عمليتي الإيحاء والإفاضة وأن الرازي له فضل عليه إذ دلّه عليها وأن القرآن لفت الذهن إليها حين تحدَّث عن أثر الأقوال في النفوس... إلخ. إذ معنى ذلك أن الوظيفة الإجتماعية عند الباحث مرتبطة بالأقوال البليغة والعبارات الفصيحة والجمل الطليقة التي تحرِّك الوجدان وتستثير العاطفة وتؤثِّر على المشاعر وتستفز الأحاسيس... إلخ. وبمعنى آخر أن الوظيفة الإجتماعية في نظره إنحصرت في بلاغة القول وذلاقة اللسان وطلاقة الخطاب إلخ. وهذا في رأينا تضييق شديد لدائرة الوظيفة وتحجير لواسعها وتحديد لمجالها وتضمير لكنهها وتهزيل لمهمتها وتقصير لمأموريتها فضلاً عن أنه يخالف المبادىء الأولى لعلم الإجتماع والذي لا شك فيه أنه تأثر في ذلك بدراساته اللغوية. ذلك أن الوظيفة الإجتماعية لا تنبني على الأقوال والتعبيرات والتراكيب... إلخ. إنما هي تدور وتتمحور على تغيير الظروف المادية لأي مجتمع وخاصة للبنى التحتية... بيد أن العذر الذي قد يشفع لخلف الله هذه الكبوة صغر سنّه النسبي عند وضع هذه الرسالة أو تأليف هذا الكتاب.

هذا من جانب، ومن جانب آخر طبيعة الأطروحة ذاتها والقسم الذي قُدِّمت إليه قسم اللغة العربية ـ لا قسم الإجتماع والموضوع أو المادة التي تناولها والذي أو التي ـ إلى حد كبير لكن ليس شاملاً ـ فرض بصماته على الباحث.

مصادر القصص القرآني

في الفصل الرابع (مصادر القصص القرآني) يدخل خلف الله في حقل ملغوم أو هو يبدأ السير في منطقة شائكة فقراءة العنوان تستنفر الغرائز الفجة والعواطف الفطيرة (غير الناضجة) وتثير حفيظة أصحاب الأفق الضيق والفهم المحدود والذين تنقصهم الفطانة وتعوزهم الزكانة وذوي الحظ الوشِل من اللفانة فيحوقلون ويبسملون ويتعوَّذون من إبليس اللعين والشيطان الرجيم والوسواس الخنّاس... فإذا سألتهم لماذا كل هذا؟

أجابوك أو بمعنى أصح أداروا عليك السؤال:

لماذا الحفر والتنقيب عن مصادر القصص القرآني وهي منزلة من الله وكفى به مصدراً.

فإذا ردَّدت عليهم أننا بصدد دراسة جامعية وبحث أكاديمي عن القص القرآني ومن ثم فإن القيام بحفرية علمية عن المصادر أمر لازم. عقبوا عليك قائلين (إنها شنشنة أعرفها من أخزم) أي أنها أقوال المستشرقين. ونحن من جانبنا لا نرى أن جميع ما طرحه المستشرقون باطل وقبض الريح ويتعيَّن تسفيهه والحط منه أو تجاهله وإزدراؤه والإقدام على ذلك شبيه بصنيع النعام، والمنهج السديد هو دراسته والتنقير فيه ثم تفنيد ما يستحق التفنيد والرد على ما يستوجب الرد وإستجادة الجيد وإستحسان ما هو حسن هذا هو السلوك العلمي الرصين.

استشعر خلف الله وعورة ولوج هذا الموضوع فذكر أن فيه خطورتين:

الأولى: أصحاب الثقافة الضحلة والعقل الضيِّق والنظر القصير وإذ أن المقادير سلَّمتهم مقاليد الثقافة العربية فقد ظنّوا أنفسهم أنه أحق الناس بتبيين الصحيح من الخطأ وأخذتهم العزة فتحكَّموا في البحوث سواء كانت علمية أم أدبية وباعثهم في هذا التحكُّم هواهم ومصلحتهم ومن دأب ضيقي الأفق، قصيري النظر إستثارة العوام وإستعداء الغوغاء إذا خولفوا ويتوقَّع الباحث إتخاذ هذا الموقف منه إذ طرح للبحث (مصادر القصص القرآني) لأنه يتجاوز طاقة البشر العلمية المعرفية لأنها من عند الله.

الثانية أو الأخرى: تتمثَّل في أقوال المستشرقين والمبشِّرين فهم يحتفون بهذا البحث ويهلِّلون له لماذا؟

لأنه المنفد أو الطريق لإجراء موازنة الأحداث والأخبار التي رواها القرآن وما جاء بشأنها هي ذاتها في التوراة والإنجيل وغيرهما. وهؤلاء عادة ما ينتهون إلى الإدعاء بوجود مخالفات تاريخية تنتصب دليلاً على أنه من تأليف محمد إذ أنه لو كان من عند الله لما انضوى على مخالفة ولو ضئيلة ويزعمون أن مصدرها (المخالفات) أن محمداً كان يتعلَّم الأخبار على أيدي العبيد والأرقاء الأعاجم أولئك الذين كانوا يخدمون صناديد قريش وقد أشار القرآن نفسه إلى واحد منهم في إحدى آياته وكانت معلومات أولئك العُبْدَان مهزولة لا تعدو أن تكون شائعات لعدم إطلاعهم على التوراة والإنجيل لعدم تيسر نُسخهما لديهم فضلاً عن أن طريقة التعلُّم كانت المشافهة وهي قرينة التحريف والتبديل والتحوير والزيادة والنقصان والحذف والإضافة... إلخ.

ذاك كان تلخيص موجز وسريع للخطورتين اللتين استشعر الباحث وجودهما وهو يرى أن أولاهما سرعان ما تزول عندما يبيِّن لأصحابها أنه سوف يتبع نهج سلفه الصالح من رجال الفقه والدين ويستطرد متسائلاً:

ألم يبحث الأصوليون عن مصادر التشريع الإسلامي وأنهم انتهوا من صلة الإسلام بما سبقه من الأديان إلى القول بقاعدة (شرع مَن قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه) وأن سر الإتفاق بين الأديان السماوية أشارت إليه الآية الكريمة ﴿**شرَّع لكم من الدين ما وصى به نوحاً...**﴾[1] وسر الإختلاف جاء في الآية الكريمة ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة...**﴾[2] وأن ذلك لعلل إجتماعية هي من النواميس المستقرة. بل إن رجال السلف الصالح قد خطوا خطوة أخطر عندما ذكروا أن من عناصر الدين الإسلامي ما يرجع إلى العهد الجاهلي[3]. وأن رجالاً من ذلك العهد سنّوا لهم سنناً أبقى عليها القرآن الكريم وذكر خلف الله أمثلة لها نقلاً عن كتاب (المحبر).

---

(١) سورة الشورى، الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٣) أنظر في هذه الخصوصية كتابنا: **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية** ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠م دار سينا مصر ـ الطبعة الثانية ١٩٩٧م ـ دار سينا مصر ومؤسسة الإنتشار العربي ـ بيروت/لبنان ـ أ.هـ).

ويرى الباحث أن البحث عن المصادر هنا أولى بالرعاية من بحث الأصوليين عن مصادر التشريع التي هي عناصر دينية لا تتأتى معرفتها إلا عن طريق الرسل لما فيها من غيبية - في حين أن مصادر العناصر القصصية بشرية يمكن لنا معرفتها دون الإستعانة بالرسل ويضيف أن الآية التي وصفت محمداً والذين معه تُعد سنداً... لماذا؟

لأنها تشير في صراحة إلى أن القرآن الكريم كان يرد بعض تشبيهاته وأمثاله إلى مصادره الأولى إلى التوراة والإنجيل ﴿**مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع...**﴾[1] وعلينا ونحن بصدد نُشدان الحقيقة وضع نظرية سليمة تقوم أولاً على ملاحظة الظواهر المختلفة الموجودة في القرآن (تحديداً في القصص القرآني) ونفسّر ذلك أنه بوضع النظرية سوف تُحل جميع المشكلات التي توقَّف عندها المفسّرون وبذلك نحقق هدفين: إخراج القصص القرآني من دائرة التشابه ورد إعتراضات المستشرقين. ويوجّه النصح لمناوئيه أن يفهموا رأيه ومذهبه وأن يعلموا أن الدين الإسلامي فتح الطريق أمام العقل وأنار له السبيل مما يجعله قادراً على أن يضرب بسهم وافر من التقدُّم الفكري فإن أبوا إلا المعاندة لم يكن أمامه سوى الصبر والمضي في الدفاع عن الحقيقة الدينية ثم يتضرَّع إلى الله بالدعاء أن يرعاه بفضله لأنه وعد رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا بالنصر.

ولسنا في حاجة إلى القول بأن هذه الفقرة إنشائية مبعثها العاطفة ويمكن أن تنضوي عليها خطبة منبرية لا أطروحة جامعية ولا رسالة أكاديمية ويبدو أن خلف الله قد أحس ببوادر الثورة ومقدمات الهجوم عليه وبلغ به التأزُّم أن لجأ إلى الدعاء إلى الله أن ينصره على مناوئيه.

ويذهب الباحث أن الخطورة الأخرى أو الثانية سرعان ما تتلاشى حينما يبيِّن حقيقة ما أنزل الله ويؤكّد للمستشرقين والمبشّرين أن أُسّ موازناتهم لم يقصده القرآن الكريم ولم يتغيّاه ولم يؤمّه وأنهم تحكّموا في الوسائل والنتائج العلمية معاً لأنه مع إفتراض وجود مخالفات تاريخية فلا تشكّل دليلاً على تأليف محمد للقرآن وأنه لم يكن وحياً ينزل عليه من السماء.

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

موازناتهم يجب ألا تتم حتى يثبت أن القرآن الكريم قد قصد معاني الأخبار التاريخية حين يعرضها وأنه اختار من الأشخاص والأحداث والحوار بإعتبار أنها الحق الذي يتمشى مع المنطق التاريخي أما وأن القرآن لم يقصد من قصصه نشر وثائق تاريخية أو إعطاء درس في التاريخ فلا قيمة إذن لموازناتهم.

أولى المسائل أن مسلك القرآن الكريم ومسلك التوراة متباينان فلم يقص أخبار الأنبياء كما فعلت هي إنما اختار بعضها وأعرض عن بعض وعند الإختيار راعى حال دعوة الإسلام وموقف نبيه من قومه. وهناك عامل فارق بين الكتابين المقدَّسين وهو عامل الزمن فقد كان أساسياً في التوراة وليس كذلك في القرآن وهي تغيت التأريخ وهو هدف إلى العظة، العبرة، الهداية، الإرشاد، الترهيب، الترغيب، النذارة، البشارة، شرح مبادىء الدعوة، الرد على المناوئين، تثبيت قلب النبي عليه السلام وتبعه... إلخ.

أما ثانيهما فهي أن أولئك الذين اختارهم القرآن ليكونوا مواد قصصه هم من خارج البيئة العربية مثل المصريين والعبريين والسبئيين والإغريق والرومان... إما منها أو أُرسلوا إلى أهلها ووقعت الأحداث في تلك البلاد وتحاوروا فيما بينهم ومع مَن أُرسلوا إليهم بلغات هذه الأقاليم بل جرى الحوار أحياناً بلغات قد لا نعرفها ولا يستطيع عقلنا القاصرْ (هكذا!) أن يتصوَّرها مثل لغة حديث الخالق جلَّ وعلا إلى الملائكة وإبليس في قصة خلق آدم ولغة حديث إبليس إلى آدم في قصة خروجه من الجنة. إنها الأمور التي لا نعرف منها إلا الفروض الخيالية وخلف الله هنا يتقمص شخصية أبي حامد الغزالي ويردِّد ما سطره في كتابه (المستصفى).

كل واحد من الأنبياء كان معروفاً في بيئته وتقص أخباره على بنيها وتنقلها لجيرتها وهذه أمور طبيعية وليست من الغيب الذي لا يعرفه إلا مَن أطلعه الله عليه. بيد أن الذي يوْد الباحث معرفته هو صلة هذه الأقاصيص بالبيئة العربية عامة والمكية خاصة قبل البعثة المحمدية وقبل نزول القرآن أي هل كانت تلك البيئة تعرف أمر أولئك الرسل أم تجهله؟ ثم ينتهي خلف الله إلى أن إجابة هذا السؤال خطيرة لأنها ستحدِّد المسائل الآتية:

١ـ يتساءل عن المصدر الذي صدرت عنه العناصر القصصية في القرآن الكريم

وإستخدامها في بنائها فهل كانت العقلية العربية أو هي بيئات الرسل والأقوام؟

الإجابة سوف تحدِّد مذهب القرآن الكريم في بناء القصة من حيث صلة العناصر بالبيئة؟ هل كان يبني القصة على المألوف أم على الغريب النادر؟

٢ـ بلاغة القرآن ودوره الفني سيوقفانا على أسرار الإعجاز في قصصه وسيفهمانا الحكمة من تحدّيه العرب بالسور المفتريات.

٣ـ الوصول إلى قاعدة أو نظرية نطبّقها لحل المشكلات ورد الإعتراضات وإخراج القصص من دائرة المتشابه.

ولكن ما هو كنه الصلة بين الأقاصيص وبين البيئة العربية؟

يجيب الباحث على هذا السؤال بأنها أنواع ثلاثة:

أ ـ هو ما نسلم منذ الوهلة الأولى بجهل البيئة المكية به جهلاً يوشك أن يكون تاماً وكانت غاية إنزاله تثبيت نبوَّة النبي عليه السلام كالذي ورد إجابة على أسئلة مشركي مكة التي طرحوها عليه لمعرفة هل هو نبي صادق أو متقوِّل يدَّعي النبوَّة وأشهرها قصتي أهل الكهف وذي القرنين، ويورد خلف الله ملحوظة جديرة بالتدبُّر فيها وهي عدم تكرارها وورودها مرة واحدة والقرآن يفاصل أولئك الذين يبنون أقاصيصهم على الغريب النادر لغرابة من مقاصده... وإذ لا تنتصب ضرورة فلا يبعد القرآن الكريم عن عقلية العرب.

ب ـ معروف لدى عرب ما قبل البعثة وعدد منه وردت عنه إشارات في شعرهم مثل قصص عاد وثمود والجن مع سليمان ـ وهذه القصص تكررت – ويرجِّح الباحث أن العلة وراء ذلك هي أن القرآن الكريم يتمحور مذهبه في بناء القصة على المألوف والمتداول والمشهور...

ج ـ النوع الثالث والأخير هو بين بين بتعبير العميد الدكتور طه حسين وما قد يشتبه على القارىء فلا يدري أهو من الأول أو من الثاني ومن أمثلته: آدم مع إبليس وقصة الخلق، ولوط ونوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وداوود وأيوب إلخ.

هذا النوع المُشْكِل كيف نتمكن من الوصول إلى حقيقة صلته بالبيئة العربية عامة والمكية خاصة؟ يجيب المؤلف: بأمرين:

أ ـ طريقة القص التي تشعرنا بأنه كان معروفاً ذلك أن القرآن في بدي الشأن كان يأتي بأسلوب موجز يمكن عده إشارات لأمر معروف، أو هي لفتات لأحداث تعرفها البيئة والذي يؤكد ذلك أن القرآن في قصصه كان يهدف إلى الإنذار، العظة، العبرة، مقاصد تطلب من الأحداث التي يعرفها المخاطَبون (بفتح الطاء) لكي ينتج الإنذار أو العظة أو العبرة أثره.

ب ـ كذلك تكرار القصة في أكثر من موضع أو عدة مواضع فهو يؤدي إلى النتيجة ذاتها إذ يفيد أن القرآن الكريم درج على مذهب معيَّن هو بناء قصصه على مواد معروفة في البيئة العربية ومتداولة وحتى إذا فرضنا عدم معرفتها من قبل فإن تكرار نزولها يُعد بناء لها على ما قد عُرف. ويرسِّخ ـ خلف الله على عادته ـ قالته هذه إن مثل هذا النوع من مواد قصص القرآن كان يتبع الشهرة... كيف؟

الشخصية التي عُرفت وذاعت شهرتها في البيئة، والأحداث التي استفاض ذِكرها كانت أكثر إستخداماً والعكس صحيح والمثل عليه شخصية موسى فهي أكثر دوراناً من داوود ذلك أن موسى نبي اليهود الذين كانت لهم السيطرة على الفضاء الديني في تلك البيئة في ذاك الوقت مما يعطيهم الفرصة للإكثار من أخبار موسى وقصته مع فرعون وملئه والسحرة إلخ.

إذن يمكن الوصول إلى نتيجة هي أن القرآن بنى قصصه على عناصر استمدَّها من البيئة أو حتى من العقلية العربية لتغدو أشد أثراً وأقوى سلطاناً.

العقلية العربية في الغالب هي مصادر القصص القرآني، لم يبعد عنها إلا قليلاً ولعل هذا يفسِّر لنا فكرتهم عن القرآن أنه ليس إلا أساطير الأولين فقد وجدوا ذات الشخصيات والأحداث التي ألفوها وعرفوها ويحيِّي المؤلِّف فطانة الرازي والنيسابوري ولباقتهما لتفرقتهما بين جسم أو هيكل القصة وبين ما انضوت عليه من توجيهات دينية وأنها الهدف الرئيس للقصص القرآني.

إذاً أخذ القرآن عناصر قصصه من البيئة العربية فيجب أن نذكر صنيعه الفني والبلاغي في رسم الشخصيات وتصوُّر الأحداث وإجراء الحوار وتوزيع كافة العناصر

الأخرى وتريك كل واحد منها الحركة التي تنفحه القدرة على القيام بدوره بإقتدار حتى النهاية وقد تتمثَّل الصياغة الفنية في رسم عنصر أو عناصر من جوانب مختلفة ومن زوايا متباينة ومواطن مختلفة حتى يستقل كل رسم بطابعه الخاص وشخصيته المتميِّزة. وإذ لم يدرك المفسّرون هذا الصنيع الفني قالوا بالتكرار وهذا غير صحيح لأنه ليس من التكرار في شيء بل هو دليل على أن مبدعه ذو قدرة باهرة وقوة فائقة لأنه الله جلَّ جلاله.

ومن هنا جاء تحديده لهم بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة.

وقد تتمثل العملية الفنية في تخليص العناصر التاريخية من أشخاص وأحداث من معانيها التاريخية وفي تحميلها بالعواطف الإنسانية أو بالمعاني الدينية والخلقية والإجتماعية. وشرحها يضطر المؤلِّف إلى مسّها مساً خفيفاً عند الأصوليين ثم ينتهي منه إلى أن الغلط كله في الوقوف على المعاني الأولى وشرح الكلمات اللغوية وتبني مواضع الإعراب وأن الفهم الدقيق للنصوص الأدبية إنما يكون في الوقوف على ما انطوت عليه من أسرار الفصاحة والبلاغة أي من فن أدبي جميل.

أما النقّاد والأدباء فيرون أن الفضل والمزية في الأدب إنما يكون بإيحاءات أدبية وإثارات فنية يحملها اللفظ ولا يعد الأدب أدباً ولا الفن فناً إلا بما فيهما من صور صادقة التعبير قوية التأثير. هم إذن كشفوا في الأدب والفن عن سر الإعجاز ولا يرونه في المعاني الأولى بل في المعاني الثانية أي فيما تحمل من عواطف وتستثير من إنفعالات ويرى المؤلِّف أنه فيما يخص المواد الأدبية في القصص القرآني هي هذه:

هل قصد القرآن من عرضه لهذه المواد ـ أحداثاً وأشخاصاً ـ الدلالة الأولى أي فائدة الخبر بتعبير البلاغيين أم هو قصد شيئاً آخر وراءه أي قصد المعاني الثانية؟

الإجابة عند خلف الله أنه قصد إلى المعاني الثانية: الأدبية، البلاغية، إستثارة العواطف ولم يقصد أبداً إلى المعاني الأولى فهو لم يرد تعليم الناس التاريخ أو شيئاً من أحداثه. وإذ أن العواطف والإنفعالات تختلف من موطن لآخر فإن القرآن يصنع من هذه المواد ما يصنعه الأدب والفن دائماً بالألفاظ ويستخرج من المواد الأدبية القصصية معاني أدبية تشبه إستخراجه المعاني المجازية من المعاني الحقيقية.

حيَّر هذا الصنيع القدماء إذ لم يتبيَّنوا الأسرار الخفية للصور المختلفة التي يعرض فيها المواد الجزئية حين يقص عن هذا النبي أو ذاك عن موطن وآخر واعتبروه تكراراً وشكوه منه واجتهدوا في تعليله ثم ضرب لذلك مثلاً بما جاء في كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) قوله تعالى ﴿**قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾[1] وقال في سورة أخرى ﴿**قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين● قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون**﴾[2].

للسائل أن يسأل: لماذا اختلفت الحكايتان والمحكي شيء واحد؟

ويجيب الإسكافي صاحب الدرة أنه لم يقصد أداء الألفاظ بأعيانها إنما قصد ذكر المعاني ذلك أن الألفاظ إذ اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان إتفاقها وإختلافها سواء. ويعقِّب خلف الله على جواب الإسكافي بأنه وإن أحس بأصل المعنى إنما لم يتهيأ له من وضوح التفسير الأدبي وسر العمل الفني في دلالة الألفاظ والمواد الأدبية ما يحل به الإشكال.

ما يطلق عليه البيانيون المعاني الثانية وما يسميه المحدثون اليوم إيحاءات الألفاظ ووقعها النفسي هو المقصود من الدراسة الفنية لأمثال هذه القصص وهو المقصد ذاته الذي جعله القرآن المُعجز الأساس الأول في بناء القصة وتركيبها وأيضاً في جمع الأقاصيص في سوره، وضرب لذلك مثلاً بآيات من سورة النمل تناولت قصة صالح مع ثمود وقصة لوط مع قومه. وعقَّب عليها بقوله إن المقصود ليس هو تصوير ما حدث بين الرسولين وقومهما إنما قصد القرآن أن تصبح هذه الصور مصدر إنفعال وتأثير وباعث أمن وخوف ورجاء. ويقدِّم البرهان على رأيه أنه يتَّضح من التوجيهات الدينية التي جاءت في الآيات: ﴿**وإنك لَتُلَقَّى القرآن من لدن حكيم عليم**﴾[3] و ﴿**لا تخف إني لا يخاف لديَّ المرسلون**﴾[4] إذ

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٢.

(٢) سورة **الحجر**، الآيتان ٣٢-٣٣.

(٣) سورة **النمل**، الآية ٦.

(٤) نفس السورة، الآية ١٠.

وجّه الخطاب في الأولى لمحمد عليه السلام وفي الأخرى لموسى عليه السلام.

ويرجِّح أن هاتين القصتين نزلتا في وقت إئتمار المشركين بالنبي عليه السلام خاصة ما جاء في قصة صالح عن التسعة رهط والتقاسم والتبييت فهو صورة لما حدث من قريش مع النبي عليه السلام فالمقصود منهما طمأنته وأن الله حافظه ومهلك عدوه.

قصد القرآن من هذه القصص هذه العواطف أو الإنفعالات وهي الرباط الذي ينتظم مجموعاتها وهي ما يتعيَّن الوقوف عندها لدى مَن يريد تذوُّق أسرار الإعجاز والتي يتعين البحث عنها فيما لمحه الإسكافي صاحب الدرة من:

١ـ المعاني الأدبية.

٢ـ الإشكال الذي وقف عنده.

ليست المسألة هي الموازنة بين جزئيتي قصتي آدم وإبليس في سورتي الأعراف والحجر إنما تُفهم على أساس الموازنة بين القصتين لأن القصة لا تُفهم على أساس جزئي وإنما كما يُفهم كل عمل أدبي وكل أداء للتعبير أو للتأثير. ثم يؤوب خلف الله إلى القصتين (اللتين سجلتهما سورتا الحجر والأعراف) لإبراز الفروق بين المقصدين لكي يعلل علة إختلاف موقفي إبليس في القصتين.

في سورة الأعراف جاءت القصة لتحكي مبدأ العداوة بين إبليس وآدم للوصول إلى نتيجة أدبية هي قصد القرآن في سائر قصص ذات السورة وهو حث المشركين لتعديل موقفهم من النبي عليه السلام ثم أورد آيات توثّق المعنى الذي استخرجه أو القصد الذي حدده.

أما القصة في سورة الحجر فهي وإن حكت أيضاً العداوة إلا أن قصدها شيء آخر هو محو الهم والقلق من نفس النبي عليه السلام اللذين يساورانه من أجل إخفاق الدعوة بسبب إستهزاء المشركين ثم يورد مقاطع من السورة لتأكيد وجهة نظره. وإذا كان قصد قصص الأعراف تعديل موقف المشركين فقد عمد إلى أن يُري المشركين صنيع الله بالمستكبرين والمستضعفين وما يمثل رحمته بقوم وعذابه بآخرين ومن ثم يختم بالنصح والإرشاد.

أما في سورة الحجر فلما كان القصد إفاضة ما بنفس محمد من قلق ليهدأ ويستقر، وقلقه هذا سببه إستهزاء صناديد مكة به، جاءت الصورة تنطق بالقسوة والمحاورة مملوءة بالعنف.

إذن المسألة تنحصر في طريقة الوقف أو الوقوف على القصد أي على المعاني الثواني أو الأحاسيس والإنفعالات. ومرة أخرى لم يؤم القرآن في قصصه قصد التعريف بالتأريخ أو إملاء أخبار.

والمسألة تزداد وضوحاً في قصص لوط عليه السلام كما وردت في سورة هود ثم سورة الحجر. ويخبرنا الباحث أنه لا شأن له بترتيب الأحداث في كليهما السابق دراسته إنما يبغي توضيح أمرين يكشفان ما يرمي إليه من عناية القرآن بالمعاني الثواني أو الأحاسيس أو العواطف، ذلك أن قصد القرآن الذي يرمي إليه في كل واحدة منهما له دخل في إختيار المواد الأدبية القصصية لا من جهة إختلاف المعاني الثواني بل من تركيب المواد ذاتها.

الحادثة واحدة وهي موقف قوم لوط منه حين جاءته الملائكة لتدمّر قريتهم ولتنجّي النبي لوط وأهله خلا امرأته، بيد أن إستعمال القرآن للحادثة ذاتها وتصويره لها في كليهما يباعد بين صورتيهما حتى يخيَّل للقارىء أو السامع إختلاف الحادث في كل لا إختلاف الصورة فحسب كل هذه بسبب الحذف والزيادة ثم من جراء العواطف والأحاسيس.

وهنا يثور سؤال: لم اختلفت الصورتان وتباينت التعبيرات الفنية والأدبية؟

الإجابة تكمن في قاعدة: ابحث عن المعاني الثواني وأعرض عن المعاني الأوائل.

والتذكير بأن القرآن لا يؤرِّخ إنما يحكي أموراً أخرى هي التي تملي طريقة بناء القصة وأسلوب عرضها وبالتالي ومن جميعها يتأتى التصوير للحادث.

ثم يكرر خلف الله الغرض من قصص سورة هود وهو تثبيت قلب النبي عليه السلام وأسلوب القرآن في ذلك هو الأسلوب الفني الذي يعمد إلى الإيحاء والإفاضة وعبارات القصة تحمل من المعاني الثانية ما يلائم حال النبي عليه السلام وقصد القرآن.

بيد أن ذلك مغاير لما في قصة أو قصص سورة الحجر لأنها إنما أُنزلت لتشفي قلب النبي عليه السلام بأن تطلعه على ألوان العذاب الذي يصبّه صباً على المكذبين من أقوام الرسل السابقين عليهم السلام ويخلص الباحث بعد كل هذا إلى أن القرآن لم يهدف إلى المعاني الأولى ولا ليعطي دروساً في التاريخ بل إلى المعاني الثواني وهي العاطفية أو الأدبية البلاغية أو الفنية.

يتناول بعد ذلك طبيعة العناصر القصصية ومدى صلتها بالحقيقة والواقع. فيبدأ بالتساؤل عما إذا كان القرآن الكريم يستخدم هذه العناصر على الصورة التي كانت تعرفها العقلية العربية في زمن النبي عليه السلام أم صورتها التي كانت عليها زمن وقوع أحداثها. ويضرب مثلاً توضيحياً: هل حديث القرآن عن أحداث الفراعنة مع اليهود على صورة فرعون كما هي منطبقة في ذهن العربي أم على الصورة التي كانت في أزمان فرعون وموسى في أذهان اليهود والمصريين؟

يقول إن الإجابة تستدعي بحث الأساس الذي كان يقيم عليه القرآن الكريم أس إختياره لهذه العناصر. هل أس المؤرِّخين الذي يقوم على إختيار الحق والواقع وما يثبته العقل والمنطق ويقوم عليه الدليل والبرهان أم هو أس البلاغيين الذي يتأسس على إستهواء النفوس والأخذ بمجامع القلوب والسيطرة على الأفئدة والألباب؟ ويذهب الباحث أن القدرة على التأثير هي الأساس الذي كان يلحظه القرآن في نفوس معاصري النبي عليه السلام حين يستمعون إلى القرآن بل هو الأساس في غير القصص من الآيات التي يكون موضوعها العظة والعبرة والهِداية والإرشاد ثم يضرب أمثلة أي يورد آيات يدلل بها على رأيه. ويخلص إلى أنه مما لا شك فيه أن القرآن يعطينا الصورة القوية الواضحة لقوة الألفاظ والعبارات وفي الصور الأدبية ويصفها بأنها قوة ساحرة ولها فعلها الأكيد في تحريك الأفراد والجماعات ولعل هذا يفسّر لنا مذهب القوم بأن القرآن سحر مبين. كما يفسّر لماذا نهى القرآن المسلمين عن سب آلهة المشركين ولماذا طلب من الرسول الإعراض عن الخائضين في آيات الله وهدَّد المسلمين الخائضين فيها بالعقاب. ذلك أن القرآن يعرف قدرة الفن الأدبي القاهرة وقوته الساحرة وكان يخشى على المسلمين خطر أحاديث المنافقين والكافرين.

ولا تقف المسألة عند هذا الحد بل تذهب إلى أبعد من ذلك فقد كان القرآن يلحظ العلاقة التي يفرضها المجتمع ويقيمها بين الصورة الأدبية والنفس البشرية. ويمثل لذلك بالآية التي تنفّر من عبادة الملائكة بتشبيهها بالإناث والبيئة العربية مستقرة على كراهية الإناث فلو أن تلك البيئة تعرف للأنثى حقها وتقدّرها وتعتقد أنها أجمل خلق الله لما أقدم القرآن على ذلك.

وكذلك اختار النعوت البشعة لجهنم بإختيار أفظع ألوان الطعام والشراب لها مثل الغسلين والزقوم وطلعها كأنه رؤوس الشياطين... إلخ. حتى ولو كانت بعض هذه الصور من إختراع الخيال وهذا ما جاء في الكشاف: وشبّه برؤوس الشياطين لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لإعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير.

ثم يخاطب القارىء بأنه لن يستطيع ـ بعد ذلك كله ـ أن ينكر أن القرآن جعل أس إختياره للمواد الأدبية من صور وألفاظ القدرة على التأثير وهذه القدرة تستمد قوتها وحيويتها من الصلة التي يربط فيها المجتمع بين هذه الأدوات وبين النفوس وهو ما فطن إليه القدامى من علماء البلاغة عند حديثهم عن الدلالات. ثم يعرّج بعد ذلك الطواف الطويل أو يصل إلىالإجابة عن السؤال فيرد:

أن القدماء لا يتحرّجون من القول بأن القرآن كان يجيء على ما يعتقده الجاهليون ويزعمون ويستطرد بأن هذا القول يشعرنا بأن ما في الأقاصيص القرآنية من أحداث وأخبار لا يلزم أن يكون هو التاريخ ذلك أن القرآن يكتفي بما تزعمه العرب وما تعتقده في صوره البيانية المعجزة، ولا يخفى أن القصة إحدى صور البيان العربي وأنه (القرآن) اكتفى في قصص أصحاب الكهف وذي القرنين بما كان يعتقده المخاطَبون ومن هنا لا يصح الإعتراض على أن في أقاصيص القرآن مخالفات للحق والواقع بل للتاريخ ذاته.

دليل آخر يقدّمه الباحث على أن القرآن لم يهدف في قصصه إلى التأريخ. هو إختياره لبعض الرسل دون بعض وإطالته الحديث عن واحد أو نفر دون غيرهم وتأخيره تصوير حدث في حياة رسول وتقديم آخر كذا إختياره لغة المرسل إليهم لتغدو لغة الرسالة والوحي.

أما الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب منا أن نؤمن برأي معين في المسائل التاريخية هو أنه كان يخلّص العناصر القصصية أحداثاً وأشخاصاً من معانيها التاريخية وجعلها صالحة لإستثارة العواطف والإنفعالات حتى تكون العظة والعبرة والبشارة والنذارة والهِداية والإرشاد والدفاع عن الدعوة الإسلامية والتمكين لها حتى في نفوس المناوئين. وبالتالي يغدو من حقنا وحق القرآن علينا إفساح المجال أمام العقل البشري للبحث والتدقيق حتى ولو أدى البحث إلى مخالفة هذه المسائل إنما أبداً لن تكون مخالفة لما أراده الله أو قصد إليه القرآن لأنه لم يرد تعليمنا التاريخ إنما إلى الموعظة والعبرة وما شابههما قصد.

ويخلص إلى جوهر نظريته وهي أن المسائل التاريخية في القصص القرآني هي الصور الذهنية لما يعرفه معاصرو النبي عليه السلام وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يمثل الحق والواقع وليس مطلوباً من القرآن تصحيح هذه المسائل أو ردّها إلى الحق والواقع لأنه كان يجيء في بيانه المعجز على إعتقادات العرب وبيئتهم.

وهنا يرد الباحث على ما قد يثور في الذهن من أن هذا الذي يذهب إليه يعارض بعض آيات القرآن فهو يعارض وصف القصص القرآني بأنه الحق وكذا يعارض آيات الإفتراء. وعن الأخيرة يقول أنها لم تتحدث أو تتعلق بالمواد الأدبية القصصية ولا في تصويرها للأشخاص أو الأحداث، إنما هي تتعلق بالقرآن ككل من حيث هو كتاب ديني وصلته بالله سبحانه وتعالى أو بمحمد عليه السلام. مَن هو صاحب النص أهو الله أنزله على النبي عليه السلام أو هو محمد عليه السلام الذي ينسب القرآن والقصص إلى الله إفتراء.

ثم يأتي بآيات من تلك التي تناولت الإفتراءات وتفسيراتها ويخلص إلى القول بأن المسألة تتعلق بهذا الجانب في مسألة قص القرآن أي جانب إضافتها إلى الله مع أنها من عند محمد عليه السلام بمعنى أدق أن رد القرآن عليهم انصبَّ على هذا الجانب وهو كون القصص من عند الله لا من عند محمد عليه السلام.

ويختم الكلام عن (آيات الإفتراء) بأن الواجب العلمي يحتم عدم تعميم الحكم والوقوف في بحث هذه المسألة في القصص القرآني عند الحد الذي تغياه القرآن، ويرى أن قصة يوسف عليه السلام الوحيدة التي ختمت بآية انضوت على حديث عن الإفتراء ﴿ما

كان حديثاً يفترى﴾[1] أي أن القصة وما فيها من أخبار وأحاديث وشخصيات كلها من عند الله وأن القرآن منزَل من السماء وليس حديثاً إفتراه محمد.

بعد ذلك يعرّج المؤلِّف على مسألة الحق ووصف القرآن لقصصه بتلك الصفة ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾[2] ويذهب إلى أن ليس في تلك الآيات وأضرابها ما يقطع بأن المقصود الأحداث التاريخية (الحقيقية) وأن الراجح هو أن المقصود منها التوجيهات الدينية وسائر الأغراض ويسوق مقطعاً من تفسير المنار يؤكد ما يذهب إليه أو نظريته ومقطعين من تفسير الرازي من قبيل التوثيق بأن القصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة.

كذلك يورد قولاً للقاضي عبد الجبار في (تنزيه القرآن عن المطاعن) يعالج قوله تعالى ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾ ويذهب إلى أن هذا الوصف لا ينصرف لجسم أو هيكل القصة أو الحكاية أو عناصرها التاريخية إنما هو وصف لما فيها من إنفعالات عاطفية تحث على الإيمان بما هو الحق من مسائل الدين. وينتهي خلف الله إلى أنه قول سديد لا يصعب إدراكه ولا يتعذَّر فهمه ولا يعسر إستيعابه... إن القصد من القصص هو التوجيهات الدينية أو المقاصد التي نزلت من أجلها القصة.

وينهي هذا الفصل بتلخيص ما يريد الإتفاق عليه من مسائل:

١ـ المقصود إستخراج الحقيقة الدينية التي يرمي إليها القرآن الكريم.

٢ـ هذا الإستخراج يستنفر ضرباً من اللقانة الذي درج عليه العمل في كل تحليل أدبي للقصة.

٣ـ الأحداث والأشخاص في القص القرآني الذي يكون به البناء، فإن مواده قد تكون تاريخية أو خيالية أو صورة لما في أذهان أو معتقدات أو مسلمات معاصري محمد.

٤ـ غالباً ما توجد تلك المواد في البيئة وأن القرآن اعتمد على هذا الموجود كما هو وبحالته التي كان عليها... لماذا؟

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ١١١.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٦٢.

لأن القصص القرآني لم يأتِ لتصحيح أوضاع تأريخية، إنما أتى للعظة والعبرة والإرشاد والهِداية. وفي هذا كله تكفي المسلمات والمعتقدات.

٥- إذا حاك في صدر شخص شيء من هذا واحتاج إلى قدر من الإطمئنان فعليه بالتأويل لمَن يعوزه الإطمئنان.

كاتب هذه السطور لا يتعالى على (الثقافة الشعبية) أو ينظر إليها على أنها الثقافة الدنيا أو الثقافة غير العالمة بل ينظر إليها بقدر وافر من التقدير ويضعها في مكانها اللائق إذ أنها تحتوي على رصيد هائل ومخزون ضخم من تجارب الأمة وخبراتها والدليل على ذلك أنني في كتاباتي أستعمل كثيراً من مفرداتها وأرجع إلى القواميس والمعاجم التي تحمل ألفاظ وتراكيب الثقافة العليا أو الثقافة العالِمة فأفاجأ في العديد من الحالات أنها هي المفردات ذاتها وفي بعض الأحيان أجدها مع تحوير أو تبديل بسيط فأفتح قوسين أكتب فيهما: والعامة أو العامة في مصر تقول كذا... ومما يشد إنتباهي في الثقافة الشعبية الأمثال التي تجري على ألسنة الناس البسطاء إذ أنها في نظري تكثيف شديد وتقطير مضاعف لتجاربهم وخبراتهم. أقدّم هذه الفرشة السريعة الموجزة التي هي أشبه ما تكون بالبرقية كمسوّغ لهذا المثل الشعبي: (عشَّمتني بالحلق... خرَّمت أنا وداني). وشرحه أنك منَّيتني بأن تحضر لي حلقاً فصدَّقتك فقمت بثقب أذنيّ.

هذا المثل ورد على ذهني فور أن فرغت من قراءة وتمحيص الفصل الرابع وهو (مصادر القصص القرآني) ذلك أن خلف الله بدأه بأنه سوف يلاقي خطورتين الأولى من أصحاب الثقافة الضحلة والأخرى من المستشرقين وتحدَّث طويلاً عن العقول الضيقة والنظر القصير إلخ. وتوقَّعنا بعد ذلك أن يخب ويضع في موضوع المصادر ويتناوله بجرأة وموضوعية ولا يبالي بأولئك الذين رماهم بكل نقيصة وأضاف إلى جانبهم كل خسيسة ولكننا بعد قليل ذُهلنا لأنه انطلق من أرضية أصولية وسطَّر لغة نصوصية وتبنَّى ثقافة الحفظ وفاصل لهجة العقل واستند إلى حجة الإسلام محمد الغزالي والخطيب الإسكافي والرازي ومحمد عبده وأضرابهم. ولم يأت في موضوع المصادر وهو جد خطير بأي جديد بل ردَّد آراء القدامى وإن حاول أن يدثرها بثياب جديدة ويزمِّلها بشعارات حديثة ويلبسها حللاً معاصرة.

والذي لا شك فيه وبعيداً عن عواطف الأسى وشعور الخيبة وإحساس الإحباط فإن خلف الله قد أضاع فرصة عمره ليغدو رائداً لنقد الفكر الديني وقائداً لكتيبة البحث الحر في الجذور العميقة التي تتمحور عليها العقيدة. بيد أن هناك عذراً قد ينتصب له لأنه لو فعل ذلك لازدادت الثورة عليه إشتعالاً ولتضاعف أوار النقمة عليه. إنما هناك من البُحّاث مَن لا يأبه لذلك في سبيل العلم وخاصة في الرسائل الجامعية والأطروحات الأكاديمية.

في رده على المستشرقين والمبشِّرين في إدعائهم بأن في القرآن مخالفات تاريخية وأنه من ثم فهو من عند محمد أنهم يعلِّلون المخالفات بأن (محمداً) كان يتعلم الأخبار من الغُبدان والأرقاء خدَمة صناديد قريش وأن المستشرقين تناسوا أن لسان هؤلاء أعجمي والقرآن جاء بلسان عربي مبين وأنهم لفقرهم عجزوا عن الحصول على نُسخ مكتوبة من الإنجيل والتوراة وبذلك كانت معارفهم تتأسس على الشائعات ووسيلتها المشافهة التي هي دائماً عرضة للتبديل والتحوير والتغيير والزيادة والنقصان والحذف والإضافة. ولقائل أن يفند ردود خلف الله بما يأتي:

إن المستشرقين وأضرابهم من الحاقدين على الإسلام وكتابه ونبيه لم يقصروا زعمهم على لقاء محمد بالعُبدان والأرقاء الأعاجم خدام سادة قريش بل أضافوا إليهم عدداً من رجال الدين المسيحي أو العلماء في هذه الديانة أو على الأقل ممَّن قرأوا ودرسوا العهدين القديم والجديد منهم بحيرا ونسطور وعدّاس والأخطر فيهم جميعاً القس ورقة بن نوفل ابن عم الطاهرة أم هند خديجة أولى وأهم زوجات محمد والذي استمر تماسه بمحمد من لحظة زواجه بها حتى وقوع تجربة غار حراء بل وبعدها ومن الثابت الذي لا ذرة فيه من ريب أن ورقة كان يعرف العبرية وكان يترجم الكتاب المقدس أو أجزاء منه ربما التي تحوي القصص إلى العربية. وهؤلاء بحيرا ونسطور وعدّاس وورقة وردت أسماؤهم ولقاءاتهم بمحمد في أهم كتب السيرة المحمدية التي تلقَّتها أمة لا إله إلا الله بالتجلة التي تقارب تخوم التقديس وفي طليعتها سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية والسيرة الشامية إلخ. إذن لم يكن لقاء محمد ـ في زعم المبشِّرين والمستشرقين ـ مقصوراً على العبيد والأرقاء فلماذا تغاضى خلف الله عن هؤلاء إما أنه كان لا يعرف هذا الأمر وهذا ما نهزِّله (من الهُزال) ونضمِّره

(من الضمور) ونضعّفه (من الضعف) أو كان يعرفه بيد أنه أُسقط في يده ولم يجد لديه دفعاً أو حتى تهويناً.

ويتصدى فلحاس (معاند سخيف والعامة في مصر تقول فلحوس أو فلحوص بالصاد) فيسأل إذا كان محمد سمع تلك الحكايا الدينية من العبيد الأعجميين فهل من الحتم اللازم أن يثبتها في القرآن بالصورة التي سمعها منهم والتي تملؤها العجمة وتحشوها الركاكة أم أنه يعيد صوغها بلغته الفصيحة وهو أفصح العرب قاطبة فهو من الذؤابة العليا من قريش واستُرضع في بني سعد!

لم يحوّم المؤلف حول هذا الإعتراض وربما خلص إلى أنه لا يستحق رداً أو أنه لم يعثر له في جُعبته دفعاً.

وفي هذين الحالين شأن الحالين السابقين مباشرة فقد كان يتوجّب على المؤلف الإلتفات والتنقير ثم التعقيب وطرح الدفوع المقنعة والردود المُفحمة قطعاً لألسنة المخاصمين.

وجاء في المتن أن تلك المعارف كانت وسيلتها المشافهة التي هي عُرضة للتحوير والتبديل وفي هذا المقام يقف للمؤلِّف مَن يقول له: على رِسْلك، فقد كان ذلك المجتمع يعتمد على المشافهة وتلعب فيه الذاكرة الحافظة دوراً متميزاً مغايراً تماماً لدورها في المجتمعات ذات الثقافة الكتابية أو المدونة أو المسطَّرة ويذكّر خلف الله أن أحد وسائل حفظ القرآن نفسه كان (صدور الرجال) لأنهم في ذلك الزمان المُعجب كانوا يعتقدون أن آلة الحفظ تكمن في الصدر ولذلك فإنّا نقرأ في السيرة كثيراً أنه مسح على صدره فلم يتفلَّت منه (القرآن) شيء ولم نقرأ أبداً أنه مسح على رأسه وكانوا يريدون بالقلب أو الفؤاد ما نعنيه نحن بالعقل أو حتى الدماغ... إنها بيئة مغايرة تماماً للبيئة المعاصرة من كل الوجوه حتى من ناحية وظائف الأعضاء إن مادياً أو معنوياً.

ويذكّر ذلك المعترض خلف الله بواقعة حفظ عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لقصيدة كاملة ألقاها عليه مرة واحدة شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة فأعادها بنصّها وفصّها لم يخرم منها شطراً واحداً مما أثار دهش نافع بن الأزرق ـ وهذه أحدوثة (تقول العامة في مصر حدوتة أ.هـ.) مشهورة ترد في كتب التفسير تحت عنوان (مسائل ابن الأزرق)

وينتهي ذلك الشكس إلى أن المشافهة في ذياك الوقت المدهش لم تكن وسيلة غريبة من وسائل نقل المعارف أي أن ناقلي الأخبار المحُرَّفة والأحداث المحورة والحوارات المبدّلة والمواقف الناقصة لم يكونوا هم العُبدان والأرقاء وبالتالي فليست هي إذن أخطاءهم كما يزعم الناقمون على دين الإسلام من المستشرقين والمبشّرين ومَن يسير على دربهم النكد وسكتهم المعوجّة وطريقهم الملتوي وشِرعتهم اللولبية... إلخ. هذا ما كان فرض عين على الباحث أن يطرحه.

إنما الأهم من ذلك كله أن خلف الله قد صمت عن تقديم أمثلة من تلك الأخطاء التي يزعم المستشرقون والمبشّرون وأندادهم من الذين يتنقَّصون كتاب الإسلام الأقدس وهو صمت حيرنا ونقبنا عن تعليل له فأعيانا العثور عليه ذلك أن المؤلف سبق له وهو في معرض لقطة عرضية أبرز بعض الأخطاء أو بمعنى أدق ما ينعتها الحَقَدَة أنها أخطاء مثل نداء مريم بيا أخت هارون والحال أن بينهما قروناً مديدة أو ذكر إسم هامان كوزير لفرعون في حين أن هذا إسم لم تعرفه مصر القديمة لا بين السوقة ولا بين الوزراء ومدوّنات المصريين القدماء على بكرة أبيها لم يرد في أحدها: لا بردية ولا لوحة جدارية ولا هرم ولا تابوت ولا مسلة هذا الإسم.

نؤوب إلى سياق المتن فنقول إن الباحث ذكر أمثلة لتلك الأخطاء التي يزعمها الشانئون في ذلك الموضع الهامشي ثم يأتي في موضع في غاية الأهمية والخطورة هو (مصادر القصص القرآني) ويُحجم عن تقديم الأمثلة بدون سبب معروف أو علة ظاهرة، وهذا في إعتقادنا نقص شأن الرسالة ونزل درجة بالقيمة العلمية للأطروحة وعاب الكتاب.

يفتخر المؤلف أن يجري على سنن السلف. هو لا يعترف بذلك فحسب ويقارن بين ما قرَّره العلماء الأجلاء: أن من عناصر الدين الإسلامي ما يؤوب إلى عهد ما قبل الإسلام (خلف الله يطلق عليه العهد الجاهلي وسبق أن سطّرنا في كتابات لنا سوابق أن كلمة جاهلية ذات مصدر أيديولوجي القصد منه تنفير تبع محمد من الفترة الزمانية السابقة على ظهور الديانة التي كان يبشّر بها، ومن ثم فإن هذا التوصيف الأيديولوجي ما كان يجوز إستعماله في أطروحة أكاديمية أ.هـ.) وبين ما يذهب إليه هو إتباعاً لسلفه الصالح أن

القرآن في قصصه وافق أو بمعنى أكثر دقة تبع ما كان شائعاً في تلك البيئة عن الشخصيات والأحداث والمواقف والأخبار والأماكن لا الأحداث التاريخية الصحيحة ولندع العلة التي طرحها خلف الله من وراء ذلك ـ لندعها قليلاً لحين يأتي الوقت لمناقشتها وتبيين ما تنضوي عليه من خطأ أو صواب - إذ أن من حق أي مسلم غيور على دينه أن يوجِّه هذا السؤال إلى الباحث:

منذ متى ينساق القرآن ويتبع تصوُّرات (الجاهليين!) وأفكارهم وآراءهم؟ وفيمَ كان كل هذا العناء ولمَ إذن بُعث محمد؟

ألم يبعث لإخراج أولئك (الجاهليين!) من الظلمات إلى النور؟

والظلمات تعني بكل بساطة وفي المقام الأول: الأفكار والآراء التي كانت مسيطرة عليهم وسائدة بينهم ومعشِّشة في أدمغتهم ومقيِّدة لعقولهم. فكيف وبأي منطق يسير بل يتبع حسب عبارة المؤلف الأحداث والشخصيات والأخبار والمواقف... إلخ. التي كانت مشهورة بينهم وشائعة في بيئتهم وذائعة في أوساطهم وينقلها بنصّها وفصّها وقضّها وقضيضها وبما فيها كله إلى قصصه؟

ومن حق هذا السائل أن يستفهم من الباحث: حسب نظريتك التي طلعت بها علينا سواء أخذتها برمّتها من سلفك الصالح أو نفخت فيها من إبداعك ألا تعطي هذه النظرية سنداً قوياً لأولئك الذين يدَّعون أن القرآن جاء معجوناً بماء البيئة التي انبثق فيها حاملاً لبصماتها منطبعة على وجهه قسماتها ما دامت قصصه جاءت مطابقة حذوك القُذَّة بالقُذَّة لحكايا (الجاهليين!) حتى بما يعدُّه البعض أو الكل من الشانئين تجاوزات أو هفوات أو أخطاء!

وسؤال آخر ينتصب بقوة: أيهما أشد أثراً في حياة المجتمعات:

العقائد والعبارات والمعاملات والأحوال الشخصية أم القصص والحكايات حتى لو حملت الهِداية والإرشاد والعظة والعبرة والترغيب؟

فإذا كان القرآن غيَّر عقائد القوم وعباداتهم ومعاملاتهم وأحوالهم الشخصية تغييراً جذرياً وخاض في ذلك حرباً ضروساً ومعارك ضواري فلماذا لم يغيِّر القصص والحكايا ونقلها كما هي وكما كان يتداولها (الجاهليون!)؟

وأيهما الأيسر والأسهل: تبديل العقائد والعبارات والمعاملات أم تبديل الحكايات والقصص؟

ثم نرجع إلى النقطة التي علّقناها قليلاً وهي العلة التي تغيّاها القرآن من وراء نقله قصص (الجاهليين وحكاياهم!) كما هي دون تصحيح وهي حسب عبارات المؤلف: أسلوب القرآن في رسم الأشخاص وفي تصوير الأحداث وفي إقامة الحوار وفي توزيع العناصر القصصية وتحريكها وهي العملية الفنية المبتغاة أو المقصودة. هي أن تكون هذه القصص مصدر هِداية وإرشاد ووعظ وترغيب وبالمقابل ترهيب وتنفير وزجر ووعظ... إلخ. وهو القصد والهدف لا التاريخ ولا تعليمه أو تدريسه هل هذه العلة على سموّها وجلالها وإرتفاع قدرها وعلو درجتها... إلخ. تستلزم السير وراء أو بتعبير الباحث إتباع حكايا الجاهليين؟

لنطرح السؤال بصيغة أخرى: هل من الحتم اللازم حتى يحقق القرآن هذا الهدف السامي والقصد الشريف والغرض المنيف أن يورد القصص على حسب إعتقادات الجاهليين؟

إن القرآن من لدن حكيم خبير من الله جلَّ جلاله إذن هو قادر على أن يستخلص ذلك الهدف ويستخرج ذلك الغرض ويستقطر ذلك القصد من القصص التاريخية الحقيقية بما عُرف عن القرآن من بلاغة وإعجاز ولا نريد أن نذكر في هذا المجال أمثلة من شكسبير وغيره لأن الله المثل الأعلى ونُنزِّهه عن أن نقارن قرآنه بمسرحية أو رواية أبدعها واحد من خلقه.

إذن فرضية إتيان القرآن بالوقائع التاريخية الواقعية الصحيحة بنسبة مئة بالمئة مع كسوتها بالصور الفنية الأدبية البلاغية الإعجازية والتي تستهدف كل الأهداف التي كرّر القول فيها خلف الله لحد الإملال هذه الفرضية قائمة. وما دام ذلك كذلك يسقط الإفتراض الذي يتبناه المؤلف أو الباحث وهو أن القرآن أورد قصصه حسب إعتقادات معاصري محمد من المشركين أو اليهود بهدف إبراز صورة فنية أدبية تنتج تلك الأهداف.

والقول بأن القرآن تبنّى أو اتّبع القصص حسب تصوُّرات أو إعتقادات الجاهليين! فيه إعلاء لشأن هؤلاء الجاهليين! وتعظيم لأمرهم يخالف نظرة القرآن إليهم سواء أكانوا من

المشركين من قريش أو من يهود عصر محمد، وآيات القرآن تنطق بذلك.

وإذا كان القرآن يبغي تقديم صور أدبية فنية بلاغية معجزة يعرضها في القصص ثم يستهدف من ورائها التأثير في نفوس المخاطبين ودفعهم إلى الأغراض المتنوعة التي ذكرها الباحث فلماذا لم يأتِ بقصص خيالية أو تمثيلية لتؤدي هذا الدور.

إن مَن أنزل القرآن على قلب محمد وهو الله جلَّ جلاله لم يكن ليُعجزه ذلك فأي حكمة إذن في عرض قصص تاريخية في الأصل بصورة ليست هي حقيقتها وواقعها ولكنها الصورة التي انطبعت في أذهان أولئك الذين حملوا له في جوامحهم أشد عواطف العداء وأقسى أحاسيس الخصومة وأفظع مشاعر الكراهية هذا من جانب.

ومن جانب آخر لماذا فعل ذلك وهذا المسلك يعطي المناوئين والمعارضين فرصة ذهبية سرعان ما اهتبلوها وطعنوا فيه بأنه ليس من عند الله بل هو من عند محمد الذي أورد القصص بالصورة عينها التي كانت شائعة وذائعة في مجتمعه وفي بيئته؟

من المشروع لأي قارىء يطالع أطروحة خلف الله أو يقرأ كتابه أن يلفت إنتباهه تركيزه على أن قصص القرآن المستقاة من معتقدات وتصوُّرات معاصري محمد حفلت بالعواطف والإنفعالات التي تستثيرها المواد الأدبية في القصص القرآني وأن هذه الأحاسيس التي تصوِّرها هذه المواد تختلف في موطن عنها في آخر أي أن الوظيفة الرئيسة لهذه القصص تمحورت على العواطف والإنفعالات والأحاسيس والمشاعر إلخ.

إذن أين دور العقل والفكر فيها ولماذا خلت من أي شيء منهما؟

وإذا كان الرد يأتي من أن ذلك المجتمع كان في طور التبدِّي ومن ثم فلا تناسبه إلا العواطف والأحاسيس والمشاعر والإنفعالات شأن الأطفال جاء دفع هذا الرد:

إن القرآن لم ينزله رب العالمين لتقتصر مهمته على مخاطبة الجاهليين فقط إنما يخاطب البشر من لدن نزوله حتى يرث الأرض ومَن عليها. إذن دعوى أن عُمالة القصص انحصرت في إستثارة العواطف والإنفعالات... إلخ. دعوى فطيرة وبعبارة أخرى لم تنل حظها من التمحيص.

حتى يثبت خلف الله رأيه ذاك أو نظريته تلك نراه يلجأ إلى تمحُّل وجوه المشابهة بين ما جاء في بعض القصص وما قرأناه في سيرة محمد فعلى سبيل المثال:

ما جاء في قصة صالح والحديث عن المدينة والتسعة رهط في المدينة والتآمر ضد محمد من صناديد قريش ومحاولة إخراج قوم لوط إياه من قريتهم وهجرة محمد من مكة ومبدأ العداوة بين إبليس وآدم وموقف عداوة المشركين لمحمد. ودليل الثبوت الذي نقدِّمه على التمحُّل الظاهر هو قول المؤلف إن القصة مرة تأتي في صورة عنيفة وأخرى في صورة ليّنة هيّنة لطيفة.

لماذا هذا التباين في التصوير والموقف واحد وهو العداوة والتبييت والإخراج لمحمد وهو موقف لا يحتاج إلى مراوحة أو سوم (مساومة)؟

إنما كانت الصور التي وردت في قصص القرآن كانت تحكي عن مواقف مختلفة منبتة الصلة عن سيرة محمد.

العناصر في القصة القرآنية

عنوان الفصل الخامس هو (العناصر في القصة القرآنية)، في مفتتحه يقارب المؤلف بين صنيع القرآن وصنيع كل مؤلف قصة أو أقصوصة وهو أن تتمحور على أحد العناصر وما عداه (من العناصر) يبقى في الظل، وبالتالي فإن العناصر لا تكون مجتمعة أو موزَّعة بحيث يغدو ولكل منها قيمته وخطره ولو اختفى لاختل التوازن الفني مثلما يحدث في الرواية أو القصة الطويلة ويورد إستثناء لتلك القاعدة قصة يوسف عليه السلام. ثم يقفز إلى رأي بالغ الخطورة وهو أن توزيع عناصر القصة القرآنية تطوَّر بتطوُّر الدعوة الإسلامية ونذكر أن خلف الله كان فيما تقدَّم قد عاب على المستشرقين رأياً شبيهاً بهذا. ويفرِّق بين أنواع من القصص: التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار وهذه يكون عنصر الأحداث هو عنصرها البارز وتلك التي يقصد منها الإفاضة والإيحاء وتثبيت قلب النبي عليه السلام وتبعه من المؤمنين بديانته وبهذه يغدو عنصر الأشخاص هو الأبرز. والنوع الثالث هو الذي خُصِّص للدفاع عن الدعوة الإسلامية وفيه يتميز عنصر الحوار.

يختار الباحث أقاصيص قرآنية تدور حول شخص واحد ومنها قصة ثمود وصالح كما وردت في سورتي ثمود وصالح ليخلص إلى أن العنصر الرئيس هو تصوير الأحداث

لأن الهدف هو تخويف المكذِّبين وقد تم الإختيار لملاءمة حال النبي أول عهده بالدعوة وإعلانه أنه رسول الله.

فإذا ما تقدَّمنا خطوة وقرأنا القصة ذاتها في سورتي الأعراف والشعراء لحظنا تطوُّراً في فن البناء وكذا تعدُّد الشخصية وأيضاً الحوار بين النبي وقومه آناً وبين بعضهم البعض آناً آخر ومع المسرفين المفسدين في الأرض وإلى جانبهم الأحداث وتحدِّيهم للنبي بطلب البينات، إنما أهمها وأقواها هو عنصر الحوار وموضوعه هو ذات الأمور التي كانت تشغل الذهن العربي وقت إرسال محمد ونزول القرآن الكريم عليه.

أما في سورة النمل فنرى القصة نفسها تجاري أحداث الدعوة الإسلامية وتتغذى بلبانها ونلحظ عناصر جديدة هي الغرائز والعواطف والقضاء والقدر إذ بلغ الضيق مداه بعد تفاقم الخصومة وتطيُّر القوم برسولهم وعزمهم على إغتياله وتآمر التسعة رهط المفسدين في الأرض لتنفيذ المؤامرة لولا تدخُّل القدر ونجاة النبي عليه السلام وحلول العذاب بقومه.

إذن توزيع العناصر كان يتمشى مع ظروف كل قصة، ويكتفي بهذه الفرشة أو الأمثال ثم يأخذ في شرح العناصر.

يبدأ بالأشخاص ولا يقصد الناس فقط إنما المَعنيّ كل شخصية وقعت منها أحداث وصدرت منها عبارات وأفكار من ثم فهي تشمل الجن والملائكة والطيور والحشرات بداهة مع الأناسي رجالاً ونساءً واختار أن يكون إفتتاح القول من سورة النمل بالهدهد والنملة والأخيرة تحذِّر أخواتها من الأذى الذي يوشك أن يحيق بهم إذا ظلوا خارج مساكنهم أما الهدهد فهو يقظ متنبّه لكل ما يجري في أنحاء المملكة بل ومتطلِّع لأخبار ما يجاورها من الممالك ويلحظ خاصة ما يرتكبونه من مخالفات دينية. وموقفه هو الذي حيَّر الرازي وأضرابه من المفسِّرين إذ تعجَّبوا من رجاحة عقل هذا الطائر الصغير وفطنته وبصره بالأمور... إلخ. ولو أنهم نظروا إلى المسألة بمنظار الخلق الفني والإبداع الأدبي لما تحيَّروا، ويذكِّر المؤلف قارئه بأن بعض الحيوانات في القديم والحديث كانت صاحبة أدوار رئيسة رُسمت بطريقة فنية وأبرز مثل على ذلك كتاب (كليلة ودمنة).

ثم يأتي إلى (الأرواح الخفية) وأولها الملائكة، منها التي جاءت إلى إبراهيم ولوط

وما كان لها حضور في قصة زكريا ومريم، وتعدَّدت صور الملائكة وتباينت حواراتهم في كل قصة.

وفي أحيان تقوم الملائكة بما يؤديه البشر كهاروت وماروت فيعلّمان الناس السحر إنما يخبرانهم إنما هي فتنة. ويرى أن الملائكة لا تأتي بالخوارق وتخرج عن حد المعقول خاصة في مثل الموقف الذي نزل فيه القرآن والذي كان مملوءاً بالأوهام المضفيَّة على الأرواح الخفية القدرة على الإتيان بالخوارق وتغدو أشبه بالشخصيات الخرافية أو الخيالية.

ونحن نخالف المؤلف فيما ذهب إليه:

أولاً: تدمير ملَك أو اثنين أو ثلاثة قرية بأكملها وجعل عاليها سافلها أليس هذا من خوارق العادات ويخرج عن حدود المعقول. والملَك الذي وهب لمريم غلاماً زكياً دون أن يباشرها هل فعله هذا ما جرت عليه السنن الطبيعية أو هو من المألوف؟

آخراً: إذا كانت الملائكة لدى عرب الجزيرة وقت نزول القرآن تأتي بالأعمال الخارقة والتي تخرج عن حدود العقل وتند عما ألفه الناس وجوهر نظرية خلف الله أن القرآن كان يأتي بالقصص القرآني وفق إعتقادات معاصري محمد من عرب ويهود فلماذا إذن لم ينسب القرآن ـ من وجهة نظر الباحث ـ إلى الملائكة الخوارق حسب ما يعتقده أولئك المعاصرون؟ لماذا جاء في هذه الخصوصية وخالف هذا الإعتقاد؟ وما هي الحكمة؟ أليس من الواضح أن الباحث قد ناقض نفسه وهدم بذاته نظريته!

بعد الملائكة يأتي دور الجن وهم صور مبهمة غامضة لا تتمثل في صور الرجال ولا تأتي في أثواب البشر وبالتالي فهم أحق بهذا اللقب (الأرواح الخفية) وهنا يقرر أنها تتحدث بلسان العرب المعاصرين لمحمد عليه السلام وتخاف مما يخافون وتطمئن إلى ما يطمئنون إليه وتنصرف عما يريد القرآن للعربي أن ينصرف عنه وهنا يعود خلف الله إلى نظريته وهي أن القرآن صوَّر الجن بالصورة التي كانت مطبوعة في أذهان العرب وقت نزول القرآن على محمد. وليس هذا سبباً معقولاً لتفرقة القرآن بين الملائكة والجن فالأولى يصوِّرها بصورة مخالفة عما هي عليه في أذهان العرب والأخرى يرسمها بالرسم ذاته المحفور في مخيلة أولئك العرب. ويضيف أن الجن صنفان: مؤمن وكافر وأن حوارات تجري

بينهم ومنها ما يدور حول النبي عليه السلام ويؤكد أن سورة الجن عرضت كل تلك الأمور كما تخيلها العربي في حياته.

أما رسم الجن في قصة سليمان فله صداه في الشعر الجاهلي خاصة في شعر النابغة وهي قضية خطيرة ألقاها المؤلف إلقاءً سريعا ولم يتوقف عندها وكان حتماً عليه أن يفعل لأن بعضاً ولا نقول كثيراً مما تضمَّنه شعر أولئك الشعراء نجده ربما بألفاظه في بعض آي الذكر الحكيم ونخص بالذكر شعر أمية بن أبي الصلت فكان عليه أن يلتفت إلى هذه القضية ويقول رأيه فيها ويدلي بدلوه فيها خاصة في (المصادر) ولكنه تقاعس ربما لما لها من حساسية وما يكتنفها من دقة وما يحوطها من شوك بل من ألغام. وبذلك يتفطن القارىء أن الأطروحة يعتورها النقص بإغفاله هذه القضية ونؤوب إلى السياق:

الباحث يرى فرقاً بين الصورتين الأولى كما رسمتها صورة الجن والأخرى كما رسمتها قصة سليمان فالأولى حسب منظوره ـ أقرب إلى الصورة البشرية والأخرى هي وفق ما كان يتخيَّله العربي وبداهة أن يضم إلى المسألة نفسها صورة إبليس أو صوره (بالجمع) إن في موقفه من آدم والكبر والإستكبار والعناد أو تعهُّده بالإيقاع بيني آدم في حبائل الشر ثم يورد مقطعاً من تعليق الرازي على القصة التي جاءت في سورة طه ويذهب إلى أنه مستقيم فيما عدا أنها من وجهة نظر خلف الله رمزية تصوِّر النزاع بين الإيمان والإستكبار ويخلص إلى أن القرآن الكريم رسم لإبليس شخصية جبارة متكبرة بيد أن قسوتها وعنفوانها يختلفان باختلاف الدور الذي تلعبه في القصة ولا ينسى أن يذكر أن شخصية إبليس مثل غيرها من الشخصيات تخضع لأثر البيئة والظروف المحيطة والأزمات بين النبي عليه السلام ومعاصريه.

أما الرجال فهم في القصص القرآني كثيرون فهم رسل وأنبياء وملوك ووزراء وأفراد عاديون بيد أن القرآن لم يقم وزناً لصفاتهم ومميّزاتهم الحسية فلا طول ولا عرض ولا لون بشرة ولا ملامح ولا قسمات ولو أنه التفت إلى بعض الإشارات التي تشير إلى الصفات المعنوية مثل: **﴿وأحلل عقدة من لساني﴾**[1] و **﴿هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾**[2]

(١) سورة طه، الآية ٢٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٢.

دلالة على لكنة موسى أو زاده بسطة في العلم ولو أن بها زيادة على ملمح جسماني ﴿زاده بسطة في العلم والجسم﴾[1] دلالة على متانة جسمه.

وفي مجال ذكر الأسماء يهمل القرآن ذكرها إهمالاً تاماً في قصص التخويف التي يبرز فيها الحوادث وأمثالها قصص عاد وثمود وقوم شعيب.

أما في القصص التي يبرز فيها عنصر الحوار والتي يقصد منها القرآن بث الآراء والأفكار وتقرير الدعوة الإسلامية وهدم العقائد الباطلة فله فيها طريقان:

إهمال الأسماء إهمالاً تاماً مثل: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية﴾[2] ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾[3].

أو هو يذكر الأسماء أحياناً ولكن بما يشبه الرموز التي جيء بها ليتمكَّن القارىء أو السامع من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها ولذا نلحظ في هذه السور ذكر القوم أولاً ثم ذكر الألفاظ المبهمة العامة كلفظ المرسلين مثل قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿كذبت عاد المرسلين﴾[4].

إذن القصص المقصود فيه الآراء والأفكار والذي يستخدم فيه الحوار وسيلة لذلك فإن عنصر الشخصية يكاد أن يختفي لولا بعض الأسماء وبعض الصفات والعنصر القوي الذي يجاورها مع عنصر الحوار هو عنصر الأحداث مع أنه ثانوي.

يتغير الآخر تغيُّراً تاماً فيما يتعلق بالأسماء وبتوزيع العناصر في القصص المقصود منها الإفاضة فستبرز الشخصية ولكن بدرجات متفاوتة حسب الظروف والأحداث ثم يشير إلى أثر البيئة في اختيار الشخصية الذي عالجه في (المصادر) ويقرر واقعية القرآن في اختياره لعنصر الأشخاص وإكثاره من الحديث عن الأنبياء المعروفين ومحورة الأقاصيص

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

(٢) سورة يس، الآية ١٣.

(٣) نفس السورة، الآية ٢٠.

(٤) سورة الشعراء، الآية ١٢٣.

عليهم وإهماله لمَن عداهم ويضرب مثلاً للأولين بموسى وإبراهيم وبالآخرين أيوب ويونس ويكرر ما سبق له ذِكره أن القرآن كان يختار الأحوال المعروفة إنما عند إنطاقهم أي إجراء الكلام على ألسنتهم كان يجريه وفق أحوال دعوة الإسلام. ويخلص إلى معادلة وهي كلما كثرت الأحداث تميزت الشخصية ووضحت قسماتها وبرزت ملامحها والعكس صحيح، وجاءت الشخصية مبهمة غامضة حتى ليصح أن يقول إنها شخصية كل رسول وإنها شخصية النبي العربي محمد بن عبدالله - صلَّى الله عليه وسلَّم - وهذه عبارة لا شك يعتورها الغموض لو أن المؤلف تداركها بالتوضيح بعد عدد قليل من الأسطر في ذكر محاورات بعض الأنبياء مثل هود وشعيب التي تجري مع أقوامهم في صورة عمومية فهي التي تصلح لكل رسول وأيضاً تصلح للنبي العربي عليه السلام... أما كل من إبراهيم وموسى وعيسى فلهم صور متميزة تتمثل في الأحداث والمواقف من أقوامهم والذين أرسلوا إليهم. ولكن هناك فريق ثالث يقف في الوسط بين أولئك وهؤلاء منهم نوح وصالح ولوط ففي بعض الأحيان نستطيع أن نميِّزهم وفي أحيان لا نستطيع لولا بعض الأحداث المميزة مثل الطوفان والناقة التي بدونها غدت صورهم مبهمة غامضة. ونحن نرى أن هذا التقسيم يشوبه قدر غير قليل من التعسُّف خاصة بالنسبة إلى الفريق الثالث ذلك أن كل نبي أو رسول له أحداث مميزة لولاها لأصبحت صورته باهتة غائمة حتى من أفراد الفريق الأول فعلى سبيل المثال لا الحصر: إبراهيم لولا المجادلة والتحريق بالنار ثم النجاة منها وموسى لولا الحوار مع فرعون ومبارزة السحرة ثم الخروج وانشقاق البحر وعيسى لولا الكلام في المهد وإحياء الموتى وشفاء المرضى - كله طبعاً بإذن الله - نقول لولا هذه الأحداث الخوارق المُعجبة لماعت صورهم وهزلت بل وغدا وجودهم بلا معنى وفاقداً لأي دلالة.

إذن المعيار الذي قنَّنه خلف الله تعوزه الدقة ويفتقر إلى الضبط ويحتاج إلى التحديد. كما أن القول بأن محمداً يقف في طابور الأنبياء ذوي الشخصية المبهمة الغامضة وبألفاظ الباحث (وجاءت الشخصية مبهمة وغامضة حتى ليصح أن يقال إنها شخصية كل رسول وإنها شخصية النبي العربي) هذا القول نعارضه بشدة ونختلف فيه مع المؤلف إختلافاً جوهرياً فمحمد سواء في جانبه اللاهوتي أو الديني أو الرسولي أو

الغيبي ـ اختر أي لفظ شئت ـ عند مَن يؤمنون بهذا الجانب أو في سيرته البشرية كقائد ومؤسِّس وصاحب شخصية سيادية آسرة كارزمية أو في علاقاته الإنسانية مع كل مَن يحيطون به: أزواج وأبناء وأحفاد وأصحاب وعُبدان... إلخ.

محمد سواء في هذا الشق أو ذاك يستحيل عقلاً ونقلاً أن يكون صاحب شخصية مبهمة غامضة والحق أنني لم أقرأ لمؤلف أو كاتب سواء من العرب أو العجم أو الفرنجة مَن أضفى على محمد هذا النعت الفلوت والذي نرجِّحه أن قلم خلف الله شطَّ منه وهو يسطر هذه العبارة أو أنني لم أحسن فهمها واستعصى عليَّ إدراكها وتعذَّر عليَّ إستيعابها وتعسَّر عليَّ الإحاطة بها ولا أبرىء نفسي.

• ويذهب الباحث إلى أن القرآن في تصويره للرسل والأنبياء كان يعطي لنفسه الحرية التامة في الحديث عن الأمور التي يقصد إليها في دعوة الإسلام حين تكون المعلومات العامة عن الشخصية معدومة أو في حكمها فيتجاوز الأسماء والصفات الحسية ويجنح إلى الإجمال والإبهام ليأتي بالأثر المطلوب ويشير في هذه الخصوصية إلى حرية الفنان في إنتقاء الصور التاريخية التي عمد إليها وهو يقوم بالتصوير الفني للأحداث. بيد أن هنا ينتصب إعتراض يتمتع بشيء من الرسوخ والمصداقية:

القرآن منزَل من الله الذي لا يخفى عليه شيء، لا في الأرض ولا في السماء، ولا في الماضي ولا في الحاضر، فكيف تكون المعلومات عن الشخصيات الواردة في هذا النوع من القصص معدومة أو شبه معدومة؟

وإذا صحَّ إنعدام المعلومات عند القاص أو الروائي البشر الإنسان ابن آدم فكيف يجوز عقلاً نسبة ذلك إلى الله العليم سبحانه وتعالى؟ إن هذه إشكالية غفل عنها خلف الله.

الفروق بين الشخصيات تنبني على تصرُّفاتهم حيال الأحداث وهذه التصرُّفات هي التي تنبىء عن عقليتهم ومزاجهم ومن هنا قيل عن شعيب إنه خطيب الأنبياء وهو لقب أطلقه عليه قدامى المفسِّرين عند تفسيرهم لسورة هود وقد ورد في أسباب النزول أن محمداً شبَّه موقف أبي بكر بإبراهيم وعيسى وموقف عمر بن الخطاب بموسى ونوح وذلك

في مسألة التصرُّف في الأسارى بعد غزاة بدر الكبرى. فوصف إبراهيم وعيسى بالرقة والرحمة ووصف موسى ونوحاً بالشدة والقسوة ولا شك أن هذا مصدره قصص القرآن.

والمشابهة بين تصرُّفاتهم (الأنبياء) وأقوالهم وقعت في مواطن مختلفة ولقد لحظ الرازي التشابه بين شخصيتين قويتين في أكثر من موطن وأورده في تفسيره. ويرى المؤلف أن شخصيات الرجال في القصص القرآني تتميز بالأحداث التاريخية المعروفة ولا تتميز بالصفات الحسية أو الصفات المعنوية من خلق ومزاج. ولا شك أن خلف الله يقصد بعبارة (الأحداث التاريخية) حسب نظريته هو لا الأحداث التاريخية الحقيقية أو الصحيحة.

يضيف: إننا لو حاولنا ما يُعرض لكل منهم من إنفعالات نفسية وتأثُّرات عاطفية فلا بد لنا من فهم الظروف المحيطة بالنبي العربي والعوامل المؤثِّرة في الدعوة الإسلامية فهي التي تفصح لنا عن المواقف التي توضح لنا البطل وتجلِّي صورته وهذا هو قصد قصص التنفيس وتخفيف الضغط عن محمد...

وهذه دعوى جريئة من قبَل خلف الله ولا شك أنه يعتمد في فهمها حق الفهم وإدراكها الإدراك الصحيح على فطانة القارىء ولقانته ونذكِّر هنا بما سطَّرناه في بداية هذه المقدمة إلى أن المؤلف ترك للقارىء ما يطالعه ببصيرته لا بباصرته. ثم ضرب مثلاً بيوسف لتوضيح دعواه لأنها شخصية واضحة الصورة بارزة المعالم ظاهرة القسمات.

من البديهي أن يجمع جامع بين صفات النساء والرجال وأن يفرقها فيها (الصفات) فارق إنما لحظ خلف الله أن شخصيات النساء أكثر وضوحاً وتعبيراً من شخصيات الرجال وهو أمر لا شك أنه يسعد النسوان.

والأمر الأول الذي يتساوى فيه الرجال والنسوة هو العدول عن الصفات الحسية والجسمانية.

والآخر هو العدول عن التسمية ويرجع ذلك إلى سلطان البيئة والحرص على مراعاة التقاليد المعروفة في البيئة العربية، ويدلل على هذا التعليل بأن الشخصيات النسائية قصد إليها لتأدية أدوار بعينها لا لتكون رموزاً أو كالرموز لتجري على ألسنتها الأفكار والآراء.

وهنا قد ينتصب إعتراض له بعض الوجاهة على أن تعليل عدم ذكر أسماء النسوة

كان مجاراة للتقاليد العربية وهي تقاليد كانت تنظر إلى المرأة بقدر واضح من الدونية ومن أبرز قسمات هذه الدونية هو إعتبارها عورة وعدم ذكر اسمها.

إذن لماذا جاراها القرآن في ذلك ولماذا لم يحاول, ترقية هذه التقاليد والإرتفاع بشأن المرأة وتعلية رتبتها وأبسطها ذِكر اسمها؟

ثم ألا يعطي هذا التعليل حجة إضافية أن القرآن قد انبثق من البيئة العربية وتخلّق في أجوائها ومن ثم جاء موسوماً بسماتها وحاملاً لقسماتها؟

لا أدري هل فكَّر الباحث في ذلك وهو يطرح هذا التعليل أم أنه لم يخطر له على بال.

ثم يذكر التقليدين اللذين كانت تحرص عليهما البيئة العربية وهما:

تبعية المرأة للرجل تبعية تامة وعدم ذِكر اسمها البتة حين الحديث في أي موقف وبين قوم كلهم رجال. ولم يعلّل لنا هذين التقليدين وهو أن ذياك المجتمع كان ذكورياً بطريركياً ومن ثم كانت مكانة المرأة فيه هامشية. ثم يدلّل على صحة وجهة نظره بأن القرآن راعى موجبات المجتمع العربي وتقاليده بأن القرآن وقف هذا الموقف من أم البشرية وأول امرأة في الحياة فهو لم يذكر اسمها ولا مرة واحدة ويقول (وهو الأمر الذي يدعو إلى العجب). وهنا يناقض ـ الباحث ـ نفسه إذ ما هو وجه العجب ما دام القرآنساير البيئة العربية ومجتمعها ذكوري يتمحور على الرجل ووضْع المرأة فيه متدنٍّ. إنما يبدو أنه (خلف الله) لم يشعر بأي قدر من الحروجة من إدعائه ذاك ونعني متابعة القرآن لتقاليد البيئة العربية حيال المرأة فنراه يأتي بعبارات تؤكّده وتوثقه فيقول إن العدول عن التسمية مقصود... لماذا؟

إذ عدل أن تكون هي البطلة في الغواية والإخراج وهذا تأكيد لذات الرأي أو النظرية وبتعبير المؤلف نفسه فقد صوَّرها تابعة لآدم في كل شيء في النهي عن الأكل من الشجرة ثم في الأكل فالخروج ويضيف أنها أي تلك التبعية كانت تقاليد البيئة العربية التي تحرص عليها أشد الحرص.

ثم يؤوب إلى معالجة الأمرين السابقين وهما العدول عن ذِكر الصفات الحسية

والجثمانية والعدول عن ذِكر الأسماء، فيذكر أن القرآن دائماً يعبّر عنها (الأنثى) بلفظ امرأة سواء أكانت متزوجة أو أيّم:

امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة إبراهيم وامرأة عمران وامرأة العزيز وامرأة فرعون هذا بالنسبة للمتزوجات أما عن الأيامى فـ ﴿**امرأة تملكهم**﴾[1] وهي ملكة سبأ ﴿**ووجد من دونهم امرأتين تذودان**﴾[2] وهما ابنتا الشيخ.

والإستثناء الوحيد الذي كسر هذه القاعدة جاء في حديثه عن مريم ويعلّل الباحث ذلك بأن أتباع عيسى كانوا يعتقدون أنه ابن الله فصمم القرآن على القضاء على هذه العقيدة الباطلة فأثبت مكانها أمراً آخر هو أنه ابن مريم.

ومجاراة للتقاليد اختلف دور المرأة عن دور الرجل فهي لم تأخذ دوراً رئيساً في أية قصة قرآنية بل دوراً ثانوياً ولكنه دور متميّز ذو صورة واضحة وطابع خاص ويضرب أمثلة يؤيّد بها وجهة نظره:

امرأة فرعون تمثّل الحرص على الأمومة بما فيها من بر وحنان ويبرز هذا في معارضتها لقتل موسى (وهو طفل رضيع في المهد). وامرأة العزيز تمثّل الأنوثة المكتملة التي تحرص على الفتنة والإغواء ويتّضح هذا من موقفها مع يوسف ومحاولتها مراودته عن نفسه. ثم يفصّل الباحث القول في مواقفها وما يبرزه من صفاتها وكذلك تقوّلات نسوة المدينة الدالة على مكرهن وردّها على هذا المكر ثم اعترافها مؤخراً بأنها هي التي راودته وهو صادق. أما صورة ابنتي الشيخ فهي تفصح عن محبة الأنثى للفتوة في الرجل مع المحافظة في الوقت نفسه على الخفر والحياء اللذين لا يمنعانها من إستعمال الحيلة لاستبقاء صاحب الجسد الفتي بينهما – وهو موسى ـ إلى أن يتزوج واحدة منهما.

ولم يشر خلف الله إلى لمحة أوردها عدد من المفسّرين أن الفتاة ـ إحدى الفتاتين ـ تعمّدت أن تسير أمام موسى عندما دعاه أبوها أو أبوهما ليقابله ـ وذاك لكي

(١) سورة **النمل**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٢٣.

تستعرض أمام عينيه ـ عينا موسى ـ مفاتن جسدها الأنثوي الفائر وهذا من مكر النسوان. بيد أن موسى وهو بعين الله يرعاه ويوجُّهه طلب إلى الفتاة أن تمشي خلفه خاصة فيما يقال إن الريح بدأت تكشف عن بعض تلك المفاتن أو تجعل ثوبها يشف عنها.

وعذر خلف الله في إغفال هذا الملمح الذي يكشف عن المكر الأنثوي وعما يمكن أن نسميه (الغواية المشروعة) التي انتهت بالنكاح في مقابل (الغواية المحرمة) التي مارستها امرأة العزيز. نقول أن عذره في ذلك الإغفال أن هذه الجزئية لم ترد في القرآن بيد أن دفع هذا العذر أن المؤلف كثيراً ـ في سبيل تأييد رأيه ـ ما يلجأ إلى إستعارة مقاطع من كتب المفسّرين القدامى منهم أو المحدثين. أما مريم فهي تذهب بما في المرأة من حرص على الشرف والعفاف والخشية من الفضيحة والعار في حين أن ملكة سبأ تذهب بالضعف المستحب في المرأة المصحوب بسمة الحيلة وحُسن السياسة الذي يطرحه إرسال الهدية لسليمان فلما رفضها فليس أمامها سوى الإستسلام والخضوع.

والتي تمثّل العاطفة الدينية أوضح تمثيل هي امرأة عمران أي أم مريم.

وهكذا نرى أن أدوار النسوان في القصص القرآني حتى ولو كنَّ ملكات فهو دور تابع للرجل ولو أن هذا لا يمنع من إتصافه بالتميُّز والخصوصية.

ويوجز خلف الله حديثه عن عنصر (الأشخاص) أو (الشخصيات) في قصص القرآن فيما يلي:

١ـ يذهب القرآن في رسمها وتصويرها المذهب غير المباشر (كتبها المؤلف الغير المباشر ومعلوم أن الألف ولام التعريف لا تدخلان على غير وكان حرياً به ألا يفعل ذلك خاصة وأن الأطروحة مقدَّمة إلى قسم اللغة العربية أ.هـ.) وهو يعني به المذهب الذي يعمد القاص فيه إلى عرض الشخوص في تفكيرهم وأعمالهم ويترك للقارىء التعرُّف إليها من طرق التفكير ونهج الأعمال.

٢ـ الشخصيات النسائية .تسيِّرها الغرائز والعواطف الأولية بعكس شخصيات الرجال ـ خلا الأنبياء ـ التي تهيمن على تسييرها المصالح الخاصة والعقائد الباطنية والنزعات النفسية والأهواء...

وهنا ندلي بملْحظين:

الأول: أن ما ذكره عن النسوان فهو تابع لنظرة العربي للمرأة إبان صَدْع محمد بديانته وسبق أن تناولنا هذا المنزع بالتفنيد والرد وأوضحنا ما يجر إليه من تداعيات قد لا تكون في صالح القرآن.

الآخر: أنه ما الفرق بين قوله إن النسوة تحرِّكها الغرائز والعواطف وبين قوله إن الرجال ـ حاشا الأنبياء والرسل ـ تسيِّرهم النزعات النفسية والأهواء ثم يمضي ـ الباحث ـ فيقول إن شخصيات الرسل كان قائدها المثل العليا والمبادىء الدينية وإلى هذا يرجع تشابُه صفاتهم العقلية وحركاتهم الفكرية.

ومرة أخرى نحن نختلف مع خلف الله في تشابُه الصفات العقلية والحركات الفكرية للرسل/الأنبياء... فأين هي تلك المشابهة في الصفات العقلية والحركات الفكرية بين نوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى ولوط وشعيب وصالح وهود وعيسى ومحمد...

لو كان هؤلاء الرسل نسخة (كاربونية) في العقل والفكر لما كانت هناك حاجة بالقرآن لقص حكاياتهم ولاكتفى بقصة واحدٍ منهم.

٣ـ القرآن في حديثه عن الأشخاص كان يختار من مواقفهم ما يتَّفق وأحوال النبي ليثبت نفسه وليسري عنه ما ألمَّ به من حزن وألم.

ثم ينتهي إلى رأي في غاية الخطورة: شخصية النبي عليه السلام هي الأساس أو العامل في الإختيار إلخ. وهذا الراي يذكرنا بما يذهب إليه بعض غلاة الصوفية من أن الله لم يخلق الخلق إلا من أجل محمد.

وبذلك ينهي المؤلف معالجته لعنصر الأشخاص أو الشخوص أو الشخصيات. ونذكِّر القارىء بالملاحظات والإعتراضات التي قدَّمناها في ثنايا تحليلنا لهذه الفاصلة وبداهة لا نريد تكريرها إنما نريد أن نذكِّر القارىء أن تلك التعقيبات أو التفنيدات لا تنفي أن خلف الله اجتهد وأصاب وأبدع فأظهر قدرة فاذة في الإبداع وأنه أثبت أنه باحث جريء فكرياً طرح ما استطاع طرحه في شجاعة نادرة وما لم يستطع فقد تركه لفطانة القارىء وذكائه ولقانته ولماحيته.

ويثنّي خلف الله بتفصيل القول في الحوادث: فيذهب إلى أن صلة الحوادث بالشخصيات ليست في حاجة إلى دليل فهما عنصرا القصة الرئيسان ولا يمكن تصوُّر شخص بلا أحداث، ولقصر القصة القرآنية فإن أبرز عناصرها الحوادث وعنصر الأشخاص مبهم غامض وتختلف طبيعة الأحداث فيها فهناك:

أحداث تنتج عن تدخُّل القضاء والقدر مثل أن يكذِّب قوم الرسول أو الملأ منهم رسولهم ويطلبوا منه إظهار معجزاته ويهدِّدوه بالتصفية الجثمانية فهنا يتقدَّم مَن أرسله ويُنزل عليهم غضبه ثم أورد آيات فيها قصة ثمود وصالح تصوِّر هذا الأمر أصدق تصوير.

وأحداث أخرى تعتبر من الخوارق والمعجزات التي يجريها الله إما على أيدي الرسل أو إستجابة لدعوة أحدهم بعد أن تحداه قومه أو حتى تبعه لنوع من البيِّنة وأبرز مثَل عليها المائدة التي طلب الحواريون إنزالها من السماء فضلاً عن أن معجزات عيسى مثل خلق طير من الطين وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الأموات (طبعاً كله بلا إستثناء بإذن الله) أوضح مثَل على الخوارق المؤيِّدة لنبوَّة أو رسولية النبي أو الرسول.

ولو أن هذين النوعين (تدخُّل القدر) و (الخوارق) وردا في غير القرآن أو القص الديني لاعتُبر قصصاً خيالياً، ولكنه في فضاء القصص القرآني هو خلاف ذلك واقعي بل مألوف... لماذا؟

لأن المخاطَبين من قبَل الرسل/الأنبياء كانوا يعتقدون أن ذلك أمر بديهي وأن المعجزات هي دليل الرسالة والخوارق برهان النبوَّة ومن ثم كانوا يطالبون الأنبياء بإتيانها حتى تطمئن قلوبهم إلى صدقهم.

ويرى الباحث أن موقف القرآن من هذين النوعين مثار الإعجاب إذ وقف عند الأحداث المعروفة للرسل والأقوام وهذا كسب عظيم للحياة العقلية والفكرية آنذاك.

ولكنه (القرآن) وقف عند هذا الحد ولم يتجاوزه واكتفى بالإعتماد على الواقع النفسي ولم يعمد إلى الخلْق الفني وفصل بين الأمرين فلم يجعل الرسالة تتوقف على الخوارق. وهنا يحق لنا أن نقول إن هذا الرأي الذي يقرِّره خلف الله قد جاء متأخراً فما من نبي ـ قبل محمد ـ إلا وصحبته معجزات: إبراهيم: النجاة من النار. داوود: إلانة الحديد.

سليمان: تسخير الريح والجن. حتى أن بلقيس لم تؤمن وتسلم إلا بعد أن رأت عرشها عنده... موسى: الآيات البيّنات الدم والضفادع والقمل... إلخ والغلبة على السحرة... وتحوُّل العصا إلى حية أو ثعبان أو جان وشق البحر وعبوره دون غرق. وعيسى المعجزات التي ذكرنا آنفاً قبل قليل، حتى محمد فله العديد من المعجزات التي روتها دواوين سيرته عالية الرتبة رفيعة الدرجة بل وعدد من الصحاح الستة وبعضهم يضع على رأسها إنشقاق القمر في مكة أول مراحل الدعوة. عالجنا موضوع المعجزات بشيء من التفصيل في كتابنا (بصائر في عام الوفود وفي أخباره) دار سينا ومؤسسة الإنتشار العربي. ولو أن القرآن هو معجزة محمد ـ مما جعلنا نسطر، أن ما يذكره المؤلف من أن القرآن لم يجعل الرسالة متوقفة على المعجزات غير صحيح على إطلاقه إنما جاء متأخراً وربما يغدو محمد هو المثل الفاذ وحتى في حالته فقد كان بعض أو إن شئت الدقة عدد كبير من تبعه يطلب إليه أن يدعو ربه للقيام أو بإنجاز عمل معين مثل إنزال المطر أو الإبراء من الجنون أو الشفاء من المرض. وهذا أمر بديهي لأن تلك الشعوب كانت لديها قناعة راسخة أن النبي أو الرسول هو (فم السماء) بل لا زالت الشعوب ذات المستوى الحضاري الخفيض تعتقد ذلك أو لديها ذات القناعة ولكن بدلاً من الرسول/النبي تحوّل الأمر إلى أولياء الله الصالحين والقديسين وأصحاب الأحوال وأرباب الكرامات فهؤلاء في نظرهم هم ورثة الأنبياء الحقيقيين لأنهم أصحاب العلم اللدني وهناك حديث لمحمد يقول فيه (العلماء ورثة الأنبياء).

نعود إلى سياق الحديث: ما يقوله خلف الله: إن القرآن فصل بين الرسالة والخوارق غير دقيق فهو:

إما أنه ينطبق على محمد فحسب أي جاء متأخراً ولم يكن منذ البداية مطبقاً.

وإما أنه لم يحدث على إطلاقه لأنه ما من نبي إلا وله خوارق.

وهذا ما يؤيّدنا فيما ذهبنا إليه من أن الباحث يفتقر بشدة إلى ضبط القواعد وتقعيد الضوابط وحد الرسوم ورسم الحدود وتبيين الفوارق. ويخلص المؤلف الباحث بأن هذا

الصنيع من قبَل القرآن مع أنه مُعجِب إلا أنه حدد الحرية في عرض الصورة وحصر العمل الفني في رسم الحادث، وإذا أضيف ذلك إلى إعتماد القرآن على التكرار كوسيلة إقناعية فإن ذلك دفع إلى:

أ ـ إنطاق عدة أشخاص متباينين بعبارات واحدة وساق مثلاً على ذلك.

ب ـ التفنُّن في العرض والتنويع في الرسم عبر تصوير الحادثة الواحدة بصوَر مختلفة.

آخر الأنواع هو الأحداث العادية أو المألوفة التي وقعت للأبطال أو الرسل باعتبارهم أفراداً من البشر والقرآن مليء بهذا النوع وأطيب مثَل عليه قصة يوسف عليه السلام.

ويحايث العرض ـ هنا ـ الخلّق الأدبي والإبداع الفني وسبق للباحث معالجة ذلك عند حديثه عن القصة التمثيلية، ويمثل لذلك بقصة أو حديث الهدهد والنملة والحديث الذي لم يقع بين عيسى وربه ﴿**أأنت قلت للناس...**﴾ وكذا حديث المستضعفين والمستكبرين وتدخُّل الشيطان ثم ينتقل إلى أمر آخر مكمل ولو أنه يدخل في طبيعة الأحداث وهو ربطها وتسلسلها ويذكِّر القارىء بأن القرآن في بعض الأحيان لا يمحور الأحداث على الزمان.

ويسلِّط الضوء على أن القصة القصيرة قد يهتم فيها بالحادث لكي تؤثر في النفس وتستثير في الناس إنفعالاتهم وضرب لذلك مثلاً بتكذيب ثمود وعاد بالقارعة.

وكذلك حكاية قارون وفرعون وهامان الذين رفضوا البيِّنات التي طرحها أمامهم موسى فاستكبروا. ويشرح المؤلف ما يعنيه بعدم جعل الزمن محوراً للقصة فيقول ليس معناه فصم الأحداث عن الزمن بالكلية وإنما يعني أن تسلسلها (الأحداث) يخضع لقصد القصة الذي من أجله نزلت.

وعندما يكون القصد هو تخفيف الضغط العاطفي أو تثبيت قلب النبي فإن محور الأحداث يغدو هو الشخص نفسه وأن ما حدث له لم يضعف نفسه أو يوهن عزيمته وأنه مضى في طريقه حتى جاء نصر الله والفتح، وقصتا لوط ونوح تمثلان ذلك، ولو أن بينهما فروقاً كثيرة لاحظها الرازي.

وينتهي المؤلف إلى أن المسألة عنده تؤوب إلى قصد القصة الذي من أجله بُنيت:

في سورة هود كان القصد التسرية عن نفس محمد صلّى الله عليه وسلّم وتخفيف الضغط العاطفي...

أما في سورة الذاريات فكان غرضها التخويف وعليه تأسست.

وهذا هو سر إختلاف الحركة والوصف والحبكة الفنية والتسلسل.

ويلفت الإنتباه إلى أن القرآن يعمد إلى التنويع حتى لا يمل قارئه أو سامعه من التكرار.

أما ما هو أسلوب القرآن الكريم في رسم الصورة أو عرض الحادثة؟ فقد سلك في ذلك عدة طرق:

أ ـ الإعتماد على الألفاظ الفخمة ذات الرنين القوي وذات التأثير بمعناها ومبناها وموسيقاها على الجمل المسجوعة ذات الفقرات والرنين القوي فتملأ الألفاظ الأذن نغماً والقلب خشية ورهبة أو غبطة وسروراً، ثم ضرب أمثلة على ذلك.

ب ـ الإعتماد على تتابع الأحداث تتابعاً سريعاً لتؤثر في النفس وتهز الفؤاد ولعل هذا سر جمع ألوان من القصص في سورة واحدة مثل ما حدث في سور: الأعراف، هود، الشعراء، القمر.

ج ـ أما الأغلب فهو الإعتماد على الألفاظ السهلة الليّنة كألفاظ الأحاديث العادية. يفعل القرآن ذلك وكأنه يوجّه خطابه إليهم بالكلمات العادية وهنا نلاحظ أن حركة الأسلوب تسير مع حركة العاطفة وأطيب مثّل عليه قصة ورود موسى ماء مدين والمرأتين اللتين تذودان وسؤاله إياهما عن شأنهما... إلخ.

ثم يحدّثنا المؤلف عن إعتماد القرآن أحياناً على تصوير الحركات لكي تدل بذاتها على الإنفعالات قوة وضعفاً أو عنفاً وليناً أو يستعين بالعبارات التصويرية والصيَغ الدالة على الإنفعالات. ويذكّرنا أن أسلوب القرآن غالباً هو أسلوب التخاطب... لماذا؟

لأنه كان يلقي القول إلقاءً ومن هنا امتازت أساليب القص فيه بأسلوب الحديث والمشافهة خاصة في بدّي القصة.

ولكن ألا يعني هذا أن القرآن تأثّر في ذلك بالبيئة العربية التي كانت لا تعرف من الأساليب الأُدبية سوى أسلوب التخاطب أو الخطابة حتى أن القصائد الشعرية كانت تلقى في الأسواق مثل عكاظ وذي الجنة وغيرهما إلقاءً خطابياً.

يرى الباحث أن الحوار ليس ضرورياً في القصة وهذا بديهي فهو ليس عنصراً رئيساً فيها بعكس المسرحية وقد سار القرآن على ذلك في قصصه ذات قصد التخويف وفي أحيان أدار الحوار مع النفس أي أن الخواطر النفسية تتحادث مع بعضها البعض كما جاء في سورة الأنعام من حوار إبراهيم مع نفسه بشأن مَن يستحق العبادة الكوكب أم القمر أم الشمس ثم انتهى إلى أن وجه وجهه لفاطر السموات والأرض.

بيد أن كثيراً من القصص القرآني مثَّل فيه الحوار عنصراً هاماً خاصة تلك التي تعدَّدت شخصياتها مثل قصة يوسف في السورة التي تحمل إسمه وقصة موسى في سورة طه ثم مجموعات قصص سورتي هود والشعراء وقصة إبراهيم في سورة مريم وغيرها من القصص التي قصد منها التثبيت أو شرح مبادىء دعوة الإسلام، وضرب مثلاً لذلك من قصة موسى في سورة طه. والموضوعات الدينية التي قام الجدل العنيف بشأنها بين النبي عليه السلام وبين قومه مثل الوحدانية والبعث والنشور وبشرية المرسلين إلخ هي الغالبة على موضوعات حوارات قصص القرآن ويرى أن طريقة القرآن في تصوير الحوار تتأسس على الرواية بأن يصدرها بقوله: قال... قالا... قالوا.

ولم يبيِّن لنا الباحث العلة في ذلك وهي أن ذياك المجتمع كان مجتمعاً أمياً متبديًّاً، طريقة العلم بالشيء فيه المناقلة والمشافهة وقد استمرَّت هذه الطريقة حتى بعد ظهور العلوم الإسلامية أي حتى بعد عصر التدوين فنجد على سبيل المثال في علم الحديث أخبرنا/أنبأنا/حدَّثنا/قال:.../سمعنا... والإهتمام بالسند وهو سلسلة رواة الحديث وعلم الجرح والتعديل أي ما إذا كان راوي الحديث عدلاً أو مجروحاً أي تلحقه علة تطعن في صلاحيته لحمل الحديث وروايته. إلى هذا الحد الخطير أثَّرت الفترة السابقة على ظهور محمد (يسمّونها الجاهلية).

ويضيف خلف الله أن الحوار في القصص القرآني لا يلزم أن يجري بين اثنين بل قد

يجري بين كثرة أو بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر أو بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر ثم ضرب أمثلة على ذلك.

أما القضايا التي اعتمدها القرآن لحواره مرجعيتها في الغالب إلى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة وسبق لنا أن وصفنا هذا النوع بـ (القصص الشعبي) كما يمكن تسميته بـ (الفولكلور) ويستمر الباحث في عرض جوانب عنصر الحوار فيؤكد أن أسلوبه الأدبي يكاد يخضع خضوعاً تاماً لسمات الأسلوب القرآني ومن ثم نلحظ فيه السمات الآتية:

١ـ إختلاف لغة الأسلوب باختلاف الموضوعات والطور الذي نزلت فيه أي هو أسلوب فني يجري على وتيرة واحدة في كل قصة ويخلص من ذلك أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر مسايرته لنفسية محمد ونفسية معاصريه ونحن نخالف المؤلف في مذهبه هذا فأسلوب القصص القرآني لا يجري على وتيرة واحدة ودليلنا على ذلك القصص القرآني ذاته إذ يستحيل على قارئه أو سامعه أن يسلم بمقولة جريانه على نسق واحد أو وتيرة واحدة... كما أن ما طرحه المؤلف ذاته فيما سبق يناقض هذا الرأي الأخير مناقضة تامة.

كل هذا في كوم (كما تقول العامة في مصر) وتقف في كوم لوحدها منفردة النتيجة التي يمكن أن يفرزها هذا الرأي وهي أن القصص طُوِّع لنفسية محمد ومعاصريه وأنه يأتي تابعاً لهما وهو ما يعطي برهاناً إضافياً لمقولة إن القرآن من عند محمد، ذلك أن الإدعاء بأن القص القرآني يجري وفق أسلوب فني ذي وتيرة واحدة يتّسق مع نفسية محمد والمعاصرين معناه بمنتهى البساطة أن ذلك القصص لم يكن له شغل يشغله سوى نفسية محمد ومعاصريه. لو أن خلف الله قصر ذلك على عدد من القصص لكان صحيحاً وسائغاً لأن الإهتمام أو الإنشغال من قبَل السماء بمحمد ونفسيته وظروفه ومواقفه من معاصريه ومواقف هؤلاء منه أمر وارد ومحتمل بل لا نغالي إذا قلنا إنه منتظر من السماء التي أرسلته بالرسالة لأن الله جلَّ جلاله في العديد من آياته تعهَّد بحفظ رسله ورعايتهم... إلخ.

أما تخصيص القصص كله لنفسية محمد ومعاصريه فهذا شطط لا يتفق مع رسالة

القرآن الذي صرَّح أن محمداً رسول قد خلت من قبله الرسل ولم يحدث في الكتابين السابقين (التوراة والإنجيل) أن قصرت قصصهما وحكاياتهما وأمثالهما على رسوليهما (موسى بالنسبة للتوراة وعيسى بالنسبة للإنجيل) ونكرّر ما سبق أن ذكرناه أن العاطفة الدينية المشبوبة لدى خلف الله هي التي دعته إلى تقديم مثل هذه الأفكار الغالية ومن الغريب أن هذا الحماس منه لرسول الإسلام محمد لم يشفع له لدى الذين ثاروا عليه.

ويؤكد المؤلف أن أسلوب القصص القرآني يساير نفسية النبي محمد عليه السلام وستظهر هذه المسايرة عندما يتحدث عن القصص القرآني ونفسية الرسول، والحكم الأدبي هو أن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء والمرسلين أو الأقوام يمشي على وتيرة واحدة أي أنه لا يشاكل الواقع ويقارن بينه وبين أسلوب قصص هذه الأيام الذي يمضي على خلاف ذلك إذ الحوار فيها يمثّل نفسية المتحاورين وطريقتهم في المخاطبة وعقليتهم في التفكير والحركات الذهنية كما يمثّل حرفهم وصناعاتهم.

بيد أنه يستثني بعض الحالات القليلة التي نجد فيها الحوار يمثّل شخصية المتحاورين وما تنضوي عليه من قوة وجبروت وعظمة وكبرياء وهي المحاورات التي تجري على لسان إبليس حين يحاور الرسول الذي يواجهه مثل آدم وموسى ولكنه الإستثناء الذي يؤكد القاعدة التي يعتنقها (المؤلف) وهو أن الحوار يمثّل الدعوة الإسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام ثم يأتي إلى عنصر القضاء والقدر وسبق أن ألمع إلى ذلك عندما شرح كيفية تدخُّل عنصر القضاء والقدر لإنقاذ الرسول من القتل والإضطهاد وكان حرياً بخلف الله أن يسمي هذا العنصر ـ في هذه الخصوصية ـ مشيئة السماء أو إرادة الله. ويضرب مثلاً آخر لإبراز أهمية هذا العنصر في بعض القصص مثل رؤيا إبراهيم ذبح ابنه ثم فدائه بذبح عظيم. وكذلك قصة يوسف التي وعد بتحليلها في القريب ثم أردفها بالمشيئة الإلهية: (إن شاء الله) ومثل هذه العبارة نسمعها في الخطَب المنبرية العصماء التي ترتجف لها الأفئدة وتخشع من بلاغتها القلوب وتذرف من طلاقتها العيون... إلخ أما أن تضمها رسالة جامعية أو بحث أكاديمي أو كتاب علمي رصين ولو كان في العلوم الدينية فهذا ما لم نعهده.

خامس العناصر الفنية في القصص القرآني هو عنصر المناجاة وإن كان حظه قليلاً ويرد بصورة مغايرة لما يأتي به أغلب القصص الأدبي وهو المناجاة الشخصية أو الذاتية.

أما في القرآن فيناجي النبي عليه السلام ربه متوسلاً إليه لكي يستجيب لدعائه وأورد أمثلة على ذلك من قصص كل من نوح وإبراهيم ويوسف وهكذا ينتهي الباحث من الفصل الخامس وهو العناصر.

إن أخطر ما طرحه خلف الله في هذا الفصل هو أن القصص القرآني جاء بأسلوب فني ذي وتيرة واحدة تتسق مع نفسية محمد والمعاصرين مما يعني أنه تمحور على ذلك وقد فنَّدنا هذا الإدعاء فيما سبق وكشفنا عن عواره وأوضحنا الباعث الدافع له على ذلك لدى المؤلف، في حين أن عنصرَي الأشخاص (الشخصيات) و (الحوادث) اتَّسما بالغنى والدسامة ودلَّلا على الجهد الواضح الذي بذله الباحث فيهما وكشف عنصرا (القضاء والقدر) و (المناجاة) على العجلة والتسرُّع إذ لم يأخذا حقَّهما من التمحيص والتنقير ويبدو أن طاقته قد استنفدها عنصرا الأشخاص والحوادث أو الأحداث ـ فضلاً عن أن تسمية عنصر القضاء والقدر أدخل في باب الوعظ الديني منها (التسمية) في البحث الفني الأدبي.

أما عنصر الحوار فقد كان (بين بين) بمعنى أنه لم يقتله بحثاً ولا هو مر عليه مرور الكرام.

ونختم بلفت الإنتباه بمنتهى الشدة إلى ما أكده المؤلف من أن القصص القرآني لم تكن سوى مرآة انعكست عليها مكانة المرأة لدى الرجل العربي وفي البيئة العربية التي ظهر فيها القرآن والذي كان من البديهي أن يتبنَّى تلك النظرة نلفت إنتباه أولئك الذين يدَّعون بكل جرأة على الحق أن الشريعة الإسلامية ارتفعت بمكانة المرأة إلى درجة لم ترفعها إليها شريعة أو حضارة لا قبلها ولا بعدها وردَّدنا عليهم في كتابات لنا سوابق أن ذلك غير صحيح ومنافٍ لبدائه العقول لأن فاقد الشيء لا يعطيه فالبيئة التي أفرزت (النصوص) والمجتمع الذي انبثقت منه بعد أن تخلَّقت في حناياه وتشكَّلت في باطنه لم يكونا ليسمحا بأن يُعطى النسوان أكثر مما أعطتها (النصوص) ويكفي هذه شرفاً أنها فتحت الباب لتحرير المرأة وإنصافها ومنحها طرفاً من حقوقها.

وكان على المجتهدين من الفقهاء والمُفتين أن يكمّلوا السيرة كلما تقدَّمت المجتمعات صعوداً في سلم الحضارة لأنه من غير المعقول أن تكون حقوق المرأة الأعرابية المقصورة في الخيام والأخبية مثل سيدة القصور والبيوت في عهود الحضارة الزاهرة في الخلافة العباسية في بغداد والأموية في الأندلس والفاطمية في القاهرة. بيد أنه للأسف أحجم الفقهاء والمفتون عن ذلك ووقفوا عند الحقوق الأولية كما قدَّمتها النصوص فحسب والتي كانت توائم موجبات ذلك المجتمع. ومن ثم يثبت بالدليل القاطع أن دعوى الشريعة الإسلامية في مجال حقوق المرأة ومكانتها فاقت ما سبقها من الشرائع والحضارات بل وحتى ما سوف يلحقها دعوى عجفاء هزيلة وتنتصب أدلة الثبوت من النصوص ذاتها ثم من جمودها القرون أو تجمُّدها لقرون عديدة كما أن الذين رفعوا هذا الشعار الضامر لم يقرأ واحد منهم سطوراً قلائل عن مكانة المرأة في أي شريعة أو حضارة سابقة ومع ذلك تبلغ به الجرأة أن يتشدَّق بهذه الدعوى، أما الشرائع اللاحقة فلا ندري كيف اطَّلع عليها إلا إذا كان يعتقد في قرارة نفسه أنه يعلم الغيب وما يستجد من شرائع وحضارات في المستقبل وأنه لأكرم وأشرف للشريعة الإسلامية أن يقرر في جانبها الحق الذي لا مرية فيه وهي أنها جاءت بنصوص فيها إنصاف للمرأة وبداية لتحرير أوضاعها المختلفة وأن تلك النصوص التي تحمل آثار البيئة التي نبتت منها وبصمات المجتمع الذي وُلدت فيه وأنه كان من المتعيِّن على معتنقيها أن يسيروا على دربها ويكملوا المشوار نقول ذلك أشرف وأكمل من أن ينسب إلى النصوص ما هي براء منه وما لم تكن (النصوص) تحتمله بل ولا يخطر لها على بال فضلاً عن منافاة ذلك الإدعاء للموضوعية والعلم.

ثم نرجع إلى السياق كالعادة:

إن خلف الله وقد لفت الإنتباه إلى وضع المرأة كما جاء في القص القرآني وأنه نبت البيئة العربية إبان إنبثاقه قدَّم حجة لم يكن الكثيرون ينتبهون إليها في مجال بحث وضع المرأة ومكانتها وحقوقها في الشريعة الإسلامية وهي بكل المقاييس نقطة إيجابية تضاف إلى الإيجابيات العديدة التي ضمنها أطروحته.

تطوُّر الفن القصصي

يرى المؤلف في تطوُّر الفن القصصي: أنه ميسور للدارس ترتيب قصص الأدباء موضوع دراسته ليلحظ الظواهر والتطوُّرات لديهم كماً وكيفاً ومنها يستخلص النتائج فيعزو التطوُّر إلى المران والتجربة أو الموهبة الفنية والقدرة على الإبتكار والإبداع ويشرح الطرق المختلفة التي يسلكها في تنمية مواهبهم وقدرتهم على الخلق والتأليف وقد يرزقون بالعبقرية فينهجون أساليب جديدة ويخطّون مذاهب جديدة ويؤسسون مدارس جديدة بيد أن الأمر مختلف تماماً مع القصص القرآني إذ القول فيه بالتجربة والمران محال لأنه منزَل من الله المنزَّه عن الضعف والنقصان والتجربة والخطأ والمران ومع ذلك فالتطوُّر (موجود لا شك فيه) إذن ما هو الطريق لحل هذه الإشكالية؟

يرى خلف الله أن الحل يكمن في ولوج طريق سلكه السلف من قبل إن في الفقه أو في الأصول ونرجِّح أنه يعني أصول الفقه لا أصول الدين. وفي طليعة تلك الحلول التي عمد إليها القدامى: النسخ والتدرُّج في التشريع، ذلك أن مبادىء الدين وعقائده وشرائعه لم تنزل دفعة واحدة وإنما نزلت على دفعات وأن الزمن طال واستغرق مدة البعثة وفي هذه الخصوصية نحن نختلف مع خلف الله إذ هو خلط بين العقيدة (مبادىء الدين حسب لفظه) وبين الشريعة (الأحكام العملية) فالعقيدة (المبادىء) لم يلحقها نسخ أو تدرُّج وربما حصل ترتيب في نزول العبارات التالية أو الرديف للعقيدة (المبادىء) إنما هناك فرق بين التدرُّج والترتيب وأوضح مثَل على ذلك هو تحريم الخمر فهذا تدرُّج أما أن تجيء الصلاة قبل الزكاة والصوم والحج فهذا ترتيب وليس تدرُّجاً. وبداهة أن التدرُّج يأتي من مجال أو موضوع واحد. كذلك تفريق بين الشريعة التي هي تنزيل من الله تقدَّست أسماؤه أي إبداع وخلق إلهي وبين الفقه وهو صنيع بشر وتحضرنا قولة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان شيخ مذهب الأحناف (أما إذا جئنا إلى سفيان الثوري ومكحول والنخعي فهم رجال ونحن رجال). إنما نجد الباحث يؤوب إلى الصواب فيقارن بين ما حدث للتشريع من تدرُّج وبين القصص الفني أي أن التدرُّج اقتصر على التشريع أي الشريعة ولم يؤم العقيدة أو حتى يحوِّم حولها والتشريع أو الأحكام العملية هي الميدان الذي خبَّ فيه الفقهاء ووضعوا وأظهر فيه بعضهم عبقرية فاذة وكاتب هذه الأسطر لديه قناعة كاملة أن الفقهاء هؤلاء هم

الذين أسسوا الشريعة (التشريع) ورسّخوا أسسها وقعدوا قواعدها وأقاموا بنيانها هذا الشامخ الذي يعترف بسموّه وسموقه وشموخه المناوىء قبل المعاضد والمعارض قبل المؤيد والخصم قبل المدافع والعدو قبل الحبيب والشانيء قبل الصديق ذلك أنهم أزالوا ما في النصوص من شوائب وطهروها مما بها من معضلات وحلوا ما يعتورها من مشكلات ورفعوا ما بها من مطاعن والذي لا يماري فيه إلا الشكس ولا يجادل فيه إلا العنيد ولا ينكره إلا اللجوج أن إمتزاج الشعوب ذات الأعراق المختلفة مثل العرب والفرس والهنود والأفغان وبلاد ما وراء النهر والمصريين والبربر وأبناء شبه جزيرة أيبيريا والأفارقة والآسيويين تحت راية الحضارة الإسلامية هذا المزج أفرز فقهاء أعاظم هم الذين قاموا بالدور المعجب الذي ذكرناه.

ونعود أدراجنا إلى السياق: يرى الباحث أن القصص القرآني نزل لخدمة الدعوة الإسلاميّة وشرح المبادىء وتوضيح العقائد والدفاع عن النبي العربي والقرآن الكريم وإذ - كما سبق ذكرنا - استطال عمر دعوة الإسلام ودرج القرآن على التدرُّج في التشريع. ومرة أخرى أسقط المؤلف من حسابه العقائد والمبادىء وبذلك يكون قد رجع إلى الصواب. إذن من البديهي أن يأتي القص القرآني متطوراً... لماذا؟

لأن القصة من الحتم اللازم أن تغدو صورة لدعوة الإسلام وتعبّر عن آراءِ وأفكار البيئة ـ ونحن نرى من جانبنا أنها لفتة ذكية من خلف الله فضلاً عن إتسامها بالجرأة البالغة التي لا نملك إلا أن نحييه بشأنها ـ كما ترسم بدقة حركات العداء والسلام وتدافع عن النبي عليه السلام ولدعوته وتثبيتها والتمكين لها في قلوب المخاطَبين.

ومن هنا يصح القول إن القصص القرآني يتطور من حيث الموضوعات والأفكار والآراء نزولاً على قاعدة التدرُّج هذه وهو ما يسميه التطوُّر الداخلي لأحد العناصر وقد تأثر بذلك البناء وتوزيع العناصر وأوليات القص القرآني التي بدأت بخبر عادي يصوِّر إما حالة أو موقفاً أو حادثة ويسوق أمثلة عليها.

وفي فجر الدعوة أي في بدايات النزول كانت الغاية زلزلة المشركين وتقويض عنادهم وزعزعة مقاومتهم... وانعكس ذلك على القصص التي نزلت آنذاك ومن ثم جاءت تصوِّر الكوارث والبلايا والمصائب التي ألمَّت بمَن كذبوا برسلهم مثل عاد وثمود وتتميز بجرس قوي يتناسب ورسم تلك اللوحات المفزعة.

وفي ذياك الوقت نفسه كانوا ينكرون على محمد نبوَّته ويتَّهمونه بالكذب والسحر والجنون وأنه لا يتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى بل هو بشر مثلهم ويصوِّر القصص ذلك في أسلوب مسجوع له رنين صوتي ولا يركِّز على الأسماء ـ أسماء المرسلين ـ بقدر ما يركِّز على الحوادث أو الأحداث وأوضح مثَل على ذلك سورتا القمر والذاريات.

ويشير بعض الدارسين إلى أن محمداً في تلك الحقبة المبكرة كان يمثل الداعية المشبوب العاطفة ذا الوجدان الثائر والأحاسيس الملتهبة غيرة على الديانة التي يغشوها والعقيدة التي يذيعها والمبادىء التي يطرحها ومن ثم جاءت سورها وقصصها ذات جرس يصك الآذان ورنين يقرع الأسماع ويقارنونها بخطب يوحنا المعمدان النارية التي أودت به إلى التصفية الجسدية. ويضيفون أن محمداً عندما نزح (هاجر) إلى أثرب (المدينة) وتحوّل إلى قائد عسكري ورأس حكومة وزعيم دولة وتحلَّقت حوله حاشية من العُبدان وأمناء السر (كتاب الوحي والرسائل) والمستشارين والوزراء والخاصة والبطانة والوليجة وتعددت زوجاته وكثُرت بيوته... إلخ. وبالتالي انخفضت حرارة آيات القرآن وغدت برداً وسلاماً واختفت المقاطع الملتهبة ذات الجرس القوي والرنين والفواصل القصيرة وحلَّت محلها الفواصل الهادئة المطمئنة الطويلة النفس وتوارت ألفاظ القارعة والصاعقة والحاقة والريح الصرصر العاتية والنحس المستمر والنخل المنقعر. وتناولت (الآيات) مسائل معاشية وشغلت بما كان يحدث لمحمد مع زوجاته: الإفك... التآمر عليه... وطلب مطاليب تكون مغبَّتها التخيير.

هل كان خلف الله متأثراً بمقولة هؤلاء الدارسين عندما ذكر في الفصل السابق أن القصص كان يتمحور حول نفسية محمد؟

لا أدري ولا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال إجابة شافية... بيد إن كل ما يمكنني قوله أن أولئك الباحثين الذين ذكرتهم كان من بينهم مستشرقون.

وهل هذا التأثُّر من قبَل خلف الله ـ مع الغرض الجدلي على حدوثه ـ يتَّفق مع حملته عليهم في البدايات الأولى للرسالة أو الأطروحة أو الكتاب؟

دخل عنصر الحوار القصة إثر إقبال البعض على اعتناق الدين الجديد وموضوعه هو

موضوعات الدعوة الإسلامية مثل الوحدانية والبعث وأيضاً الدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن ولا بد للحوار من أشخاص وبذلك ظهرت أسماء الرسل التي تغدو أشبه بالرموز التي تحدد خط سير الحوار وغرضه ومرماه. وسبق تعيين أطراف الحوار فمرة بين الرسل ومَن أرسلوا إليهم وتارة بين المستكبرين والمستضعفين... إلخ. وهنا يرصد الباحث بعض الظواهر من الآيات التي جاء بها كبرهان على رأيه:

١ـ تعددت العناصر فنجد الموضوعات، الأحداث، الحوار، الأشخاص بيد أن الأخير هو أقلها بروزاً.

٢ـ تميُّز العناصر وإتخاذ كل واحد منها طابعاً خاصاً وأخذ يورد أمثلة على ذلك.

٣ـ إبعاد الأسلوب عن السجع وبدء إسترساله واقترابه من الأسلوب القصصي الشبيه بأسلوب التخاطب.

٤ـ شعور مَن يقرأ القصة بوجود شخصية تختفي وراء ما أبهم من أسماء وأن الحوار دائر حول الموضوعات التي تهم هذه الشخصية.

وفي إبان تألُّم النبي عليه السلام وإحساسه بالضيق الشديد من عداوة قومه له، تلك العداوة التي تبلغ حد التهديد بالتغريب أو التصفية الجثمانية ينزل القصص ليصوِّر هذا كله بقصد إذهاب ما ألمَّ بنفس النبي من ضيق وعنت.

هنا في هذا الدور أو الطور طفقت الشخصية في القصة القرآنية تتميز بعواطفها الخاصة بها وبأحداثها التاريخية وبتكامل بنائها واستقرار حوارها وظهور آثاره الفنية في توضيح الفكرة وما تستثيره من عواطف وإنفعالات ذات تأثير في مجرى الأحداث وحياة الأشخاص وأطيب مثَل على ذلك قصة يوسف وهنا ينجز خلف الله وعده الذي وعد القارىء به في الفصل السابق وقدَّمه بالمشيئة (إن شاء الله) ويعرض القصة عرضاً جيداً استغرق عدة صفحات لكي ينتهي إلى القول بأن قصة يوسف من القصص الفني المحكم البناء وأنها جمعت كل العناصر القصصية التي توزَّعتها القصص المختلفة في القرآن وهو بذلك يعتبرها قمة تطوُّر القص المكي.

أما في الدور المدني فالباحث يرى أن القارىء لقصص هذا الدور يحس أنها غدت

معرض صور وآراء وأنها تخلو من المقدمات والنتائج وأنها تركيز على الأحداث وتصويرها بهيأة تهز النفوس وتستثير العواطف أما الآراء فهي تُذكر لكي تحتل مكانها من القلب وفي طوايا الفؤاد.

ولكن ما الذي ترسمه قصص هذا الدور؟

الصراع بين النبي ـ عليه السلام ـ وأهل الكتاب ونضيف أن هذا أمر طبيعي لوجود اليهود بكثافة في أثرب وكذا ما نزل باليهود من مكر وكيد وما أنزله بهم فرعون من عذاب وأيضاً الجدل الذي دار حول عيسى بين النبي عليه السلام وأهل الكتاب وأنه ابن مريم وليس ابن الله وأنه لم يُصلب ولم يُقتل ولكن شُبِّه لهم. ونحن نضيف بأننا في هذه الفقرة نذكِّر بما دار من حوار بين محمد وبين رؤساء وفد نصارى نجران الذي أوشك أن يؤدي إلى المباهلة لولا تراجع الأخيرين عنها خوفاً من حلول لعنة السماء بهم وبداهة دار الجدل العنيف حول المسيح ومما يؤسَف له أن كتب السيرة لم تدوِّن تلك المحاورات وبذلك ضاعت ثروة فكرية دينية شديدة الثمانة بل لا تقدَّر قيمتها ويرى الباحث أن خير ما يمثل تلك الألوان قصة موسى عليه السلام في سورة البقرة وقصة عيسى عليه السلام في سورة آل عمران.

وقبل ختام هذا الفصل يذكر أنه لاحظ وجود قصص في هذا الطور تصوِّر أحداثاً إنما ليس بقصد إستثارة الإنفعالات والعواطف خاصة التي تُرعب إنما تصوِّر الأحداث كأنها التجارب البشرية التي أخذت مكانها في الحياة وكان القصد هو إستقرار الفكرة في النفوس وإزالة الغرابة التي تحسها العقول أما موضوعاتها فأكثرها دار حول البعث مثل قصة إبراهيم والطير والذي مرَّ على قرية خاوية على عروشها والقصتان وردتا في سورة البقرة.

إن الفقرة الأخيرة التي أوردها خلف الله تُعتبر لمحة سريعة بل خاطفة لبيان إختلاف قصص الطورَين المكي والمدني وتمايز أو تباين أسلوبهما وهي فقرة سريعة هرول فيها هرولة ظاهرة على هذه النقطة بالغة الخطورة والتي سبق أن أوردنا بشأنها رأي عدد من الدارسين أو الباحثين ومنهم مستشرقون وكان حرياً بالمؤلف ألا يفعل ذلك، وأن يوفي هذه النقطة ما تستحقه من بحث وتنقيب وأن يعرج على ذلك الرأي الذي أوردناه وأن يصعِّب عليه إما بالتأييد أو التفنيد وفي كلتا الحالتين كان يتعين عليه أن يأتي بحججه. وهو إذ لم يفعل شيئاً من ذلك فإن هذا في رأينا قد خدش القيمة العلمية للأطروحة أو الكتاب.

نفسية الرسول وقصص القرآن

أخيراً يصل خلف الله إلى الفصل الخاتم أو السابع وهو: نفسية الرسول وقصص القرآن ويبدأه بتبيين عدد من الحقائق لتساعد في الحديث عن النفسية:

١ـ وحدة الأديان أو تشابهها في كثير من العناصر أي عناصر الدعوات ويأتي في مقدمها وحدانية الله ومحاربة الوثنية.

٢ـ المشابهة التامة بين حالة النبي عليه السلام وأحوال غيره من المرسلين من حيث الإختيار والإصطفاء ونزول الوحي وعمومية الرسالة.

٣ـ تشابه الآيات العديدة التي تصوِّر مواقف الأمم من رسلها.

إذن الجو القصصي الممثل لهذه الحقائق يعكس أيضاً نفسية كل رسول من حيث الجانب الفكري فيما يدعو إليه من آراء ومعتقدات ويمثلها من حيث الجانب الإجتماعي وجود القادة والعظماء والرسل وهذه العبارة وخاصة في الشطر الأول منها نوع من التوليف أو التلفيق فكيف يتَّسق أن يقال إن نفسية الرسول لها جانب فكري يتضح فيما يدعو إليه من آراء ومعتقدات. إذ من المعلوم أن الجزء النفسي من الإنسان والرسول إنسان بشر ينضوي على الأحاسيس، المشاعر، العواطف، الإنفعالات، التوتُّرات، ولم يدَّع أحد قبل خلف الله أن هذا الجزء له جانب فكري ويختص بالآراء والمعتقدات. ثم يمضي المؤلف فيقول: إن محمداً عليه السلام كان واحداً من أولئك المرسلين إذن الجو الفكري والإجتماعي في قص القرآن يمثله.

وينتقل إلى العلة من وراء إختيار أحداث معينة حصراً وتحديداً من حياة بعض الرسل ويورد عدداً من الآيات إحداها تتكلم عن تثبيت الفؤاد وأخرى من أجل التفكُّر ويعقِّب بعدها بأن الإختيار كان مقصوداً ثم يحدد القصة بأنه التنفيس والإفاضة عن النبي عليه السلام وخدمة دعوة الإسلام وفي إعتقادنا أنه تحديد تعسُّفي لا مسوّغ له ولا برهان عليه وأنه حجّر وسيعاً وضيّق رحيباً وقيّد طليقاً دونما سند من نقل أو عقل وبغير أساس من نص أو منطق. ويضاعف المؤلف من إضطراب الرأي الذي يطرحه من هذه الخصوصية فيقول إن القص القرآني الذي تتفاوت فيه حيوات الرسل ويمضي فيه كل نوع من الأحداث

يوائم ظروفه ويتفق وطبيعة دعوته وأحوال بيئته كل هذا يمثل نفسية النبي عليه السلام التي هي العامل الأول في الإختيار... كيف؟

كيف تشكّل الأحداث المختلفة والظروف المتباينة والبيئات المغايرة والدعوات المتعددة للرسل الذين يتفاصلون في العمر والمزاج النفسي والتكوين العقلي والإتجاه الفكري والمحمول العاطفي والبنية الجسدية والملكات والقدرات والمواهب. كيف تشكّل جميعها تمثيلاً لنفسية محمد؟

إن المؤلف أقدم على طرح هذا الخليط المتنافر والمجموع المتشاكس والمزيج المتعاكس بهدف يتيم سبق لنا أن فنّدناه وهو أن القصص القرآني إنما يمثل النفسية المحمدية وأنها هي العلة الرئيسة والباعث الحثيث والدافع المُلح والسبب الفريد والعامل الأول في إختيار ما حملته قصص القرآن من أحداث ووقائع ومواقف ومشاهد وحوارات إلخ.

يلفت المؤلف النظر إلى ضرورة تذكّر أن الفروق التي تميّز شخصية رسول عن آخر إنما تقوم على الأحداث المعروضة لكل منهم فمثلاً في حق إبراهيم تقوم على إلقائه في النار وعند يونس إلتقام الحوت إياه، وبالنسبة لعيسى - عليه السلام - إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ولدى نوح الطوفان، وصالح له الناقة التي لها شرب يوم معلوم. ولعلنا ذكرنا ذلك فيما سبق ومن ثم يغدو ذِكر خلف الله له جاء من قبيل الإستدراك الناتج عن معاودة النظر وإمعان التفكير وتقليب الرأي، ونحن نحمد له ذلك ونعتبره نقطة إيجابية فهذا من سمات العلماء.

ويستأنف كلامه: إنه يتعين علينا أن نعرّي هذا القصص القرآني من الوقائع الخاصة إذا أردنا أن تبقى لنا الوقائع العامة التي ثم إختيارها عدة مرات وهي التي نلمس فيها صورة النفس المحمدية بيد أن هذا لا يعني تقليل قيمة الأحداث الخاصة من حيث عملية الإفاضة أو الإيحاء إذ أنه لدى عرضها قد تسري عن نفس النبي عليه السلام ومن جانبنا نضيف أن إلقاء إبراهيم في النار وإلتقام الحوت ليونس ثم نجاتهما لا مشاحة أن يسرّي عن محمد وينفحه مزيداً من العزم على المضي في تبليغ دعوته. إنما - على حد قول المؤلف - لا تعدوها

إلى ما يحدث وراءها من آراء وأفكار وعواطف. ويذهب إلى أنه بعد إنجاز عمليات التعرية وبعد إستبعاد العموميات الممثلة لنفسية كل رسول لما تنضوي عليه من وحدة أو حتى تشابه نستطيع أن نلحظ الآتي:

١ـ هناك قصص مختلفة توزَّعت عدداً من عناصر دعوة الإسلام والتصقت برسل معينين يمتازون بها مثل قصص شعيب اختصَّت بتطفيف المكيال وبخس الناس أشياءهم وذلك عند ورودها في كل موطن أما قصة لوط فقد التزمت الحديث عن إتيان الذكور. ويذهب إلى أن القصة التي تصوِّر فكرة إغتيال النبي محمد عليه السلام هي قصة صالح في النمل وأنها تصوِّر أحوال النبي مع قومه. وألحق بها قصص موسى وعلى سبيل المثل المقطع الذي ورد في سورة غافر.

وهنا يعود خلف الله إلى ما أسميناه قبل ذلك التمحُّل فهو يرى أن الرجل الذي جاء إلى موسى وأخبره بإئتمار القوم به لقتله يشبه حال محمد عليه السلام... لماذا؟

لأنه علم بمؤامرة إغتياله ولا شك أن المؤلف قد أجرى عملية إسقاط دون سند ففرَّق بين حضور مَن أخبر موسى بالمؤامرة وتخمين أو حدْس محمد بها ويرى الباحث أن الآيات التي أوردها تقطع بأن القرآن صرَّح بعلم محمد بمؤامرة المكيين وهو رأي لم يسبقه إليه أحد ويؤكد أن قصص صالح وموسى هي تفسير لتلك المؤامرة وهذا مذهب انفرد به خلف الله. ولعل عدم وجود تأريخ دقيق أو غير دقيق لنزول الآيات والسور وعلى الأخص في الفترة المكية هو الذي أعطى الباحث راحته في طرح مثل هذه الآراء المُعجبة.

ويرى أن الأمرين اللذين تراهما في كل قصة وان تميّز بهما رسول بالذات فهما:

الأول: عبادة غير الله سواء في ذلك الكواكب والأوثان أو الأرواح الخفية. بيد أن إبراهيم هو الذي تميَّز من بين المرسلين بنفي عبادة غير الله وتحطيم الأوثان.

الآخر: تكرار عرض مواقف المستكبرين من الرسل والأنبياء أو من الأراذل والفقراء والمستضعفين بيد أن أبرزهما: إبليس وفرعون.

٢ـ تساوي الشخصيات في تمثيل نفسية النبي عليه السلام لدرجة أنك ما أن

تلحظ الصورة حتى تحس لساعتها كأنها صورته بل وكأن الحوار القائم والأحداث البارزة هي ذاتها التي تلم به أو تقع بينه وبين مَن يدعوهم إلى دينه. وسيكتفي بمثال واحد اختاره من شخصية نوح ثم أورد آيات من القرآن من قصص نوح المختلفة ويذهب إلى أن القرآن أراد أن يعقد بينها وبين النبي محمد صلات. ثم يلفت الذهن إلى أشياء هي:

أ ـ الدعوة في السر والعلن وفي الليل والنهار وتصوير مواقف المعارضين المناوئين للدعوة.

ب ـ عوامل الترغيب لإعتناق الديانة الجديدة هي ذاتها.

ج ـ المعارضون الأغنياء الذين يستخدمون أموالهم لصد الناس عن الدعوة الجديدة ويطلبون إبقاء دين الوثنية الذي اعتنقه الآباء والجدود.

د ـ الضيق بالقوم والإستسلام لله الذي يتوزّع النفسية لدى كل من الرسولين.

أما القصص التي استهدفت التنفيس فأبرز مثَل عليها قصص هود التي سبقها الحديث عن حالة محمد عليه السلام النفسية وكيف كان يضيق صدره بالمعارضة والمعارضين حتى إنه ليهم بترك الدعوى بسبب إدعائهم افتراءه على الله كذباً.

وبعد هذه الفقرة التي يمكن أن نسميها فقرة إعتراضية يعود الباحث إلى إستعراض قصص نوح في ما تبقى من سور وآيات لم يذكرها قبلها. أما قصص الصافات والأنبياء فهي تتحدث عن نصر الله لأنبيائه وتلك قاعدة عامة أو ناموس نفسي يحدث لكل نبي وفي كل زمان.

ويدل هذا المقطع من الرسالة أو الكتاب على صبر خلف الله في الحفر والتنقير فهو قد تتبع قصص نوح في كافة السور التي وردت بها وعقب إثباتها يتولى الشرح وسواء وافقته على الفكرة التي يطرحها أم خالفته فيها فلا يسعك إلا أن تقدّر له هذا الجهد.

ثم يضيف أنه من الممكن أن نفعل ذلك في قصص كل نبي نحذف منه الوقائع المعروفة فلن نجد بعدها إلا نفسية محمد عليه السلام.

ثم يختم هذا الفصل أو الخاتم أو السابع بأن هناك أمراً آخر يبيّن الصلة ونفسية النبي عليه السلام هو أن النبي الذي كان يلقيه أي أنه كان يعبّر بصوته عما يصوّره النص من

معانٍ ويحمله اللفظ من أحاسيس وعواطف. وأن القصص القرآني يمثّل نفسية النبي في أدق مراحلها وفي أعنف صورها وليس ثمة حاجة بعد ما قدّمه من شرح إلى أي دليل وبرهان.

ونحن بدورنا لا نريد أن نكرّر ما طرحناه من تفنيد لهذه الفكرة وهي أن القصص القرآني مثل نفسية محمد، ونأمل ألا يفهم من إعتراضنا أن القصص القرآنية لم تمثل نفسية محمد بل هي مثّلتها في كثير من الجوانب بيد أنها لم تقتصر على تمثيلها فحسب بل هي شملت على جوانب أخرى. ويحق لنا أن نسأل خلف الله أن نفسية محمد خاصة عندما نزح إلى أثرب لها جوانب متعددة: فهو قائد عسكري قاد بنفسه العديد من الغزوات وكان على رأسها واشترك إشتراكاً فعلياً في بعضها وانتصر في كثير منها ولم يكن النصر نصيبه في عدد محدود منها، فليدلنا المؤلف على القصص القرآني الذي يمثل نفسية محمد في هذه الحالات المتباينة.

نحن نعلم أنه نزلت سور وآيات بشأن غزوات مثل بدر الكبرى وأحد وحنين ولكن هذه ليست قصصاً. وكانت هناك أقوال فلوت وأحاديث خارجة وألفاظ بذيئة في حق محمد صدرت من أمثال كعب بن الأشرف وأبي عفك وأم فروة حتى إنه اضطر لإنتداب فرق خاصة لتصفيتهم جسدياً وفي بعض الأحيان مثل أم فروة كانت صورة التصفية بالغة العنف مما يدل على شناعة الجرم الذي ارتكبته تلك المرأة التي كان يُضرَب بها المثل في المَنَعَة فيقال: أعزمن أم فروة... فأين هي القصص التي حاولت تصوير نفسية محمد إزاء أولئك المتقوّلين؟

وفي بيوت محمد التسعة كانت تحدث من زوجاته أمور ضرائرية يضيق بها صدره فأي قصة من قص القرآن رسمت حالتة النفسية إزاءها؟

والأزمة النفسية التي مرَّ بها محمد من حديث الإفك والخائضين فيه سواء من المنافقين أو المسلمين وللأسف من بينهم بعض الصحابة وأحدهم بدري (شهد بدراً الكبرى) تلك الأزمة أشهر من أن نذكرها فهل وردت بشأنها قصة ـ نحن نعلم أن آيات نزلت فيها ولكن هذه شيء والقصص شيء آخر ـ وخيانة عضل والقارة من الهون بن خزيمة بن مدركة وقتلهم لستة من قرّاء الصحابة يوم الرجيع وحزن محمد عليهم ودعاؤه

في الصلوات على عضل والقارة هل نزلت بشأنها قصص قرآنية تمثّل نفسية محمد إبانها أو تسرِّي عنه؟

وأخيراً تحالف الأحزاب عليه وخيانة اليهود له في غزوة الخندق التي وصفتها السيدة أم سلمة إحدى زوجات محمد التسع أنها كانت من أشد الغزوات وأقساها وآيات القرآن بشأنها تؤيد ذلك وتؤكده وتوثقه فهل هناك قصة وردت بشأنها تمثّل نفسية محمد ومعاصريه ومرة أخرى نحن نفرّق بين الآيات والقصص وخلف الله لم يقل إن آيات القرآن تمثّل نفسية محمد وإنما ادّعى إن القصص القرآني أشبه بمرآة انعكست عليها نفسية محمد ومعاصريه... وهذا ما خالفناه فيه.

ونكتفي بهذه الأمثلة من سيرة محمد نقدّمها كأدلة وبراهين وحجج دوامغ لدحض الفكرة التي طرحها خلف الله ولإثبات أنها ليست صحيحة حتى لو أنه قصرها على الفترة المكية فنحن نرى أنها لم تكن دقيقة وإن كانت تنضوي على قدر لا بأس به من الصحة فهناك العديد من وقائع السيرة المحمدية في الحقبة المكية من التعسّف البالغ القول بأن القصص القرآني قد مثّلها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: هجرة أو نزوح بعض المسلمين الأول إلى الحبشة وترحيب النجاشي بهم ومحاولة قريش تهييجه عليهم، الإسراء والمعراج، لقاء اليثاربة بمحمد في العقبتين الأولى والثانية. إذن كان يتعين على خلف الله وهو يقدّم أطروحة جامعية أو رسالة أكاديمية أو كتاباً علمياً أن يتحرّى الدقة والموضوعية وأن يذكر أن بعض القصص القرآني قد مثّل نفسية محمد ومعاصريه في عدد من المواقف والحالات.

رسالة الفن القصصي في القرآن

في خاتمة الكتاب يذهب خلف الله إلى أن رسالة الفن القصصي في القرآن الكريم لها هدفان:

الأول: درس أدبي أو بلاغي فني للقصة القرآنية يكشف عن بعض أسرار الإعجاز إذ هو يبيّن مذهب القرآن الكريم في بناء القصة وألوانها: تاريخية وتمثيلية وأسطورية ويوضح كيف فهم القدماء كل لون وكيف فسّروه وإلى أين انتهى بهم الفهم والتفسير ويبيّن طريقة

توزيع العناصر القصصية أي هندسة القصة وكيف أنه (التوزيع) اتَّبع الظروف والمناسبات وتأثَّر لحد كبير بتدرُّج الدعوة الإسلامية وترقِّيها وكذلك كشف عن مذهب القرآن الكريم في رسم الأشخاص والأحداث وإدارة الحوار وكيف جعل عنصراً واحداً من الأحداث والأشخاص محوراً دارت حوله أكثر القصص.

وكذلك كشف عن العوامل النفسية التي كان يقيم عليها القرآن أسس الإستهواء وعن النواميس الإجتماعية التي كان يُرجع إليها القرآن السبب في قوة الدعوة الإسلامية وفي صحتها وسلامتها.

الآخر: الإنتهاء من الدرس إلى قاعدة أو نظرية فسَّرت مواقف الكفرة والمشركين من القصص القرآني وحلَّت المشكلات العديدة التي وقف عندها المفسّرون ثم ردَّت إعتراضات المستشرقين وأضرابهم من الزنادقة والملاحدة وكل طاعن على النبي والقرآن.

يتأسس تفسير المشركين على ما قال به الرازي والنيسابوري عندما فسَّر كل منهما الآية الكريمة ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾[1] من سورة يونس وهو الذي يتمحور على التقرير بأنهم حبسوا نظرهم في هيكل القصة وجسم الحكاية وبذلك عجزوا عن رؤية الجوهر: التوجيهات الدينية والخلقية والأسس النفسية والنواميس الإجتماعية ولو أنهم التفتوا إليها ولم يقفوا عند الأحداث والأخبار من حيث هي تاريخ لما عارضوا القرآن بالقصص التاريخي ولما ادَّعوا أنه أساطير الأولين ولأدركوا أن القص القرآني لم يؤم إلا إلى التوجيهات الدينية والخلقية وتقرير دعوة الإسلام وابتناء هذا التقرير على الأسس النفسية والنواميس الإجتماعية وآنذاك كانوا سوف يُقرُّون حتماً بأنه وحي أنزله الحكيم المجيد.

إن حل المشكلات التي اعترضت المفسِّرين يقوم على المذهب الذي لفت الذهن إليه الأستاذ الإمام محمد عبده عندما فسَّر قصص آدم وهاروت وماروت التي حملتها سورة البقرة والذي يقرِّر أن القصص القرآني يصح فهمه بلاغياً ولا يجوز فهمه فهماً تاريخياً كما كان يفعل المؤرخون في العديد من المواقف وبه يحلون المشكلات مثل

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

تفسيرهم بـ: قصة داوود والملكَين من سورة صاد، وقول اليهود عن عيسى إنه رسول الله إلخ.

أما الرد على الملاحدة والزنادقة والمستشرقين والمبشِّرين فيتأسس على أن القرآن الكريم أقام بناء قصصه على ما كان يعتقده المخاطَب وما تتصوَّره الجماعة من مسائل التأريخ لأنه كان يهدف إلى الهِداية والإرشاد والعظة والعبرة إنما أبداً لم يقصد إلى تعليم التاريخ أو نشر وثائقه بأي حال من الأحوال.

وهذا المذهب الذي جرى عليه القرآن هو مذهب أدبي مقرَّر ومعروف في جميع اللغات ودرج عليه كل الأدباء وقد التفت إليه كثير من المفسِّرين وقال به بعض الأقدمين منهم مَن نقل آراءهم الطبري ساعة تفسيره قصة أصحاب الكهف وذهب إليه الشيخ محمد عبده عند تناوله لقصة هاروت وماروت، وأخذ به علماء البلاغة عند إكتفائهم باللزوم العُرفي أي بالعُرف والعادة، وإعتقاد المخاطَب في مسائل البيان، ولم يتطلبوا اللزوم العقلي أي الحق والواقع.

ويستطرد المؤلف قائلاً:

إن مذهب القرآن القصصي ردٌّ على أولئك جميعهم إعتراضاتهم التي محوروها على أس المخالفات التاريخية يعني مخالفات القصص القرآني لما أثبتته الكشوف التاريخية وما وثَّقه المؤرخون غير المسلمين، وهو أس لا يتواءم مع العُرف الأدبي (الذي تفانى الباحث في شرحه وتوضيحه)، فالذي يعيب القاص هو المخالفة التاريخية التي تنم عن جهله بالتأريخ: مسائله وقضاياه، أما الصادرة عن مذهب أدبي يتمحور عن تصوير إعتقاد المخاطبين لإتخاذه تكأة إلى ما خلفه فهذا لا يقدح فيه خاصة إذا تأخر الكشف التاريخي عنه بعدة قرون. تلك المخالفات مع فرض ثبوتها فهي مخالفات لما كانت تعرفه البيئة من تاريخ وهي لا تضير القرآن في شيء لأنه ما قصد إلى التاريخ او تعليمه للناس أو نشر وثائقه.

ثم ينهي خلف الله رسالته أو كتابه بقوله إن رأيه الذي طرحه للقارىء أن يوافقه عليه أو يخالفه وبينما الآية الكريمة ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتَّبعني وسبحان الله**﴾[1].

(١) سورة **يوسف**، الآية ١٠٨.

وبعد.

فقد كانت رحلة مضنية ـ أجهدتني أيما إجهاد ـ خاصة وأنها جاءت أو حدثت في شهري يوليو وأغسطس من العام ١٩٩٨ اللذين هبّت فيهما الموجة الحارة التي قالت عنها وسائط الإعلام إن مصرنا المحروسة لم تشهد لها مثيلاً منذ قرن وعشر سنوات.

وكان من أهم بواعث العناء أن انتابني إحساسان:

العلاقة التي ربطتني بالمؤلف والحرص على قول الحق أو بمعنى أدق وحتى لا يفهم أن ما أقوله هو الحق وبذلك يضاف إسمي إلى قائمة مَن يدَّعون أنهم يملكون الحقيقة المطلقة... بمعنى أدق: ما أراه أنه حق أو صواب تعقيباً على رأي ذهب إليه المؤلف أرى فيه رأياً مخالفاً، بيد أنني أظن أن هذا التصويب من جانبي لبعض ما اعتقدت أنه خطأ أو جنوح أو غُلو أو شطط ينال من تقديري للباحث جرياً وراء القالة المشهورة: الإختلاف في الرأي لا يُفسد للود قضية.

في أثناء تحليلنا للمقدمة نوَّهنا بالجرأة الفكرية والشجاعة الأدبية اللتين تحلَّى بهما خلف الله وهو يعرض أفكاره في هذه الرسالة أو الكتاب تلك الأفكار التي أثارت عليه العديد من المعارضين والتي أحدثت تلك العاصفة والتي انتهت إلى ما انتهت إليه. كذلك أشرنا إلى ما أضمره المؤلف وما دسَّه لا في السطور فحسب بل ما بينها وترك فهمه وإدراكه لفطانة القارىء ولقانته كما ألمعنا إلى ما سكت عنه وأحاله إلى ذكاء مَن يطالع الكتاب.

وقلنا إن في العديد من المواضع مرافعة موضوعية رصينة عن القرآن صدَّت مزاعم عدد من المستشرقين وإن عبنا عليه تعميم حكمه على جميع المستشرقين وأوضحنا أن ما طرحه يُعتبر دفاعاً عن القرآن عجز عن طرحه عدد من القدامى سواء كانوا من المفسِّرين أو البلاغيين وإن توصَّل بعضهم إلى طرف منه ولكنه (البعض) لم يُكمل الشوط وتوقَّف عند بدايته فجاء الباحث واضطلع بذلك باقتدار وكفاية ولا نريد أن نكرر ذلك أو بعضاً منه دفعاً للإملال.

كذلك في ثنايا التحليل رفعنا الستار عما اعتقدنا أن خلف الله لم يحالفه التوفيق

فيه وأثبتنا ما نرى أنه صواب ولم نزعم أنه الحق المطلق ونتبنَّى ما كان يقوله أئمة السلف: نحن نذهب إلى أن رأينا هذا صحيح فإن جاء أحد بدليل ينقضه قبلناه على العين والراس.

بقي أن نبدي بعض الملاحظات التي نرى أنها لا تقلل من قيمة الرسالة/الأطروحة/ الكتاب إنما لو خلت منها لضاعف ذلك من ثمانتها ورفع مرتبتها وسما بمكانتها:

ـ التكرار: إن القارىء يدرك أن المؤلف عمد إلى التكرار الذي من الجائز أن نسطر أنه بلغ تخوم الإملال وحوَّم حول حدود الزهِق، لم يقتصر على الأفكار والآراء بل تعدّاه إلى الأُمثلة التي في غالبيتها آيات من القرآن. ونحن نُرجع ذلك إلى أمرين:

ـ محاولة خلف الله تأكيد وتثبيت الفكرة الأم التي يتمحور عليها الكتاب أو الرسالة وإضفاء مزيد من المصداقية عليها ومنحها قدراً إضافياً من الحُجَّة وزخماً زائداً من البرهان، هذا من زاوية الفكرة. أما من منظور الأمثلة فقد اضطر للإستعانة بها هي بذاتها نعني بها الآيات لأن القرآن لا يضم سواها كأدلة ثبوت على صحة الفكرة أو النظرية التي يقول بها الباحث وهذا بدوره يجرّنا إلى الأمر الآخر وهو:

ـ أن الفكرة أو للنظرية ضيقة المساحة صغيرة الحجم وقد تراءى للمؤلف أن تكريرها هي وشواهدها يوسّعها ويضخّم جرمها. وهذا مسلك قد يفتح باب عدم الوفاق معه لأنه في مجال الآراء والنظريات العبرة بالكم ولا الكيف، وربما يعاضد على تقريب المعنى الذي نهدف إليه: قولة العرب: ترى الرجل الضئيل فتزدريه ويُخلِف ظنك الرجل الطرير (الفخم المفخّم الطويل العريض... إلخ).

ـ رغم أن الرسالة/الأطروحة مقدَّمة في الأصل إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب وفي موضوع فني بلاغي أدبي وتتحدث عن إعجاز القرآن في فن القص وسرده وبنائه والتوليف بين عناصره وحبكة حواراته المتعددة المتنوعة وروعة المواقف وتناغُم العناصر إلخ.

نقول رغم ذلك فإن أسلوب خلف الله فيها كان أبعد ما يكون عن البلاغة والفن والأدب وحُسن السبْك ونصاعة البيان وطلاوة الطرح. بل جاء على النقيض وأتى على العكس تقريرياً وجافاً أشبه بالتقارير العلمية في غير مجالات الأدب والبلاغة والنثر الفني ولا أدل على ذلك من أنه كان يكرّر اللفظة الواحدة لا في الصفحة الواحدة ولا في المقطع

الواحد ولا في الفقرة الواحدة بل في الجملة الواحدة يكرّرها عدة مرات وهذا يقطع بهُزال محصوله اللغوي وضآلة مخزونه المُعجَمي ولو كان الأمر على خلاف ذلك لاستخدم المترادفات من الألفاظ والبدائل من الكلمات التي تؤدي المعنى ذاته وتوصل المدلول نفسه وبذلك تُضفي على الأسلوب قدراً من الحيوية ومزيداً من النضارة لا يشعر معه المطالع بالسأم ولا يحس معه القارىء بالضجر ونحن ننتهز هذه الفرصة فننصح البُحّاث والكتّاب والمؤلِّفين أن تكون عيونهم دائماً على القواميس والمعاجم وكتب اللغة لإثراء حصيلتِهم اللغوية ومدّهم بكنز ثمين من المخزون اللساني الذي يعينهم على تسطير كتابتهم بهيئة تسري في عروقها الدماء الحارة.

ونأمل ألا يُفهم من هذا أننا ندعو إلى العودة إلى السجع والمحسّنات اللفظية الجوفاء. كذلك فإنه لا يُضير أطروحة أكاديمية أو رسالة جامعية أن تحرَّر بأسلوب أدبي مشرق وعبارات فنية وتراكيب بلاغية ناضرة خاصة إذا كان موضوعها من ذات النسق بل نحن نرى أن الباحث إن نهج هذا النهج فإنه يضاعف من قيمة رسالته. ونرجِّح أنه من ضحالة الرأي وضيق الأفق وفُسولة التفكير أن يُدَّعى أن جفاف العرض وتقريرية الأسلوب وخشونة السياق قرائن على العِلْمية أو الموضوعية بالأخص في الرسائل التي تتمترس على البلاغة والفن والأدب!

ـ ووقع في أخطاء علمية كنا نرجو أن تتنزَّه عنها رسالته الجامعية: فهو قد خلط بين الكُهّان والكهنة فقال إن الجاهليين (!!!) كانوا يعتقدون أن الجن تسترق السمع من السماء وتنقل الأخبار إلى الكهنة والصحيح إلى الكُهّان الذين كانوا يمارسون العُمالات الدينية قبل ظهور محمد أما الكهنة فهم صنف من رجال الدين المسيحي.

ـ واستعمل كلمة (البيئة) الإستعمال الدارج لا العلمي المنضبط ومن ثم ما هي بينها وبين (المجتمع) واستخدم كلاً منهما مكان الآخرى لأنه في الإستعمال الدارج أو العلمي: (البيئة) تعني المجتمع.

ـ وساوى بين (المعاني الإجتماعية) و (القيَم الإجتماعية) وهذا غير صحيح فالمعاني الإجتماعية تعني مدلولات الأنساق الإجتماعية ومن ثم فهي تتَّسم بالشمول وتتَّصف

بالعمومية وتتزمّل بالإتساع أما القيم الإجتماعية فهي المبادىء التي يتواضع مجتمع معيَّن على التمسُّك بها لكي تمنحه قدراً من الترابط وشطراً من التعاضد وكماً من التشابك ومَن يخرج عليها أو يستهتر بها أو حتى يزدريها يلاقي جزاءً إجتماعياً يتراوح بين الإستهجان والمقاطعة.

وبخلاف المعاني الإجتماعية تتصف القيم الإجتماعية بالخصوصية والمحدودية والمحلية ولو أن ذلك لا يمنع من إشتراك العديد من المجتمعات في بعض القيم.

ـ وخلط بين الظاهرة الإجتماعية والموقف الإجتماعي مع أن الفارق بينهما شديد الوضوح لا يحتاج إلى فطانة ولا يستدعي زكانة ولا يتطلب لقانة فالموقف شيمته التفرُّد وصفته التوحُّد وشارته الخصوصية في حين أن الظاهرة دثارها التكرار وإزارها التعدُّدية وشعارها كثافة الحدوث وسيماها كثرة الوقوع وهي لها من إسمها نصيب فهي قد تكرَّرت فاستبانت ووضحت أي ظهرت ومن ثم فهي ظاهرة.

ـ واستعمل ألفاظاً يشوبها الغموض وتكتنفها العتمة ويحوطها الضباب وتخاصم الوضوح وتبتعد عن التحديد وتفارق الدقة مثل العقل الإسلامي والعقلية الإسلامية. فهل هناك عقل إسلامي وعقل يهودي وعقل مسيحي وعقل بوذي؟

إن كلمتي (عقل إسلامي) و (عقلية إسلامية) يجوز أن تُكتبا في مقال لصحيفة سيارة أما أن تسطر في أطروحة جامعية فلا ولو أن خلف الله استخدم كلمة (الفكر الإسلامي) لأصاب كبد الحقيقة.

إنه بذلك ـ وربما بدون أن يدري ـ يجاري بل يؤيد غلاة المتعصبين من المستشرقين الذين يتحدثون عن العقلية الآرية أو الأوروبية الغربية في مقابل العقلية الساميَّة أو العربية أو الشرقية... أي أنه يدعو إلى العصبية ويُبشر بالعرقية.

ـ ويساوي بين النبي والرسول مع أن سلفه الصالح الذين طالما سار وراءهم وانضم إلى ركبهم وحمل رايتهم وتبع خطاهم واستظلَّ ببيرقهم ومشى تحت لوائهم فرقوا بين الرسول والنبي وقالوا إن الأول صاحب رسالة أو كتاب أو دعوة إلخ. بينما الآخر مليط من ذلك.

والوحيدون من بين السلف الذين ساووا بينهما هم المعتزلة أهل العدل والتوحيد

وفرسان العقل الحر الطليق. والذي أدركته من قراءتي لـ (الفن القصصي) أن صاحبه بينه وبينهم بون واسع وفرق شاسع ومسافة بعيدة فهو ينطلق من أرضية سلفية رغم ما طلع به علينا من أفكار جريئة وأطروحات شجاعة... ويخب في مضمار نصوصي ويضع في مجال نقلي ـ حقيقة أنه في العديد من المواضع أوشك على إقتحام البوابة الملكية للعقل الحر الطليق ولكنه أحجم عن الولوج وجاء في هذه المواضع وجمجم ولم يصرِّح وألمح ولم يصرّح وألغز ولم يكشف وسبق أن ذكرنا أن خلف الله أضاع فرصة عمره في أن يكون مقدِّم كتيبة المفكّرين الأحرار الذين ينقدون الجذور ويبحثون الأصول بحرية ويتناولون (النصوص) بعقل طليق لا سلطان عليه إلا سلطانه هو.

فإذا افترضنا أنه تبنّى فكرة المساواة بين الرسول والنبي جرياً وراء المعتزلة فلماذا اقتصر على هذه الخصوصية ولم يسر على نهجهم العقلاني ويسلك طريقهم الحر في الباقي؟

ـ وردَّد كثيراً عبارة (الجو العاطفي) وهي غير منضبطة علمياً وجملة شائعة تتردَّد على ألسنة العوام وكان حرياً بالباحث أن يعبِّر عن مدلولها بعبارة علمية.

ـ وقال إن القتل كان من نصيب زكريا وابنه يحيى. أما قتل يحيى فصحيح إذ تم على يد هيرودوس حاكم فلسطين عندما تمكّن من قلبه حب ابنة أخيه هيروديا فعزم على نكاحها فتصدَّى له المعمدان بكل جرأة وقال إنه زواج باطل ترفضه الشريعة فطلبت هيروديا رأس يحيى أو يوحنا مهراً لنكاحها فانصاع لها الحاكم الولهان وأمر بقطع رأس النبي ونفذ زبانيته ذلك وأتوا بالرأس على صينية فقدَّم إلى هيروديا المهر الذي اشترطته.

أما قتل زكريا الأب فليس له أصل في صحيح النصوص ـ وحتى وروده لدى عدد من المفسّرين لا يعطي الباحث الحق في أن يذكره بصيغة التأكيد والتوثيق بل بصيغة التمريض والتشكيك خاصة. وأن ذكر واقعة المعمدان كان يكفي كشاهد قوي فيما كان يذهبُ إليه في ذلك الموضع.

ـ عند ضربه الأمثال من قصص الأنبياء أو مواقفهم أو حواراتهم كان لا يلتزم بالترتيب التاريخي لأزمانهم فيذكر ـ وهذا على سبيل المثال ـ موسى قبل نوح وداوود قبل إبراهيم وعيسى قبل سليمان إلخ. وكان الأجدر به أن يلتزم تواريخ ظهورهم. ويقال دفعاً

لذلك أو رداً إنه كان يستشهد أو يتمثل بآيات قرآنية انضوت على قصص أولئك الأنبياء أو الرسل وهذا دفع فسيد ورد مدحوض. ذلك أنه مع ذِكر أسماء أولئك الأنبياء أو المرسلين في القصص المستشهد بها أو المضروب بها المثل فإن المنهج العلمي كان يلزم الباحث أن يراعي الترتيب التاريخي لا أن يذكر قصة المصلى (التالي) قبل السابق وحكاية الأول عقب الآخر إلخ. وقال إن الآلهة تُعبد إتقاء غضبها أو رجاء خيرها وهذا تحجير لنطاق العبادة وتحجيم لمجالها وتقزيم لمضمارها وتضييق لميدانها فالآلهة تعبد لهذين الهدفين ولغيرهما من المقاصد منها تحقيق الشوق النفسي إلى المُطْلق ومحاولة الإتحاد به والتماهي فيه ومنها الإعتراف بوجود قوة عليا خلقت هذا الكون وأرسته على أسس قوية ونواميس دقيقة لا بغية الإسترضاء أو الرغبة فحسب إلخ.

ـ وقال إن المعاصرين لمحمد أسندوا القدرة العظيمة والقوى الفائقة التي هي لله في الأصل وله وحده دون سواه أسندوها للأصنام التي عبدوها من دونه. ونحن نخالفه فيما ذهب إليه فأولئك المعاصرون لم يجعلوا الأصنام بديلاً عن الله ولم يُضفوا عليها صفاته ولم تكن عبادتهم لها لتحل محل الله بل كانت نظرتهم إليها على أنها وسيلة تقربهم إلى الله وواسطة وزُلفى إلخ. ففي معتقداتهم توجد مساحة لله إنما أبداً لم ينفوه أو يستبعدوه أو يجعلوا غيره ملائكة أو أصناماً أو أوثاناً (قائمقام) له. فهذا وهمٌ يقع فيه الكثيرون ويروّج له مَن يحاولون تسويد صفحة الفترة التي يطلقون عليها (الجاهلية!!!) وتسويء صورتها وتبشيع هيأتها وتحقير قدرها إلخ. ومن الغريب أن القرآن نفسه انضوى على كم من الآيات تؤكد إعتراف المعاصرين لمحمد بالله رباً بيد أن ما أخذه عليهم هو (الإشراك) الذي يتمثل في إتخاذ الملائكة أو الأوثان أو الأصنام سُلماً للوصول إليه. وكنا نأمل أن يفطن المؤلف إلى هذا الفرق الدقيق فلا يدّعي أن أولئك المعاصرين لمحمد نقلوا صفتي القدرة والقوة من الله إلى الأوثان والأصنام.

ـ وقال (إن القصص القرآني قد أهمل هذا الجزء الأخير...) وهي عبارة فيها إساءة أدب مع القرآن وقصصه وكان في مقدوره أن يقول: التفت عن هذا الجزء الأخير أو أعرض عنه أو أسقطه من حسابه أو تجاوز عنه أو تخطاه إلخ. وهذا يؤيد ما قلناه إن حصيلة الباحث المعجمية نحيفة وخزينه اللغوي أعجف وذخيرته اللسانية ضامرة.

ـ وقال إن لقصص القرآن طرق خاصة في تصوير (الأشياء الخلقية) وهي عبارة عامية تذكر بما يقوله العامة في أحاديثهم (حاجة زي كدة... أو الحاجات دي... إلخ). أما أن تسطَّر في أطروحة جامعية فهذا ما لا يجوز.

وما هي هذه (الأشياء الخُلُقية) فهل هي (المعاني الخُلُقية) أو هي (القيَم الخُلُقية) بمعنى آخر: هل هي ذات مدلول واحد أو تنفح مدلولات مختلفة. وإذا كانت تعطي معاني متباينة فلم يوضح لنا المؤلف أوجه التباين وإن كانت وحيدة المدلول فما الداعي لاستعمال كلمة حوشية أو على الأقل لفظة عامة؟

ـ وقال ثم تكون الفقرة التقليدية التي يختم بها القرآن قصصه في هذه السورة والقرآن فيه سور وآيات وفواصل وأجزاء وأرباع وأثمان ولم يقل أحد قبل خلف الله أن به فقرات ـ هذه واحدة – أما الأخرى فهي أوعر: ونعني بها وصف فقرة القرآن بأنها تقليدية فمَن الذي أو ما الذي يقلّده القرآن؟

إن عدم علم الباحث بأصل كلمة التقليد هو السبب في تردّيه في هذه السقطة:

فالذي يقلّد شخصاً في دينه أو ملته أو نحلته أو مذهبه فكأنما وضع دينه أو ملَّته أو نِحلته أو مذهبه في عنق مَن اتَّبعه أي مَن قلَّده فكيف يتصوَّر ذلك في القرآن؟

لو أن المؤلف يملك ثروة لغوية ولو بقدر معقول لقال: ثم تكون تلك الفقرة المعهودة أو المنتظَرة أو المتوقَّعة مِسك الختام الذي ينهي بها القرآن قصصه.

ـ خلط بين القاعدة والنظرية إذ جعلهما تمنحان مدلولاً واحداً وهذا خطأ فالقاعدة ولها من إسمها نصيب مستقرة وثابتة وتُطبَّق في جميع الأحوال أما النظرية وكما هو واضح فمشتقة من النظر فهي مجرد رأي ولا يمكن الأخذ بها في كل الحالات وتتميز بالذاتية وتحمل القسمات الشخصية بعكس القاعدة التي تتلبّس بالموضوعية. ومن الجائز أن تتحول النظرية إلى قاعدة بعد أن تضطرد وتستمر أي أن النظرية قاعدة في المدى الطويل أو قاعدة في طور النشوء والإرتقاء بيد أن هذا لا يجيز الخريقة بينهما ووضع إحداهما على قدم المساواة مع الأخرى.

ـ وقال إن الملك جاء مريم في زي البشر وهذا غلط والصحيح على هيئة البشر لأن الزي هو اللباس وملاك الرب روح القدس غبريال أو جبرائيل لم يأت الصديقة سيدة نساء العالمين في ملابس البشر فحسب بل في صورة إنسي: جسمه وملبسه إلخ.

ـ وقال إن القرآن يهمل الأسماء إهمالاً تاماً في القصص الذي يراد به التخويف ونسبة الإهمال في القرآن تصيب المسلم بقدر من التوتُّر ونصيب من الصدمة وشيء من الإنفعال الحاد وكم من السخط وحفنة من الغضب وكان حرياً بخلف الله أن يلتفت إلى ذلك ويختار عبارة تليق بمكانة القرآن السامية ومقامه الرفيع ودرجته العالية ورتبته السامقة كأن يقول:

إن القرآن أعرض عن الأسماء إعراضاً تاماً أو تجاوز عنها أو تخطاها أو التفت عنها أو نأى عنها... ونحن لا نخلي رصيده اللساني الضامر من المسؤولية.

ـ إن وصف حنة أم مريم وامرأة عمران لدى المسلمين وامرأة يواقيم عند أتباع عيسى، وصفها من قبَل خلف الله بـ (المرأة المتدينة) وهو ما يقابل وصفها بـ (البارة أمام الله) لدى المسيحيين فجائز أو مستساغ... أما أن ينعت نبي الله يوسف ابن نبي الله يعقوب سليل أبي الأنبياء إبراهيم بأنه متديِّن فهذا ما لم أستطع أن أحيط به فهماً.

ألا يُعَد هذا نزولاً بقدره وحطاً من شأنه وتهويناً لمستواه كما تقول عن أستاذ في الجامعة أنه معيد! وإذا لم يكن النبي متديناً فكيف اصطفاه الله للنبوة؟

وفي هذه النقطة لا أملك إلا أن أحيي خلف الله عندما وصف يوسف بأنه كان بادياً ونشأ في بيئة إجتماعية مغايرة للبيئة الحضرية التي وجد نفسه فيها بمصر.

ووجه التحية أن المؤلف ذكر ذلك من قبيل الجرأة الفكرية التي وضحت في عديد من المواضع في رسالته أو كتابه. وتبدّي يوسف هو الذي يدعونا إلى أن نتساءل كيف عيَّن ملك مصر هذا البادي على خزائن الأرض وكيف تسنَّى له أن يعلِّم المصريين أساتذة الدنيا في علم الزراعة والعريقين فيه والذين مارسوه ألوف السنين قبل مجيء يوسف إليهم ـ كيف

تسنَّى له أن يعلِّمهم بأن يلقي عليهم دروساً في كيفية حفظ وتخزين المحاصيل الغذائية ـ الحِنطة، الشعير، الذرة لكي ينتفعوا بها في سِني القحط؟

إن هذه الآيات في رأيي من (مُشكل القرآن) والحل الأمثل لها هو تأويلها تأويلاً عقلانياً يزيل هذا الإشكال ويرفع هذا اللبس بين النقل والعقل.

ـ وصوَّر ما دار بين يوسف وامرأة العزيز أنه صراع بين العقل والعاطفة وأضاف العقل إلى البادي ابن البادية: يوسف وهذا علامة على إتسامه بالغلط الفادح فإنه يناقض الوصف الذي أضفاه على ربيب البدو قبل قليل ولا ندري كيف سمح خلف الله لنفسه أن يضفي العقل على ذلك الفتى الذي نشأ في البادية وينزعه عن تلك السيدة التي عاشت حياتها بين جنبيات أرقى حضارة عرفها التاريخ حتى الآن، لقد كان الأصح أن ينعت ذلك بأنه صراع بين الغريزة الجنسية الملتهبة والشبق العارم والغُلمة المشبوبة من قبَل امرأة العزيز وبين الخوف الذي هيمن على الشاب المتبدِّي وشلَّ حركته وعطَّل حيويته وأبطَل مفعول غريزته وأوقف موجبات شبابه: الخوف من إرتكاب المعصية التي عقوبتها النار لأنه نبي من سلالة أنبياء ثم الخوف من سيده عزيز مصر صاحب المقام الرفيع الذي لو علم بخيانته له لأوقع به العذاب الأليم.

إذن هو صراع بين غريزة الجنس وعاطفة الخوف من العقابين الدنيوي والآخروي ولا دخل للعقل الذي يستحيل أن يتميز به البادي وتتجرد منه ابنة الحضارة العريقة.

وسيادة غريزة الجنس على زوجة أو امرأة العزيز لا يخليها من عقلها وسموّها الحضاري فنحن الآن نقرأ ونشاهد ونسمع في كل وسائط الإعلام (الميديا) العالمية والمحلية كيف ركبت هذه الغريزة رئيس أكبر دولة في المعمور ومن أرقاها حضارة وثقافة وعلماً ولا يجرؤ أحد أن يدَّعي أنه قد غدا مليطاً من العقل عرياً من الثقافة مفلساً من الحضارة وأن بدوياً في قفار الصحارى لا يمارس الجنس الجانح الفلوت خوفاً من (المسطورة) التي تحرمه وتنذر مَن يرتكبه بنيران الجحيم، هو الذي يتمتع بالعقل والحِجى!!!

وقد يعترض أحدهم فيدَّعي أن هذا قياس مع الفارق فزوجة العزيز امرأة ورئيس

الدولة إياه رجل ورغم أن هذا منظور ذكوري نرفضه فإننا نرد عليه بأن لكليوباطرة في تاريخها وقائع تدل على أنها كانت صاحبة مغامرات جنسية ولم يُقدِم واحد ممَّن أرخوا لها على تعريتها من العقل أو ينفي عنها الثقافة أو ينكر عليها الحضارة ويفضِّل عليها بدوية في بوادي الشام لمجرد أنها كانت لا تمارس إلا الجنس الحلال! ولا يفهم من ذلك أننا نمتدح الزناة سواء كانوا رجالاً أو نسوة فالزنا جريمة دينية وأخلاقية وإجتماعية ولكننا نرد على خلف الله لأنه رفع عن زوجة العزيز العقل لشروعها في إرتكاب عمل مهما كان محرَّماً فلا صلة له بالعقل. وأضاف لنا شيئاً، باعترافه لأن عاطفة الخوف من مس سقر وما أدراك ما سقر والرعب من صنوف العقاب الصارم في الدنيا قد أماتا في عروقه دوافع الفتوة وجففا نوازع الشباب.

ـ بقيت أخيراً هفوات لغوية كان أملنا أن تخلو منها الرسالة/الأطروحة (الكتاب) خاصة وأنها قُدِّمت إلى قسم اللغة العربية أي أنها لو كانت من نصيب قسم آخر مثل التاريخ أو الإجتماع لجاز الإغضاء عنها: فهو قد خلط بين القاص والقصاص وسبق أن ذكرنا ذلك وأدخل(ال) على غير فمثلاً الغير معقول والصحيح غير المعقول، كما لم يفرِّق في الإستعمال بين هذا وذلك فيستخدم ذلك للقريب وهذا للبعيد وهذا غلط والصحيح هو العكس. ويقول يُنفِّر الناس عنها والسديد منها، وعندما يتحدث عن أمرين فقط يقول الأول والثاني أو الأولى والثانية مثل الصورة الأولى والصورة الثانية والمسألة الأولى والمسألة الثانية والمعاني الأولى والثانية وهذا خطأ يقع فيه أغلب البحّاث والكُتّاب والصحيح أن يكتب الأول والآخر والأولى والأخرى ما دام لا يوجد ثالث أو ثالثة.

هذه الأخطاء أو الهفوات أو التجاوزات يمكن إغتفارها للمؤلف لا لأنها هيِّنة أو هامشية أو ضئيلة الشأن ولكن لأن خلف الله قدَّم رسالة/أطروحة (كتاباً) اتَّسمت بالإبداع والتجديد مع التمكُّن والإقتدار واقتحم بشجاعة نادرة وجرأة عديمة النظير ميداناً شائكاً وحقلاً ملغوماً ولم يتردد أو يتهيَّب. نحن اختلفنا معه في عدد من أفكاره وذكرنا أنه أمسك عن الإقتحام في بعضها ولم يكمِّل الشوط أو يمشي حتى نهاية المضمار وترك الشطر الثالث لذكاء القارىء وفطانته ولو أنه معذور فيه.

ومع ذلك فلا نملك إلا أن نحييه ونشكره ونشعر نحوه بالإمتنان. والتحليل الموضوعي والنقد اللذان قدَّمناهما يشدان من أُزر الأُطروحة ولا يوهنان من قدرها لأن النقد الموضوعي في نظرنا إضافة إيجابية للمنقود وتنويهٌ بشأنه، ومهما يكن فإن كتاب (الفن القصصي) يُعتبر (علامة) في طريق الفكر المستنير.

الدقي في يوم الجمعة الموافق ٢٧ ربيع الآخر ١٤١٩هـ ـــ ٢١ أغسطس ١٩٩٨م.

خليل عبد الكريم